ألدوس هكسلي

الجزيرة

ترجمة : سامي خشبة




الجزيرة

* ألدوس هكسلي: الجزيرة.
* **الطبعة العربية الأولى، ١٩٨٣.**

دار التنوير للطباعة والنشر.
ص. ب. ٦٤٩٩ ــ ١١٣ بيروت ــ لبنان.
الصنوبرة ــ أول نزلة اللبان ــ بناية عساف.

ألدوس هكسلي

الجزيرة



ترجمة: سامي خشبة

تقديم الترجمة

ربما لم تكن هذه الرواية، التي كتبت عام ١٩٦٩، هي آخر ما أبدعه أدباء الغرب المفكرون من رؤى تحاول تجسيد حلم: «المدينة الفاضلة». ولكن ليس هناك شك في أن مدينة ألدوس هكسلي ــ أو جزيرته ــ الفاضلة، تتفرد بخصائص فنية وفكرية تضعها في مصاف أجمل رؤى المدن الفاضلة في القرن العشرين، رغم أنها أكثرها تشاؤماً.

«جزيرة» هكسلي الفاضلة ــ وهي آخر ما كتبه قبل وفاته مباشرة ــ والتي تصورها واقعة منعزلة عن العالم في مكان بعيد من خليج البنغال شرق الهند، متحصنة وراء تيارات المحيط وأعاصيره الهوج. وراء سواحل صخرية معادية.. هذه الجزيرة لاتستطيع أن تعيش ــ في العالم الحديث ــ بعيداً عن العالم، مثلما كانت «مدن» الرؤى التي كُتبت في عصر النهضة الأوروبية أو عصر التنوير؛ ولا هي منسوجة من تأملات ذهن نبيل عظيم مثلما فعل أفلاطون أو الفارابي. ففي هذا العصر، الذي نعرف كم تحتويه وتضغطه وتتخلله وسائل جمع المعلومات ووسائل قهر الارادة والاستيلاء على الثروات والعقول في هذا العصر، يصعب أن يخلق الكاتب رؤيته من تأملاته المجردة، كما يصعب أن يتصور الكاتب جزءا من العالم ما يزال ــ أو يستطيع أن يظل حراً حرية الأرض البكر حينما خلقه الله وأنزل فيها خليفته المختار.

في هذا العصر ــ إذا عدنا إلى مادة جزيرة هكسلي ــ هناك شركات البترول العالمية بمطامعها الاقتصادية وأجهزة تلصصها وما تملكه من وسائل وما تخلقه من امكانيات للنفاذ إلى «قلب» أي أرض غير محصنة؛ وهناك «المؤامرات» المحبوكة من خيوط الدعاية والمصالح الأنانية والهوس الفكري؛ وهناك مطامع صغار الطغاة ونزوعهم نحو العظمة المجنونة تستغلها ــ وتستغلهم ــ الامبراطوريات المعاصرة، السياسية والاقتصادية، والفكرية،

لتصدير الفوضى، أو لتصدير الفساد، أو لتصدير التعصب، والهدف واحد، وعادي: بترول الجزيرة وسوقها وموقعها الاستراتيجي.

ولكن هناك خصوماً آخرين للمدينة الفاضلة في عصرنا، يعتقدون أنه ليس من حق جزيرة صغيرة أن تزهو ـ رغم تواضعها ـ بتجربتها الفريدة، وليس من حق ناس مثل هذه الجزيرة أن يعيشوا في سعادة القناعة والحكمة وحب الطبيعة والعلم والعمل والاكتفاء بالضروريات الوفيرة، والبحث عن «الكماليات» في الحب والعبادة والفلسفة والبحث العلمي والرياضة.. بينما العالم كله يعيش تعاسة عدم الاشباع مهما توافرت له الامكانيات التي تهدر دائمًا فيما يزيد الشقاء.

ولكن تشاؤم «جزيرة» هكسلي، تشاؤم قصير المدى، لأنك تنتهي من الرواية وأنت مؤمن بأن الناس الذين تخللت حكمتهم نسيج وجودهم، ولم يبالوا بالقوة الغاشمة التي تريد أن تستبيحهم، لن يخسروا حكمتهم ولا قدرتهم على المقاومة حينما تهرس الدبابات المستوردة من الشرق، بأموال دفعتها شركات الغرب، لحساب طاغية صغير مجنون بالعظمة والفساد؛ وتشعر أنهم هم الذين سوف ينتصرون في النهاية، انتصاراً يقوم على قدرتهم على صيانة حكمتهم، مصدر سعادتهم الحقيقي.

أما نسيج وبنيان الجزيرة الفاضلة، القائم على الامتزاج بين «كميات» محسوبة من تكنولوجيا الغرب، وتصوف الشرق، وعدالة البدائيين، ونزاهة الفلاسفة، وصلابة الرياضيين، وجدية العلماء، وتهكم أهل الفن... أما هذا النسيج والبنيان فهو السر الأول لجمال هذه «الجزيرة» الفريد والوعي الممتع الذي تمنحه لمن يرتحل فيها. وسرها الثاني، وهو ما بدأنا به الكلام، هو «دراما» الصراع الذي لم تعشه أية مدينة فاضلة قبل هذه الجزيرة.. بينها وبين العالم المعادي، القوي، البائس، الذي يحيط بها!!.

«حينما نقيم مثلاً أعلى فإننا نفترض ما نرغب فيه، ولكن ينبغي أن نتجنب المستحيلات»

أرسطو

الفصل الأول

«انتباه»

هكذا بدأ صوت ما ينادي وكأنما لو أن إحدى آلات «الاوبوا» الموسيقية قد أصبحت فجأة متكلمة مبينة، وردد الصوت بنفس النغمة الانفية الرتيبة المرتفعة: «انتباه، انتباه».

استيقظ ويل فارنابي دفعة واحدة وهو يرقد في مكانه كالجثة وسط أوراق الشجر الميتة، وقد تشعث شعره، وملأت وجهه الكدمات والندوب، وتمزقت ملابسه وغطاها الوحل. كانت موللي قد نادته. . حان وقت النهوض. حان الوقت لكي يرتدي ملابسه. يجب ألّا يتأخر في الوصول إلى المكتب.

قال : «شكراً يا حبيبتي» وجلس في مكانه. فاجأه ألم حاد في ركبته اليمنى. وكانت هناك أنواع أخرى من الآلام في ظهره وذراعيه ووجهه. «انتباه» ردد الصوت باصرار دون أدنى تغيير في نغمته. نظر ويل حوله وهو يستند على مرفقه. نظر بانزعاج إذ لم يرَ ورق الجدران الرمادي والستائر الصفراء في غرفة نومه في لندن، وإنما رأى ثغرة مفتوحة بين الاشجار، والظلال الطويلة وأشعة الضوء المستقيمة في صباح باكر وسط إحدى الغابات. «انتباه؟».

ــ «لماذا قالت انتباه؟».

وردد الصوت باصرار: «انتباه، انتباه» باللغرابة، باللعبث!

نادى متسائلاً: «موللي، موللي؟» وبدا كما لو أن الاسم قد فتح نافذة داخل رأسه، فجأة، ومع ذلك الاحساس المعتاد المفزع بالتقلص في تجويف المعدة، شم أنفه رائحة الفورمالدهايد، ورأى الممرضة الضئيلة المندفعة تسرع أمامه على طول الممر الاخضر،

وسمع الصرير الجاف الصادر من ملابسها المنشاة. كانت تقول: «رقم خمسة وخمسين» ثم توقفت وفتحت باباً أبيض اللون. دخل، وكانت موللي هناك فوق سرير مرتفع أبيض؛ موللي والضمادات تغطي نصف وجهها والفم مفتوح متدلي الفك مثل كهف كبير، ناداها قائلاً: «موللي. . موللي». ولقد تكسر صوته. وكان يبكي، وكان يدعوها برجاء: «ياحبيبتي!» ولم تأته إجابة. فمن الفم الفاغر كانت تخرج الأنفاس السريعة الضحلة محدثة صوتاً مسموعاً مرة بعد مرة «حبيبتي. . حبيبتي». ثم فجأة دبت الحياة للحظة في اليد التي كان يمسك بها. ثم سكنت مرة أخرى. قال: «هذا أنا . . ويل». تصلبت الأصابع مرة أخرى. وببطء، وبجهد كان من الواضح أنه جهد هائل، أطبقت الأصابع على يده، وضغطت عليها للحظة واحدة ثم تراخت مرة أخرى، منسحبة من الحياة.

نادى الصوت اللاإنساني: «انتباه، انتباه».

كانت مجرد حادثة . هكذا أسرع يؤكد لنفسه. كان الطريق مبتلاً. . وقد انزلقت السيارة عبر الخط الابيض. كانت إحدى تلك الحوادث التي تقع باستمرار، وقد نقل هو أخبارها بالعشرات: «أم وثلاثة أطفال يقتلون في تصادم مباشر». . ولكن لم يكن هذا هو المقصود. . المقصود هو أنها قد سألته إذا كانت هذه هي النهاية حقاً. وقد قال هو نعم. المقصود هو أنها بعد أقل من ساعة من خروجها تحت المطر بعد ذلك اللقاء الاخير المخجل، كانت موللي في مستشفى الحوادث، تحتضر. لم يكن قد نظر إليها عندما استدارت لترحل. لم يكن قد جرؤ على أن ينظر إليها. كانت نظرة أخرى إلى ذلك الوجه المعذب الشاحب أكثر بكثير مما يمكن أن يحتمل. كانت قد نهضت تاركة مقعدها، وكانت تتحرك ببطء عبر الحجرة. تتحرك ببطء خارجة من حياته. ألم يكن عليه أن يناديها لكي تعود، وليسألها غفرانها، ولكي يقول لها إنه لايزال يحبها، هل أحبها على الاطلاق؟ وللمرة المائة دعاه صوت الاوبوا المتكلمة المبينة إلى الانتباه.

أجل، هل أحبها على الاطلاق حقاً؟.

«إلى اللقاء، يا ويل» كذلك جاء همسها الذي ما زال يذكره، بينما كانت تلتفت إلى الخلف وهي على عتبة الباب. إذن فقد كانت «هي» التي قالتها ــ في همس ــ ومن أعماق قلبها. «مازلت أحبك يا ويل ــ رغم كل شيء».

وبعد لحظة أخرى أغلقت باب الشقة خلفها دون صوت تقريباً. . سمع دقة المزلاج الجافة الخافتة. كانت قد رحلت. وكان هو قد قفز واقفاً، ولقد جرى إلى الباب الامامي وفتحه. وقد أصغى إلى صوت وقع الأقدام المتباعدة على الدرجات. ومثل شبح يقف عند «خيال المآتة» ظلت رائحة واهنة لعطر يعرفه تتطاير متلاشية في الهواء. أغلق الباب ثانية وسار إلى غرفة نومه ذات اللونين الرمادي والاصفر. نظر إلى الخارج من النافذة. مرت

بضع ثوان ثم رآها تعبر الرصيف وتدخل السيارة. سمع صدمة الموتور عند تشغيله في البداية. مرة، مرتين، ثم أزيز الموتور المتتالي. أكان عليه أن يفتح النافذة؟

«انتظري، مولي، انتظري». كذلك سمع نفسه يصيح في الخيال. ولكن النافذة لم تفتح وبدأت السيارة تتحرك، واستدارت حول الناصية، وأصبح الشارع خالياً. كان قد تأخر جداً. تأخر جداً، الحمد لله! كذلك قال صوت ساخر غليظ. نعم، الحمد لله! ومع ذلك كان الاحساس بالذنب هناك عند تجويف معدته. الاحساس بالذنب، الألم الممزق المستمر لندمه. ولكنه في ثنايا الندم، كان يستطيع أن يشعر بنوع مرعب من الابتهاج. شخص ما، وضيع وداعر ومتوحش. شخص ما شاذ وممقوت، الذي كان هو نفسه مع ذلك، كان يفكر بابتهاج في أنه لم يعد هناك الآن ما يمنعه من الحصول على ما أراده وكان ما أراده نوعاً مختلفاً من العطر.

أراد دفء جسد أكثر شباباً وعنفوانه المرن. «انتباه»: كذلك قالت الاوبوا. أجل، انتباه. انتباه لغرفة نوم «بابز» العبقة بأريج المسك. بفراشها الوردي في لون الفراولة، ونافذتيها المطلتين على شارع «تشيرينج كروس» اللتين ينفذ منهما طوال الليل بريق متلاحق صادر من الاعلان الضوئي الكبير المرتفع في السماء يعلن عن مشروب «جين بورتر» في الجهة المقابلة من الشارع. الجين بلون الارجوان الملكي. ولمدة عشر ثوان كان الفراش يصبح مثل القلب المقدس. لمدة عشر ثوان خارقة كمعجزة يصبح الوجه المصطبغ بالحمرة شديد القرب من وجهه المتوهج مثل وجه الملاك، متغير الملامح، كأنما بتأثير نار العشق الداخلية. ثم أتى التغير الأكثر عمقاً الذي يحدثه الظلام.. واحد، اثنان، ثلاثة، اربعة.. آه، يا الله، اجعل هذا الظلام يستمر إلى الأبد! ولكن عندما يصل العد إلى رقم العشرة بالتحديد، ستقوم الساعة الكهربائية بكشف آخر ولكنه كشف عن الموت. عن رعب الوجود الازلي. ولأن الاضواء هذه المرة كانت خضراء، فإن مخدع «بابز» الوردي يصبح لمدة عشر ثوان كريهاً كمثل رحم من الطين. وعلى الفراش، تصبح «بابز» نفسها مثل جثة ملوثة، جيفة مطلية بالمعدن لكي تثبت على جمود ما بعد الموت. حينما كان «جين بورتر» يعلن عن نفسه بالضوء الاخضر، كان من الصعب أن ينسى المرء ما حدث ومن يكون هو. كان الشيء الوحيد الذي يمكن عمله هو أن يغلق المرء عينيه، وينغمس إلى عمق أبعد، إذا كان باستطاعته، في العالم الاخر الذي تصنعه الشهوة الحسية، ينغمس بعنف، ينغمس عامداً وسط أنواع السعار المستلبة التي كانت غريبة كل الغرابة بالنسبة لمولي المسكينة: مولي (انتباه) الغارقة وسط ضماداتها، مولي الغائبة داخل قبرها الرطب في هاي جيت. وهاي جيت بالطبع كان هو السبب الذي يدفع المرء إلى أن يغلق عينيه في كل مرة يحول فيها الضوء عري «بابز» إلى جثة باردة. وليست مولي وحدها. فمن خلف أجفانه المغلقة، رأى ويل أمه، شاحبة مثل صورة محفورة على الحجر وجهها تجلّله روحانية مستمدة

من عذابها الذي تتقبله راضية. وقد أصبحت يداها غير إنسانية مثل أيدي الوحوش بفعل التهاب المفاصل. هذه هي أمه جالسة على مقعدها المتحرك، ومن ورائها تقف أخته «مود» التي بدأت تسمن بالفعل وتنتابها الرعشة في الساقين والقدمين بفعل كل المشاعر التي لم تجد التعبير الصحيح عنها أبداً في الحب المتحقق المكتمل. «كيف يمكنك ذلك يا ويل؟».

«أجل ، كيف يمكنك؟» كذلك رددت «مود» في صوتها «الكونتر ـ التو» المرتعش.

لم تصدر عنه إجابة عن السؤال.. كان يمكن القول بأنه لا إجابة يمكن أن يصوغها بأية كلمات ويستطيع أن يلفظها في حضورهما. لا إجابة يمكن حين يلفظها أن تفهمها هاتان الشهيدتان المعذبتان، الأم بزواجها التعيس والابنة بطاعتها البنيوية العمياء. لا إجابة يمكن أن تصاغ إلا بأقصى قدر من الكلمات الموضوعية العلمية الفاحشة، وبأقصى قدر من الصراحة التي لايمكن مواجهتها.. كيف أمكنه أن يفعل ذلك؟ لقد أمكنه أن يفعله، لقد اضطر أن يفعله بسبب كل الأهداف العملية، لأنه... طيب، لان «بابز» كانت تتمتع ببعض المميزات الجسدية التي لم تكن مولي تمتلكها، وكانت تتصرف في لحظات معينة بطرق لم تكن مولي تظن أنه يمكن التفكير فيها.

وأطبق على المكان صمت طويل. ولكن فجأة، عاد الصوت الغريب إلى لازمته القديمة:

«انتباه، انتباه»

انتباه إلى مولي، انتباه إلى مود وإلى أمه، انتباه إلى بابز.. وفجأة برزت ذكرى ثانية من وسط الضباب والغموض والاضطراب.. لقد آوى مخدع بابز الوردي بلون الفراولة ضيفاً آخر، وكان جسد صاحبة المخدع يرتعش بنشوة تحت ملاطفات شخص آخر. أضيف إلى الشعور بالذنب الكامن في تجويف المعدة انقباض يعتصر القلب، واختناقة تمسك بالحلق.

«انتباه»

جاء الصوت من مكان أقرب. كان ينادي من موقع ما مرتفع إلى اليمين. أدار رأسه وحاول أن يرفع نفسه لكي يلقي نظرة أفضل. ولكن الذراع التي كانت تسند ثقله بدأت ترتعد ثم تهاوت فسقط ثانية بين أوراق الشجر. كان متعباً إلى درجة تمنعه من الاستمرار في التذكر. رقد في مكانه لمدة طويلة يحدق إلى أعلى من خلال أجفانه نصف المطبقة، ينظر إلى العالم غير المفهوم الذي يحيط به. أين كان وكيف بحق الله وصل إلى هناك؟ لم يكن لذلك أية اهمية. في هذه اللحظة لم يكن لاي شيء أية أهمية باستثناء هذا الالم، وهذا الضعف المميت. على أية حال، لمجرد أن للموضوع أهمية علمية.. هذه الشجرة، على سبيل المثال التي وجد نفسه «لسبب مجهول» راقداً تحتها، وهذا الجذع ذو اللحاء الرمادي والنتوءات البارزة، مرتفع، حامل أغصانه التي تتخللها الشمس لابد أن يكون شجرة

زان. ولكن في تلك الحالة ــ وقد أعجب ويل بنفسه لأنه منطقي إلى هذه الدرجة ــ في تلك الحالة لايحق للاوراق أن تكون دائمة الخضرة إلى هذه الدرجة من الوضوح. ولماذا ترسل شجرة زان جذورها متعرجة إلى أعلى بهذا الشكل فوق سطح الأرض، وتلك الدعامات الخشبية غير المنطقية، التي تستند إليها شجرة الزان المزعومة ــ أين يمكن لتلك الدعامات أن تتناسب مع الصورة؟ وفجأة تذكر ويل أسوأ ما يحفظه من أبيات الشعر «إنك تسأل، عمن يعتمد في تلك الأيام الرديئة على عقلي؟» الاجابة: الدماء المتخثرة يا إيرلي دالي وهي التي بسطت سيطرتها نهائيا على التلال التي كانت مأوى للصوص.. كذلك فعلت الفراشات السابحة هناك في ضوء الشمس الشبيه بالزبد. لماذا تبدو هذه الفراشات كبيرة إلى هذا الحد، زرقاء لازوردية أو بنفسجية داكنة إلى هذه الدرجة، كبيرة العيون مبرقشة بهذا التعدد؟ قطرة من الصمغ الاحمر تبرز من قلب ثمرة تشبه الجوز، كالفضة منثورة فوق الزمرد، فوق الياقوت المتعدد الالوان، فوق جواهر السافير.

«انتباه».

صاح ويل فارنابي قائلًا: «من هناك؟» بنغمة كان ينوي أن تكون مرتفعة قاطعة، ولكن كل ما خرج من فمه كان بحة مرتعشة رفيعة. وأطبق صمت طويل، بدا أنه صمت يملؤه نذير خطير. ومن الثغرة الموجودة بين اثنتين من دعامات الشجرة الخشبية، برزت حشرة «أم أربع وأربعين» سوداء ضخمة الحجم أمام ناظريه للحظة واحدة، ثم أسرعت تبتعد على مجموعة سيقانها القرمزية ذات الصفوف، فاختفت داخل حرش آخر تحت الجذع المغطى بالنتوءات.

وصاح بصوته المبحوح مرة أخرى «من هناك؟».

سمع حفيفاً وسط الأغصان عن شماله، وفجأة ومثلما تندفع دمية الببغاء من الساعة الخشبية الدقاقة اندفع إلى الخارج طائر أسود كبير الحجم، في حجم طائر الزاغ أو الغراب الكبير ــ كل ما في الأمر ــ ولسنا بحاجة إلى أن نقول ــ إنه لم يكن غراباً. وصفق الطائر بجناحيه ذوي الاطراف البيضاء، واندفع منخفضاً عبر المسافة بين الاغصان، ثم حطّ على أدنى أغصان شجرة صغيرة ميتة، على مسافة لاتزيد عن عشرين قدماً من المكان الذي كان ويل يرقد فيه. لاحظ ويل أن منقاره كان برتقالي اللون، وأن تحت كل من عينيه كانت تبدو رقعة صفراء عارية من الريش، وزوائد لحمية مختلفة الالوان تغطي جوانب رأسه وقمتها بكتلة سميكة من اللحم العاري. هزّ الطائر رأسه ونظر إليه أولاً بعينه اليمنى، ثم باليسرى. وبعد ذلك فتح منقاره البرتقالي، وأطلق صفيراً من عشر أو اثنتي عشرة نغمة من السلم الخماسي، فأصدر ضجيجاً يماثل ما يصدر عن شخص مصاب بالفواق، ثم قال في لهجة غنائية مثل: «دو دو، صول، دو»: «هنا والآن يا أولاد، هنا والآن يا أولاد.»

ضغطت هذه الكلمات على زناد خفي ، وفجأة تماماً تذكر كل شيء. إنه الآن في جزيرة «بالا»[1]. الجزيرة المحرمة، المكان الذي لم يقم صحفي أبداً بزيارته من قبل. ولابد أنه الآن في الصباح التالي للمساء الذي كان فيه من البلاهة بحيث أبحر في قارب صغير وحيداً، خارج ميناء أمارة «ريندانج-لوبو» وتذكر كل شيء: الشراع الأبيض تجوفه الرياح وتجعله يتخذ شكل زهرة الماجنوليا، والمياه تصطخب عند المقدمة، وبريق الماس يتلألأ على رأس كل موجة، والاعماق المظلمة تحت الموجة تجعلها تبدو مثل الكريستال المتكسر. وإلى الشرق عبر المضيق، ما كان أروع السحب ، وما كان أروع معجزات الكتل البيضاء المنحوتة فوق براكين بالا! وإذ كان يجلس في مكانه عند ذراع الدفة، اكتشف أنه يغني ـ اكتشف نفسه، غير مصدق، وهو في حالة إحساس واضح بالسعادة. لقد صاح في وجه الريح: «ثلاثة من أجل المنافسين». «اثنان، اثنان من أجل الاولاد الصغار ذوي الوجوه البيضاء، تغطيهم ملابس كلها خضراء. . أوه، الواحد هو نفسه، وهو الجميع بمفرده. .» أجل، الجميع بمفرده. الجميع بمفرده فوق جوهرة البحر الهائلة. «وهكذا سوف يكون الأمر إلى الأبد».

ولسنا بحاجة إلى القول بأنه قد وقع بعد هذا الشيء الذي حذره منه كل بحارة الزوارق الشراعية المتمرسين الحذرين. لقد انفجرت العاصفة السوداء من لا مكان، وانفجر معها جنون الامواج والمطر والريح اللامعقول والمفاجيء. .

غرد الطائر قائلاً: «هنا والآن يا أولاد، هنا والآن يا أولاد».

---

(١) بالا Pala ـ ربما استمد هكسلي اسم جزيرته الفاضلة من اسم الاسرة الحاكمة في جنوب الهند ـ من بين أسر عديدة ـ في الفترة بين القرنين الرابع والثالث عشر، وهي الفترة التي شهدت ذروة نضوج الفن الهندي. وقد أشار إليها الاستاذ هينريش زيمر عرضاً في كتابه «فلسفات الهند» (ص ٦٨، ٥٠٦، ٦١٧) وإليها يُنسب «فن بالا» وذكرها زيمر أيضاً ص ٦١٧. وربما استمد هكسلي اسم «بالا» من «قوانين بالي» التي ضمت تاريخ البوذا الأعظم «جوتاما» وتاريخ الحركة البوذية كلها من بعده والفرق والانقسامات والمجامع الكهنوتية التي صاغت أفكار ومبادىء هذه الفرق. وقد قام بكتابة «قوانين بالي» أو «القوانين الجامعة» مجمع العارفين الخمسمائة أو «مجمع الأرهات Arhats» الذي اجتمع في راجاجا العاصمة القديمة لمملكة ماجادها بعد موت بوذا. (زيمر ص ٤٩١ ـ ٤٩٤). وربما استمد اسم «بالا» أيضاً من الكلمة الايطالية «بالا Pala» التي تعني مذبح الكنيسة المكون من لوحة كبيرة ذات قطعة واحدة، حيث تحتل كل الشخصيات الماثلة وكل الحركات (إن كانت هناك أي حركات) مساحة واحدة متصلة دون اعتبار للمنظور ولا للمساقط المختلفة، على عكس المذبح المكون من أكثر من قطعة واحدة (Ancono أو Polypyche) حيث يحتل كل قديس وكل مشهد مساحة مستقلة منفصلة عن المساحات الاخرى. فيكون المعنى الرمزي لاسم «بالا» في الرواية هو: الوحدة التي تشمل تعدداً غير منقسم، أو التعدد الذي تشمله وحدة متناغمة مستوية في اتساق كامل. (راجع قاموس الفن والفنانين، بيتر وليندا ماري ـ بنجوين).

فكر في أن الشيءالحقيقي غير العادي هو أنه ينبغي أن يكون هنا، تحت الاشجار، وليس هناك في قاع مضيق بالا، أو ما هو أسوأ، ممزقاً إلى أشلاء متناثرة تحت مرتفعات الشاطىء الحجرية. ذلك أنه حتى بعد أن استطاع بمعجزة خارقة أن يدفع قاربه الغارق بين الامواج المتكسرة على الصخور وأن يرسو به على الشاطىء الرملي الوحيد على طول كل تلك الأميال الممتدة من شاطىء بالا الصخري ــ حتى بعد ذلك لم تكن محنته قد انتهت. كانت التلال الصخرية ترتفع من فوقه، ولكن هناك على رأس الخيج كان هناك شيء مثل واد رأسي ضيق شديد الانحدار يهبط منه جدول صغير تتهاوى مياهه في صورة مجموعة من الشلالات المتتابعة، وكانت الاشجار والادغال الصغيرة الكثيفة تنمو بين جدران الوادي الرمادية. كان عليه أن يتسلق التل الصخري لمسافة تتراوح بين ستمائة أو سبعمائة قدم. وهو يرتدي أحذية التنس، ومواقع قدميه مشبعة بلزوجة الماء. ثم كانت هناك، يا لطيف يا رب، تلك الثعابين. كان الثعبان الاسود ملتفاً على الغصن الذي يجذب نفسه إليه وبعد خمس دقائق كان الثعبان الأخضر الضخم راقداً فوق حافة الصخور، في نفس البقعة التي كان يتهيأ لكي يخطو فوقها. كان الرعب الأول قد تلاه رعب آخر أسوأ منه. أفزعته رؤية الثعبان فجأة، فسحب قدمه بعنف، فأفقدته هذه الحركة غير المحسوبة توازنه، أمسكت بخناقه المعرفة المفزعة بأن هذه هي النهاية، ولمدة ثانية واحدة طويلة مغثية راح ينزلق على الحافة ثم سقط. الموت، الموت، الموت. وحينئذ نبهه صوت انكسار الخشب فوجد نفسه متعلقاً بأغصان شجرة صغيرة وقد ملأت الخدوش وجهه، وجرحت ركبته والدماء تنزف منها، ولكنه حي. تحت وطأة الألم استأنف التسلق.. ركبته تؤلمه بفظاعة، ولكنه استمر في التسلق. ليس هناك بديل.. وحينئذ بدأ الصوت يخبو. في النهاية كان يتسلق المرتفع في الظلام تقريباً. يتسلق يدفعه الايمان. يتسلق يدفعه اليأس.

صاح الطائر: «هنا والآن يا أولاد».

ولكن ويل فارنابي لم يكن هناك ولا الآن. كان هناك فوق الصخور، كان لايزال غارقاً في لحظة السقوط المرعبة. خشخشت الأوراق الجافة من تحته، كان يرتجف. من الرأس حتى القدم كان يرتجف بعنف، عاجزاً عن السيطرة على نفسه.

= وربما كان في ذهن هكسلي أيضاً الاسم «باللاس» أحد أسماء أثينا، ربة الحكمة والعقل اليونانية، إذ أن هكسلي أقام مجتمعه الفاضل كما سنكتشف على اساس التوازن الذي يحققه الوعي للحياة.

الفصل الثاني

فجأة كف الطائر عن الكلام المبين وبدأ في الصراخ. صاح صوت إنساني قريب من الصراخ قائلاً: «ماييناه!» ثم أضاف يقول شيئاً بلغة لم يفهمها ويل. سمع صوت أقدام تخطو فوق الاوراق الجافة. ثم صيحة وتحذيراً صغيراً أطبق الصمت بعدها. فتح ويل عينيه فرأى طفلين فاتنين ينظران إليه، وقد اتسعت عيونهما الممتلئة بالدهشة والفزع المسحور. كان أصغر الطفلين صبياً صغير الحجم، في الخامسة أو ربما في السادسة من عمره، ولايرتدي إلاّ قطعة قماش خضراء صغيرة على خاصرته. وإلى جانبه وقفت فتاة صغيرة لا تكبره إلا بأربعة أو خمسة أعوام تحمل فوق رأسها سلة ملأى بالفاكهة. كانت ترتدي قميصاً قرمزي اللون يصل إلى عقبيها، ولكن صدرها وما فوق خصرها كان عارياً تماماً. كان جلدها يلمع في ضوء الشمس مثل نحاس شاحب اللون صُبغ بلون الورد. نقل ويل عينيه من أحد الطفلين إلى الآخر. كم كانا جميلين، لاتشوب جمالهما وبراءتهما شائبة، كم كانا رشيقين كمعجزة مثل جوادين أصيلين صغيرين. كان الصبي مثل مهر أصيل قوي مكتمل النمو، له وجه مثل وجه الملاك.. أما الفتاة فكانت نوعاً آخر من الأمهر الاصيلة، رقيقة الملامح، لها وجه أميل إلى الطول صغير هادىء تحيطه هالة من ضفيرتيها الداكنتين.

تعالت دفعة أخرى من الصراخ.. فالطائر وقف على شجرته الميتة وراح يتلفت بعصبية من ناحية إلى أخرى، ثم أطلق صيحة أخيرة وسبح في الهواء. ومدت الفتاة يدها تدعو الطائر دون أن ترفع نظرها عن وجه ويل.. خفق الطائر بجناحيه، وهبط وراح يضرب جناحيه بعنف حتى توازن على يد الفتاة، استمر ويل ينظر دون دهشة. فأي شيء كان الآن ممكناً، أي شيء. حتى الطيور المتكلمة التي قد تهبط على إصبع طفلة. حاول

ويل أن يبتسم لهما، ولكن شفتيه كانتا ما تزالان ترتجفان، فلابد أن ابتسامته التي كان يعني بها أن تكون إشارة ودية قد بدت مثل تقطيبة مخيفة، فقد اختبأ الولد الصغير خلف أخته.

كف الطائر عن التلفت وراح يكرر كلمة لم يفهمها ويل. «أكان يقول «رونا»؟ كلا، «كارونا» بالتأكيد «كارونا».

رفع يده المرتعشة وأشار إلى الفاكهة في السلة المستديرة. مانجو وموز. كان اللعاب قد شرع يبلل فمه الجاف.

قال: جوعان. ثم شعر بأن الطفل في هذه الظروف الغريبة قد يفهمه بصورة أفضل إذا لجأ إلى تقليد رجل صيني في إحدى المسرحيات الفكاهية الموسيقية، فقال مجتهداً: «أنا كحان خالص».

سأله الطفل بلغة انجليزية سليمة: «هل تريد أن تأكل؟».

ــ «نعم ــ آكل» وكرر يقول: «آكل».

قالت الفتاة: «انطلق يا مايناه!» ونفضت يدها. وأطلق الطائر صيحة احتجاج ثم عاد إلى غصنه فوق الشجرة الميتة. حركت الطفلة يديها إلى أعلى مثل حركة الراقصة ورفعت السلة من على رأسها وأنزلتها على الأرض. اختارت موزة، وقشرتها ثم تقدمت نحو الغريب، ممزقة بين الخوف والشفقة. أطلق الصبي بلغته غير المفهومة صوت تحذير وتعلق بقميصها. توقفت الفتاة في مكانها، وقالت كلمة لتهدئته، ثم مدت يدها بالثمرة وهي على بعد كاف من الخطر. سألته: «أتريدها؟» مد ويل فارنابي يده وهو ما زال يرتجف. وبحذر بالغ تقدمت نصف خطوة، ثم توقفت مرة ثانية، وحملقت فيه بروية وهي تنحني إلى الأمام.

قال وهو يطلق صيحة تدل على عدم الصبر: «أسرعي».

ولكن الفتاة لم تكن تترك له الفرصة ولا لنفسها. انحنت إلى الأمام وهي تحدق في يده خوفاً من أي علامة لحركة تثير الشك، ثم مدت يدها بحذر.

توسل إليها قائلاً: «لأجل خاطر ربنا».

ردت الطفلة باهتمام مفاجىء: «ربنا؟ أي رب؟ هناك كثير جداً من الأرباب».

أجابها نافذ الصبر: «أي رب تشائين».

أجابته: «لايروق لي أي واحد منهم. ولكن يعجبني من بينهم الرب الرحيم».

قال متوسلاً: «كوني رحيمة بي إذن واعطيني هذه الموزة».

تغير تعبير صوتها وهي تقول بلهجة اعتذار: «آسفة» وقفت معتدلة وخطت خطوة

سريعة إلى الامام واسقطت الثمرة في يده المرتجفة. قالت «هاك هي» وقفزت إلى الخلف لتبعد عن متناول اليد مثل حيوان صغير يتجنب الفخ. صفق الولد الصغير بيديه وأطلق ضحكة عالية. التفتت الفتاة إليه وقالت له شيئاً بلغتها غير المفهومة. أومأ برأسه المستدير وهو يقول «حاضر يا ريسة» وراح يعدو مبتعداً، وسط سحابة كثيفة من الفراشات الفضية والزرقاء، بين ظلال الغابة على الجانب الآخر من الثغرة المفتوحة بين الأشجار.

قالت توضح الموقف: «قلت لتوم كريشنا أن يذهب ليعود بشخص ما».

وانتهى ويل من موزته وطلب واحدة أخرى، ثم ثالثة. وحينما تلاشى إحساسه الملح بالجوع، شعر بالحاجة إلى اشباع فضوله وحبه للاستطلاع.

سألها: «كيف أتيح لك أن تتحدثي الانجليزية بهذه الجودة؟»

أجابت الطفلة: «لأن كل الناس يتكلمون الانجليزية»

ــ «كل الناس؟»

ــ «أعني، حينما لايتحدثون بالبالانية» وإذ وجدتْ أن الموضوع لايثير الاهتمام، فقد لوحت بيدها الصغيرة وراحت تصفر.

عاد الطائر يكرر مرة أخرى: «هنا والآن يا أولاد» ثم خفق بجناحيه فهبط من فوق غصن شجرته الميتة واستقر على كتفها. وقشرت الطفلة موزة أخرى اعطت ثلثيها لويل واعطت ما تبقى لطائر المايناه.

سألها ويل: «أهذا طائرك؟»

هزت رأسها. قالت: «طيور «المايناه» مثل ضوء البرق.. لايملكها أي انسان.»

ــ «ولماذا يقول هذه الأشياء؟»

أجابت بصبر: «لأن شخصاً ما علمه نطقها» وبدا في لهجتها أنها تقول لنفسها «ياله من جحش!» «ولكن لماذا يعلمونه «تلك» الأقوال؟ لماذا «انتباه»، «هنا والآن يا أولاد»؟

أخذت تبحث عن الكلمات الصحيحة التي تعبر بها عما هو واضح لهذا الغريب الأبله. ثم قالت: «حسناً.. هذا هو ما ننساه دائماً، أليس كذلك؟ أعني تنسى أن تنتبه إلى ما يجري من حولك. وهذا يساوي ألّا تكون هنـا الآن»

ــ «وطيور المايناه تطير من حولكم لكي تذكركم ــ أليس كذلك؟»

أومأت برأسها. فهذا هو بالطبع ما كان يعنيه تعليم الطائر تلك الكلمات. وأطبق الصمت. سألته: «ما اسمك؟»

وقدم ويل نفسه.

ــ «اسمي ماري ساروجيني ماك فيل».

سأل متعجباً: «ماك فيل؟» فقد بدا الاسم مما لايمكن تصديقه.

وأكدت له: «ماك فيل»

ــ «وأخوك الصغير يدعى توم كريشنا؟» فأومأت برأسها أن نعم.

فقال:

ــ «طيب. لقد ضعت!»

ــ «هل جئت إلى بالا بالطائرة؟»

ــ «لقد لفظني البحر ودفعني إليها»

ــ «جئت من البحر؟ ألديك قارب؟»

ــ «كان لدي واحد» وبعين خياله رأى ويل الامواج تتكسر على هيكل السفينة المجدول، سمع بأذنه الباطنية صوت تحطم الألواح. ولما لاحقته بالاسئلة أخبرها بما حدث. حكى لها عن العاصفة، وعن رسو القارب على الشاطىء، وعن كابوس تسلق المرتفع الصخري الطويل، وعن رعب السقوط... ثم بدأ يرتجف ثانية، بعنف أكثر من قبل.

أصغت ماري ساروجيني لحكايته بانتباه ودون تعليق. وحينما بدأ صوته يخبو حتى انقطع في النهاية تقدمت نحوه، وجثت على ركبتيها إلى جواره، بينما الطائر مازال متشبثاً بكتفها.

قالت وهي تضع يدها فوق جبهته «اسمع يا ويل. علينا أن نتخلص من هذا» كانت نغمة صوتها تدل على تمرسها وعلى سيطرتها الهادئة.

قال من بين أسنانه المصطكة:

ــ «أتمنى لو أعرف كيف؟»

رددت تسأله: «كيف؟ بالطريقة المعتادة بالطبع. أخبرني مرة ثانية بحكاية تلك الثعابين وكيف سقطْتَ إلى القاع»

هزّ رأسه وقال: «لا أريد ذلك»

قالت: «بالطبع أنت لاتريد ذلك ولكن عليك أن تحكي لي. اصغ إلى ما يقوله طائر المايناه»

كان الطائر ما زال يصيح: «هنا والآن يا أولاد. هنا والآن يا أولاد»

قالت مكملة: «أنت لا تستطيع أن تكون هنا والآن دون أن تتخلص من تلك الثعابين. إحكِ لي»قال وهو يكاد يبكي: «لا أريد ذلك. لا أريد أن أحكي»

قالت ماري ساروجيني بقسوة: «إذن فإنك لن تتخلص منها أبداً. سوف تظل تزحف وتدب داخل رأسك إلى الأبد تجزيك بما تستحق».

حاول أن يسيطر على ارتعاشاته، ولكن جسمه لم يعد طوعاً له. كان شخص آخر قد أصبح مالكاً لجسمه، شخص آخر كان قد قرر بسوء نية أن يذله وأن يعذبه.

كانت ماري ساروجيني تقول: «تذكر ما كان يحدث حين كنت صبياً صغيراً، وما كانت أمك تفعله حينما كنت تؤذي نفسك.»

كانت أمه تأخذه في مثل تلك اللحظة بين ذراعيها، وكانت تقول: «يا طفلي المسكين يا طفلي الصغير المسكين».

قالت الطفلة: «كانت تفعل ذلك..؟» وكانت تتكلم بلهجة من صدمته الدهشة «ولكن ذلك مخيف.. هذه هي الطريقة التي تؤدي إلى غرس الخوف داخلك. ورددت بسخرية: «ياطفلي المسكين؟ لابد أن الالم كان يستمر طوال ساعات. ثم لاتنساه بعد ذلك أبداً».

لم يعلق ويل فارنابي بشيء وإنما رقد مكانه صامتاً، تهزه ارتعاشات لايستطيع السيطرة عليها.

ـ «طيب، إذا لم تكن ستقوم بذلك بنفسك، فسوف أقوم به لأجلك». اسمع يا ويل: كان هناك ثعبان، ثعبان أخضر. وكنت أنت على وشك أن تخطو فوقه. كنت على وشك أن تخطو فوقه.. فملأك هذا خوفاً جعلك تفقد توازنك وسقطت.. والآن قل هذا بنفسك ـ قل»

همس طائعاً: «كنت على وشك أن أخطو فوقه، وحينئذ...» وعجز عن قولها ولكنه لفظ العبارة أخيراً بصوت لايكاد يسمع: «وحينئذ سقطت».

عاد إليه كل فزع السقوط. عصاب الخوف-الصدمة المؤلمة التي جعلته يفقد توازنه ثم الخوف الاسوأ والأكثر رهبة.. الصادر من اليقين القاتل من أن هذه كانت هي النهاية.

«قلها مرة أخرى»..

ـ «كنت على وشك أن أخطو فوقه.. وحينئذ..»

سمع نفسه يجهش بالبكاء..

ــ «هذا هو الصواب يا ويل. إبكِ. . ابكِ. . »

أصبح النحيب أنيناً، وإذ ملأه الخجل صرّ على أسنانه، فتوقف الأنين.

صاحت: «لا، لا تفعل ذلك. دع الأنات تخرج إذا كانت تريد ذلك. . اذكر ذلك الثعبان يا ويل. اذكر كيف سقطت».

انفجر الأنين مرة أخرى وبدأ يرتجف أكثر من قبل. .

ــ «والآن إخبرني بما حدث».
ــ «استطعت أن أرى عينيه. استطعت أن أرى لسانه يدخل ويخرج».
ــ «أجل، كان بوسعك أن ترى لسانه. ثم ماذا حدث بعد ذلك؟»
ــ «فقدت توازني. سقطت.»
ــ «قلها ثانية يا ويل». . كان يبكي فأصرت تقول: «قلها ثانية». . .
ــ «سقطت». .
ــ «ثانية». .

كان هذا الترداد يمزقه، ولكنه قال: «سقطت». .

كانت هي هادئة متمالكة نفسها ــ «ثانية يا ويل. ثانية». .
ــ «سقطت. سقطت. سقطت». .

خبا النحيب وتلاشى بالتدريج.

كانت الكلمات تخرج بسهولة أكبر، والذكريات التي أثارتها كانت أقل إيلاماً. .

كان يقول للمرة المائة: «سقطت».

هنا قالت ماري ساروجيني: «ولكنك لم تسقط إلى مسافة بعيدة جداً». .

فوافق قائلاً: «كلا. إنني لم اسقط إلى مسافة بعيدة جداً».

قالت الطفلة: ــ «إذن فلماذا كل هذه الضجة؟».

لم يكن هناك تهكم أو سخرية في لهجتها، حتى ولا أدنى إيماءة إلى اللوم. كانت فحسب تسأل سؤالاً مباشراً بسيطاً يستدعي إجابة مباشرة بسيطة. أجل، لماذا «كانت» كل هذه الضجة. إن الثعبان لم يلدغه، وهو لم يدق عنقه، وعلى أي حال. . فإن كل هذا قد وقع بالأمس. أما اليوم فقد كانت هناك تلك الفراشات، وهذا الطائر الذي يدعو المرء إلى الانتباه، وهذه الفتاة الغريبة التي تتحدث إلى المرء مثل العم القادم من هولندا والتي تبدو مثل ملاك خارجٍ من أسطورة في دين مجهول، وتعيش في منطقة تبعد خمس درجات من خط الاستواء، وتدعى في نفس الوقت، وصدق هذا أو لاتصدق. . ماك فيل. . وضحك

ويل فارنابي ضحكة مدوية.

صفقت الفتاة الصغيرة بيديها وضحكت هي الأخرى، وبعد برهة اشترك الطائر من فوق كتفها بـدفعة وراء دفعـة من الضحك الشيـطاني المدوي مـلأ أركان الثغـرة بين الاشجار.. وتردد صداه بين الجذوع.. حتى لقد بدا كما لو كان الكـون كله ينفجر ضـاحكاً ــ ويشق جنبيه قهقهة على نكتة الوجود الهائلة.

الفصل الثالث

فجأة قال صوت عميق: «طيب، أنا مسرور لأن الأمر مُسلٍّ إلى هذه الدرجة».

التفت ويل فارنابي، ورأى رجلاً ضئيل الحجم رشيقاً يبتسم له وهو يرتدي ملابس أوروبية ويحمل حقيبة سوداء. خمّن أن الرجل في الخمسينات من عمره. فتحت القبعة العريضة المصنوعة من القش، كان شعره كثاً أبيض اللون، ويا له من أنف منقاري غريب، والعينان يا لغرابة زرقتهما في الوجه الداكن السمرة.

سمع ماري ساروجيني تصيح: «جدي».

نقل الغريب نظره من ويل إلى الطفلة.

سألها: «ما الذي كان يضحككنا إلى هذا الحد؟»

قالت ماري ساروجيني: «طيب» ثم توقفت للحظة لكي تنظم أفكارها. «طيب، الحكاية أنه كان في قارب، وهبت عاصفة الامس فأغرقته ـ في مكان ما هناك. وبذلك كان عليه أن يتسلق المرتفع الصخري وكانت هناك بعض الثعابين، فسقط من المرتفع. ولكن كانت هناك شجرة لحسن الحظ وهكذا فإنه لم يصبه إلا الخوف. الامر الذي جعله يرتجف بشدة فأعطيته بعض الموز وجعلته يعيد تذكر ما حدث مليون مرة. ثم فجأة تماماً رأى أنه لم يكن هناك شيء يستحق الانزعاج. أعني أن كل شيء كان قد انتهى وكان قد انتهى هو من كل شيء. وهذا ما جعله يضحك وحينما ضحك ضحكت. وحينئذ ضحك طائر المايناه».

قال جدها موافقاً: «حسن جداً» ثم أضاف وهو يلتفت إلى ويل فارنابي: «والآن بعد المعونة النفسية الأولى، دعنا نرى ما يمكن أن نفعله للجسم، كيس اللحم والعظام

العجوز المسكين. أنا الدكتور روبرت ماك فيل، وعلى فكرة، من أنت؟»

وقبل أن يتمكن الشاب من الاجابة قالت ماري ساروجيني: «اسمه ويل. ولقبه «فار».. ثم شيء ما نسيته».

ـ «فارنابي بالتحديد. ويليام اسكويث فارنابي. يمكنك أن تخمن أن أبي كان ليبرالياً متحمساً ـ حتى حينما كان يفقد وعيه من السكر.» ثم أطلق ضحكة قصيرة خشنة مدوية .. بعيدة الشبه إلى درجة غريبة عن تلك القهقة الممتلئة العالية التي حيا بها اكتشافه أنه لم يحدث له ما يستحق الضجة.

سألته ماري ساروجيني باهتمام: «الا تحب أباك؟»

أجاب ويل: «لا أحبه أكثر مما ينبغي علي».

شرح الدكتور ماك فيل للطفلة إجابة ويل «ما يعنيه هو أنه كان يكره والده». ثم أضاف بطريقة أبوية: «وكثير منهم يكرهون اباءهم».

جلس الطبيب بمؤخرته على الأرض، ثم بدأ يفك اشرطة حقيبته السوداء.

قال للشاب من فوق كتفه: «كان أبوك واحداً من مستعمرينا القدماء، كما أظن.»

أكد ويل: «وقد ولد في بلو ـ مزبري».

راح الطبيب يحدد تصوره لوالد الآخر: «ينتمي إلى الطبقة العليا، ولكنه لم يكن عضواً في مؤسستها الحربية ولا في فصائل نبلاء الريف منها».

«صحيح. كان والدي محامياً وصحفياً وسياسياً. وهذا معناه أنه لم يكن يفعل ذلك إلا إذا لم يكن مشغولاً بسكره. أما أمي، فمهما بدا ذلك غير قابل للتصديق، فقد كانت ابنة لأحد رؤساء الشمامسة».

ثم ردد: «رئيس شمامسة» ثم ضحك ثانية مثلما كان يضحك على ذوق والده في اختيار أنواع البراندي التي يشربها.

نظر إليه الدكتور ماك فيل للحظة، ثم عاد ينتبه مرة أخرى إلى أشرطة الحقيبة.

قال الطبيب بلهجة توحي بالتجرد العلمي: «حينما تضحك بهذه الطريقة يصبح وجهك قبيح الشكل».

دهش ويل، فحاول أن يغطي إحساسه بالحرج بكلمة توحي بالطرافة. قال: «وجهي قبيح دائماً.»

ـ «بالعكس، إنه وجه جميل، إذا نظرنا إليه بطريقة بودليرية. إلا حينما تحب أن

تصنع ضجة مثل ضجة الضبع. لماذا تصنع تلك الأصوات الصاخبة؟»

قال ويل: «أنا صحفي، أنا «مراسلنا الخاص»، يدفعون لي أجري لكي أدور حول العالم فأرسل إليهم بأخبار الرعب التي أشاهدها ــ فأي نوع آخر من الضجة تتوقع مني أن أصنعه؟ كو ـ كو؟ جلا ـ جلا؟ بس ـ بس؟» وضحك ثانية، ثم أطلق واحدة من أقواله الذكية التي جربها كثيراً ونجح في استخدامها. قال: «إنني الرجل الذي لايكتفي بكلمة «أجل» إجابة على سؤاله».

قال الدكتور ماك فيل: «ظريف. ظريف جداً. ولكن لنهتم الآن بالعمل.»

وأخرج من حقيبته مقصين، وبدأ يمزق ساق السروال المتهتكة المصبوغة بالدم التي تغطي ركبة ويل الجريحة.

رفع ويل فارنابي عينيه ونظر متعجباً، وتساءل وهو ينظر عن مقدار ما بقي في هذا الاسكتلندي سليل سكان المرتفعات الشمالية من دماء اسكتلندية، ومقدار ما فيه من دماء بالانية. لم يكن ثمة مكان للشك في العينين الزرقاوين أو في الانف المستقيم. أما البشرة السمراء، واليدان الرقيقتان ورشاقة الحركة ــ فقد جاءت هذه بالتأكيد من مكان ما يبعد مسافة كبيرة إلى الجنوب من اسكتلندا، حيث يصنعون من الصوف قماش التويد.

سأله: «هل ولدت هنا؟»

أومأ الطبيب مؤكداً: «في شيفا بورام. في يوم جنازة الملكة فيكتوريا.»

سمعت ضربة أخيرة من المقص، تسقط ساق السروال، كاشفة ركبة ويل. كان تشخيص الدكتور ماك فيل بعد فحصه الأولي الدقيق أن قال: «قذر. ولكن لا أظن أن هناك أي خطر». ثم التفت إلى حفيدته وقال: «أود لو عدت جرياً إلى المركز لتطلبي من فيجايا أن يأتي إلى هنا مع رجل آخر. قولي لهم أن يأتوا بنقالة من عيادة الحوادث».

«أومأت ماري ساروجيني، ونهضت واقفة دون كلمة، واسرعت مبتعدة عبر الثغرة القائمة بين الاشجار. . نظر ويل من الخلف إلى الجسم الصغير وهو يبتعد ــ والقميص الأحمر يتأرجح من جانب إلى آخر، والبشرة الناعمة للنصف العلوي من الجسم تلمع بمزيج من اللونين الذهبي والوردي في ضوء الشمس.

قال للدكتور ماك فيل: «لك حفيدة ممتازة جداً»

بعد صمت قصير قال الطبيب: «كان والد ماري ساروجيني هو أكبر ابنائي. مات منذ أربعة أشهر ــ حادث من حوادث تسلق الجبال».

أعرب ويل عن تعازيه وتعاطفه في همهمة غير واضحة، ثم ساد الصمت مرة أخرى.

فتح الدكتور ماكفيل زجاجة من الكحول ومسح يديه.

قال محذراً: «سيؤلمك هذا قليلاً. واقترح أن تصغي إلى هذا الطائر» ولوح بيده في اتجاه الشجرة الميتة، التي كان طائر المايناه قد عاد إليها بعد رحيل ماري ساروجيني.

ــ «اصغ إليه بانتباه. اصغ بتركيز. سيمنع هذا عقلك من الاحساس بالألم».

أصغى ويل فارنابي. كان طائر المايناه قد عاد إلى ترديد كلماته الأولى.

كانت الاوبوا المتكلمة تنادي: «انتباه. انتباه»

أراد أن يحصل على إجابة أكثر وضوحاً من تلك التي حصل عليها من ماري ساروجيني فسأل: «انتباه من اجل ماذا؟».

قال الدكتور ماك فيل «من أجل الانتباه».

ــ «انتباه من أجل الانتباه؟»

ــ «بالطبع».

فردد طائر المايناه بتأكيد ساخر: «انتباه».

ــ «ألديكم الكثير من هذه الطيور المتكلمة؟»

ــ «لابد أن يكون هناك ألف منها على الأقل تطوف بالجزيرة في طيرانها. كانت هذه هي فكرة الراجا القديم. فكر في أنها قد تفيد الناس. وربما كانت تفيدهم، رغم أنها تبدو كفكرة غير عادلة بالنسبة لطيور المايناه المسكينة. ومع ذلك، فمن حسن الحظ أن الطيور لا تفهم الأحاديث المثيرة. حتى ولا طيور الحسون أو العصافير الملونة. يا لجرأة هذا إذا حدث. لماذا لا يستطيع الانسان أن يغلق فمه ويترك الطيور لتتولى عملية وعظه وإرشاده».

ثم أضاف بنغمة أخرى: «يجمل بك أن تبدأ الاصغاء إلى صديقنا فوق الشجرة. فسوف أشرع في تنظيف هذا الشيء».

«انتباه».

ــ «هاهو يبدأ»

طرف الرجل بعينه وعض على شفته.

«انتباه. انتباه. انتباه».

أجل، كان ذلك صحيحاً تماماً. فإذا أصغيت بانتباه كافٍ، فلن يكون الألم شديداً جداً.

- اه. انتباه».

قال الدكتور ماكفيل وهو يمد يده إلى الحقيبة ليأخذ الضمادة: «كيف استطعت أن تصعد ذلك التل الصخري؟ لايمكنني أن أتصور ذلك».

استطاع ويل أن يضحك. قال: «أتذكر البداية في رواية «ايرهون»؟ كانت العناية الالهية إلى جانبي مثلما كان الحظ في صفها».

تعالت بعض الأصوات من الجانب الآخر من الثغرة بين الاشجار. أدار ويل رأسه فرأى ماري ساروجيني تبرز من بين الاشجار، وقميصها الأحمر يتأرجح بينما تتحرك إلى الامام ووراءها سار رجل مثل تمثال برونزي ضخم عاري الصدر حتى الخصر حاملاً فوق كتفه عصوين قويتين من الخيزران ملفوفتين في قماش نقالة خفيفة، وراء هذا العملاق جاء فتى مراهق نحيف داكن البشرة يرتدي سروالاً قصيراً أبيض اللون.

قال الدكتور ماكفيل بينما كان التمثال البرونزي يقترب: «هذا هو فيجايا بهاتا شاريا؛ إنه مساعدي».

- «في المستشفى؟».

هز الدكتور ماكفيل رأسه وقال: «إلا في الطوارىء. فأنا لم أعد أمارس المهنة. أنا وفيجايا نعمل سويا في المحطة الزراعية التجريبية. ومورروجان ميلندرا» ولوّح بيده في اتجاه الصبي الداكن البشرة «يعمل معنا بصورة مؤقتة ليدرس علوم التربية وتربية النباتات».

خطا فيجايا خطوة جانبية، ووضع يده الضخمة على كتف رفيقه، ودفعه إلى الأمام. وإذ نظر ويل إلى الوجه الجميل للفتى المتجهم، تعرف فجأة، بدهشة، على الشاب المتأنق الثياب الذي كان قد قابله منذ خمسة أيام في مدينة ريندانج - لوبو، وركب معه في سيارة الكولونيل المرسيدس البيضاء في رحلة حول الجزيرة كلها - ابتسم ويل، وفتح فمه ليتكلم. ولكنه منع نفسه من الكلام. هزّ الصبي رأسه هزة خفية ولكن لا مجال فيها للشك ورأى ويل في عينيه تعبيراً يدل على التوسل الحار. وتحركت شفتا الصبي دون صوت كما لو كان يقول: «أرجوك، أرجوك». وتحكم ويل مرة أخرى في تعبير وجهه».

قال في لهجة رسمية عادية: «كيف حالك يا سيد ميلندرا».

بدت على مورروجان الراحة الماثلة ثم قال وهو ينحني انحناءة صغيرة: «كيف حالك».

تلفت ويل حوله ليرى إن كان الآخرون قد لاحظوا ما حدث ورأى أن ماري ساروجيني وفيجايا كانا مشغولين بالنقالة بينما كان الطبيب يعيد ربط حقيبته السوداء. كانت

المهزلة الصغيرة قد مثلت دون متفرجين. كان من الواضح أن لموروجان الشاب أسبابه التي تجعله يرغب في ألّا يعرف أحد أنه كان في ريندانج. سيظل الصبيان صبياناً. بل أن الصبيان قد يصبحون فتيات. فقد كان الكولونيل ديبا يتصرف بطريقة أكثر من الطريقة الابوية تجاه الصغير الذي يحتمي به، أما موروجان فقد كان يتصرف مع الكولونيل بطريقة تزيد قليلاً عن طريقة تصرف الابن مع أبيه ـ كان من الواضح أنه يعبده بحماس أكانت مجرد عبادة للأبطال، مجرد إعجاب تلميذ برجل قوي قام بثورة ناجحة، وصفى المعارضة ونصّب نفسه ديكتاتوراً؟ أم أن هذه العبادة تتضمن نوعاً آخر من الأحاسيس، أكان موروجان يلعب دور الغلام (انتونيوس) لهذا (الهادريان) الاسود الشارب؟ طيب، إذا كان هذا هو احساسه ازاء رجال العصابات العسكريين متوسطي العمر، فقد كانت هذه هي ميزته وإذا كان رجل العصابات يحب الصبيان الوسماء، فقد كانت «هذه» هي ميزته. واستمر ويل في تفكيره فقال لنفسه، إنه ربما كان هذا هو السبب الذي جعل الكولونيل يخشى أن يعرف ويل باسم صديقه كاملاً فاكتفى بأن قال: «هذا هو مورو» حينما دخل الصبي مكتب الرئيس. قال الكولونيل: «صديقي الشاب مورو» ثم نهض ووضع ذراعه حول كتفيّ الصبي وقاده إلى الاريكة وجلس إلى جانبه.. وسأله موروجان: «هل لي أن أقود المرسيدس؟»، فابتسم الديكتاتور بتسامح وأومأ برأسه الاصلع. وكان هذا سبباً آخر للظن بأن هذه العلاقة الغريبة إنما تتضمن أكثر من مجرد الصداقة. وأمام عجلة القيادة في سيارة الكولونيل الرياضية أصيب موروجان بالجنون. ولم يكن سوى العاشق الولهان هو من يمكن أن يكل أمر نفسه، ولا داعي لذكر ضيفه، لمثل هذا السائق. وفي المسافة الممتدة بين مدينة ريند ـ لوبو وحقل البترول لمس مؤشر السرعة مرتين رقم المائة وعشرة، ولكن الأسوأ من هذا ، والأسوأ بكثير، كان متابعة السير بمثل هذه السرعة على الطريق الجبلي الممتد من حقول البترول إلى مناجم النحاس. كانت الشقوق في الطريق تفغر أفواهها، وإطارات السيارة تصرّ عند المنحنيات، وجواميس الماء تبرز من بين أدغال البامبو على بعد أقدام قليلة من السيارات، وسيارات النقل من حمولة عشرة أطنان كان زئيرها يتعالى وهي تأتي سائرة في الاتجاه الخطأ من الطريق. غامر ويل بتوجيه سؤال: «ألست عصبياً قليلاً؟». ولكن رجل العصابات كان ورعاً إلى جانب أنه كان ولهاناً، فقال: «إذا كان المرء ينفذ إرادة الله ـ وأنا أنفذها ـ يا مستر فارنابي ـ فليس هناك سبب للعصبية. وفي هذه الحالة تصبح العصبية نوعاً من التجديف والكفر». وبينما كان مورو ينحرف بشدة لكي يتجنب جاموسة أخرى، فتح الديكتاتور علبة سجائره الذهبية وقدم إلى ويل سيجاراً فاخراً من التبغ البلقاني.

قال فيجايا منادياً: «مستعد؟».

التفت ويل برأسه فرأى النقالة على الأرض إلى جواره.

قال الدكتور ماك فيل: «حسن جداً. فلننقله إليها. بعناية، بعناية..»

وبعد دقيقة واحدة كان الموكب الصغير يشق طريقه على طول الممر الضيق بين الاشجار. كانت ماري ساروجيني في المقدمة، وسار جدها في المؤخرة، وبينهما سار موروجان وفيجايا كلٌ عند أحد طرفي النقالة.

نظر ويل فارنابي من فوق فراشه المتحرك خلال الظلمة الخضراء كما لو كان ينظر وهو يقف على قاع بحر حيّ. وبعيداً عند رؤوس الاشجار، بالقرب من سطح البحر، كانت ضجة القردة تختلط بخشخشة الأغصان. أما الآن فكانت أصواتها مثل صوت دستة من الأبواق غارقة في سحابة من الزهور، مثل تهاويل خيال مضطرب.

سأله فيجايا وهو ينحني بحدب لينظر إلى وجهه: «أأنت مستريح؟»

ابتسم له ويل. وقال: «راحة مترفة».

فاستمر الآخر مؤكداً: «لن نذهب بعيداً. سنصل في بضع دقائق إلى هناك».

ـ «ماهو «هناك»؟».

ـ «المحطة التجريبية. إنها تشبه المحطة الزراعية في روثهامستيد. هل ذهبت إلى روثهامستيد حينما كنت في انجلترا؟».

كان ويل قد سمع عنها بالطبع ولكنه لم يرها ابداً.

استمر فيجايا: «إنها موجودة منذ أكثر من مائة عام.».

قال الدكتور ماك فيل: «منذ مائة وثمانية عشر عاماً بالتحديد. لقد بدأ لوويز وجيلبرت عملهما في مجال المخصبات الصناعية في عام ١٨٤٣ ثم جاء أحد تلامذتهما إلى هنا في أوائل خمسينات القرن الماضي لكي يساعد جدي في تشغيل محطتنا. كانت الفكرة هي إقامة محطة روثهامستيد في المنطقة الاستوائية. «في» المنطقة الاستوائية و«لأجل» المنطقة الاستوائية».

برق ضوء أخضر داكن، وبعد لحظة برز الركب الصغير من الغابة وخرج إلى الضوء الساطع تحت الشمس الاستوائية. رفع ويل رأسه ونظر حوله. كانوا قريبين من مساحة واسعة من الأرض القليلة الانحدار. وعلى بعد خمسمائة قدم تحتهم امتد سهل عريض تقسمه الحقول وتتناثر فيه الاشجار والمنازل المتجمعة كالعصافير. وفي الجانب الآخر، كانت المرتفعات تتصاعد إلى أعلى فأعلى لمسافة ألف قدم نحو ما يشبه الدائرة من الجبال. كانت المصطبة الخضراء أو الذهبية تعلو أختها على سفح الجبل، بدءاً من السهل إلى مركز الجدران الصخرية التي تصنعها القمم، وأحواض الارز تتابع صعودها فوق مستوى سطح البحر لتبرز شكل كل نتوء أو فجوة على جانب الجبل بما كان يبدو أنه صنع بدافع فني

متعمد. لم تكن الطبيعة هنا قد ظلت مجرد طبيعة، كانت عناصر الخلاء قد ألّفت بينها، وأُعيدت كرة أخرى إلى جوهرها الهندسي، وبدت في شكل كان يمكن أن يصبح في عمل الرسام معجزة من معجزات التناسق المتناغم، ممتدة على طول تلك الخطوط المتعرجة، وتلك المساحات العفوية من الألوان النقية المشرقة.

سأل الدكتور روبرت ــ محطماً ما سادَ من صمت طويل «ماذا كنت تفعل في ريندانج؟».

ــ «كنت أجمع المادة اللازمة لما أكتبه عن النظام الجديد».

ــ «ما كنت أظن أن لدى الكولونيل ما يدفع إلى البحث عن الاخبار».

ــ «إنك مخطىء. إنه ديكتاتور عسكري. وهذا يعني أن الموت يلوح في الافق. والموت خبر دائمًا.. وحتى رائحة الموت البعيدة تعد خبراً».

ثم ضحك وأضاف يقول: وهذا هو السبب الذي جعلهم يقولون لي أن أهبط هنا في طريق عودتي من الصين».

ولقد كانت هناك أسباب أخرى فضل ألا يذكرها.. لم تكن الصحف اليومية سوى واحدة بين اهتمامات «لورد ألدهايد» العديدة. ففي جانب أو مظهر آخر من صورته كان هو «شركة بترول جنوب شرق آسيا» وكان هو شركة «امبريال، فورس للنحاس، ليمتد». كان ويل قد جاء إلى ريندانج ــ رسمياً ــ ليتشمم رائحة الموت في جوها العسكري، ولكنه كان مكلفاً أيضاً بأن يكتشف أحاسيس الديكتاتور إزاء رأس المال الأجنبي، وأي تسهيلات ضريبية كان على استعداد لتقديمها، وأي ضمانات يمكن أن يقدمها ضد التأميم. ومقدار ما يمكن أن يسمح بتصديره من الأرباح؟ وكم من الفنيين والمديرين المحليين ينبغي توظيفهم؟ كانت لديه مجموعة كاملة ــ كوابل نيران المدفعية ــ من الأسئلة.. ولكن الكولونيل ديبا كان شديد الدماثة متعاوناً إلى أقصى حد. ومن هنا حدثت تلك الرحلة بالسيارة التي وقف لها شعره، حينما جلس موروجان أمام عجلة القيادة، منطلقين إلى مناجم النحاس. كان الكولونيل يقول: «إننا بدائيون يا عزيزي فارنابي، بدائيون. نحتاج بشدة ــ كما يمكنك أن ترى بنفسك ــ إلى المعدات الحديثة». كانت مقابلة أخرى قد رتبت ــ رتبت، كما يذكر ويل الآن ــ في هذا الصباح نفسه. تراءت له صورة الكولونيل جالساً أمام مكتبه. ويأتيه تقرير من رئيس البوليس: «لقد شوهد المستر فارنابي لآخر مرة يبحر وحيداً في قارب صغير في مضيق بالا. هبت عاصفة عنيفة جداً بعد ساعتين. نفترض أنه مات». وها هو ذا بدلا من ذلك، حي يرزق، فوق الجزيرة المحرمة.

كان «جو ألدهايد» قد قال له في لقائهما الأخير: «إنهم لن يمنحوك تأشيرة دخول أبداً.

ولكن ربما استطعت أن تتسلل إلى الشاطىء متنكراً. البس برنساً أو شيئاً من هذا القبيل، مثل لورنس العرب».

وكان ويل قد وعده قائلاً بوجه متجهم: «سأحاول».

«على أي حال، إذا استطعت أن تدخل (بالا) فعليك أن تقيم اتصالا مباشراً بالقصر. إن الراني ــ وهذه هي الملكة الأم عندهم ــ صديقة قديمة لي. لقد قابلتها للمرة الأولى منذ ست سنوات في لوجانو. كانت تقيم هناك مع فيوجيلي العجوز صاحب الاستثمارات المصرفية. كانت صديقته هذه مهتمة بالأمور الروحية وقد قدما لي عرضاً خاصاً: كان هناك وسيط ينفخ في البوق، وصوت مباشر حقيقي ــ ولكن كان الحديث كله لسوء الحظ بالألمانية. ثم دار حديث طويل بيني وبينها بعد أن أضيئت الأنوار».

«مع البوق؟».

ــ «لا. لا. مع الراني. انها امرأة بارزة الشخصية. أتعرف شيئاً عن «حملة الروح الصليبية»؟ «أكانت هذه من ابتكارها؟»

ــ «ابتكارها الكامل. وأنا شخصياً أفضّل هذه الحركة على حركة التسلح الخلقي». فهي تسير سيراً أحسن بكثير في آسيا. وقد تحدثنا عنها حديثاً طويلاً في تلك الليلة. ثم تحدثنا بعد ذلك عن البترول. (بالا) مليئة بالبترول. وقد حاولت شركة جنوب آسيا للبترول أن تدخل إلى هناك منذ سنوات. وهكذا حاولت كل الشركات الاخرى.. ولكن بلا نتيجة.. فهم لايعقدون أي اتفاقات بترولية مع أي مخلوق. وهذه هي سياستهم الثابتة ولكن الراني لاتوافق على هذا.. فهي تريد أن ترى البترول وهو يؤدي بعض الخير للعالم. مثل تمويل «حملة الروح الصليبية» على سبيل المثال. ولذلك، إذا حدث وتمكنت من دخول (بالا) كما قلت لك، فأقم خط اتصال مباشر مع القصر. كلمها. احصل على القصة الحقيقية للرجال الذين يتخذون القرارات. اسأل عما اذا كانت هناك أقلية تحبذ استخراج البترول وعن كيفية معاونتنا لهم من أجل القيام بالاعمال الطيبة». ثم اختتم كلامه بأن وعد ويل بمكافأة مجزية اذا تكللت جهوده بالنجاح. مكافأة تكفيه للحصول على عام كامل من الحرية. «فلا تكون هناك أخبار عليك ان تقدمها طوال عام كامل. لاشيء سوى الفن الجميل الرفيع. الفن ن ن ن» ثم أطلق ضحكة داعرة كما لو كانت الكلمة تعني شيئاً داعراً بدلاً من معناها الحقيقي. يا له من مخلوق لايمكن وصفه! ولكنه رغم كل شيء يكتب للصحف التي يموها المخلوق الذي لايمكن وصفه أو يدفع لها في الخفاء، وكان على استعداد، في مقابل رشوة، لأن يقوم لهذا المخلوق الكريه بأعماله القذرة. والآن، بطريقة لاتصدق، ها هو فوق ارض «بالا» فمثلما شاء الحظ كانت العناية الإلهية إلى جانبه ــ كأنما كان ذلك بغرض محدد، وهو تنفيذ واحدة من تلك الفكاهات العملية الخبيثة التي يبدو أنها من اختصاص العناية الالهية.

أعيد ثانية إلى الحقيقة الحاضرة من خلال صوت ماري ساروجيني الصاروخي وهي تقول: «هاقد وصلنا».

رفع ويل رأسه ثانية: «كان الموكب الصغير قد تحول عن الطريق الرئيسي وكان يمر عبر فتحة في جدار مدهون بالجص. وإلى اليسار، وفوق عدد متتالٍ من المصاطب المرتفعة، انتصبت صفوف من الابنية المنخفضة تظللها شجرات «ذقن الباشا».. وإلى الأمام مباشرة كان صف من النخيل ينحدر صوب بركة تغطي سطحها زهرات اللوتس، وعلى الجانب البعيد منها جلس تمثال حجري ضخم لبوذا. ولما استداروا إلى اليسار، راحوا يتسلقون بين شجرات مزهرة وعبر روائحها العطرية النفاذة نحو المصطبة الأولى. ووقف وراء أحد الأسوار، ثور أبيض اللون كالثلج له قتب مرتفع، ساكناً دون حركة سوى حركة الفكين المشغولين بعملية الاجترار ــ مثل إله في هدوئه وجماله الخالي من العقل. كان الإله الاغريقي الذي مسخ نفسه ثوراً ليصل إلى حبيبته يوروبا[1] منتمياً إلى الماضي ولكن كانت هناك مجموعة من الطواويس رموز زوجة ذلك الإله الساخطة نفسها، وهي تنثر ريشها الجميل فوق الحشائش[2]. وفكت ماري ساروجيني السلسلة التي تربط مصراعي باب حديقة صغيرة.

قال الدكتور ماك فيل: «هذا هو كوخي». ثم التفت إلى مورروجان وقال: «دعني أساعدك في صعود الدرجات».

---

(١) المقصود هنا هو الإله الاغريقي زيوس، كبير أرباب الأوليمب، الذي كان كثير المغامرات العاطفية. وتحكي الاسطورة أنه لكي يفلت من رقابة زوجته الكبرى «هيرا» في ذهابه إلى إحدى حبيباته (يوروبا) جعل نفسه ثوراً أبيض. وتقول الاسطورة إنه استطاع أيضا أن يخدع «يوروبا» نفسها بهذا الشكل، لانها كانت صبية سهلة الانخداع، فركبت على ظهر الثور تلاعبه، فخطفها عبر البحر إلى إحدى الجزر.

(٢) هذه الزوجة هي «هيرا» التي كانت تسخط على مغامرات زوجها، وكان رمزها كائناً خرافياً كالطاووس في كل ريشة من ذيله «عين تراقب زوجها في أركان السماء والارض. وسلط زيوس على هذا المخلوق من قتله، وحزنت عليه هيرا، وأخذت ريشه وجعلته شعاراً لها، بالاضافة إلى أن ريش الطاووس كان مناسباً لمنصبها بين الارباب، فهي إلهة السلطان والمجد والقوة، وهي أم مارس إله الحرب، وفلكان إله النار والصناعة.

الفصل الرابع

كان توم كريشنا وماري ساروجيني قد ذهبا ليستريحا في فترة القيلولة مع بستاني حديقة الأطفال المجاورة. وكانت سوسيلا ماك فيل قد جلست في حجرتها المغلقة النوافذ، المظلمة مع ذكرياتها عن سعادتها الغابرة وآلام ترملها الحالية. دقت الساعة المعلقة في المطبخ لتعلن الرابعة والنصف. حان وقت ذهابها. نهضت وهي تتنهد، وأخذت «صندلها» فارتدته وخرجت إلى ضوء ما بعد الظهيرة الاستوائية الساطع. نظرت إلى السماء. سارت على طول الممر الذي تحفّ به الاشجار على الجانبين، وانطلقت في طريقها تعبر بحيرة من الظل. في دفقة مفاجئة من الصرخات انطلق صوت سرب من الحمائم من فوق شجرة «ذقن الباشا» المرتفعة.. طار السرب نحو الغابة، وصدور الحمام تبرق بألوان متعددة في ضوء مثل محارات اللؤلؤ بأجنحتها الخضراء ومناقيرها الحمراء بلون المرجان. ما كان أروع جمالها، ويا لرقتها التي لاحدّ لها! كانت سوسيلاعلى وشك أن تلمح تعبير الابتهاج على وجه «دوجالد» المتقع ولكنها تنبهت وسارت تنظر إلى الأرض. لم يعد هناك «دوجالد» بعد. لم يكن هناك سوى هذا الألم، ألم الروح الذي يحط بثقله على الخيال فيخنقه، يطارد حتى المدركات الحسية الواضحة ويهيمن عليها، ألم أولئك الذين عانوا عمليات البتر. همست لنفسها «البتر» ورددت: «البتر». سيطرت على رغبتها في البكاء حين شعرت بعينيها تمتلئان بالدموع. لم يكن البتر عذراً للإشفاق على النفس، ورغم أن دوجالد كان قد مات فإن الطيور كانت جميلة كعهدها دائمًا، وأطفالها، وكل الأطفال الآخرين، مازالوا بحاجة إلى من يحبهم ويساعدهم ويعلمهم. وإذا كان غيابه دائم الحضور بهذا الشكل، فما كان لهذا الحضور إلا أن يذكرها بأن عليها منذ الآن أن تحب حب اثنين وأن تحيا لاثنين، وأن تفكر لاثنين، وأن عليها ألاّ ترى أو تفهم بعينيها وحدها ولا بعقلها هي فقط، وإنما عليها أن ترى وأن تفهم أيضاً بعينيه وبالعقل الذي كان له، والذي كان لها هي أيضاً قبل الكارثة يقاسمها البهجة والفهم.

ولكن كوخ الطبيب كان ماثلاً أمامها. صعدت الدرجات وعبرت الشرفة وسارت نحو غرفة الجلوس. كان والد زوجها جالساً بالقرب من النافذة يرشف الشاي البارد من كأس صنع من الفخار، ويقرأ مجلة طبية عن علم الجراثيم. «جورنال دي مايكولوجي». رفع رأسه حينما اقتربت منه، وابتسم لها ابتسامة مرحبة.

ـ «سوسيلا يا عزيزتي! سعيد أنا جداً أن استطعت المجيء».

انحنت عليه وقبلت خده الخشن غير الحليق ثم سألته:

ـ «ما هذا كله الذي سمعت من ماري ساروجيني؟ أصحيح أنها عثرت على غريق قذفه البحر؟».

ـ «من انجلترا ـ ولكنه جاء عن طريق الصين وريندانج في قارب غارق. صحفي.»

ـ «ما شكله؟»

ـ «له جسم المسيح وشكله. ولكنه أكثر مهارة من أن يصدق بالله أو يقتنع برسالته. وأكثر حساسية، حتى إذا اقتنع، من أن ينفذ هذه الرسالة. قد تود عضلاته أن تعمل وقد تود أحاسيسه أن تصدق، ولكن أطراف أعصابه ومهارته لن تسمح بذلك».

ـ «وهكذا أعتقد أنه تعيس للغاية».

ـ«تعيس لدرجة أنه يضحك بصوت كصوت الضبع».

ـ «أيعرف أنه يضحك بصوت كصوت الضبع؟»

ـ «يعرف ويكاد يكون فخوراً بذلك. بل إنه يضرب الأمثال لابراز صفاته: «لست بالرجل الذي يكتفي بكملة «أجل» كإجابة».

سألته: «أهو جريح جرحاً بالغاً؟»

ـ «ليس إلى درجة سيئة. ولكن حرارته سترتفع درجة واحدة. وقد بدأت علاجه بالمضادات الحيوية. والآن جاء دورك لترفعي من درجة مقاومته، ولكي تمنحي للعلاج الطبيعي (قالها باللاتينية) فرصته».

ـ «سأبذل ما بوسعي». ثم أضافت بعد لحظة صمت: «ذهبت لرؤية لاكشمي في طريق عودتي من المدرسة».

ـ «كيف وجدتها؟».

ـ «على [illegible] أنت أسوء [illegible]

ـ «هذا ما شعرت به حينما رأيتها هذا الصباح».

ـ «من حسن الحظ أنه لايبدو أن الألم يزداد سوءاً. ما زال بوسعنا أن نعالجه علاجاً نفسياً. وقد عالجنا اليوم مسألة الغثيان. وكان باستطاعتها أن تشرب بعض السوائل ولا أظن أنها ستكون بحاجة بعد ذلك إلى مزيد من السوائل التي تحقن لها في الوريد».

قال: «الحمد لله! كانت حقن الوريد هذه نوعاً من العذاب. كانت تتمتع بقدر هائل من الشجاعة في مواجهة أي خطر حقيقي، ولكن أكثر أنواع الرعب لامعقولية وضراوة كانت تلوح على وجهها حينما تكون المسألة مسألة حقنة تحت الجلد أو ابرة تنفذ في الوريد.»

فكّر في يوم من أيام زواجهما الاولى حينما فقد السيطرة على أعصابه ونعتها بالجبن بسبب الضجة التي كانت تصنعها. كانت لاكشمي قد بكت، ولما استسلمت لاحساسها بالظلم وبأنها شهيدة مضطهدة، راحت تغرقه بالتماسات الصفح والغفران. وصاح ه فيها «لاكشمي، لاكشمي..» أما الآن فسوف تموت في خلال بضعة أيام. بعد سبعة و ثين عاماً. سأل بصوت مرتفع: «عمَّ تحدثتما؟».

أجابته سوسيلا: «لا شيء على وجه التحديد.» رلكن الحقيقة هي أنهما قد تحدثتا عن دوجالد. ولكنها لم تستطع أن تكرر ما دار بينهما. لقد همست المرأة المحتضرة وقالت: «إنه طفلي الأول. ولم أكن أعرف أن الأطفال يمكن أن يكونوا بهذا الجمال». ابتسمت الشفتان الباهتتان ولمعت العينان في محجريهما الغائرين المجللين بالسواد. ومضى الصوت الخشن الواهن يقول: «يا لهاتين اليدين الصغيرتين الصغيرتين، ويا لهذا الفم الصغير النهم!» وتحركت يد مرتعشة معروقة عارية من اللحم أو تكاد، لتلمس المكان الذي كان كتلة ثديها قبل العملية الجراحية الاخيرة. ورددت «لم أكن أعرف ذلك أبداً». وكيف كان يمكنها أن تعرف قبل أن تلد بالفعل؟ كانت تلك الولادة كشفاً روحياً ورؤ ية من رؤى الوصول والحب. «أتعرفين ما أعني؟» وأومأت سوسيلا برأسها. لقد عرفت هذه التجربة بالطبع ـ عرفتها حينما وضعت طفليها، عرفتها في رؤى الوصول والحب. ولكن من نوع آخر، مع الرجل الذي نما في داخل دوجالد الصغير ذي اليدين الصغيرتين والفم النهم. قالت المرأة المحتضرة: «كنت أخاف عليه في العادة. لقد كان بالغ القوة، قوي الشخصية إلى درجة الطغيان، وقد كان بوسعه أن يؤذي وأن يخرب وأن يدمر. ولو كان قد تزوج امرأة اخرى. الحمد لله إن كنت أنتِ زوجته؟» تحركت اليد المعروقة من المكان الذي كان يحتله الثدي وامتدت لكي تستقر على ذراع سوسيلا. أحنت رأسها وقبلت الذراع. كانتا تبكيان سوياً.

تنهد الدكتور ماك فيل، ونظر إلى أعلى، وهز نفسه مثلما يفعل من صعد برأسه فوق،

سطح المياه: «اسم الغريق فارنابي. ويل فارنابي».

رددت سوسيلا: «ويل فارنابي. طيب، يحسن بي أن أذهب لأرى ما يمكنني أن أفعله لأجله». واستدارت ثم سارت مبتعدة.

نظر الدكتور ماك فيل وراءها، واستند بظهره على مسند مقعده واغمض عينيه. فكر في ابنه ، وفكر في زوجته. لاكشمي التي تنسحب الآن لكي تضيع في منطقة الظل والاختفاء، وفكر في دوجالد، ابنه الذي كان مثل شعلة متوهجة انطفأت فجأة. فكر في سلسلة التغيرات والمصادفات غير المفهومة التي تتخلق منها حياة انسان، كل أنواع وصور الجمال والخوف والعبث التي تصنع ارتباطاتها شكل قدر الانسان الذي لايمكن تفسيره، ومع ذلك يبدو مترعاً بالمعاني المقدسة. قال لنفسه «فتاة مسكينة» وهو يتذكر النظرة التي بدت على وجه سوسيلا حينما أخبرها بما حدث لدوجالد، وردد «فتاة مسكينة». وفي نفس الوقت كان هناك ذلك المقال الذي يتحدث عن نباتات الفطر التي تسبب الهلوسة في مجلة «جورنال دي ميكولوجي». وكان هذا المقال عنصراً آخر من عناصر التنافر الذي يسود شكل القدر. تذكر كلمات إحدى القصائد الصغيرة الغريبة التي كتبها الراجا القديم..

كل الاشياء، بكل الاشياء
لاتبالي بالمرة.
كل الأشياء تعمل باجتهاد
في تنافر من أجل الخير الكامن
وراء الخير ومن أجل وجود أكثر تجرداً عن الزمان
في تحوله المستمر، وأكثر
أبدية في تناقصه من
الله في السماء.

* * *

صر الباب، وبعد لحظة سمع ويل صوت أقدام خفيفة الخطو وحفيف ثياب. ثم استقرت يد فوق كتفه وسمع صوت امرأة، خفيض النغمة موسيقياً، يسأله عن حاله.

اجاب دون أن يفتح عينيه: «أحس بالتعاسة».

لم تدل نغمة صوته على الاشفاق على النفس، ولم يكن فيها أي استعطاف. لم يكن في صوته سوى ما يدل على غضب المفكر غير العاطفي إذ يواجه الحقيقة، والذي اشمأزت نفسه وغثيت أخيراً لطول مهزلة الركود، فينفجر لسانه بالحقيقة في احتقار.

(إنما اشعر بالتعاسة).

لمسته اليد مرة أخرى، وقال الصوت: (أنا سوسيلا ماك فيل. أم ماري ساروجيني).

التفت ويل برأسه على مضض وفتح عينيه. كانت هناك امرأة ، كنسخة أكثر اسمراراً ونضجاً من ماري ساروجيني جالسة بجانب السرير تبتسم له باهتمام ودي. كان مما يكلفه الكثير من الجهد أن يبتسم لها رداً على ابتسامتها، فاكتفى بأن يقول: (كيف حالك) ثم جذب الملاءة التي يتغطى بها إلى أعلى قليلاً وأغلق عينيه ثانية.

نظرت إليه سوسيلا في صمت ـ نظرت إلى كتفيه الضامرين وإلى قفصه الصدري، ضلوعه البارزة تحت الجلد الذي جعله شحوبه الموروث من جنسه الشمالي يبدو لعينيها البالانية هشاً وشفافاً إلى درجة الغرابة، ونظرت إلى وجهه الذي لوحته الشمس، والذي بدت قسماته محددة الملامح والزوايا مثل نحت قصد صانعه أن يرى من بعد. بملامحه المحددة الحساسة، والوجه المرتعش أكثر منه عارياً أو صريحاً، فوجدت نفسها تفكر في رجل مهجور تُرك لكي يواجه عذابه وألمه.

قالت أخيراً: «سمعت أنك من انجلترا».

غمغم ويل بصوت يدل على الانزعاج: «لايهمني من أين أكون، ولا إلى أين أنا ذاهب. من جحيم إلى جحيم».

استمرت تقول: «كنت في انجلترا بعد الحرب مباشرة. كنت طالبة».

حاول ألاّ يصغي. ولكن ليس للاذن غطاء. لم يكن ثمة مهرب من ذلك الصوت المتطفل.

كان الصوت يقول: «كانت معي فتاة في صف دراسة علم النفس، وكان أهلها يعيشون في ويلز. ودعتني لقضاء الشهر الأول من عطلة الصيف هناك. أتعرف منطقة ويلز؟»

كان يعرف ويلز بالطبع. لماذا تضطهده بذكرياتها البلهاء؟

استمرت سوسيلا تقول: «أحببت السير هناك على طول ضفة النهر، أنظر إلى الكاتدرائية عبر الخندق الذي تغمره المياه» كانت تفكر أيضاً بينما تنظر إلى الكاتدرائية في وجه دوجالد جالساً تحت النخيل، وفي دوجالد وهو يلقنها درسها الأول في تسلق الصخور، كان يقول: «إنك مربوطة بالحبل. أنت في أمان تماماً لايمكن أن تسقطي». رددت بمرارة «لايمكن أن تسقطي». وحينئذ تذكرت هنا والآن، تذكرت أن عليها واجباً ينبغي القيام به، تذكرت، حينما نظرت مرة ثانية إلى الوجه المهجور المحدد، أنه يوجد هنا إنسان يتألم. فقالت تكمل حديثها: «كم كان المنظر جميلاً، ويا لروعة السلام الذي يسوده».

شعر ويل فارنابي أن الصوت قد أضحى أكثر موسيقية: وأنه بطريقة غريبة ما قد ازداد بعداً. وربما كان هذا هو السبب الذي منعه من الاستمرار في كراهية تطفله.

«هذا هو الاحساس غير العادي بالسلام. السلام. السلام (رددتها باللغة الهندية) السلام الذي لا يدركه العقل».

كان الصوت الآن يكاد يغني ــ يأتي غناؤه ــ كما بدا له ــ من عالم آخر ما..

استمر الصوت في الغناء: «يمكنني أن أغلق عيني، أغلق عيني فأراه واضحاً كل الوضوح. أستطيع أن أرى الكنيسة ــ وهي هائلة الحجم، أكثر طولاً بكثير من الاشجار الضخمة التي تحيط بقصر الاسقف. استطيع أن أرى الحشائش الخضراء والمياه وأشعة الشمس الذهبية تسطع فوق الصخور والتلال الممتدة مستلقية بين الاشجار الكثيفة وأسمع، يمكنني أن أسمع الأجراس. الأجراس وغربان الماء. غربان الماء على البرج. أيمكنك أن تسمع غربان الماء؟».

أجل، استطاع أن يسمع غربان الماء، استطاع أن يسمعها بوضوح يماثل وضوح صوت تلك الببغاوات فوق الاشجار خارج نافذته. كان هنا وكان في نفس الوقت هناك ــ هنا في هذه الغرفة الحارة المعتمة بالقرب من خط الاستواء، ولكنه كان أيضاً هناك، في ذلك الكهف البارد الرطب على حافة جبال المنديب، وغربان الماء تصرخ من فوق قمة برج الكاتدرائية وصوت الأجراس يتلاشى ــ إذ ينداح ــ وسط الصمت الأخضر المترامي.

كان الصوت يقول: «وهنالك سحابات بيضاء، والسماء الزرقاء بين السحب تبدو شديدة الشحوب شديدة النعومة، رقيقة إلى درجة غريبة».

ردد كلمة (رقيقة)، السماء الرقيقة الزرقاء، في العطلة الاسبوعية من شهر أبريل ــ ذلك البعيد ــ التي قضاها هناك مع مولي، قبل كارثة زواجهما. كانت هناك زهرات ربيعية لؤلؤية بيضاء وسط الحشائش وكانت هناك أعواد بنفسجية متناثرة، وعبر المياه كانت تنتصب الكنيسة الضخمة، تتحدى الشموخ، شموخ تلك السحب الابريلية الناعمة بأبعادها المترامية. تتحدى الشموخ وفي نفس الوقت تتملقه، تتفاهم معه في مصالحة كاملة. تلك هي الحالة التي كانت لابد قائمة بينه وبين مولي ــ لابد أنها كانت قائمة في ذلك الحين.

كان الآن يصغي إلى الصوت يردد مرتلاً: «وطيور البجع.. وطيور البجع.»

أجل، البجع. بجعات بيضاء تتحرك عبر مرآة الزمرد والكهرمان الاسود، مرآة تتنفس، تتعرج وترتعد، حتى كانت صور البجعات تتكسر على الدوام ثم تعود إلى الإلتئام تتكسر متناثرة ثم تتجمع مرة ثانية.

(مثل الصور المبتكرة لشعارات الفرسان على دروعهم. رومانتيكية، مستحيلة الجمال. ومع هذا فها هي هناك ــ طيور حقيقية في مكان حقيقي قريبة مني الآن حتى صار بوسعي أن ألمسها. وهي مع هذا بعيدة كل البعد، آلاف من الاميال تفصلني عنها. بعيدة كل البعد فوق تلك المياه الناعمة، كما لو كان يحركها السحر، برقة وجلال.).

بجلال، تتحرك بجلال، والمياه الداكنة تنشق وتنقسم بينها تتقدم الصدور البيضاء المستديرة ــ تنشق المياه وتنقسم وتندفع منزلقة إلى الوراء في دوائر تتسع وراءها في خطوط سهمية براقة أصبح بوسعه أن يراها تتحرك عبر مرآتها الداكنة وأن يسمع غربان الماء فوق البرج، وأن يشم عبر ما هو أشد قرباً إليه في الحقيقة من مزيج روائح المطهرات وزهور الجاردينيا البيضاء والصفراء تلك الرائحة الطازجة المنتشرة الباردة المتصاعدة من ذلك الخندق القوطي القابع في الوادي الأخضر البعيد.

قال ويل لنفسه «إنها تطفو بغير مجهود». ومنحته الكلمات إحساساً عميقاً بالرضا.

كانت تقول: «كنت إذا جلست هناك، وأظل أنظر، وأنظر، وبعد برهة قصيرة كنت أشعر بأنني أطفو أنا أيضاً. كنت أشعر كأنني أطفو مع البجعات فوق السطح الناعم بين المياه المعتمة من أسفل، والسماء الشاحبة الرقيقة من أعلى. وفي نفس الوقت أطفو فوق ذلك السطح الآخر، القائم بين هنا وبين ما هو بعيد، بين الآن وحينذاك». القائم بين السعادة التي مازالت تذكرها، وبين هذا الحضور الساحق لغياب ضاغط ومؤلم لدرجة العذاب. قالت بصوت مرتفع: «طافية على السطح القائم بين الحقيقة والخيال بين ما يأتي إلينا من الخارج وما يأتينا من الداخل، من أعماق الاعماق الخفية هنا بالداخل».

وضعت يدها على جبهته، وفجأة تجسدت الكلمات وتحولت لكي تصبح من الأشياء والأحداث التي يقفان الآن أمامها، تحولت الخيالات إلى حقائق. كان يطفو الآن بالفعل.

عاد الصوت يقول بإصرار ونعومة: «طافية ، طافية مثل الطائر الأبيض فوق سطح المياه. طافية فوق سطح نهر الحياة العظيم ــ نهر عظيم ناعم صامت يجري بهدوء، بهدوء، بهدوء حتى لتكاد تظنه مغرقاً في النور. نهر نائم. ولكنه لا يكف عن الجريان.

«الحياة تجري بصمت وبقوة لاتقاوم صوب حياة أكثر اكتمالاً على الدوام، صوب سلام حقيقي وحيّ وأكثر عمقاً، وأكثر ثراء وقوة وأكثر اكتمالاً لأنه يعرف كل آلامك وتعاستك، يعرفها ويأخذها ليحتويها وليجعل منها شيئاً واحداً مع جوهره الحقيقي. وأنت إنما تطفو الآن في قلب ذلك السلام، تطفو فوق هذا النهر الصامت الناعم الذي ينام ولكنه مع هذا لايمكن مقاومته، وهو لايمكن مقاومته بالتحديد لأنه نائم، وأنا أطفو معه».
كانت تتحدث إلى الغريب. وكانت في نفس الوقت تتحدث على مستوى آخر إلى نفسها.
«أطفو بدون مجهود ليس عليّ أن أفعل شيئاً على الاطلاق، ليس سوى أن

أترك نفسي أسير، لاشيء سوى أن أسمح للنهر بأن يحملني ويدفعني إلى الامام، لا أقول شيئاً سوى أن أسأل هذا النهر النائم الذي لا يقاوم أن يأخذني معه إلى حيث يذهب عارفاً طول الوقت بأنني أريد أن أذهب إلى حيث هو ذاهب وأن هذا هو المكان الذي عليّ أن أذهب إليه، إلى مزيد من الحياة، وإلى السلام الحي. على طريق النهر النائم، دون مقاومة، إلى حيث الاتحاد الكلي بين الأشياء».

انطلقت من صدر ويل فارنابي تنهيدة عميقة بطريقة تلقائية غير واعية. لكم أصبح العالم صامتاً! صامت يغمره صمت متبلور عميق، حتى رغم أن الببغاوات كانت ما تزال مشغولة، هناك بالخارج وراء مصراعي النافذة المغلقين، وحتى رغم أن الصوت ما يزال يغرد هنا إلى جواره. ليس سوى الصمت والفراغ، وفي خلال الصمت والفراغ جرى النهر نائمًا ولايمكن مقاومته.

هبطت سوسيلا بعينيها لتنظر إلى الوجه الراقد فوق الوسادة. بدا لها الوجه فجأة كوجه صغير، مثل وجه الطفل في هدوئه الكامل. الخطوط المقطبة المتعرجة فوق الجبهة قد اختفت، والشفتان كانتا مغلقتين في ألم بإحكام قد انفرجتا الآن، وخرجت الانفاس بطيئة ناعمة، دون صوت. تذكرت فجأة الكلمات التي طرأت على ذهنها حين هبطت بعينيها، ذات ليلة مقمرة، لتنظر إلى وجه دوجالد البريء الشاحب: «إنها تمنح حبيبها النوم.»

قالت بصوت مرتفع: «نم. نم». بدا الصوت كما لو كان أكثر هيمنة والفراغ أكثر ضخامة.

كان الصوت يقول: «نم فوق النهر النائم. وفوق النهر، في السماء الشاحبة، هناك سحب بيضاء هائلة. وحينما تنظر نحوها، تبدأ في الطفو صاعداً إليها. أجل إنك تبدأ في الطفو صاعداً إليها، والنهر الآن نهر في الهواء، نهر خفي يحملك ، يحملك صاعداً بك، إلى أعلى، وأعلى.»

إلى أعلى، إلى أعلى عبر الفراغ الصامت. كان الخيال هو الشيء المجسد، والكلمات أصبحت هي التجربة. استمر الصوت يقول: (اخرج من السهل الحار دون مجهود لتصعد إلى طزاجة الجبال.)

أجل، كانت هناك السيدة الصغيرة، تلوح مهتزة الصورة بيضاء على الزرقة الممتدة. كانت هناك القديسة، مونت روزا.

«كم يبدو الهواء طازجاً منعشاً حينما تتنفسه. طازج، نقي، مشحون بالحياة»

تنفس بعمق فتخللته الحياة الجديدة وجاءت الآن ريح واهنة تهب عبر سهوب الثلج، باردة تلفح وجهه، باردة إلى درجة لذيذة. وجاء الصوت كما لو كان يردد أفكاره،

كما لو كان يصف تجربته، فقال: (البرودة. البرودة والنوم. , عبـر البرودة الى المزيد من الحياة. عبر النوم إلى الاتحاد الشامل، إلى الكلية والشمول إلى السلام الحي..».

بعد نصف ساعة عادت سوسيلا لتدخل حجرة الجلوس مرة أخرى.

سألها حموها: «هيه؟ هل نجحت؟».

قالت: «تحدثت إليه عن مكان ما في انجلترا. وقد استسلم بأسرع مما كنت أتوقع. وبعد ذلك أوحيت له باقتراح عن درجة حرارته..»

«والركبة، أرجوك».

«بالطبع».

«أكان إيحاء مباشراً؟».

«كلا، غير مباشر. الايحاء غير المباشر أحسن دائماً، دفعته إلى الـوعي بصورة جسده. ثم جعلته يتخيل أن جسمه أكبر بكثير من حقيقته ـ وأن الركبة أصغر بكثير. إنها شيء صغير بائس يتمرد ضد شيء أضخم وأعظم. ولايمكن أن يكون هناك أي شك في من سيكسب من بينهما».

نظرت إلى الساعة المعلقة على الجدار وقالت: «يا الله، يجب أن أسرع وإلاّ سأكون قد تأخرت على فصلي في المدرسة».

الفصل الخامس

كانت الشمس تشرق في اللحظة التي دخل فيها الدكتور روبرت غرفة زوجته في المستشفى وكان ثمة وميض برتقالي، وفي مواجهته تنتصب قمم الجبال تغطيها الظلال. وفجأة تلمع مناجل براقة من أشعة الشمس المتسللة بين قمتين ويتحول منجل الاشعة إلى نصف دائرة، فعبرت أولى الظلال الطويلة وأولى خطوط الضوء الذهبي عبرت الحديقة خارج النافذة. وحينما يرفع المرء عينيه ثانية إلى السماء ناحية الجبال فسوف يواجهه كل وهج الشمس المشرقة الذي لايحتمل.

جلس الدكتور روبرت إلى جانب السرير، وأخذ يد زوجته وقبلها، ابتسمت له، ثم التفتت ثانية نحو النافذة.

همست: «يا لسرعة دوران الارض» وبعد فترة صمت أضافت تقول: «في صبح مثل هذا، سيكون آخر شروق في حياتي»

وفي وسط الكورس المشوش المكون من صرخات الطيور وأصوات الحشرات كان أحد طيور المايناه يغني «كارونا.. كارونا».

رددت لاكشيمي: «كارونا. الحنان»(٤)

---

(٤) كارونا Caruna: في تعاليم الماهيانا الناضجة (انظر الهامش عن الماهيانا) يفسر لغز الخلق من خلال فكرة الـ«بودهياتفا» أي «البوذا المخلص». فحينما رفض «أنالو كيتسفارا» (راجع الهامش المذكور) النيرفانا (أي الامتزاج النهائي بالكون، وتعني بالسنسكريتية: الانطفاء أو الاطفاء) فرفض بذلك خلاص روحه النهائي من التجسد ومن تقمص أي جسد، من أجل أن يظل مخلصاً لكل الكائنات المخلوقة، فإن =

ردد صوت الاوبوا الذي يحمل لسان بوذا في إصرار من الحديقة: «كارونا... كارونا».

استمرت تقول: «لن أكون في حاجة إليها بعد وقت قصير. ولكن ماذا عنك أنت؟ يا روبرت المسكين. ماذا عنك أنت؟».

قال: «يجد المرء القوة الضرورية بطريقة أو بأخرى».

«ولكن هل ستكون النوع الصحيح من القوة؟ أم ستكون قوة السلاح، قوة الجزم القاطع، قوة الانغماس في عملك وفي أفكارك دون أقل اهتمام بأي شيء آخر؟ تذكر كيف تعودت أن آتي إليك لأجذب شعرك، ولكي أجعلك تنتبه. من الذي سيفعل ذلك حينما أرحل؟».

دخلت ممرضة تحمل كوباً من الماء المحلى بالسكر. دفع الدكتور روبرت يده تحت كتف زوجته برفق ورفعها حتى جلست، أمسكت الممرضة بالكوب أمام شفتيها. وشربت لاكشيمي قليلاً من الماء وابتلعته بصعوبة، وشربت جرعة ثانية بنفس الصعوبة ثم جرعة ثالثة. نظرت إلى الدكتور روبرت وهي تبتعد عن الكوب القريب من وجهها، كان الوجه الباهت مشرقاً بومضة غريبة قدسية من الألم الخالص.

قال الصوت الواهن الخشن مقتطفاً من العهد الجديد: «أنا الثالوث المقدس أضرب المثل، إذ يرتشف الأريوسي عصير البرتقال ممزوجاً بالماء. في ثلاث رشفات يخيب أمله..» توقفت قليلاً ثم استطردت تقول: «يالسخرية أن أظل أتذكره ولكن، إذا كان هذا ما يدعو للسخرية، إذن فقد كنت أدعو للسخرية دائماً. ألم أكن كذلك.»

بذل الدكتور روبرت ما بوسعه لكي يبتسم لها، قال: «كنت تبعثين على السخرية بشدة».

«اعتدت أن تقول إنني كنت أشبه البرغوث، أكون في مكان ما للحظة واحدة، ثم هوب: فأكون في مكان آخر على بعد أميال. فلا عجب ألاّ تكون قد استطعت أن تعلمني شيئاً».

= ذلك قد حدث لأنه امتلأ بخاصية الـ«كارونا» أو الشفقة والتعاطف، التي ترجمناها هنا بكلمة «حنان» وهذا الحنان الخالص جزء من جوهر البودهيساتفا ومطابق لتصوره عن الفراغ Void إذ أن هذا الحنان هو الانعكاس الأولي للفراغ الذي هو مصدر الوجود وسبب الكارونا (الحنان) يتخذ البودهيساتفا الأشكال المختلفة التي يظهر ويتجسد فيها من أجل خلاص الكائنات في مجال الظاهرات. فهو يتخذ على سبيل المثال الاشكال المقدسة للإله «فيشنو» أمام أولئك الذين يعبدون فيشنو، ويتخذ الاشكال المقدسة للربة «شيفا» لأولئك الذين يعبدون شيفا. وبفضل خاصية الحنان الخالص عند البودهيساتفا أيضاً، يظهر كل بوذا إلى الوجود، وهو الاعتقاد الذي يمثل نقلاً وتحولاً هاماً في المعتقدات البوذية (زيمر ص ٥٥٣).

قال لها مذكراً: «ولكنك أنت علمتني بالفعل. فلولا أنك كنت تأتين إليّ وتجذبين شعري وتجعلينني أنظر إلى العالم وتساعدينني على فهمه، فكيف كنت أصبح الآن؟ متحذلق جاهل يضع غمامتين على عينيه – رغم كل ما تدربت عليه أو تعلمته. ولكنني كنت لحسن الحظ ذكياً وطلبت أن تتزوجيني وكنتِ أنتِ لحسن الحظ بلهاء فقبلت ذلك، وكنت لحسن الحظ من الحكمة والذكاء ما جعلك قادرة على أن تصنعي مني شيئاً نافعاً فأنا الآن أكاد أكون انساناً بعد سبعة وثلاثين عاماً من التعليم في الكبر.»

هزت رأسها وقالت: «ولكنني ما زلت برغوثاً.. ومع هذا فإنني قد حاولت. حاولت قدر استطاعتي. أنا لا أعرف إذا كنت قد تبينت هذا أبداً يا روبرت، كنت دائماً مشدودة إلى حيث تقوم بعملك تفكر وتقرأ وتكتب. على أطراف أصابعي. أحاول أن أبلغ هذا المكان أحاول أن أصل إلى هناك لكي أكون بجوارك. يالله، كم كان هذا متعباً يا لها من سلسلة لاتنتهي من الجهود ولا فائدة على الاطلاق منها جميعاً لأنني لم أكن سوى برغوث أصم يتقافز من هنا إلى هناك وسط الناس والزهور والقطط والكلاب.

كان عالمك الثقافي السامق مكاناً لم استطع أنا أبداً أن أتسلق إليه، فما بالك بأن أجد طريقي داخله. وحينها حدث هذا «الشيء» (ورفعت يدها إلى ثديها المفقود) لم أحاول بعدها أبداً. لامدرسة ولا عمل في البيت. كان لدي عذر دائم».

وأطبق صمت طويل.

قالت الممرضة أخيراً: «ماذا لو اخذتِ رشفة أخرى؟».

قال الدكتور روبرت موافقاً: «أجل عليك أن تشربي المزيد.»

«وأحطم الثالوث المقدس؟» ومنحته لاكشمي واحدة أخرى من ابتساماتها من خلال قناع الشيخوخة ومرض الموت.

رأى الدكتور روبرت فجأة الفتاة الضاحكة التي وقع في حبها منذ زمن يبلغ نصف عمر الانسان، وهو الحب الذي يبدو مع هذا وقد بدأ بالامس.

وبعد ساعة واحدة كان الدكتور روبرت قد عاد إلى كوخه.

قال بعد أن غير الضمادة على جرح ركبة ويل فارنابي: «سوف تكون وحيداً تماماً هذا الصباح. سوف يكون عليّ أن أذهب بالسيارة إلى مدينة شيفابورام لحضور اجتماع لمجلس الشورى. ستأتي إليك واحدة من طالبات التمريض حوالي الساعة الثانية عشرة لكي تحقنك وتأتيك بشيء تأكله. وبعد الظهر، ستعود إليك سوسيلا مرة أخرى حالما تنتهي من عملها في المدرسة.» نهض الدكتور روبرت ووضع يده للحظة على ذراع ويل

وقال: «إلى اللقاء في هذا المساء». كان قد قطع نصف طريقه إلى الباب حينما توقف واستدار ثانية ليقول: «كدت أنسى أن أعطيك هذا» ومن واحد من الجيوب الجانبية في سترته الواسعة أخرج كتيباً صغيراً أخضر اللون وقال: «هذا هو كتاب الراجا القديم المسمى: «ملاحظات حول حقيقة الحقيقة وعما يمكن أن يكون من المعقول عمله ازاء حقيقة الحقيقة»

قال ويل وهو يتناول الكتاب: «يا له من عنوان عجيب.»

قال له الدكتور روبرت مؤكداً: «وسوف يروق لك المضمون أيضاً إنه لايزيد عن صفحات قليلة هذا كل ما في الامر، ولكن ليس هناك تقديم أفضل منه إذا كنت تريد أن تعرف ما تسعى إليه بالا».

سأل ويل: «بهذه المناسبة من هو الراجا القديم؟»

ــ «أخشى أن تكون الصياغة الصحيحة لسؤالك هي من كان الراجا القديم؟ لقد مات الراجا القديم في الثالثة والثمانين بعد حكم دام زمناً يزيد على ثلاث سنوات عن فترة حكم الملكة فيكتوريا. ومات أكبر أبنائه قبل أن يموت هو، وخلفه حفيده الذي كان حماراً ــ ولكنه صمد للتجربة بأن عاش حياة قصيرة. والراجا الحالي هو ابن حفيد الراجا القديم.»

ــ «وإذا كان لي أن أسأل سؤالاً كيف تأتى أن دخل إلى الصورة شخص يدعى ماك فيل؟».

ــ لقد دخل اسم ماك فيل على الصورة لأول مرة في بالا في عهد الجد الاكبر للراجا القديم. إننا ندعوه راجا عصر الاصلاح. وقد كان ابتكار بالا الحديث شيئاً من عمله هو وجدي الاكبر. وقد دعم الراجا القديم عملهما وسار به أشواطاً بعيدة. ونحن الآن نبذل ما في وسعنا لكي نقتفي أثره».

رفع ويل في يده كتاب «ملاحظات حول حقيقة الحقيقة».

ــ «أيعطيني هذا تاريخ الاصلاحات»؟

هز الدكتور روبرت رأسه نافياً وقال: «إنه لايفعل أكثر من تقرير المبادىء التي حكمتها، اقرأ عن هذه المبادىء أولاً، وحينما أعود من شيفا بورام هذا المساء سأعطيك ملخصاً للتاريخ، ستحصل على فهم أحسن لما تم عمله بالفعل، إذا ما بدأت بمعرفة الذي كان لابد من عمله وهو الذي لابد أن يعمله دائماً في كل مكان كل من يملك فكرة واضحة عن حقيقة الحقيقة، فاقرأه أرجوك، إقرأه ولاتنس أن تشرب عصير فاكهتك في الحادية عشرة».

راقبه ويل وهو ينصرف، ثم فتح الكتاب الاخضر الصغير وشرع في القراءة

«١»

«لا يحتاج أحد أن يذهب إلى أي مكانٌ آخر: فنحن جميعاً هناك بالفعل فقط إذا عرفنا ذلك..

فإذا عرفت فقط من أكون في الحقيقة، فسوف أكفّ عن التصرف بالشكل الذي أظنه ما أكون، وإذا كففت عن التصرف بالشكل الذي أظنه ما أكون فوسف أعرف من في الحقيقة أكون..

وإذا سمح لي بالمعرفة الكائن المانوي(٥) المزدوج الذي أظنه نفسي فإنني أكون في الحقيقة ذلك التواؤم بين «نعم» و«لا»، الذي أعيشه حتى الوصول إلى التقبل الشامل والتجربة المباركة للواحد الذي ليس اثنين..

كل الكلمات عند الدين اساءة للادب.. فكل من يتفاصح بالكلمات عن بوذا، أو الله، أو المسيح، ينبغي أن يغسل له فمه بصابون مطهّر. ولأن الكائن المانوي المزدوج الذي أظنه نفسي لايطمح ألاّ يخلد إلى الابد سوى الـ«نعم» القائمة في كل زوج من المتناقضات، ولأن هذا الطموح لايمكن بطبيعة الاشياء أن يتحقق، فإن الكائن المانوي المزدوج المعزول الذي أظنه نفسي يحكم على نفسه بخيبة الأمل والإحباط المتكرر بلا نهاية، وبالصراعات المتكررة بلا نهاية مع الكائنات المزدوجة المانوية الأخرى الطامحة إلى نفس الشيء وخائبة الامال والمحبطة.

الصراعات وأنواع الإحباط: تلك هي موضوع التاريخ كله وموضوع قصة حياة كل فرد، قال بوذا صادقاً: «أنا أريك الحزن». ولكنه أيضاً أرانا نهاية الحزن. معرفة الذات، القبول الشامل، التجربة المباركة للواحد الذي ليس اثنين.

«٢»

الوجود الجيد هو ثمرة معرفة من تكون في الحقيقة. وثمرة الوجود الجيد هي أحسن أنواع العمل الجيد ولكن العمل الجيد لايثمر من تلقاء نفسه وجوداً جيداً. فنحن نستطيع

---

(٥) المقصود هنا بالكائن «المانوي» أو المزدوج، تشبيه الكائن بفكرة الديانة المانوية (الفارسية القديمة) التي قالت بأن الوجود منقسم دائمًا إلى نور وظلمة وخير وشر وفضيلة ورذيلة، وروح ومادة، وفكر وجسد.. إلى هذه اللانهاية من الازدواجات المتقابلة التي قد تلتقي، وتتوحد في كيان واحد ولكنها لاتمتزج أبداً وتتصارع حتى تنفصل إحداها عن زميلتها ودون أمل في أن يحدث تركيب بين الاثنين.وفي الكتاب الذي يقرأه ويل تنطلق الفكرة من الاتجاه المعاكس: أن كل شيء في الاصل «واحد» وليس اثنين، ووهمنا الداخلي هو الذي يجعلنا نظن أنفسنا كائنات مزدوجة، مانوية..

أن نكون ذوي فضيلة دون أن نعرف من نكون في الحقيقة. فالكائنات التي لاتزيد عن أن تكون طيبة ليست هي الكائنات الجيدة. إنها لاتعدو أن تكون أعمدة للمجتمع.

وكل عمود من أعمدة المجتمع هو شمشون الذي يهدمها، إنهم يتماسكون ويرفعون الأسقف، ولكنهم عاجلاً أو آجلاً يهدمون. لم يظهر أبداً ذلك المجتمع الذي كان أكثر العمل الجيد فيه ثمرة الوجود الجيد فيصبح عملاً صالحاً ومناسباً على الدوام. ولكن هذا لايعني أن مثل هذا المجتمع لن يظهر أبداً، أو أننا في بالا أغبياء إذ نحاول أن نبعثه إلى الوجود.

«٣»

الرواقي (٦) وصاحب مذهب اليوجا (٧) شخصان مستقيمان قويمان، يحققان منجزاتها العظيمة بأن يتظاهر الواحد منهما باستمرار وبانتظام بأنه شخص آخر. ولكننا لن نستطيع أن نتجاوز الازدواجية إلى الوجود الجيد عن طريق أن يتظاهر الواحد منا بأنه شخص آخر، حتى ولو كان هذا الآخر طيباً وحكيماً إلى درجة السمو.

الوجود الجيد هو أن نعرف من نحن في الحقيقة، ومن أجل أن نعرف من نحن في الحقيقة، فإننا يجب أولاً أن نعرف من نظن أنفسنا وإلى أي أفعال أو مشاعر تضطرنا هذه العادة السيئة في التفكير. إن لحظة واحدة من المعرفة الكاملة الواضحة بمن نظن أنفسنا، بينما لانكون كذلك في الحقيقة، تضع نهاية، للحظة، لتمثيلية الازدواجية غير المفهومة.

فإذا جددنا تلك اللحظات من معرفة ما لسنا عليه، حتى تصبح تلك اللحظات استمراراً دائماً فإننا قد نجد أنفسنا فجأة، عارفين بمن نحن في الحقيقة.

إن التركيز، والتفكير المجرد، والتمرينات الروحية، هي الاسس الثابتة في عالم

---

(٦) الرواقي Sois ـ أحد أتباع مذهب الرواقية Stoicism الذي أسسه زينو الفيلسوف الاغريقي أوائل القرن الثالث قبل الميلاد في أثينا والقائل بأن الشهوات ومطالب الجسد الزائدة عن الحاجة ينبغي أن تكبت في صرامة، لأن الخير هو الفضيلة والحق هو العقل، ولايمكن للعقل أن يبلغ الحق إلا إذا تخلص من سيطرة احتياجات الجسد. وينسب المذهب إلى بناء كالرواق مقوس السقف كان زينو يدرس فيه. EMB. 1970.

(٧) اليوجا Yoga نظام عقلي وجسدي ابتكره ومارسه كهنة البراهمانية الهنود. واليوجا تركز بشكل خاص على التأمل وتتبع نسقاً متكاملاً من القواعد النفسية والجسدية تسير وتتبع في تصاعد منتظم، فهي خطوات متلاحقة يقطعها «اليوجي» ويحقق بها زيادة مستمرة في تحكمه الارادي على جهازه العصبي وجسده. وكلمة «يوجا» السنسكريتية تعني «اتحاد» أو «تركيز». فاليوجا تطمح عن طريق التركيز الفعلي إلى السيطرة على الجهاز العصبي، ومن ثم على الجسد من أجل تحرير النفس من الشعور به حتى تتحد بالكون EMB. 1970.

الفكر. وإن نزعة الزهد ونزعة اللذة هما الاساسان الثابتان في مجالات الحس والشعور، والفعل. ولكن الوجود الجيد هو معرفة المرء من يكـون في الحقيقة بـالنسبة لـ «كـل» التجارب، ولذلك فلنكن على وعي ــ لنكن على وعي في كل موقف وفي كل الاوقات، وازاء كل ما نفعله أو نعانيه سواء كان مما يمكن أولا يمكن تصديقه، ممتعاً أو مؤلماً. هذه هي اليوجا الوحيدة الحقيقية، والتمرين الروحي الوحيد الذي يستحق أن نمارسه. كلما زاد ما يعرفه المرء عن الاشياء المتفردة، زاد ما يعرفه عن الله. فإذا ترجمنا لغة اسبينوزا [8] إلى لغتنا لأمكننا أن نقول: «كلما زاد ما يعرفه المرء عن نفسه بالنسبة لكل نوع من أنواع التجارب، زادت فرصه أن يتبين فجأة، ذات صباح جميل من هو في الحقيقة أو بالأحرى، من بحرف «م» بارزة «يكون» بحرف «ي» بارز «هو» بين قوسين «حقاً» بحرف «ح» بارز».

كان القديس يوحنا على حق.. ففي كون أخرس لعين، لم تكن الكلمة «هي» الله. فالله كشيء ينبغي الاعتقاد به، إنما هو رمز سلطت عليه الاضواء لكي يبرز ويتضح، إنه اسم مؤله: الله ــ «الله»..

الايمان شيء مختلف جداً عن الاعتقاد فالاعتقاد هو التسليم المنهجي في جدية مبالغة مسرفة، بكلمات لم يتم تحليلها. إن كلمات بولس، وكلمات محمد، وكلمات ماركس، وكلمات هتلر، ينظر إليها الناس ويسلمون بها في كثير من الجدية، ثم ماذا يحدث؟

ما يحدث هو أن يتخذ التاريخ ذلك المسار المزدوج الذي لامعنى له: السادية ضد الواجب أو «في وضع أسوأ بشكل لايقارن» السادية باعتبارها «هي» الواجب التكريس المخلص يواجهه ويتوازى معه جنون العظمة والاضطهاد الذي انتظم في مؤسسات واسعة، راهبات الرحمة يـرعينْ ويخـدمْن ضحايا وحشية المحاربين الصليبيين واعضاء محاكم التفتيش المنتمين إلى كنائس هؤلاء الراهبات انفسهن. أما الايمان، على العكس من ذلك، فلا يمكن أن يحمل على محمل الجد باسراف أو مبالغة، لأن الايمان هو الثقة المبررة عملياً بقدرتنا على أن نعرف من نحن في الحقيقة، وعلى أن ننسى الكائن المانوي المزدوج الذي

---

(8) سبينوزا Spinoza—Baruch (١٦٣٢ ــ ١٦٧٧) فيلسوف هولندي مشهور، كان ابـواه من اليهود البرتغاليين. ويعتبر اليوم أهم من عبر في الفلسفة الغربية عن فكرة «وحدة الوجود» القائلة بأن الله حال في كل شيء، وأن الكون المادي للانسان لاينفصل عن كونه الروحي. ولكن الفلسفة العلمية تعتبره من مؤسسي النزعة المادية الحديثة، بتأسيسه المنهج الرياضي (الهندسي) في الفلسفة فقد اعتقد اسبينوزا (مثل بيكون وديكارت في عصره) أن السيطرة على الطبيعة وتحسين ظروف الانسان وتكوينه هما الوظيفتين الرئيسيتين للمعرفة، وإن المعرفة هي وسيلة تحقيق الحرية في اطار الضرورة. وبذلك مهد لفكرته عن الطبيعة التي اصبحت عنده هي «الوجود الوحيد» لاتحتاج لشيء آخر لكي توجد، ولكنها «جوهر مقدس» إذا ما نظرنا إليها باعتبارها «الطبيعة الخلاقة» وبذلك تتضح الفكرة هنا: الاشياء (بما فيها الانسان) تتلاقى لكي تصبح هي الطبيعة، الجوهر المقدس..

سممه الاعتقاد في الوجود الجيد. اعطنا اليوم إيماننا اليومي، ولكن انقذنا، يا ربنا العزيز، من الاعتقاد».

* * *

سمع ويل طرقة خفيفة على البـاب، فارتفعت نظراته عن الكتاب.

«من هناك؟»

«أنا!» واعاد الصوت إلى ويل ذكريات غير سارة عن الكولونيل ديبا وعن تلك الرحلة الكابوسية في المرسيدس البيضاء. أفاق من ذكرياته على منظر موروجان يقترب من السرير وهو يرتدي صندلاً أبيض اللون، وبنطلوناً قصيـراً أبيض اللون كذلـك. وفي معصمه ساعة من البلاتين الابيض.

«لطيف منك أن تأتي لرؤ يتي!»

هاهو زائر آخر سيسأله عن حالته وما يحس به، ولكن موروجان كان مستغرقاً تماماً في الانشغال بنفسه حتى ليعجز عن الشعور بأي اهتمام بأي شخص آخر، قال في صوت الشاكي المضطهـد: «جئت إلى الباب منذ ثلاثة أرباع ساعة، ولكن الرجل العجوز لم يكن قد غادرك ولذلك كان عليّ أن أعود إلى البيت ثانية وهناك كان عليّ أن أجلس مع امي ومع الرجل الذي يقيم عندنا بينها كانا يتناولان الافطار...؟».

سأله ويل: «ولكن لماذا لم تستطع الدخول حين كان الدكتور روبرت هنا؟ أيكون حديثك معي ضد القواعد المرعية؟»

هز الصبي رأسه بصبر نافذ وقال: بالطبع لا. لم أشأ فحسب أن أجعله يعرف سبب مجيئي لرؤ يتك.»

قال ويل: «السبب؟ إن زيارة مريض عمل من أعمال الرحمة ـــ يستحق الثناء الكثير».

لم يشعر مورو بسخريته، وهو الذي مضى يفكر بثبات في شؤ ونه الخاصة. قال فجأة وبغضب تقريباً: «أشكرك على عدم إخبارك إياهم بأنك رأيتني من قبل».كان يتحدث بطريقة توحي بأنه يكره أن يضطر إلى إعلان اعترافه بالجميل. وأنه غاضب من ويل لأنه أسدى إليه الجميل الذي تطلّب منه هذا الاعتراف.

قال ويل: «استطعت أن اتبين أنك لاتريدني أن أقول شيئاً عن ذلك، ولذلك لم أقل شيئاً بالطبع».

تمتم موروجان من بين أسنانه قائلاً: «أردت أن أشكرك»، قالها بلهجة توحي بأنه يريد أن يكمل قائلاً: «ايها الخنزير القذر».

قال ويل بأدب مليء بالتهكم: «لاعليك!».

ياله من مخلوق لذيذ! كان يفكر بينما ينظر إليه بحب استطلاع تملؤه الرغبة في التسلية، في نصف الجسد الذهبي الناعم، وهذا الوجه، المطل بجانبه، مستقيم ومنتظم كنصف جسد لتمثال، ولكنه لم يعد تمثالاً اوليمبياً لأحد الآلهة، لم يعد كلاسيكياً نموذجي المقاييس ــ إنه وجه هيلليني بشري، متحرك وبالغ الانسانية. قارورة ذات جمال لايضاهى ــ ولكن علام تحتوي؟ فكّر بينه وبين نفسه: كان من سوء الحظ أنه لم يسأل هذا السؤال بجدية أكثر قليلاً قبل أن يمضي فينغمس في علاقته مع رفيقته بابز التي لايمكنه أن يتكلم عنها. ولكن بابز كانت أنثى. وعلى هذا فإنه بميله الجنسي إلى شبيهه في الذكورة ليس جديراً بأن يطرح السؤال العقلي الذي يريد أن يطرحه ولابد أن يكون هذا السؤال غير قابل لأن يطرحه كل من يشك في سلوكه ازاء الصبيان، خاصة إذا كان سيطرحه على شبيه الآلهة الصغير هذا ذي الدم الفوار الذي كان يجلس على طرف سريره. ولهذا فقد سأله: «ألم يكن الدكتور روبرت على علم بأنك ذهبت إلى ريندانج..؟»

ــ «كان على علم بالطبع. كل الناس علموا بذلك. لقد ذهبت إلى هناك لكي أبحث عن أمي. كانت تقيم هناك مع بعض أقاربها. وقد ذهبت وراءها لكي أعيدها إلى بالا. كانت رحلة رسمية تماماً.»

ــ «إذن لماذا أردت ألاّ أقول إنني قابلتك هناك!؟.».

تردد موروجان للحظة ثم نظر إلى ويل بجرأة: «لأنني لم أشأ أن يعرفوا بأنني كنت أقابل الكولونيل ديبا»

ــ «أوه. هكذا الأمر اذن». قال بصوت مرتفع وهو يبحث بابتسامته المداهنة عن تأكيد لفكرته: «كولونيل ديبا رجل بارز».

التقطت السمكة الطعم على الفور، دون شك من جانبها إلى درجة تدعو إلى الدهشة. التهب وجه موروجان الغضوب بالحماس، وفجأة برز انتينيوس بكل الجمال الساحر الذي تتمتع به مراهقته الغامضة. وقال: «أظنه رجلاً مدهشاً». ولأول مرة منذ دخوله الحجرة يبدو عليه اعترافه بوجود ويل فمنحه أكثر الابتسامات وداً. جعلته قادراً، بشكل مؤقت، على أن يحب كل الناس ــ وحتى أن يحب هذا الرجل الذي ينوء ببدينه الثقيل له من الامتنان.«انظر إلى ما يفعله «لريندانج».

قال ويل دون حماس ظاهر: «من المؤكد أنه يفعل الكثير لريندانج».

عبرت سحابة رمادية بوجه موروجان المتوهج. وقال وهو يقطب جبينه: «إنهم هنا لا يعرفون هذا الرأي ويرون أنه رجل لايطاق.»

ـ «من الذي يرى هذا؟»

ـ «كلهم إذا شئت الحقيقة!»

ـ «ولهذا فإنهم لايريدونك أن تراه».

كشر موروجان عن نواجذه مبتسمًا بانتصاره، وقد علا وجهه تعبير كتعبير التلميذ الشرير الذي قلد قفزة القنفذ حينما أدار المدرس ظهره، وقال: «لقد ظنوا أنني كنت مع أمي طوال الوقت.»

التقط ويل هذا المفتاح على الفور وقال: «هل كانت والدتك تعرف أنك كنت تقابل الكولونيل»!

ـ «بالطبع».

ـ «ولم يكن لديها اعتراض؟!»

ـ «إنها تؤيدني تماماً في هذا الاتجاه».

ومع هذا فإن ويل ظل يشعر بالثقة الكاملة مع أنه لم يكن مخطئاً حينما وردت إلى ذهنه صورة العلاقة بين هادريان وانتينيوس. أكانت المرأة عمياء لاترى.. أم كانت تريد أن ترى ما يحدث بينهما.

قال بصوت مرتفع: «ولكن إذا لم تكن «هي» تعارض في مقابلتك له، فلماذا يعترض الدكتور روبرت والباقون؟.. فنظر إليه موروجان بشك. وتبين ويل أنه قد أوغل كثيراً في منطقة محرمة، فأسرع إلى اضاءة الانوار الحمراء. قال وهو يضحك: «أيظنون أنه قد يحولك إلى الاعتقاد بالدكتاتورية العسكرية.»

كانت الاشارة الحمراء مفيدة للغاية فسار موروجان على هديها، وانفرجت أسارير الصبي وأشرق وجهه بالإبتسام.. وأجاب قائلاً: «ليس هذا هو ما يخشونه بالتحديد. وإنما يخشون شيئاً قريباً منه. إنه أمر بالغ الغباء» ثم أضاف قائلاً وهو يهز كتفيه: «ليس سوى البروتوكول الابله».

ارتبك ويل ارتباكاً حقيقياً واختلط الامر عليه. سأل: «بروتوكول!»

ـ «ألم يخبرك أحد عني بأي شيء»!.

ـ «ليس سوى ما قاله الدكتور روبرت أمس..»

طوح موروجان رأسه إلى الخلف وضحك. قال: «أتعني ما قاله عن كوني طالباً».

ـ «ماذا يضحك في أن تكون طالباً».

ـ «لاشيء لا شيء البتة.» صرف الصبي نظره بعيداً مرة اخرى. ساد بعض الصمت. وأخيراً قال موروجان وهو ما زال على تباعده: «السبب الذي يفترض ألاّ أقابل الكولونيل ديبا لاجله، هو أنه يرأس دولة بينما أرأس دولة اخرى. ومقابلتنا شأن من شؤون السياسة الدولية».

ـ «ماذا تعني»

ـ «تصادف أنني أنا راجا جزيرة ودولة بالا.»

ـ «راجا بالا؟»

ـ «منذ عام اربعة وخمسين. كان هذا حين مات أبي».

ـ «أفهم من هذا أن والدتك هي الراني»!

ـ «والدتي هي الراني».

ـ «أقم خط اتصال ساخن بالقصر» ولكن ها هو القصر يحاول أن يقيم خط اتصال ساخن به. من الواضح أن العناية الالهية كانت تقف إلى جانب جو ألدهايد، وتؤدي واجبها طول الوقت.

سأله: «أكنت أنت الابن الاكبر».

أجابه موروجان: «الابن الوحيد». ثم أضاف لكي يجعل تميزه وتفرده أكثر تأكيداً: «الطفل الوحيد».

قال ويل: «وبذلك لايكون هناك أي احتمال للشك. يا إلهي! ينبغي عليّ أن أناديك «صاحب الجلالة». أو على الأقل «يا سيدي». كان ينطق هذه الكلمات ضاحكاً، ولكن موروجان لم يستجب لهذه الكلمات الضاحكة إلا بأكثر صور الجدية كمالاً، متخذاً فجأة، نوعاً ملكياً من الوقار.

قـال: «سيكون عليك أن تناديني بهذه الطريقة في نهاية الاسبوع القادم فبعد عيد ميلادي سأبلغ الثامنة عشرة. وهذه هي السن التي ينصب فيها راجا دولة بالا ويجلس على عرشه. ولست حتى ذلك الحين سوى موروجان ميلندرا. مجرد طالب يتعلم الشيء القليل من كل شيء».وأضاف ببعض الاحتقار: «بما في ذلك تربية النباتات، حتى أكون عارفاً بما أفعله حينما يؤون الأوان.»

«وحينما يؤون الأوان. ماذا تنوي أن تفعل؟».بين هذا الانتينيوس الجميل، الغلام الامرد. وبين وزارته العجيبة النادرة، كان هناك تناقض، رأى ويل أنه تناقض مضحك للغاية.. استمر يقول بلهجة مازحة: «كيف تنوي أن تتصرف ! أتقطع رؤوسهم!».

ثـمّ بالفرنسية متمثلا بكلمة لويس الرابع عشر: «الدولة هي أنا.»

تحولت الجدية والوقار الملكي إلى نزعة للتوبيخ العنيف: «لاتكن غبياً».

اندفع ويل، مبتهجاً، ليمثل حركات الاعتذار. قال: «إنما اردت أن أكتشف إلى أي درجة تنوي أن تحكم حكمًا مطلقاً».

أجاب موروجان بجدية وخطورة: «دولة بالا دولة ملكية دستورية».

«وبكلمات اخرى فإنك لن تكون سوى رئيس دولة رمزي ــ أن تملك مثل ملكة انجلترا، ولكن دون أن تحكم».

كان موروجان يصرخ وهو يقول ناسياً وقاره الملكي: «لا. لا. ليس مثل ملكة انجلترا. إن راجا بالا لايملك فقط. إنه يحكم». كان مستفزاً إلى درجة تمنعه من الجلوس هادئاً. قفز موروجان من مكانه ومضى يذرع أرض الحجرة. راح يقول: «إنه يحكم على أساس دستوري. ولكن بالله، إنه يحكم، يحكم».سار موروجان إلى النافذة ونظر إلى الخارج. وحينما استدار ثانية بعد لحظة من الصمت، واجه ويل بوجه حوله التعبير الجديد الذي علاه إلى رمز من نوع شائع جداً للقبح النفسي بما ارتسم عليه من احمرار وتعاريج شاذة. وفي لهجة ونغمة كان من الواضح أنـه استعارهمـا من بعض أفلام العصـابات الامريكية. قال: «سوف أريهم من هو الرئيس هنا.» ومضى يقول ما يكاد يكون ترديداً لمخطوط واحد شائع ومنحط: «يظن هؤلاء الناس أنهم يستطيعون أن يدفعوني إلى حيث يشاؤون. إلى الطريق الذي سبق أن دفعوا والدي إليه.. ولكنهم يقعون في خطأ فادح.» وأطلق من حلقه صوتاً قبيحاً كالشخير، وهز رأسه الجميل المعطر، وردد قائلاً: «خطأ فادح».

كان قد لفظ تلك الكلمات من بين أسنان مطبقة وشفتين تكادان لاتتحركان وكان الفك السفلي قد برز إلى الأمام لكي يصبح شبيهاً بفك مجرم يظهر في بعض التمثيليات الفكاهية، ولمعت العينان ببرودة وسط الاجفان التي شدتها التقطيبة وضيقتها، بدا سخيفاً ومفزعاً في لحظة واحدة. كان انتينيوس قد أصبح في تلك اللحظة صورة كاريكاتيرية لكل الفتيان القساة في كل الافلام والصور من الدرجة الثانية التي تصنع منذ أزمنة لاتستوعبها الذاكرة.

سأله ويل: «من كان يشرف على شؤون البلاد قبل بلوغك السن الدستورية؟»

أجابه موروجان باحتقار: «ثلاثة مجالس من الشيوخ الرجعيين. مجلس الوزراء ومجلس النواب، ثم مجلس شورى الملك الذي يمثلني أنا، الراجا.»

قال ويل: «يا للشيوخ الرجعيين المساكين! سرعان ما سيتلقون صدمة حياتهم»... ضحك بصوت مرتفع وهو يدخل بمرح في جو الاستهتار المنطلق وقال: «لا أرجو إلا أن أكون هنا ــ ما أزال ــ لكي أرى ذلك يحدث».

اشترك موروجان في الضحك ــ لم يشترك فيه بوصفه الفتى الخشن القاسي المرح، ولكنه اشترك فيه بدافع واحدة من تلك التحولات المفاجئة في المزاج ووسيلة التعبير، التي جعلت ويل يتنبأ بأنها لن تساعده على أن يلعب دور الفتى القاسي الغليظ مثلما يستطيع أن يلعب دور التلميذ الشرير المنتصر الذي كانه منذ دقائق قليلة مضت. ردد موروجان بسعادة: «صدمة حياتهم».

«هل وضعت أي خطط تفصيلية!»

قال موروجان: «وضعت معظمها بالتأكيد». وعلى وجهه السريع التغير، تراجع تعبير التلميذ الشرير المنتصر لكي يحل محله رجل الدولة، خطير ولكنه ضعيف بصورة مطردة الزيادة. قال: «الأولوية الرئيسية: تعطى لتمدين هذا المكان وصبغه بالصبغة الحديثة. انظر إلى ما اصبحت ريندانج قادرة على فعله بسبب حقوقها من استغلال البترول».

سأله ويل: «ولكن ألا تحصل «بالا» على أي حقوق من استغلال البترول». سأل سؤاله بذلك المظهر البريء الذي يوحي بالجهل الكامل، وهو المظهر الذي وجد من خبرته الطويلة أنه أحسن الطرق لانتزاع المعلومات التي تنير له الطريق من أصحاب العقول البسيطة والاحساس المتضخم بالاهمية.

قال موروجان: «ولا مليم. ومع هذا فإن الطرف الجنوبي للجزيرة يموج ويعوم فوق بحار من البترول. ولكن الشيوخ الرجعيين لايفعلون به شيئاً باستثناء بعض الآبار البائسة التي تغطي الاستهلاك المحلي. وهم، أكثر من هذا، لايسمحون لأحد بأن يفعل به شيئاً». كان غضب رجل الدولة يتزايد، وكانت قد برزت الآن علامات في صوته وطريقة تعبيره توحي بالفتى القاسي الغليظ. استطرد يقول: «ناس من كل صنف قدموا العروض، شركة بترول جنوب شرق آسيا، شل الهولندية الملكية، ستاندارد كاليفورنيا.. ولكن الشيوخ الاغبياء الملاعين لاينصتون».

ــ «أليس بوسعك إقناعهم بالاصغاء؟»

قال الفتى القاسي الغليظ: «سوف أجعلهم يصغون هؤلاء الملاعين»

قال ويل: «هذه هي الشجاعة.» ثم أضاف بطريقة عرضية: «وأي العروض تفكر في قبولها!»

«الكولونيل ديبا يعمل مع ستاندارد كاليفورنيا. ويظن أنه قد يكون من الافضل أن نفعل نفس الشيء.»

ــ «ما كنت أفعل ذلك دون أن أحصل على الأقل على بعض العروض المنافسة.»

ــ «هذا ما افكر فيه أيضاً. كذلك تفكر والدتي.»

ـ «منتهى الحكمة.»

ـ «امي تقف بقوة إلى جانب شركة بترول جنوب شرق آسيا. إنها تعرف رئيس مجلس الادارة، لورد الدهايد.»

ـ «إنها تعرف لورد الدهايد! يا للغرابة؟» كانت نغمة الدهشة المبتهجة مقنعة إلى أقصى حد. أضاف يقول: «جو الدهايد صديق لي. وأنا أكتب للصحف التي يملكها. بل إنني أقوم بمهمة سفيره الخاص» ثم أضاف يقول: «وبيني وبينك هذا هو السبب الذي قمنا لأجله بتلك الرحلة إلى مناجم النحاس، فالنحاس واحد من الاهتمامات الجانبية لجو. ولكن البترول بالطبع هو ما يهواه حقاً».

حاول موروجان أن يتظاهر بالذكاء.. قال: «ماذا يمكن أن يكون على استعداد لعرضه!»

التقط ويل المفتاح وأجاب باسلوب مستعار من أحسن أساليب الافلام الحديثة: «يعرض ان يدفع كل ما تدفعه شركة ستاندارد مع زيادة قليلة.»

قال موروجان مقتبساً من نفس المصدر وأومأ بحكمة: «في هذا ما يكفي من العدل». ساد صمت طويل، وحينما تكلم ثانية، بدا كما لو كان رجل الدولة يدلي بتصريح في مقابلة مع ممثلي الصحافة.

قال: «سوف نستخدم حقوقنا في استغلال البترول بالشكل التالي: ستخصص نسبة خمسة وعشرين بالمائة من كل ما نحصل عليه من أموال لاعادة بناء العالم.»

سأل ويل باهتمام: «هل لي أن أسأل عن كيف تنوي بالتحديد أن تعيد بناء العالم!»

ـ «من خلال حملة الروح الصليبية. أتعرف ما هي حملة الروح الصليبية؟»

ـ «بالطبع. ومن الذي لا يعرفها؟»

قال رجل الدولة بخطورة: «إنها حركة عالمية عظيمة. مثل المسيحية الاولى. أسستها أمي».

أشار ويل بعض إشارات يسجل بها إعجابه ودهشته.

ردد موروجان: «أجل ، اسستها أمي» ثم أضاف بقوة: «وأنا أعتقد أنها أمل الانسان الوحيد».

وقال ويل فارنابي: «تماماً. تماماً».

استمر رجل الدولة يقول: «طيب، هكذا تستخدم نسبة الخمسة والعشرين بالمائة

الاولى من حقوق استغلال البترول. أما الباقي فسوف يستخدم في برنامج هائل للتصنيع». ثم تغيرت لهجته مرة أخرى وهو يقول: «هؤلاء الاغبياء هنا لايريدون إلاّ تصنيع بعض المناطق الصغيرة ثم يتركون بقية البلاد على ما كانت عليه منذ ألف عام».

ــ «بينما انت تريد المضي إلى أقصى المدى. التصنيع من أجل التصنيع».

ــ «كلا التصنيع من اجل البلاد. التصنيع لكي تصبح «بالا» قوية. ولكي نجعل الشعوب الاخرى تحترمنا. انظر إلى ريندانج. في غضون خمس سنوات سيكونون قادرين على صنع كل البنادق ومدافع الهاون والذخيرة التي يحتاجونها. وسوف يمر وقت طويل قبل أن يتمكنوا من صنع الدبابات. ولكنهم في اثناء ذلك يستطيعون شراءها من مصانع سكودا بالمال الذي يأتيهم من البترول.»

سأله ويل ساخراً: «ومتى يصلون إلى مستوى صناعة القنابل الهيدروجينية؟»

أجابه موروجان: «إنهم حتى لن يحاولوا صنعها» ثم أضاف: «ولكن على كل حال، فإن القنابل الهيدروجينية ليست السلاح المطلق الوحيد». لفظ العبارة الاخيرة باستمتاع وتلذذ، كان من الواضح أنه وجد أن طعم عبارة «السلاح المطلق» لذيذ إلى درجة كبيرة.. «هناك الاسلحة الكيمياثية والبيولوجية. الكولونيل ديبا يسميها قنابل الفقراء الهيدروجينية. من أول ما سأقوم به هو بناء مشروع ضخم لصنع مبيدات الحشرات».

ضحك موروجان وغمز بعينه وقال: «إذا كان بإمكانك أن تصنع مبيدات الحشرات، فسوف يكون بوسعك أن تصنع غاز الاعصاب».

تذكر ويل ذلك المصنع الذي لم يكتمل بعد في ضواحي ريندانج ــ لوبو.

كان قد سأل الكولونيل ديبا وهم ينطلقون مسرعين بالمرسيدس البيضاء: «ماهذا؟»

وكان الكولونيل قد أجابه: «مبيدات للحشرات» ثم كشر عن أسنانه البراقة البيضاء في ابتسامة عريضة وقال: «سرعان ما سنكون قادرين على تصدير هذه المواد إلى كل بلدان جنوب شرق آسيا.»

في ذلك الوقت بالطبع، كان قد ظن أن الكولونيل لم يقصد إلا ما قاله أما الآن.. وتخيل ويل نفسه وهو يهز كتفيه مرتعشاً. الكولونيلات سيظلون كولونيلات، وسيظل الصبيان، حتى الصبيان من نوع موروجان، صبياناً عاشقين للبنادق، وسوف يكون هناك دائماً المزيد من الوظائف للمراسلين الخصوصيين الذين يقتفون آثار الموت.

سأل ويل بصوت مرتفع: «وهكذا فسوف تقوم بتقوية جيش بالا؟»

ــ «أقوم بتقويته؟ كلا ــ سوف أخلقه. ليس لدى بالا أي جيش»

ـ «على الاطلاق»؟

ـ «لاجيش على الاطلاق. إنهم جميعاً من المؤمنين بالسلم والمواجهة السلمية».كانت حروف السين انفجارات من الاحتقار، وكانت حروف الميم التي تليها في كلمة «السلم» خافتة بازدراء وأضاف قائلاً: «سيكون علي أن أبدأ من الصفر».

ـ «وسوف تخلق الروح العسكرية بينما تقوم بالتصنيع، أهذا هو الامر؟»

ـ «بالضبط».

ضحك ويل وقال: «إلى الوراء نحو الاشوريين! لسوف يُذكر اسمك في التاريخ كثوري حقيقي».

قال موروجان: «هذا هو ما أرجوه. لان هذه هي ما سوف تكون عليه سياستي: الثورة المستمرة».

صفق ويل وقال: «حسن جداً».

ـ «لن أكون سوى الاستمرار للثورة التي بدأها منذ مائة سنة الجد الاكبر للدكتور روبرت، حينما جاء إلى بالا وأعان جد جدي على تنفيذ أول الاصلاحات هنا. كان بعض ما فعلاه، رائعاً حقاً. ليس كل ما فعلاه، إذا سمحت لي». كان يريد أن يصحح نبرته الدالة على الاعجاب، ثم هز رأسه المجعد الشعر في حركة رفض حكيمة وقورة في مثل الوقار العابث الذي يجلل تلميذاً كان يمثل دور بولونيوس حينما يقف ليتلقى تحية الجمهور في نهاية عرض مدرسي لمسرحية «هاملت» وأضاف يقول: «ولكنهما على الأقل قد فعلا بعض الاشياء بينما تحكمنا هذه الايام مجموعة من المحافظين الذين لايفعلون شيئاً، محافظين على البدائية، وهم غير جديرين بأن يرفعوا إصبعاً واحدة لتحقيق التحسينات الحديثة.. ومحافظين بطريقة راديكالية، فهم يرفضون أن يغيروا شيئاً من الأفكار الثورية القديمة الرديئة التي يجب أن تتغير. إنهم لن يصلحوا الاصلاحات واستطيع أن أقول إن بعضاً مما يدعونه بالاصلاحات لما يثير الاشمئزاز الكامل».

ـ «إذا سمحت لي، أي أنك تعني أن لهم موقفاً خاصاً يتعلق بالجنس»؟

أومأ موروجان برأسه وحول وجهه بعيداً. ولدهشته رأى ويل أن وجه الصبي يحمرّ خجلاً.

قال له: «اعطني مثلاً».

ولكن موروجان عجز عن الافصاح عما برأسه.

قال: «اسأل دكتور روبرت. اسأل فيجايا. إنهما يظنان هذا الشيء من الأشياء

الرائعة . والحق إنهم جميعاً يظنون ذلك. وهذا أحد الاسباب التي لاتجعل أحداً يرغب في التغيير. إنهم يودون أن يظل كل شيء على ما هو عليه، يسير بنفس الطريقة المقرفة القديمة، إلى أبد الأبدين».

جاء صوت ثري من طبقة «الكونترالتو» مردداً بطريقة تهكمية: «إلى أبد الابدين»

قفز موروجان واقفاً على قدميه وقال: «أمي»!

التفت ويل فرأى عند الباب امرأة ضخمة الجسم متوردة الوجه ملتفة من رأسها حتى قدميها بسحابات ثقيلة من قماش الموسلين الأبيض.«فكّر في أن ثيابها متنافرة مع شكلها، لأن هذا النوع من الوجه والجسم يتناسب أكثر مع البنفسجي والأحمر الضارب إلى الزرقة والأزرق الباهت». وقفت في مكانها تبتسم واعية بما تبعثه من إحساس بالغموض وقد رفعت ذراعاً لحيًا أسمر اللون وأسندت يدها المثقلة بالجواهر والحلي على مصراع الباب، في الوضع الذي تتخذه الممثلة العظيمة، البطلة الأولى أو الـ «بريمادونا» الشهيرة إذ تتوقف لدى دخولها إلى منصة العرض أول مرة لكي تتقبل تحيات عشاقها الجالسين على الجانب الآخر من أضواء المنصة الأرضية. وفي الخلفية وفي صبر من ينتظر دوره، وقف رجل طويل يرتدي حلة من قماش الداكرون الرمادي الباهت، حياه موروجان وهو يناديه باسم «مستر باهي»، وهو ينظر إليه عبر التجسيد الهائل الحجم للامومة الذي كان يملأ فراغ الباب.

انحنى مستر باهي دون أن يتكلم، وهو ما زال واقفاً في موقع جانبي بعيداً عن الاضواء.

التفت موروجان ثانية إلى أمه وسألها: «هل « مشيت حتى هنا؟». عبرت لهجته عن الشك والقلق المترع بالإعجاب. السير حتى هنا — يا لها من فكرة لا يمكن أن ترد إلى الذهن! ولكن إذا كانت قد سارت بالفعل، فيالها من بطولة: «مشيت كل الطريق؟»

رددت وراءه بلهجة رقيقة ممتعة: «كل الطريق يا طفلي الحبيب». هبط الذراع المرفوع، وانزلق برفق ليستقر حول جسم الصبي النحيف وليضغط عليه فيغرسه بين طيات القماش المتهدلة ويلصقه بالثديين الهائلين، ثم اطلقه مرة ثانية. . قالت: «اجتاحني شعور قوي من مشاعري الملهمة». لاحظ ويل أنها تتمتع بطريقة ترغمك على سماع الحروف الأولى في بدايات الكلمات التي تريد أن تؤكدها. استمرت تقول: «قال عصفورتي الصغير: اذهبي وقابلي هذا الغريب المقيم في منزل دكتور روبرت. اذهبي!» وسألته أنا. «الآن؟ رغم حرارة الجو؟» (قالتها بالفرنسية)، «ولكن سؤالي جعل عصفوري الصغير يفقد صبره، فقال: يا امرأة، امسكي لسانك الابله وافعلي ما تؤمرين، وها أنا هنا، يا مستر

فارنابي.» تقدمت نحوي بيدها الممدودة تحيطها وتتقدمها موجة قوية من رائحة زيت الصندل القوية.

انحنى ويل فوق الاصابع الغليظة المثقلة بالجواهر وتمتم ببعض كلمات غير مسموعة ولكنها انتهت بعبارة: «يا صاحبة السمو..»

قالت منادية: «باهو» لكي تستخدم الحق الملكي في نداء الناس بأسمائهم المجردة دون القاب.

كان الممثل المساعد قد طال انتظاره لدوره، فدخل دخلة مسرحية وتم تقديمه باعتباره «صاحب الفخامة» عبد الباهي، سفير ريندانج، وقالت الام: «عبد البيير باهي ـ طالما أن أمه كانت باريسية (قالتها بالفرنسية) ولكنه تعلم لغته الانجليزية في نيويورك».

حينما صافح ويل السفير وهز يده، فكر في أنه يشبه الراهب الايطالي المتعصب «سافو نارولا»[٩] ولكنه «سافورنارولا» يضع المونوكل ويرتدي ثياباً صنعت في شارع «سافيل دو».

قالت الراني: «باهي هو العقل المفكر للكولونيل ديبا.»

«يا صاحبة السمو، إن هذا، إذا سمحت لي بالكلام، لاغراق لي بالتعطف، ولكنه ليس عطفاً كافياً على الكولونيل».

كانت كلماته وأسلوبه في الحديث رسمية إلى درجة تجعلها قريبة من الإضحاك، مزيج مختلط من الاحساس بالأهمية ومن التهوين من الذات.

استمر يقول: «توجد العقول حيث ينبغي للعقول أن توجد ـ في الرأس. أما بالنسبة لي، فلست سوى جزء من الجهاز العصبي الحساس لدولة ريندانج».

قالت الراني بالفرنسية: «وإلى أي حد هو حساس؟» ثم أضافت: «إن باهي، بين صفاته الكثيرة الاخرى يا مستر فارنابي، هو آخر الارستقراطيين. لابد أن ترى قصره

(٩) سافونارولا Savonarola (١٤٥٢ ـ ١٤٩٨) راهب واعظ متعصب من فلورنسا في النصف الاخير من العصور الوسطى. قاد إحدى حركات الاصلاح الديني الاولى في فلورنسا التي كانت رد فعل للنزعة الحسية والدنيوية في روما، فقاد حركته ضد الثقافة العلمانية وضد النزعة الحسية في الفن والحياة. واصطدم بقوى الدولة الاساسية (اسرة مديتشي) والكنيسة (البابا بول الثامن). وبتصديه للبابا، وعصيانه أوامره بالكف عن الوعظ ورفضه قبعة الكاردينال، ثم تصديه للحزب السياسي المنتصر في فلورنسا (حزب المغضبين) أفسح الطريق أمام أعدائه لكي يقبضوا عليه بتهمة الهرطقة والكفر وادعاء النبوة. شنق ودفن مع عدد من تلامذته في اليوم المماثل لليوم الذي أحرق فيه عدة آلاف من الكتب واللوحات الفنية، في نفس الميدان بفلورنسا.

الريفي! مثل قصور الف ليلة! يصفق المرء بيده ــ وعلى الفور يهب ستة من الخدم لتلبية أوامرك.. حينما يأتي موعد عيد ميلادك، يقام احتفال ليلي في الحدائق.. الموسيقى، والمرطبات، والفتيات الراقصات، ومائتان من الحراس يحملون المشاعل المضيئة، إنها حياة هارون الرشيد، ولكنها مزودة بالأدوات الحديثة».

قال ويل: «يبدو هذا ممتعاً للغاية». قال ما قاله وهو يتذكر القرى التي مر بها وهو يركب سيارة الكولونيل المرسيدس البيضاء ــ الاكواخ المصنوعة من الاغصان المجدولة والمزابل، والاطفال المصابين بكل انواع الرمد، والكلاب النحيفة كالهياكل العظمية، والنسوة المنحنيات تحت أحمالهن الهائلة.

واستمرت الراني تقول: «إنه ذواقة، ذو عقل ممتلىء، وفوق كل ذلك» وخفضت صوتها «يتمتع باحساس عميق لايخطىء بكل ما هو مقدس وإلهي».

احنى مستر باهي رأسه، وساد الصمت.

بعد لحظة، كان موروجان قد جذب مقعداً. وكانت الراني قد لمحته لمحة خاطفة دون أن تنقل عينيها ــ وبثقة ملكية من أن شخصاً ما ينبغي دائماً، وبطبيعة الأشياء، أن يكون على مقربة منها لكي يحميها من أي طارىء سيىء أو مما قد يقلل من وقارها وعظمتها ــ بهذه الثقة جلست الراني بكل الثقل الملكي لكيلوجراماتها المائة.

قالت لويل: «أرجو ألا تشعر بأن زيارتي نوع من التطفل». فأكد لها أنه لا يشعر بذلك، ولكنها استمرت في الاعتذار، قالت: «كان ينبغي أن ابلغك برغبتي في زيارتك أولاً. كان ينبغي أن أطلب الاذن منك. ولكن عصفوري الصغير كان يقول: «كلا.. ينبغي أن تذهبي الآن». ولم يكن بوسعي أن أسأل عن السبب.. ولكننا سنكتشف السبب في الوقت المناسب.. ثبتت على عينيه عينيها البارزتين، ومنحته ابتسامة غامضة. وأضافت تقول: «والآن ، وقبل كل شيء، كيف حالك يا مستر فارنابي؟»

ــ «كما ترين يا سيدتي، في حالة جيدة جداً».

ــ «حقاً؟» ومضت العينان الجاحظتان تتفحصان وجهه ملياً بطريقة أشعرته بالحرج. ثم أضافت تقول: «يمكنني أن أرى أنك رجل من النوع البطولي القوي الشكيمة الذي يصر على أن يطمئن اصدقاءه حتى وهو على فراش الموت».

قال: «إنك تبالغين في الثناء عليّ. ولكن ما حدث هو أنني في حالة طيبة. وقد تحقق هذا بطريقة مدهشة، مع وضع كل شيء في الاعتبار، بطريقة أشبه بالمعجزة».

قالت الراني: «المعجزة، كانت هي نفس الكلمة التي استخدمتها حينما سمعت بخبر هرويك. كان هذا معجزة».

عاد ويل يقتبس من رواية «ايرهون» فقال: «وقفت العناية الالهية بجانبي، كما شاء الحظ أن تقف».

بدأ مستر باهي في الضحك، ولكنه حينما لاحظ أن الراني فشلت بوضوح في أن تفهم النكتة، عاد فغير رأيه وتعمّد أن يغير الصوت الدال على المرح إلى «كحة» مرتفعة، وكانت الراني تقول، وصوتها «الكونترالتو» الثري المثير يرتعش: «يا للصدق! العناية الالهية تقف دائمًا إلى جانبنا». وحينما رفع ويل حاجبه متسائلاً، أسرعت تصحح قولها: «اعني، انها تبدو كذلك في عيون اولئك الذين يفهمون حقاً» مع التركيز على حرف الياء وحرف الحاء «ويصدق هذا حتى حينما تبدو كل الاشياء وكأنها تتآمر ضدنا «ثم بالفرنسية» بالتحديد في قلب الكارثة. أنت تفهم الفرنسية بالطبع يا مستر فارنابي؟» وأومأ ويل برأسه بينما استطردت تقول: «إنها ترد إلى لساني دائمًا بسهولة أكثر مما ترد لغتي الاصلية، أو الانجليزية أو البالانية» وفسرت ذلك بقولها: «فبعد كل تلك الاعوام في سويسرا، أولاً في المدرسة، ثم مرة أخرى فيما بعد، حينما كانت صحة طفلي المسكين في خطر» وربتت على ذراع موروجان العاري «وكان علينا أن نذهب لكي نعيش في الجبال. وهذا ما يجسد ما كنت أقوله عن وقوف العناية الالهية دائمًا إلى جانبنا. فحينما أخبروني بأن ولدي الصغير كان على شفا الهلاك، نسيت كل شيء كنت قد تعلمته. اصابني الجنون والخوف واللهفة، لم أكن مؤدبة مع الله إذ سمح لمثل ذلك بالحدوث. يا له من عمى مطلق! فقد تحسنت صحة طفلي، وكانت تلك الأعوام التي قضيناها بين الثلوج الابدية هي أسعد سنوات حياتينا ــ ألم تكن كذلك يا حبيبي؟»

قال الصبي موافقاً بما بدا أنه أقرب ما يكون إلى الاخلاص الكامل: «أسعد سنوات حياتنا».

ابتسمت الراني في انتصار، وضمت شفتيها الحمراوين الممتلئتين وزمتهما وأرسلت إلى طفلها قبلة في الهواء بصوت واهن كصوت الرشفة الطويلة، ثم استمرت تقول: «ها أنت ترى يا مستر فارنابي العزيز، ها أنت ترى. وهذا واضح حقاً من تلقاء نفسه. لاشيء يحدث بالصدفة. هناك خطة عظمى، وهناك خطط صغرى لاحصر لها في داخل الخطة العظمى. لكل واحد من بيننا خطة صغيرة خاصة».

قال ويل بأدب: «تماماً. تماماً».

واستمرت الراني تقول: «لقد مرّ بي زمن لم أعرف فيه هذا إلا بعقلي وحده. أما الآن فأنا أعرفه بقلبي. إنني حقاً». وتوقفت لبرهة لكي تستعد لاطلاق الحرف الأول من الكلمة بتأكيد كبير ثم قالت: «افهم».

تذكر ويل ما قاله عنها جو ألدهايد: «إنها مجذوبة كالجحيم». ولابد أنه يعرف ذلك

خير معرفة بوصفه من المترددين على جلسات تحضير الارواح طول حياته.

قال: «افهم من هذا يا سيدتي أنك بالفطرة مجذوبة إلى عالم مما وراء الطبيعة»

اعترفت قائلة: «منذ مولدي. ولكنني بذلك، وقبل كل شيء، عن طريق التمرين. وأنا في غنى عن القول بأن تمريني كان في شيء آخر.»

ـ «شيء آخر؟»

ـ «في حياة الروح، فكلما أوغل المرء وتقدم في الطريق، فإن كل «علامات الانجذاب»، كل المواهب الروحية والطاقات الخارقة، تنمو وتتطور بصورة تلقائية».

ـ «أيكون ذلك حقاً؟»

أكد له موروبجان بفخر: «تستطيع أمي أن تفعل أكثر الاشياء غرابة وسحراً للخيال.»

قالت أمه بالفرنسية: «لا تبالغ يا عزيزي».

أصر موروجان قائلاً: «ولكن هذه هي الحقيقة».

تدخل السفير ليقول: «إنها حقيقة أستطيع تأكيدها». ثم أضاف وهو يبتسم لنفسه: «وأنا اؤكدها على الرغم مني. فأنا ، بوصفي شكاكاً في هذه الأمور طول عمري، لا أحب أن أرى المستحيل وهو يحدث. ولكنني مصاب بضعف سيء الحظ تجاه الامانة، وحينما يحدث المستحيل بالفعل أمام عيني، فإنني مضطر، رغم أنفي، إلى أن أكون شاهداً على الحقيقة. إن صاحبة السمو تستطيع بالفعل أن تقوم بأكثر الاشياء غرابة وسحراً للخيال».

قالت الراني وهي تنتفض بالسعادة: «طيب، إذا كنت تحب أن تعبّر عن الأمر بهذه الطريقة، ولكن لاتنس أبداً يا باهي، إياك أن تنسى. ليس للمعجزات أية أهمية على الاطلاق. إنما المهم هو الشيء الآخر، الشيء الذي يصل إليه المرء في نهاية الطريق».

قال موروجان مؤكداً: «بعد جلسة الشعائر الرابعة يا أمي.»

رفعت الراني اصبعها إلى شفتيها محذرة: «يا حبيبي! هذه أمور لايصح للمرء أن يتحدث عنها».

قال الصبي: «آسف!» وأطبق صمت طويل محمّل بأشياء كثيرة.

اغمضت الراني عينيها، وتبعها مستر باهي مقلداً، تاركاً المونوكل يسقط عن عينيه، فأصبح صورة من سافونارولا في صلاة صامتة.. نظر إليها ويل وتساءل بينه وبين نفسه،

ما الذي يجري وراء هذا القناع المصنوع من التركيز والتفكير الساكن، الخالي من الحياة تقريباً؟.

سألها أخيراً: «هل لي أن أسأل يا سيدتي، كيف حدث أن وجدت الطريق لاول مرة؟».

لم تنبس الـراني بحرف لمـدة ثانيـة أو ثانيتـين. جلست في مكانها فقط بعينيهـا المغمضتين، تبتسم بطريقة «بوذا» المعبرة عن الرضا والقناعة الغامضة. وأجابت أخيراً: «العناية الالهية عثرت عليه من أجلي».

ــ «بالتأكيد، بالتأكيد، ولكن لابـد أن هناك منـاسبة ومكـاناً ووسيلة في شكل إنسان».

«سأخبرك بما تريد». وانفرجت الاجفان المغمضة، فوجد نفسه مرة ثانية تحت النظرة المحدقة اللامعة التي لاتنحسر، الصادرة من عينيها الجاحظتين.

كان المكان هو لوزان في سويسرا، والزمان العام الاول من بداية تعلمها هناك، أما الاداة المختارة فكانت هي العزيزة الضئيلة الحجم السيدة «بالوز»، كانت العزيزة الضئيلة الحجم بالوز هي زوجة العجوز العزيز البروفيسور «بالوز» أما البروفيسور بالوز العجوز، فكان هو الرجل الذي أوكل أبوها سلطان ريندانج إليه أمر رعايتها، بعد الكثير من التفكير العميق والسؤال عنه بعناية وحذر. كان البروفيسور في السابعة والستين من عمره، وكان يدرس الجيولوجيا كما كان بروتستانتياً من مذهب شديد التمسك بتعاليم الدين، حتى لكان من الممكن أن يكون مسلمًا باستثناء شربه كأساً واحدة من الكلاريت مع عشائه، وإنه يؤدي صلاته مرتين كل يوم. وفي ظل مثل هذه الرعاية كان من الضروري لأميرة من ريندانج أن تستفيد عقلياً وثقافياً، بينما تبقى دون أن تمس من الناحيتـين الاخلاقيـة والمعتقدية. ولكن السلطان كان قد دبر الامر دون التفكير في زوجة البروفيسور. ولم تكن السيدة «بالوز» قد تعدت الاربعين من عمرها، عاطفية متحمسة حماساً ظاهراً، ورغم أنها من الناحية الرسمية كـانت تنتمي إلـى مذهب زوجها، فإنها كانت قد خلت هذا المذهب حديثاً كما أنها كانت صوفية متحمسة، تستمد صوفيتها من تعاليم البوذية والبراهمانية. وفي حجرة على سطح المنزل المرتفع الذي يقع بالقرب من شارع «بلاس دي ريبون» كانت تتلقى تدريباتها الدينية، حينما تجد الوقت اللازم، حيث كان عليها أن تعتزل العالم سراً لكي تقوم ببعض تمرينات التنفس، وتمارس التركيز العقلي، وتوقظ الروح المقدسة الراقدة رقدة الثعبان النائم في نهاية السلسلة الفقرية، توقظها بالوضوء والصلاة الصامتة، كـانت تدريباتها منظمة صارمة! ولكن النتيجة كانت عظيمة بصورة متزايدة. ففي بعض الساعات القليلة من إحدى ليالي الصيف الحارة، وبينما كان البروفيسور يشخر بانتظام في غرفته التي

تقع تحتها بطابقين، أصبحت واعية بنوع من الحضور: فالسيد «كوت هومي»[١٠] كان معها. وتوقفت الراني عن الكلام بطريقة مؤثرة.

قال مستر باهي: «شيء غير عادي».

وردد ويل بطريقة من يؤدي الواجب: «شيء غير عادي».

واستأنفت الراني سرد حكايتها.. أصبحت السيدة بالوز عاجزة عن الاحتفاظ بسرها، تحت وطأة سعادتها الطاغية. تعمدت أن تلقي بعض الاشارات الغامضة ثم تجاوزت الاشارات إلى الاسرار بالخبر لمن تثق فيهم، ثم تجاوزت الإسرار بالخبر للموثوق فيهم إلى الدعوة لحضور الصلاة والشعائر، مع مجموعة التعليمات اللازمة. وفي وقت قصير جداً كان «كوت هومي» يمنح التلميذة بركات أعظم بكثير مما يمنحه لمدرستها.

واختتمت الراني تقول: «ومن يوم إلى يوم، ساعدني السيد على المضي إلى الامام».

وسأل ويل نفسه، المضي إلى الامام، إلى ماذا؟ لا أحد يعرف سوى «كوت هومي» ولكن أياً ما كان المكان الذي تقدمت إليه، فإنه لم يحب هذا المكان. كان هناك تعبير على ذلك الوجه الكبير المتورد وجده باعثاً على الاشمئزاز الشديد ــ تعبير من الهدوء المستبد، من السكينة الثابتة وتقدير الذات تقديراً لايمكن التشكك فيه. ذكرته بجو ألدهايد بطريقة غريبة. كان جو واحداً من ملوك المال الذين لايشعرون بأي نوع من القلق أو من وخز الضمير، وإنما يبتهجون دون أن يكبحهم شيء أو أن يكبتوا شيئاً، ويفرحون بأموالهم وبكل ما يمكن لأموالهم أن تشتريه عن طريق النفوذ أو السلطة. وها هي واحدة أخرى من نفس «الفقسة» أو «الربابة» رغم أنها ترتدي الحرير المذهب، ويلفها الغموض والروعة: ملكة تحكمت لا في سوق فول الصويا ولا سوق النحاس، وإنما في سوق الروحانيات الخالصة «والاسياد» المتنزلين من الملأ الأعلى، وهي تفرك الآن يديها بسعادة اذ تنظر إلى ارباحها.

استمرت الراني تقول: «هاك مثلاً واحداً لما فعله من أجلي. فمنذ ثمانية أعوام ــ

---

(١٠) كوت هومي Koot - Hoomi روح من الارواح السحرية الكاشفة عن الغيب في الديانة البراهمانية الهندية، استحدمه عدد من الوسطاء الروحيين والمشعوذين الغربيين، وأشهرهم «مدام بلافاتسكي» التي اشتهرت بين الاوساط الارستقراطية أواخر القرن الماضي واوائل القرن العشرين وفرت من روسيا عقب الثورة. وقد أشار إليها جيمس جويس ــ كما أشار إلى «كوت هومي» في رواية «يوليسيز» حينما استخدمتها «مولي بلوم» لكشف أسرار عشيقها بويلان، وزوجها ليوبولد بلوم. وهذه هي المرة الثانية التي يشار فيها إلى «كوت هومي» في الادب الغربي المعاصر، ومن الواضح أن هكسلي يسخر من الشعوذات المشابهة ومن اللجوء إلى كائنات الاديان الوثنية القديمة كوسيلة للبرهنة على قضايا المتعصبين المعاصرين وإيجاد سند شعبي لهذه القضايا»

وعلى وجه التحديد في يوم الثالث والعشرين من نوفمبر عام ١٩٥٣ ــ جاءني السيد في اثناء تأملاتي الصباحية. جاء بشخصه، جاء في مجده. وقال لي: «لابد من شن حملة صليبية عظمى. حركة عالمية لانقاذ البشرية من تدميرها لنفسها. وانت يا طفلتي الاداة المختارة». أنا؟ حركة عالمية؟ ولكن هذا ضرب من الخيال. قلت له: «إنني لم ألقِ خطاباً واحداً في حياتي. ولم أكتب في حياتي كلمة بغرض النشر» قال وهو يمنحني واحدة من ابتساماته التي لايمكن وصف جمالها: «ومع هذا فإنك أنت من ستقودين هذه الحملة الصليبية ــ حملة الروح الصليبية على نطاق العالم سوف يضحك الناس منك، سينعتونك بالبلاهة والحماقة والتعصب. فالكلاب تنبح لكن القافلة تسير. فمن البدايات الصغيرة المضحكة، من المقرر أن تصبح حملة الروح الصليبية قوة هائلة. قوة من أجل الخير، قوة سوف تنقذ العالم إنقاذاً كاملاً وإلى الأبد». بعد هذه الكلمات غادرني. غادرني مصعوقة مذعورة أطار الخوف لبي. ولكن لم يكن هناك مفر. كان عليّ أن أطيع ولقد أطعت. فماذا حدث؟ ألقيت خطباً، فمنحني البلاغة والبيان. قبلت حمل القيادة فتبعني الناس لأنه كان يسير إلى جانبي متخفياً لا يراه أحد. سألت المعونة، فانهمرت الاموال عليّ. وهكذا أنا الآن». وطوحت يديها السمينتين في إشارة توحي بالتواضع، وارتسمت على وجهها ابتسامة غامضة. كانت تبدو كما لو كانت تقول: «أنا مخلوق فقير مسكين. ولكنني لست نفسي.. أنا ملك سيدي كوت هومي». ورددت كلمتها «هكذا أنا الآن».

قال مستر باهي بخشوع: «هكذا أنت الآن بحمد الله».

وبعد فترة مناسبة من الصمت سأل ويل الراني إذا كانت قد حافظت دائمًا على ممارسة التمارين التي تعلمتها بمشيئة الله في معبد السيدة بالوز.

اجابته : «دائمًا. فأنا لم أعد استطيع الاستغناء عن التأمل مثلما لا أستطيع الاستغناء عن الطعام».

ــ «ألم يكن القيام بها أكثر صعوبة بعد زواجك؟ أعني قبل أن تعودي ثانية إلى سويسرا. فلابد أنه كان هناك الكثير من الواجبات المرهقة».

قالت الراني: «ولاداعي لذكر الواجبات «غير» الرسمية.

قالتها بلهجة تشير إلى مجلدات كاملة من التعليقات والذكريات غير السارة عن شخصية زوجها الراحل وعاداته الحسية والفلسفية، فتحت فمها لكي تزيد الموضوع وضوحاً، ثم أغلقته ثانية ونظرت إلى مووروجان. ثم نادته: «حبيبي».

كان مووروجان مستغرقاً في تلميع أظافر يده اليسرى فوق كف يده اليمنى، فرفع عينيه مجفلاً كأنما يشعر بالذنب: «نعم يا أمي؟»

تجاهلت الراني أظافره وعدم انتباهه الواضح لما كانت تقول ومنحته ابتسامة مغرية: «كن ملاكاً لطيفاً واذهب للبحث عن السيارة. فإن عصفوري الصغير لايقول شيئاً عن العودة سيراً على الاقدام إلى الكوخ» والتفتت إلى ويل تشرح له موقفها: «ليست المسافة سوى بضع مئات قليلة من الياردات، ولكن في هذه الحرارة، وفي سني..»

كان في كلماتها شيء يطالب باستنكار ما تقوله وملاطفتها. ولكن ويل شعر بأن حرارة الجو إذا كانت تمنع من السير، فإنها تمنع أيضاً من بذل الكمية الكبيرة من الطاقة المطلوبة لإقامة استعراض مقنع للإخلاص المزيف. ولحسن الحظ كان هناك دبلوماسي محترف، رجل بلاط متمرس جاهز لتعويض جوانب الضعف البارز في مواهب الصحفي.

أطلق مستر باهي كومة من الضحك الصافي الخالي البال، ثم اعتذر عن مرحه المسرف.

وقال: «ولكنها كانت حقاً عبارة مضحكة»: «في سني» ثم ضحك موروجان لم يكمل الثامنة عشرة.. وإنني لاعرف كم كانت أميرة [illegible] تزوجت راجا بالا».

بعد لحظة كان موروجان ينهض طائعاً ليقبل يد وال[illegible].

وحينما غادر الغرفة قالت الراني: «والآن يمكننا أن نتكلم ب[illegible]». وعلى ال[illegible] سمحت لكل شيء فيها بأن يتحرر وينطلق، وجهها، ولهجتها، وعينيها الجاحظتين، و[illegible] كيانها المرتعش الذي أخذ يوحي بأكثر أنواع الرفض عنفاً.

قالت بالفرنسية: «جنائزي مميت» إنها لاتستطيع أن تقول عن زوجها الراحل أكثر من هذا. ففي أكثر جوانب شخصيته، كان «بالانياً» نموذجياً، ممثلاً حقيقياً لبلاده. لأن الحقيقة المحزنة تقول بأن البشرة الناعمة البراقة التي يتمتع بها أهل بالا، لاتخفي تحتها إلا أفظع أنواع العفونة وأكثرها رعباً.

«حينما أفكر فيما حاولوا أن يصنعوه لطفلي، منذ عامين، حينما كنت في رحلتي حول العالم من أجل حملة الروح الصليبية» رفعت يديها في رعب فأحدثت أساورها «شخللة» عالية وقالت: «كان من المؤلم لي أن أنفصل عن طفلي لهذه المدة الطويلة ولكن السيد كان قد بعثني في مهمة ورسالة، وكان عصفوري الصغير قد قال لي إنه ليس من الصواب أن آخذه معي. فهو كان قد عاش في الخارج مدة طويلة. وكان الأوان قد آن لكي يعرف البلاد التي سوف يحكمها. ولذلك فقد قررت أن أتركه هنا. وعينّ المجلس الاستشاري الملكي لجنة للوصاية. وكانت اللجنة تضم امرأتين لكل منهما ولد يافع ورجلين آسف إذ أقول إن أحدهما (وقالت ذلك في حزن أكثر من الغضب) كان هو الدكتور روبرت ماكفيل. ولكن لكي أختصر من القصة الطويلة، ما كدت أغادر البلاد بسلام حتى شرع

هؤلاء الأوصياء العظماء في العمل بانتظام، بانتظام يا مستر فارنابي لنسف نفوذي، وهم الذين وثقت بهم وأسندت إليهم أمر رعاية طفلي. فحاولوا أن يدمروا كل بنيان القيم الروحية والاخلاقية الذي شيدته باجتهاد ومشقة طوال سنوات».

بنوع من الخبث عبّر ويل عن دهشته (لأنه كان يعرف بالطبع ما تتحدث المرأة عنه) كل بنيان للقيم الروحية والاخلاقية؟ ومع هذا فلم يكن هناك من يستطيع أن يكون أكثر عطفاً من الدكتور روبرت والآخرين، لم يكن هناك من السامريين[11] الاخيار من كان أكثر منهم محبة للخير ببساطة وتأثير.

قالت الراني: «إنني لا أنكر عطفهم أو رحمتهم، ولكن الرحمة، رغم كل شيء، ليست هي الفضيلة الوحيدة».

قال ويل موافقاً: «بالطبع». ثم مضى بعد قائمة المميزات التي بدا أن الراني أشد ما تكون افتقاراً إليها. فقال: «هناك الاخلاص أيضاً والصدق. ولا داعي لذكر الامانة، والتواضع وإنكار الذات».

قالت الراني بقسوة: «إنك تنسى الطهارة. الطهارة تعني أنك بلا خطيئة».
(قالتها باللاتينية).

ــ «ولكن أعتقد أنهم لايرون هذا الرأي هنا في بالا.»

قالت الراني: «من المؤكد قطعاً أنهم لايرون ذلك». ومضت تسرد عليه كيف تعرّض طفلها المسكين عمداً للتلوث وفقدان الطهارة. بل إنه لقي التشجيع النشيط على أن ينغمس في النجاسة بواسطة واحدة من أولئك الفتيات الناضجات قبل الأوان، اللواتي لايكتفين برجل واحد وتوجد منهن في بالا الكثيرات. وحينما اكتشفوا أنه ليس من نوع الصبيان الذين يمكن أن يغووا الفتيات (لأنها شخصياً قد نشأته على النظر إلى المرأة باعتبارها مقدسة وإلهية في الاساس) فإنهم بذلوا ما في وسعهم لكي يجعلوا الفتاة تقوم باغوائه.

تساءل ويل، بينه وبين نفسه، إن كانت الفتاة قد نجحت في ذلك؟ أم أن انتينيوس كان قد تم تحويله إلى فتاة تماماً بواسطة أصدقائه الأصغر من سنه، أو بواسطة لوطي أكبر تمرساً وعمراً وتأثيراً وسلطة، أي بواسطة سلف سويسري الكولونيل ديبا؟

---

(١١) السامريّون Samaritans واحدهم السامري (من أهل السامرة القديمة بفلسطين) ــ والسامري هو الذي تحدث عنه المسيح (لوقا ــ اصحاح ١٠ ــ الايات من ٣٠ الى ٣٨) وضرب به المثل على الجار الطيب فاعل الخير دون انتظار لأجر أو مصلحة. وأصبحت الكلمة معبرة عن هذا المعنى في الآداب الغربية بعد ترجمة العهد الجديد.

خفضت الراني صوتها لكي يصبح همساً يملأه الرعب كالفحيح وقالت: «ولكن هذا لم يكن أسوأ ما في الامر. لقد نصحته واحدة من الامهات من أعضاء لجنة الوصاية ــ إحدى الأمهات، أسامع أنت؟ ــ نصحته بأن يتلقى منهجاً لدراسة العملية».

ــ «أي نوع من الدروس؟»

ــ «فيما يدعى الحب على سبيل التلطيف». وعقصت انفها إلى أعلى كإنما شمت رائحة خنزير قذر.. وأضافت تقول بعد أن تحول الاشمئزاز إلى احتقار: «إنها، إذا سمحت لي دروس تلقنها له امرأة أكبر سناً.»

صاح السفير: «يا رحمة السماء!»

وردد ويل بدافع الاحساس بالواجب: «يا رحمة السماء!».

كان باستطاعته أن يرى هؤلاء النسوة منافسات أكثر خطراً في عيني الراني من أكثر الفتيات نضجاً مبكراً أو شبقاً إلى الرجال. إن امرأة ناضجة مدربة على الحب يمكن أن تكون أماً منافسة، تستمتع أيضاً بميزة غير عادلة إلى درجة وحشية بحريتها على المضي مع الغلام إلى حدود الاتصال الجنسي المحرم على الام الحقيقية.

«إنهم يعلمون الصبيان». وترددت الراني قليلاً ثم قالت: «يعلمونهم أساليب خاصة».

تساءل ويل: «أي نوع من الأساليب؟»

ولكنها لم تستطع أن ترغم نفسها على الدخول في التفاصيل الكريهة. ولم يكن ذلك ضرورياً على أية حال لأن موروجان (بارك الله قلبه!) قد رفض أن يصغي إليهم. أيتلقى دروساً في الفساد من امرأة تبلغ من العمر ما يجعلها صالحة لأن تكون أمه؟ إن الفكرة نفسها قد جعلته يشعر بالغثيان. ولا عجب من ذلك فقد نشأ على تقديس مثل الطهارة الأعلى: «البراهما تشارياً، إذا كنت تعرف معنى هذه الكلمة».

قال ويل: «بالتأكيد».

ــ «وهذا سبب آخر لاعتبار مرضه بركة حقيقية متخفية، هبة كبيرة حقيقية من الله. لست أظن أنه كان بوسعي أن أنشئه بهذه الطريقة في بالا. إذ توجد هنا الكثير جداً من أنواع التأثير السيئة. هنا قوى تعمل ضد الطهارة، ضد الاسرة، بل ضد حب الأم أيضاً».

«طرطق» ويل أذنيه وقال: «أهم يعيدون تربية الأمهات أيضاً؟»

أومأت برأسها وقالت: «إنك لاتستطيع أن تتخيل إلى أي مدى وصلت إليه الامور

هنا. ولكن «كوت هومي» عرف أي نوع من الاخطار كان يمكن أن تواجهه في بالا وهكذا فما الذي حدث؟ لقد سقط طفلي مريضاً، وأمرنا الاطباء بالذهاب إلى سويسرا. بعيداً عن طريق الضلال.»

سأل ويل: «كيف يسمح لك «كوت هومي» بالخروج إلى حملتك الصليبية؟ ألم يكن يستطيع أن يتنبأ بما يمكن أن يحدث لموروجان حالما تبتعدين عنه في رحلتك؟»

قالت الراني: «لقد تنبأ بكل شيء. بأنواع الاغراء، والمقاومة، والهجوم المركز تقوم به كل قوى الشر، ثم الانقاذ والنجاة في اللحظة الاخيرة نفسها». وراحت توضح ما أوجزته: «فلمدة طويلة امتنع موروجان عن إخباري بما كان يحدث ولكن هجمات قوى الشر بعد ثلاثة أشهر كانت أكثر جداً وأكبر ضراوة مما يمكن أن يحتمل. فأخذ يلمح لي في خطاباته، ولكنني كنت منغمسة تماماً في العمل الذي كلفني به سيدي حتى لم يكن بوسعي أن أفهم تلميحاته. وأخيراً أرسل إلّي خطاباً صرح فيه بكل شيء ـ بالتفصيل. ألغيت مواعظي الاربع الأخيرة في البرازيل، وطرت إلى الوطن بالسرعة التي تسمح لي بها النفاثات. وبعد اسبوعين كنا قد عدنا إلى سويسرا أنا وطفلي وحدنا ـ وحيدين مع السيد». أغمضت عينيها، وظهر على وجهها تعبير من الرضا الغامر والارتياح العميق. صرف ويل عينيه بعيداً في نفور. هذه المخلصة للعالم التي لايقدسها غير نفسها، هذه الأم التي تتعلق بابنها، تلتهمه، هل حدث أبداً، للحظة واحدة أن رأت نفسها بالصورة التي يراها بها الآخرون؟ ألم يكن لديها أية فكرة عما فعلته، وعما لاتزال تفعله بابنها الصغير الأبله المسكين؟ كانت الإجابة على السؤال الاول هي لا بالتأكيد. أما إجابة السؤال الثاني فلم يكن بوسع المرء إلا أن يخمن ويتأمل. ربما لم تكن تعرف حقا ما فعلته بالصبي. ولكن من جانب آخر، ربما كانت تعرف بالفعل. لقد عرفت بما كان يحدث مع الكولونيل وفضلته على ما كان يحدث إذا ما تولت امرأة تعليم الطفل. فالمرأة قد تحل محلها، أما الكولونيل فليس بوسعه ذلك، وهي تعرف هذا.

«قال لي موروجان إنه ينوي أن يصلح هذه التي يدعونها إصلاحات».

قالت الراني: «ليس بوسعي إلا أن أصلي من أجل ذلك» وذكرته لهجتها بجده، الشماس حينما كانت تقول: «أصلي حتى يكون له من القوة والحكمة ما يجعله قادراً على إصلاحها».

سأل ويل: «وماذا تتوقعين أن تكون مشروعاته الأخرى؟ البترول؟ أم الصناعات؟ أم الجيش؟».

أجابت وهي تطلق ضحكة صغيرة كانت تعني بها أن تذكره بأنه يتحدث إلى امرأة وصلت إلى الدرجة الرابعة من درجات المعرفة فقالت: «الاقتصاد والسياسة ليسا من مجالات

تفوقي. اسأل باهي ماذا يتوقع».

قال السفير: «ليس من حقي تقديم أي رأي. إنني أجنبي، وممثل لدولة أجنبية».

قالت الراني: «لست أجنبياً لهذه الدرجة الكبيرة».

ــ «لست كذلك في نظرك يا سيدتي وكما تعرفين جيداً لست كذلك في نظري أيضاً ولكني أجنبي في نظر الحكومة البالانية. أجنبي تماماً».

قال ويل: «ولكن هذا لايمنعك من أن تكون لك آراؤك. إنه لايمنعك إلاّ من أن تكون لك الاراء التي يتمسكون بها هنا إلى درجة التزمت».ثم أضاف يقول: «إنني هنا في حالة لاتجعلني مالكاً لكل قدراتي المهنية. إنني لا أسألك سؤالاً صحفياً يا سيدي السفير. إن كل ما يقال هنا ليس للنشر بالمرة.»

ــ «وإذن، وإذا كان كل ما نقوله ليس للنشر، أقول معبراً عن نفسي وحدها وليس كشخصية رسمية، إنني أعتقد أن صديقنا الشاب على حق تماماً».

قال مستر باهي بينما القناع العظمي الراسخ للراهب المتعصب «سافوناورلا» يلتمع بابتسامته الفولتيرية المتسامحة: «إنها سياسة مخطئة تماماً، لأنها أيضاً على صواب تماماً.»

احتجت الراني: «صواب ؟ صواب ؟».

قال السفير مفسراً: «إنها على صواب تماماً لأنها مرسومة بدقة لكي تجعل كل رجل وطفل في هذه الجزيرة الغنّاء كامل الحرية والسعادة بقدر ما يمكن أن يكون».

صاحت الراني: «ولكن من خلال سعادة زائفة، وحرية لاتتمتع بها سوى النفس السفلى».

قال السفير وهو ينحني باحترام: «أنحني لبصيرة سموك الرفيعة. ولكن السعادة تظل سعادة والحرية تظل قابلة لأن يتمتع بها الناس سواء كانت سامية أو سفلية، حقيقية أم زائفة. ولايمكن أن يكون هناك شك في أن السياسة التي اشترعها وبدأها المصلحون الاصليون ثم طورت عبر السنين قد تبناها أصحابها بطريقة تدعو إلى الاعجاب من أجل تحقيق هذين الهدفين».

قال ويل: «ولكنك تشعر بأنهما هدفان غير مرغوب فيهما؟».

ــ «على العكس، فكل إنسان يرغب فيهما. ولكنهما لسوء الحظ خارج سياق الزمن، لقد أصبحا غير مناسبين على الإطلاق للموقف الحالي في العالم بوجه عام وفي بالا بشكل خاص.».

ــ «أهما الآن أقل تناسباً عما كانا حينما بدأ المصلحون لأول مرة في العمل من أجل السعادة والحرية؟»

أومأ السفير برأسه وقال: «فى تلك الأيام، كانت بالا ما تزال خارج خريطة العالم تماماً. وكانت فكرة تحويلها إلى واحة المسعادة والحرية فكرة معقولة. إن المجتمع المثالي يمكن أن يكون ممكناً طالما ظل بعيداً عن الاحتكاك ببقية العالم. وبوسعي أن أقول إن بالا كانت ممكنة تماماً حتى عام ١٩٠٥ تقريباً. ثم تغير العالم تغيراً كاملاً في أقل من جيل واحد. السينما والسيارات والطائرات والراديو. الانتاج الضخم والمذابح الجماعية ووسائل الاتصال الجماهيرية المباشرة وفوق كل شيء، وبشكل أكثر تركزاً وضخامة، تزاحم المزيد والمزيد من الناس في الأحياء الحقيرة والضواحي القذرة المتزايدة الاتساع. وعندما جاء عام ١٩٣٠ أصبح بوسع أي مراقب واضح الرؤية أن يرى أن الحرية والسعادة أصبحا أمرين لايمكن البحث عنهما بالنسبة لثلاثة أرباع الجنس البشري. واليوم، وبعد ثلاثين عاماً، فإن من العبث أن تبحث عنهما في أي مكان. وفي نفس الوقت كان العالم الخارجي يزداد قرباً وإحداقاً بهذه الجزيرة الصغيرة من الحرية والسعادة. يقترب بانتظام ودون توقف، يزداد كل يوم اقتراباً. إن ما كان ذات يوم مثلاً أعلى ممكن التحقيق، لم يعد اليوم ممكناً».

ـ «وهكذا فسوف يكون على بالا أن تتغير ـ أهذا هو ما تريد الوصول إليه؟»

أومأ مستر باهي وقال: «جذرياً».

قالت الراني بنبرة سادية نشطة جديرة بنبي «جذورها وفروعها».

واستمر مستر باهي يقول: «ولسببين مقنعين. أولاً لأنه ببساطة ليس من الممكن أن تستمر بالا في الوجود على صورة مختلفة مع بقية العالم. وثانياً لأنه ليس من الصواب أن تظل مختلفة».

«ليس من الصواب للناس أن يكونوا أحراراً وسعداء؟.»

ومرة أخرى قالت الراني شيئاً ما، ذا طابع روحاني عن السعادة الزائفة والنوع الخاطىء من الحرية.

واعترف مستر باهي باهتمام بصواب ما قالته لتقطع حديثه، ثم استدار ثانية إلى ويل.

قال بإصرار: «ليس من الصواب أن تتبختر مزدهياً بنعيمك في مواجهة كل هذا البؤس والشقاء ـ ليس هذا سوى غروراً وصلفاً خالصين: إنه تحدٍ مهين لبقية الانسانية. بل إنه نوع من التحدي المهين لله».

غمغمت الراني بسعادة وغبطة: «الله.... الله».

ثم فتحت عينيها ثانية وأضافت: «هؤلاء الناس في بالا لايؤمنون بالله. إنهم لايؤمنون إلا بالتنويم المغناطيسي ووحدة الوجود حيث الطبيعة هي الله وبالحب الحر.»

-وكانت تؤكد كلماتها باشمئزاز ساخط.

قال ويل: وهكذا فأنتما الآن تتهيآن لإتعاسهم على أمل أن تعيد التعاسة إيمانهم بالله. حسناً، ربما كانت هذه إحدى طرق تغيير عقائد النـاس. وربما بـررت الخاتمـة الوسائل.» وهزّ كتفيه واستطرد يقول: «ولكنني أرى أن هذه الخاتمة سوف تقع، سواء كانت خيراً أم شراً، بصرف النظر عما يشعر به البالانيون ازاءها. ولايحتاج الانسان إلى أن يكون نبياً صادق النبوة تماماً لكي يتنبأ بأن من المقدر لموروجان أن ينجح. إنه يمتطي موجة المستقبل. ولاشك أن موجة المستقبل موجة من البترول الخام.» واستدار إلى الراني وهو يقول: «وبمناسبة الحديث عن البتـرول وعن الفجاجـة، يمكنني أن أقولَ إنـك تعرفتِ بصديقي القديم جو الدهايد».

ــ «أتعرف لورد الدهايد؟».

ــ «معرفة جيدة».

ــ «إذن (هذا) هو السبب في الإصرار الشديد الذي أبداه عصفوري الصغير!» وإذ أغمضت عينيها ثانية أومأت برأسها ببطء وقالت: «أنا الآن أفهم.» ثم غيرت لهجتها وسألت: «كيف حال ذلك الرجل العزيز؟».

قال ويل مؤكداً: «ما زال هو بنفسه بشخصيته المتميزة».

ــ «ويا لها من شخصية نادرة! (ثم بالفرنسية) الرجل الذي يمسك الطائرة ــ هكذا أدعوه.»

اختلط الامر على ويل فسأل: «الرجل الذي يمسك طائرة.. من ورق؟».

قالت تفسر عبارتها: «إنه يقوم بعمله في مكان ما، ولكن يقبض بيده على خيط مشدود، وفي نهاية الخيط ربطت طائرة من ورق، والطائرة الورقية تحاول إلى الأبد أن ترتفع، وترتفع. وحتى حينما يكون غارقاً في العمل، فإنه يشعر بالجذب الدائم من أعلى، يشعر بالروح وهي تجذب الجسد وتسحبه باستمرار وإصرار. فكر في هذه الصورة! إنه رجل أعمال، سيد عظيم من سادة الصناعة ــ ومع هذا فإن الشيء الوحيد الذي يهم حقاً بالنسبة له هو خلود الروح.».

أشرق عقله بالفهم. كانت المرأة تتكلم عن إدمان جو الدهايد للمسائل الروحانية، فكر في تلك الجلسات الاسبوعية مع مسز هاربوتل التي تقوم بدور الوسيط، ومع مسز بايم التي كانت واقعة تحت سيطرة روح هندية (كودا) تدعى «باوبو»، ومع ميس نيوك ومزمارها السابح النغمات، الذي كان يصدر عنه همس مرتعش يقول كلمات النبوءات التي كانت تسجلها بالاختزال سكرتيرة جو الخاصة: «اشتر شركة الاسمنت الاسترالية، لاتنزعج

بسبب هبوط أسعار شركة أطعمة الافطار، تخلص من نسبة أربعين في المائة من أسهمك في أعمال المطاط واستثمر المال في شركة الحاسبات الالكترونية «أ. ب. م» وفي شركة وستنجهاوس. . . »

سألها ويل: «ألم يخبرك أبداً بحكاية روح ذلك السمسار الميت، التي تعرف دائماً إلى أين ستتجه أسعار سوق الأوراق المالية في الاسبوع التالي؟».

قالت الراني بتسامح: «خرافات. . مجرد خرافات. ماذا يمكن أن تتوقع غير هذا؟ إنه ليس سوى مبتدىء على أية حال. والعمل في هذه الحياة الحالية هو همه وشاغله. . لقد قُدّر له من قبل أن يفعل ما فعله، وما يفعله، وما سوف يفعله». ثم أضافت بتأكيد: «وما سوف يفعله» .وسكتت مصغية لما قد يقال، رافعة اصبعها «مطرطقة» برأسها ثم عادت تردد: «وما سوف يفعله ــ وهذا هو ما يقوله عصفوري الصغير ــ يتضمن قدراً كبيراً من الاشياء الرائعة هنا في بالا.»

قهقه ويل في سره وقال لنفسه: «يالها من طريقة روحية لكي تقول: «هذا ما أريده أن يحدث ليس طبقاً لإرادتي ولكنها إرادة الله ــ وبمصادفة سعيدة تتطابق إرادتي دائماً مع إرادة الله.» ولكن وجه ويل ظل هادئاً كأشد ما يكون الهدوء. .

سألها: «ألا يقول عصفورك الصغير شيئاً عن شركة بترول جنوب شرق آسيا؟».

أصغت الراني مرة أخرى، ثم أومأت برأسها وقالت: «بلا ريب».

ــ «ولكن الكولونيل ديبا، كما سمعت، لايقول شيئاً سوى «شركة ستاندارد كاليفورنيا». ثم أضاف يقول: «وبهذه المناسبة، لماذا يجب على بالا أن تهتم بذوق الكولونيل في شركات البترول».

قال مستر باهي بصوت فخم: «حكومتي تفكر في خطة خمسية للتعاون والتكامل الاقتصادي بين الجزيرتين».

ــ «هل يعني التعاون والتكامل الاقتصادي بين الجزيرتين أن تمنح ستاندارد كاليفورنيا احتكاراً للبترول؟».

ــ «لايحدث هذا إلا إذا كانت شروط ستاندارد كاليفورنيا أكثر سخاء من شروط منافساتها».

قالت الراني: «وبتعبير آخر ، إن هذا لايحدث إلا إذا لم يكن هناك من يدفع لنا أكثر».

قال لها ويل: «قبل أن تأتينا إلى هنا كنت أناقش هذا الموضوع مع موروجان. وقلت

له إن شركة بترول جنوب شرق آسيا ستعطي لبالا ما تعطيه ستاندارد كاليفورنيا لريندانج مع زيادة قليلة.»

ـ «خمس عشرة بالمائة زيادة؟»

ـ «فلنقل عشرة».

ـ «اجعلها اثنتي عشرة ونصف».

نظر إليها ويل بإعجاب. كانت تتصرف بطريقة جيدة بالنسبة لامرأة وصلت إلى الدرجة الرابعة من المعرفة.

قال: «سيصرخ جو الدهايد من الألم. ولكني واثق من أنك في النهاية ستحصلين على الاثنتي عشرة والنصف التي تطالبين بها.»

قال مستر باهي: «سيكون هذا بالتأكيد عرضاً بالغ الجاذبية».

«المشكلة الوحيدة هي أن حكومة بالا لن تقبل به».

قالت الراني: «سرعان ما ستغير حكومة بالا من سياستها.»

ـ «اتظنين هذا؟»

كانت إجابة الراني: «أنا أعرف هذا». وجاءت إجابتها بلهجة أوحت بوضوح بأن معلوماتها قد جاءتها مباشرة من فم السيد...

سأل ويل: «وهل سينفع التغيير في السياسة حينما يأتي، إذا كان الكولونيل ديبا قد منح وعده لشركة بترول جنوب شرق آسيا؟».

ـ «دون شك.»

تحول ويل إلى مستر باهي وسأله : «وهل ستكون على استعداد يا سيدي السفير لأن تتدخل عند الكولونيل ديبا بكلمة طيبة؟».

مضى مستر باهي يراوغ بكلماته الكثيرة المقاطع والفواصل مراوغة دبلوماسية، كما لو كان يوجه خطاباً افتتاحياً في اجتماع عام لإحدى المنظمات الدولية. فهو يقول «نعم» من جانب، ولكنه يقول «لا» من الجانب الآخر. إن المسألة تبدو بيضاء اللون من وجهة نظر معينة؟. ولكنها حالكة السواد من زاوية أخرى.

أنصت ويل في صمت مؤدب. فوراء قناع سافونارولا، ووراء المونوكل الارستقراطي، ووراء كلمات السفراء الكثيرة التي لامعنى لها، كان بوسعه أن يرى وأن يسمع السمسار المشرقي يطالب بسمسرته، النصاب الرسمي الصغير مقابل الضمان. وكم

مقدار المكافأة التي وعدت شركة بترول جنوب شرق آسيا بأن تقدمها في مقابل الحماس الملكي الموجه لصالحها؟ إنه على استعداد لأن يراهن بأنها مكافأة مجزية جداً. وهي ليست مكافأة لشخصها. كلا. «كلا!» إنما هي مكافأة لحملة الروح الصليبية وهو ليس بحاجة إلى القول، إنها مكافأة تخصص لمزيد من المجد للسيد «كوت هومي».

كان مستر باهي قد بلغ ختام خطبته للمنظمة الدوليه. وكان يقول: «وعلى ذلك يجب أن يكون مفهوماً أن أي تصرف إيجابي من جانبي لابد أن يظل معلقاً على الظروف ومشروطاً بها، وإذا، برزت هذه الظروف. هل كلامي هذا واضح؟».

قال له ويل مؤكداً: «تماماً». ثم أضاف بصراحة غليظة متعمدة: «والآن اسمح لي بأن أوضح وضعي في هذه المسألة. إن كل ما أنا مهتم به هو المال. الفان من الجنيهات دون أن يكون علي أن أضع يدي في العمل لحظة واحدة. إنني أطمح في سنة واحدة من الحرية مقابل مجرد أن أساعد جو الدهايد على أن يضع يده على بالا.»

قالت الراني: «إن لورد الدهايد كريم كرماً شديداً.»

قال ويل مؤيداً: «شديد الكرم، بالنظر إلى ضآلة ما أستطيع أن أفعله في هذا الموضوع. وأنا في غنى عن أن أقول إنه مازال قادراً على أن يكون أكثر كرماً مع كل من يستطيع أن يكون ذا نفع أكبر.»

ساد صمت طويل. من بعيد، جاء صوت طائر من طيور المايناه يدعو برتابة إلى الانتباه. الانتباه للجشع. والانتباه للنفاق، والانتباه للخثل السوقي.. سمعت طرقة على الباب.

صاح ويل وهو يستدير إلى مستر باهي وقال: «ادخل . فسنستأنف هذه المناقشة في وقت آخر.»

أومأ مستر باهي برأسه.

وردد ويل «ادخل.»

اندفعت إلى الحجرة فتاة ترتدي جونلة قصيرة وسترة قصيرة دون ازرار، تركت خصرها عارياً ولاتغطي ـ أحياناً ـ إلا ثدييها المستديرين كالتفاح. وعلى وجهها الاسمر الناعم ارتسمت ابتسامة تحية بالغة الود، انتهت عند كل من طرفيها بغمازة على كل خد. وبدأت تقول: «أنا الممرضة «آبو»، «رادها آبو». ولما وقع بصرها على زائري ويل، قطعت كلماتها وقالت معتذرة: «آوه. معذرة. لم أكن أعرف».

انحنت للراني انحناءة تحية هندية دون حماس.

وفي نفس الوقت ، كان مستر باهي قد نهض واقفاً بأدب وصاح بحماس: «الممرضة آبو» يا ملاكي الرحيم الصغير من مستشفى شيفابورام. يا لها من مفاجأة جميلة!»

كان من الواضح لويل أن المفاجأة بالنسبة للفتاة كانت بعيدة عن الجمال.

قالت دون أن تبتسم: «كيف حالك يا مستر باهي؟» ثم استدارت ناحية أخرى وشغلت نفسها بحقيبة الضمادات التي كانت تحملها.

قال مستر باهي: «ربما كنت قد نسيت يا سمو الاميرة. ولكن حدث أن كان من الضروري أن تجري لي عملية جراحية في الصيف الماضي» ثم قال ليوضح نوع الجراحة: «للفتاق». واستمر يقول: «وكانت هذه السيدة الصغيرة تأتيني كل صباح لتغسل جسمي. بالتحديد في التاسعة إلا الربع من كل صباح. وها هي الآن مرة أخرى، وبعد أن اختفت طوال كل تلك الشهور».

قالت الراني بغموض كالمتنبئة: «مجرد اتفاق في زمن الوجود. كل هذه اجزاء من الخطة العظمى».

قالت الممرضة، وهي ترفع رأسها وتحول بصرها عن حقيبتها المليئة بالادوات: «عليّ أن أعطي مستر فارنابي حقنة!»

صاحت الراني: «أوامر الاطباء هي أوامر الاطباء.» وكانت تبالغ في تمثيل دور الشخصية الملكية التي تجتهد أن تكون سمحة لطيفة المعشر. وأضافت تقول: «اطع هذه الأوامر عندما تسمعها. أين سائق سيارتي؟».

قال صوت معروف: «سائق سيارتك هنا.»

كان موروجان يقف عند الباب، جميلاً مثل صورة لساقي الآلهة جانيميد تتبدى في الحلم. وبدت على وجه الممرضة الصغيرة نظرة اهتمام.

وأطلقت الممرضة صيحتها: «أهلاً يا موروجان ــ أعني يا صاحب السمو!» فأتبعت كلمتها الاولى بكلمة مجاملة كان هو حراً في أن يأخذها كعلامة على الاحترام أو على السخرية المتهكمة.

قال الصبي: «أوه، أهلاً يا رادها.» وكانت لهجته تبدي تعمده للعفوية الكاملة. سار فتجاوزها حتى وصل إلى حيث كانت أمه تجلس وقال: «السيارة عند الباب أو بالأحرى، ما تُسمى بالسيارة.» ثم أضاف مع ضحكة ساخرة: «إنها من طراز بيبي أوستين من إنتاج عام ١٩٥٤». ثم لويل ، موضحاً: «إنها أفضل ما تستطيع هذه البلاد الرفيعة الحضارة أن تقدمه لاسرتها الملكية» وأضاف بمرارة: «إن ريندانج تعطي لسفيرها سيارة من طراز بنتلي.»

قال مستر باهي، وهو ينظر إلى ساعته: «وهي السيارة التي ستكون في انتظاري هنا بعد حوالى عشر دقائق. ولذلك يا صاحبة السمو، هل يُسمح لي بأن أترككم هنا؟».

مدت الراني يدها، وانحنى باهي على اليد الممدودة بكل رجفة الايمان التي تتملك جسد المؤمن وهو يقبل خاتم الكاردينال، ثم فرد جسمه وانتصب، وتحول إلى ويل.

ـ «أعتقد ـ ربما دون مبرر ـ أن بوسع مستر فارنابي أن يحتملني لمدة أطول قليلاً. هل أبقى؟».

وأكد ويل للسفير أن ذلك سيكون من أسباب ابتهاجه.

وقال مستر باهي للمرضة الصغيرة: «وأرجو ألاّ تكون هناك اعتراضات لأسباب طبية؟».

وقالت الفتاة بلهجة توحي بوجود اعتراضات لاعلاقة لها البتة بالاسباب الطبية: «ليس لأسباب طبية!»،.

وساعد موروجان أمه الراني على الخلاص لتقوم من فوق مقعدها. فقالت بالفرنسية: «إلى اللقاء يا فارنابي العزيز» قالت ذلك وهي تمد إليه يدها المحلاة بالجواهر. وكانت ابتسامتها مشحونة بالعذوبة التي شعر ويل بأنها تحمل في طياتها انذاراً مهدداً.

ـ «إلى اللقاء يا سيدتي.»

استدارت، وربتت برفق على خد الممرضة الصغيرة، وتهادت كالسفينة خارجة من الغرفة. وسار موروجان في ذيلها كالقارب الصغير المشدود إلى السفينة الكبرى المحملة بشحنتها الكاملة.

الفصل السادس

«يا للهول»: هكذا انفجرت الممرضة الصغيرة حينما كان الباب قد أغلق وراء موروجان وأمه بأمان.

قال ويل: «أنا اتفق معك تماماً».

لمع الشعاع الفولتيري للحظة على وجه باهي الكهنوتي كوجه الرهبان. وقال مردداً «ياللهول»، هي كما سمعت، الكلمة التي يطلقها التلميذ الانجليزي حينما يرى الهرم الاكبر لأول مرة. والراني تترك انطباعاً من نفس هذا النوع. إنها كالأثر الشامخ. إنها بالضبط ما يسميه الالمان «الكيان الهائل» ــ تلاشت الالتماعة الفولتيرية، وعاد الوجه ليكشف عن قناع سافونارولا، وكان من الواضح أن تلك الكلمات كانت للنشر.

وبدأت الممرضة الصغيرة تضحك فجأة.

سألها ويل: «ماذا يضحك إلى هذا الحد»؟

ــ «فجأة رأيت الهرم الاكبر مكللاً بالموسلين الحريري الأبيض». وتوقفت لتأخذ نفساً عميقاً ثم أضافت: «الدكتور روبرت يسمي هذه الثياب الزي الرسمي للمتصوفين».

قال مستر باهي «لماح، لماح جداً» ثم أضاف بطريقة دبلوماسية: «لا أعرف لماذ يرتدي المتصوفون زياً خاصاً بهم، إذا راق لهم ذلك».

جذبت الممرضة الصغيرة نفساً عميقاً، ومسحت دموع الضحك المرح من عينيها، وبدأت تتهيأ وتهيىء أدواتها لإعطاء مريضها حقنته.

قالت لويل: «أنا أعرف فيما تفكر بالتحديد. إنك تفكر في أنني أصغر بكثير من أن أؤدي عملي باتقان».

ـ «أنا أفكر بالتأكيد في أنك صغيرة جدا».

ـ «أنتم تذهبون إلى الجامعة في الثامنة عشرة وتمكثون فيها لمدة أربع سنوات. أما نحن فنذهب في السادسة عشرة ونستمر في دراستنا حتى الرابعة والعشرين ـ ندرس نصف الوقت ونعمل نصفه.. إنني أدرس علم الاحياء وأقوم في نفس الوقت بهذا العمل منذ سنتين ولهذا فإنني لست بالبلاهة التي أبدو عليها. وأنا بالفعل ممرضة جيدة جداً.»

قال مستر باهي: «هذا تقرير استطيع أن اؤكده دون لبس إن «ميس رادها» ليست مجرد ممرضة جيدة وإنما هي ممرضة من الدرجة الأولى بلا نزاع».

أما ما عناه حقاً، فكان في شعور ويل حينها درس التعبير البادي على ذلك الوجه الشبيه بوجه الراهب الذي سقط كثيراً فريسة الاغراء، كان ما عناه هو أن مس رادها تتمتع بخصر من الدرجة الاولى، وسرة من الدرجة الأولى، ونهدين من الدرجة الأولى.

ولكن مالكة الخصر والسرة والنهدين كانت قد رفضت بوضوح إعجاب سافونارولا، أو رفضت ـ على أي حال ـ الطريقة التي أبدى بها إعجابه.. وكان السفير المرفوض يعود إلى الهجوم، مؤملاً النجاح، ومسرفاً في آماله.

كان الموقد الكحولي قد أُشعل، وبينما كانت الابرة تغلي في الماء، أخذت الممرضة الصغيرة درجة حرارة مريضها.

«تسعة وتسعون ونقطتان» تساءل مستر باهي: «أيعني هذا أن علي أن أُطرد؟»

أجابت الفتاة: «إلا إذا كان هذا مما يثير اهتمامه».

قال ويل: «إذن أرجوك أن تبقى».

حقنته الممرضة الصغيرة بنوع من المضادات الحيوية، ثم أذابت من زجاجة في حقيبتها ملء ملعقة طعام من سائل أخضر اللون في نصف كوب من الماء.

«أشرب هذا».

كان مذاقه مثل مذاق واحد من تلك المشروبات المصنوعة من الاعشاب التي يتعاطاها المتحمسون لمسائل الصحة بدلاً من الشاي.

سألها ويل: «ما هذا؟» فأخبرته بأنه مادة مستخلصة من نبات ينمو على الجبال ومن فصيلة النعناع.

قالت الممرضة موضحة: «إنه يساعد الناس على عدم التوتر والانزعاج، دون أن يجعلهم راغبين في النوم. ونحن نعطيه للناقهين من المرض. وهو مفيد أيضاً في حالات الأمراض العقلية».

«وأيهما أنت حالة [illegible] أم باقة من المرض؟»

أجابت دون تردد «كلاهما».

ضحك ويل ضحكة مرتفعة وقال: «هذا نتيجة البحث عن كلمات المجاملة والمديح.»

قالت بتأكيد: «لم أكن أعني أن أكون وقحة. كل ما عنيته هو أنني لم أقابل أبداً شخصاً من خارج البلاد لم يكن في حالة مرض عقلي.»

«بما في ذلك السمير؟»

فقلبت السؤال على سائله: «ما رأيك أنت؟»

قال وهو يمرر السؤال إلى مستر باهي: «أنت الخبير في هذا المجال».

قالت الممرضة الصغيرة: «احسِما الموضوع فيما بينكما. فعلي أن أذهب لكي أرى ما تم في طعام الغداء لمرضاي».

راقبها مستر باهي وهي ترحل. ثم رفع حاجبه الأيسر فترك المونوكل ليسقط وشرع باهتمام في تنظيف العدسة بمنديله. قال لويل: «إنك منحرف نفسياً بشكل من الاشكال، وأنا منحرف نفسياً بشكل آخر. أنت تعاني من انفصام الشخصية وازدواجها «ألست كذلك حقاً»؟ وأنا من الجانب الأخر من العالم مصاب بجنون الاضطهاد والعظمة. كلانا ضحية لنفس وباء القرن العشرين. ليس الوباء هو الموت الأسود أو الطاعون هذه المرة، إنما هو الحياة الرمادية». وبعد لحظة من الصمت سأل: «ألم تهتم بالسلطان والقوة أبداً؟».

هز ويل رأسه بتأكيد وقال: «أبداً. لا يستطيع المرء أن يحصل على السلطان دون أن يورط نفسه فيما لا يحب».

«وأن الرعب من أن تتورط يفوق عندك لذة أن تتحكم في الناس من حـولك»

ــ «إنه يفوقها بعدة آلاف من المرات.»

ــ «إذن فلم تكن السلطة أبداً مما يغريك؟»

ــ «مطلقاً» ثم بعد لحظة صمت ، أضاف ويل قائلاً بلهجة أخرى: «فلنهبط إلى دنيا العمل».

ردد مستر باهي قائلاً بلهجة أخرى: «إلى العمـل.. أحكِ لي شيئـاً عن لورد الدهايد».

ـ «حسناً. إنه كما قالت الراني كريم كرماً عظيًما».

ـ «لست مهتيًا بفضائله. إنما أهتم بذكائه. ما مقدار ذكائه؟»

ـ «إنه ذكي بما يكفي لان يعرف أن أحداً لايفعل شيئاً دون مقابل.»

قال مستر باهي: «جميل. إذن قـل له على لساني إنه يجب أن يكون على استعداد لأن يدفع على الاقل عشرة أضعاف ما سوف يدفعه لك مقابل الحصول على العمل المؤثر الذي يقوم به خبراء في الاوضاع الستراتيجية».

«سأكتب له خطاباً بهذا المعنى».

قال مستر باهي ناصحاً: «أكتبه اليوم. فالطائرة تغادر شيفابورام مساء الغد ولن يكون هناك بريد جوي بعد ذلك لمدة أسبوع كامل.»

قال ويل: «أشكرك لإخباري بهذا. والآن ــ وقد رحلت سموها ورحل معها الذي يمكن أن يصدم إذا سمع كل ما يقال ــ فلننتقل إلى النوع الثاني من الاغراء ــ ماذا عن الجنس؟»

لوح مستر باهي بيده السمراء المعروقة إلى الامام والخلف أمام وجهه، في هيئة الرجل الذي يحاول أن يتخلص من سحابة من الحشرات المزعجة وقال: «ليس هذا سوى نوع من التشويش والتشتيت. هذا كل ما في الامر. ليس سوى مصدر شكس للازعاج المستمر بسبب الخزي والمذلة، ولكن الرجل الذكي يستطيع دائمًا أن يصمد في مواجهته.»

قال ويل: «أن فَهْـم رذائل إنسان آخر لامر غاية في الصعوبة».

«أنت على حق. فعلى كل إنسان أن يتمسك بالفكرة المجنونة التي تقول بأن الله قد بحث له عن الرذيلة المناسبة التي ينزلها عليه كاللعنة».

«اخطئوا عامدين» هكذا كانت نصيحة لوثر. ولكن اجتهدوا لكي ترتكبوا خطاياكم أنتم، وليس خطايا الآخرين. وقبل كل شيء لا تفعلوا ما يفعله شعب هذه الجزيرة. لاتحاولوا أن تتصرفوا كما لو كنتم حكماء عاقلين في جوهركم وخيرين طيبين بالفطرة. إننا جميعاً خطاة ذهبت عقولنا في قارب الكون نفسه ــ والقارب على وشك أن يغرق.»

«هذا على الرغم من أنه لايحق لأي فأر أن يهرب من القارب الموشك على الغرق، أليس هذا هو ما تحاول أن تقول؟»

«قليل من الفئران قد يحاول أحياناً أن يهرب من القارب الغارق.. ولكنهم أبداً لايبتعدون كثيراً. لسوف يدبر التاريخ وبقية الفئران أمرهم دائمًا لكي يغرق الهاربون مع الباقين منا. وهذا هو السبب الذي لاتملك «بالا» أي بارقة من أمل في الافلات».

عادت الممرضة الصغيرة إلى الحجرة وهي تحمل صينية الطعام.

قالت وهي تربط فوطة صغيرة حول عنق ويل: «طعام بوذي، باستثناء السمك. ولكننا قررنا أن الاسماك ليست سوى خضـروات في اطار المعنى العام للفعل».

بدأ ويل يأكل.

قال ويل بعد أن أبتلع أول لقمة: «كم من الناس التقيت بهم من خارج بالا: غير الراني وموروجان، وغير أنا والسفير؟»

أجابت قائلة: «كان هناك مجموعة من الاطباء الامريكيين. جاؤوا إلى شيفا بورام في العام الماضي حينما كنت أعمل في المستشفى المركزي.»

«ماذا كانوا يفعلون هناك؟»

ـ «أرادوا أن يعرفـوا سبب انخفاض الامراض العصبية واضطرابات القلب عندنا» وهزت رأسها وهي تقول: «يا لهؤلاء الاطباء لقد جعلوا شعر رأسي يقف، أقول لك الحق يا مستر فارنابي، جعلوا شعر كل انسان في المستشفى يقف».

ـ «اذن فأنت تعتقدين أن علم الطب عندنا بدائي للغاية؟»

ـ «هذا هو التعبير الخاطىء ـ إنه ليس بدائياً. إنه مخيف بنسبة خمسين بالمائة ولا وجود له بنسبة الخمسين بالمائة الأخرى. هناك مضادات رائعة للحيوية، ولكن لا توجد على الاطلاق أي وسائل لتقوية المناعة والمقاومة، حتى لا تعود هناك ضرورة للمضادات الحيوية. هناك عمليات جراحية خيالية. ولكن لا شيء على الإطلاق حينما يصل الأمر إلى تعليم الناس كيف يسلكون في حياتهم دون حاجة إلى بتر أعضائهم بالمشارط. وهذا هو الواضع في كل جانب. هناك ما يكفي الحاجة مع زيادة كثيرة لترقيع أجساد الناس بعد أن يتمزقوا إلى أشلاء متناثرة، ولكن لا يوجد أي شيء من أجل المحافظة على صحتهم قبل السقوط. فبصرف النظر عن نظم التغذية والفيتامينات المركبة، لا يبدو لي أنكم تفعلون أي شيء في سبيل الوقاية. ومع هذا فإن لديكم مثلاً شائعاً يقول: «الوقاية خير من العلاج».

قال ويل: «ولكن العلاج أكثر درامية بكثير من الوقاية. وهو مربح للاطباء جداً إلى درجة، تزيد كثيراً عن أرباح الوقاية.»

قالت الممرضة الصغيرة: «ربما كان مربحاً لاطبائكم. ولكنه ليس مربحاً لاطبائنا ـ أطباؤنا يحصلون على أجورهم مقابل المحافظة على صحة الناس».

ـ «كيف تم ذلك؟»

ـ «لقد ظللنا نسأل هذا السؤال طوال مائه عام، وعثرنا على عدد كبير من الاجابات. هناك اجابات كيميائية، وإجابات نفسية، واجابات تدور حول ما تأكله، وكيف تمارس الحب، وماذا ترى وماذا تسمع، وما شعورك بمن تكون في عالم من هذا النوع».

ـ «وأي الإجابات كان الاحسن؟»

ـ «لا إجابة واحدة أحسن من غيرها دون الاجابات الاخرى.»

ـ «اذن فليس هناك «إكسير» أو عقار يشفي جميع الأمراض».

ـ «كيف يمكن أن يوجد شيء مثل هذا؟» ثم رددت الاغنية القصيرة التي لابد لكل طالبة من طالبات التمريض أن تحفظها عن ظهر قلب في أول يوم من أيام تدريبها:

«أنا» جماعة متماسكة، تخضع لكثير من القوانين بقدر مالها من أعضاء. وكل ما «لي» من أعضاء ملوث كيميائياً. فليس هناك علاج واحد لما ليس له أبداً سبب وحيد.»

وإذن، فسواء كان المطلوب هو الوقاية، أو كان هو العلاج، فإننا نهاجم المرض على كل الجبهات في وقت واحد. ورددت بإصرار: «على كل الجبهات. من النظام الغذائي إلى الايحاء الذاتي، ومن الايونات السالبة إلى التأمل العقلي».

قال مستر باهي: «ربما كان كلامك هذا«أكثر» منطقية من اللازم قليلاً.. هل حاولت أبداً أن تتحدث بعقل وحكمة مع مجنون؟» وهز ويل رأسه نافياً، فاستمر مستر باهي يقول: «أنا حاولت هذا ذات مرة». ورفع خصلة الشعر الرمادية التي كانت تمتد بصورة عفوية عبر جبهته. وتحت خط الشعر فوق الجبهة مباشرة برزت ندبة متعرجة، شاحبة اللون بشكل غريب ازاء البشرة السمراء. وقال السفير: «لحسن حظي، كانت الزجاجة التي ضربني بها هشة إلى حد كبير.» والتفت إلى الممرضة الصغيرة وهو يسوي شعره الممشط ليقول:« إياك أن تنسي يا مس رادها ما سأقوله لك: بالنسبة للمجنون ليس هناك باعث للجنون أكثر من الحكمة. إن بالا جزيرة صغيرة يحدق فيها كالسوار الفان وتسعمائة مليون من المصابين بالحالات العقلية، ولذلك، فلتحذروا أن تكونوا حكماء ومنطقيين أكثر من اللازم. ففي بلاد المجانين، لن يكون الرجل العاقل الوحيد هو الملك.» وأشرق وجه مستر باهي باللمعة الفولتيرية وهو يقول: «لسوف يشنقونه دون محاكمة».

ضحك ويل ضحكة تعوزها الحماسة ثم التفت ثانية إلى الممرضة الصغيرة وسألها: «أليس لديكم من يجب أن يدخل مستشفى الامراض العقلية؟»

«عددهم عندنا، كعددهم عندكم تماماً، أعني بالنسبة إلى عدد السكان. أو على الأقل هذا ما تقوله المراجع».

ــ «إذن فإن الحياة في عالم معقول تسوده الحكمة لاتؤدي إلى أي فرق فيما يبدو.»

ــ «ليس بالنسبة للناس الذين يولدون بصفات كيميائية يمكن أن تحولهم إلى مصابين بالأمراض العقلية... إنهم يولدون ضعافاً معرضين للجراح. فيمكن للمشاكل الصغيرة التي يلحظها الآخرون أن تودي بهم.. ونحن نوشك أن نضع أيدينا على الاسباب التي تجعلهم معرضين للاذى إلى هذه الدرجة. ونوشك أن نحصل على ما يمكننا من دفعهم بعيداً عن التقدم نحو الانهيار. وحالما يبتعدون عن هذا التهديد، فإننا نستطيع أن نفعل شيئاً من أجل زيادة مقاومتهم. إنها الوقاية مرة أخرى، وعلى كل الجبهات بالطبع».

ــ «إذن فأن يولد الانسان في عالم معقول سيؤدي إلى اختلاف حتى بالنسبة لمن كان من المقدر له أن يصاب بمرض عقلي.»

.. «وهو اختلاف متحقق بالفعل بالنسبة للامراض العصبية. إن نسبة الإجابة بالامراض العصبية عندكم تكاد تبلغ واحداً بين كل خمسة أو أربعة. والنسبة عندنا تكاد تكون واحداً بين كل عشرين. والواحد الذي ينهار يحصل على العلاج، على كل الجبهات أما التسعة عشر الذين لاينهارون فإنهم أيضاً يحصلون على الوقاية على كل الجبهات أيضاً. وهذا يذكرني ثانية بأولئك الاطباء الامريكيين. كان ثلاثة من بينهم أطباء نفسيين، وواحد من هؤلاء كان يدخن السيجار دون توقف وفي لهجته لكنة المانية. وكان هو من وقع عليه الاختيار لكي يلقي علينا محاضرة. ويالها من محاضرة» وِأمسكت الممرضة الصغيرة رأسها بين يديها وقالت: «لم أسمع أبداً شيئاً مثل هذا.»

ــ «ماذا كان موضوعها؟»

ــ «كانت عن الطريقة التي يعالجون بها مَنْ تظهر عليهم أعراض المرض العصبي. إننا لم نصدق آذاننا. إنهم لايعملون «أبداً» على كل الجبهات، إنهم لايعملون إلا على نصف جبهة واحدة فقط. ومهما كان موضوع اهتمامهم فإن الجبهات الجسدية لاتكاد توجد بالنسبة لهم. ليس للمريض عندهم جسد، باستثناء الفم والشرج. إنه ليس كائناً عضوياً.. ولم يولد ببنية جسدية ولا بمزاج نفسي، كل ما يملكه هما طرفا انبوبة هضمية وأسرة، ونفس. ولكن ما نوع النفس التي يملكها؟ من الواضح أنها ليست العقل في مجموعه، ليست العقل كما هو في الحقيقة، وكيف يمكن أن يكون كذلك إذا كانوا لايبالون بتشريح الشخص، ولا بكيميائه العضوية، ولا بتكوينه الفيسيولوجي؟ العقل مجرداً من الجسد ــ هذه هي الجبهة الوحيدة التي يعملون عليها. بل إنهم لايعملون على كل هذه الجبهة. فالرجل الذي يدخن السيجار ظل يتحدث عن اللاوعي وحده، ولكن اللاوعي الوحيد الذي يهتمون به على الاطلاق هو اللاوعي السلبي، القمامة التي حاول الناس أن يتخلصوا منها بدفنها في البدروم. ليست هناك كلمة واحدة عن اللاوعي الايجابي ولايبذلون أي محاولة لمساعدة المريض على أن يفتح نفسه لاستقبال قوة الحياة أو «طبيعة البوذا».

ولايبذلون أي محاولة حتى لتعليمه أن يزيد وعيه قليلاً في حياته اليومية. إنك تعرف» ورددت صوت طائر المايناه وهي تقول: «هنا والآن يا أولاد.» «انتباه». لايعمل هؤلاء الناس شيئاً سوى أن يتركوا الشخص التعيس الحظ المصاب بالمرض العصبي لكي يتخبط في عاداته السيئة القديمة، وتعوده على ألاّ يكون أبداً هناك في الوقت القائم. ليست كل هذه المسألة إلا نوعاً من البلاهة الخالصة. كلا، بل أن الرجل الذي يدخن السيجار لم يكن يتمحك حتى بهذا العذر، لقد كان ماهراً كما يمكن أن يكون الشخص الماهر. ولهذا فإنها ليست بلاهة. لابد أن تكون نوعاً من العمل الارادي، شيئاً أقنع به نفسه بنفسه ـ مثل الوصول إلى حالة السكر، أو أن تقنع نفسك بتصديق شيء غبي لأنه تصادف أن وجد هذا الشيء في الكتب القديمة والآن انظر إلى فكرتهم عمن يكون الانسان العادي الطبيعي. صدق هذا أو لا تصدقه، فإن الانسان الطبيعي عندهم هو من يستطيع أن يصل إلى نشوة الجماع النهائية ويتكيف مع مجتمعه». ومرة أخرى أمسكت الممرضة الصغيرة برأسها بين يديها ثم استمرت تقول: «هذا شيء لايمكن تخيله لا تساؤل عندهم عما تفعله بلحظات نشوتك هذه. لايتساءلون عن نوعية أحاسيسك وأفكارك وتصوراتك. ثم ماذا عن المجتمع الذي يفترض فيك أن تتكيف معه؟ أهو مجتمع مجنون أم عاقل؟ وحتى إذا كان مجتمعاً شديد الحكمة والعقل، أمن الصواب أن يتكيف معه أي انسان تكيفاً «كاملاً.؟»

قال السفير بينما تلمع على شفتيه واحدة من ابتساماته البراقة: «إذا شاء الله أن يدمر قوماً أصابهم أولاً بالجنون. أو بدلاً من هذا، بل ربما كان هذا أكثر تأثيراً أصابهم أولاً بالحكمة.» ونهض مستر باهي واقفاً، وسار إلى النافذة وقال: «لقد وصلت سيارتي لتأخذني.. لابد لي من العودة إلى شيفابورام وإلى مكتبي.» ثم التفت إلى ويل وودعه وداعاً طويلاً معطراً. ثم فضل أن يغيب شخصية السفير وهو يقول: «لا تنسى أن تكتب ذلك الخطاب. إنه بالغ الأهمية». وابتسم ابتسامة تآمرية، وأخذ يحصي مقداراً وهمياً من النقود وهو يمرر إبهامه الأيسر جيئة وذهاباً عبر الاصبعين الأوليين من يده اليمنى.

قالت الممرضة الصغيرة بعد أن رحل: «شكراً لله الرحيم».

تساءل ويل: «ماذا كانت إساءته؟ تلك الاساءة المعتادة؟»

ـ «تقديم المال لفتاة تريد أن تذهب معك إلى الفراش ـ ولكنك لاتروق لها. فتعرض المزيد. أيكون هذا من الامور المعتادة في المكان الذي أتى منه؟»

قال لها ويل مؤكداً: «معتاد جداً».

ـ «حسناً، أنا لا يروق لي هذا».

ـ «هذا ما يمكنني أن أراه. وهناك سؤال آخر. ماذا لديك عن موروجان؟»

ـ «ماذا يجعلك تسأل؟»

ـ «الفضول. لاحظت أنكما تقابلتما من قبل، أكان ذلك حينما كان هنا منذ عامين بدون والدته؟»

ـ «كيف عرفت هذا؟»

ـ «أخبرني عصفور صغير ـ أو بالاحرى طائر هائل الحجم جداً.»

ـ «الراني لابد أنها صورت المسألة في صورة آثام سادوم وعامورة.»

ـ «لكنها لسوء الحظ وفّرت عليّ سماع التفاصيل الملتهبة. فلم تعطني إلا إشارات معتمة. إشارات، على سبيل المثال، عن نسوة محنكات مثل مساليتا، يعطين في الحب دروساً للصبية الصغار الابرياء.»

ـ «وهل هو بحاجة إلى تلك الدروس».

ـ «أشارت أيضاً، عن فتاة فائرة النضج، هلوك، تماثله في العمر».

انفجرت ممرضة «آبو» ضاحكة.

ـ «أو تعرفينها؟»

ـ «هذه الفتاة الفائرة النضج، الهلوك، كانت أنا.»

ـ «أنتِ؟ أو تعرف الراني هذا؟»

ـ «لم يعطها موروجان سوى الحقائق دون الاسماء. وأنا ممتنة لهذا جداً.. منها أنت ترى أنني تصرفت بطريقة سيئة جداً. لقد فقدت عقلي ولعاً بإنسان لم أحبه حقاً، وآذيت شخصاً آخر كنت أحبه بالفعل. لماذا يكون المرء بهذا الغباء؟»

قال ويل: «للقلب أسبابه، وللهرمونات والغدد الصماء أسبابها».

ساد صمت طويل. انتهى ويل من تناول آخر قطعة من سمكته المسلوقة الباردة ومن الخضروات. وناولته الممرضة «آبو» طبقاً من «الفروت سالاد».

قالت: «أنت لم تشهد موروجان أبداً وهو يرتدي بيجاما من الساتان الابيض».

ـ «هل فاتني شيء هام؟»

ـ «ليست لديك فكرة عن مقدار جماله حين يرتدي بيجاما من الساتان الابيض.

ليس لأي انسان الحق في أن يكون بهذا الجمال. ليس هذا من العدل. إنه من قبيل التمتع بميزة غير عادلة ضد الخصم».

كانت رؤيتها له في تلك البيجاما البيضاء من الساتان هي ما جعلها أخيراً تفقد عقلها. فقدته تماماً لدرجة أنها ظلت طوال شهرين كاملين وكأنها شخص آخر، بلهاء ذهبت تطارد شخصاً لايحتملها وولت ظهرها للشخص الذي أحبها على الدوام، وهو الشخص الذي أحبته هي نفسها على الدوام.

سألها ويل: «هل ذهبتِ إلى أي مكان مع الولد لابس البيجاما؟»

أجابته: «لم أذهب إلى أبعد مما يوجد السرير. ولكن حينما بدأت أقبله، قفز من بين الأغطية والملاءات وحبس نفسه في الحمام.. ورفض أن يخرج حتى ناولته البيجاما من شراعة الباب العلوية، ووعدته بشرفي بأنني لن أتحرش به. يمكنني الآن أن أضحك على الحكاية، ولكن في ذلك الوقت، أقول لك، في ذلك الوقت..» وهزت رأسها وأضافت تقول: «مأساة خالصة» لابد أنهم خمنوا ما حدث من الطريقة التي تصرفت بها. ولقد كان من الواضح أن الفتيات المبكرات في النضج الولوعات بالرجال لسن من الفتيات الطيبات. لقد كانت الدروس المنتظمة العادية هي ما يحتاج إليه».

قال ويل: «وأنا أعرف بقية القصة.. الولد يكتب إلى الأم، والأم تطير إلى الوطن وتهربه معها إلى سويسرا».

«ثم لم يعودا إلا منذ نحو ستة أشهر. وطوال ما لايقل عن نصف هذه المدة كانا في ريندانج، مقيمين عند خالة موروجان».

كان ويل على وشك أن يذكر الكولونيل ديبا، ثم تذكر أنه قد وعد موروجان بأن يكون كتوماً مخلصاً وألّا يقول شيئاً.

جاء صوت صفارة من الحديقة.

قالت الممرضة الصغيرة: «لاتؤاخذني». ومضت إلى النافذة قالت وهي تلوح بيدها وتبتسم بسعادة لمن رأته في الحديقة: «إنه رانجا».

ـ «من هو رانجا؟»

ـ «صديقي الذي كنت أتحدث عنه، أنه يريد أن يسألك بعض الأسئلة. أتأذن له بالمجيء إليك دقيقة واحدة؟»

ـ «بالطبع.»

التفتت إليه ثانية إلى النافذة وأشارت تستدعيه بيدها.

ـ «أفهم من هذا أن ذلك يعني أن البيجاما الساتان البيضاء قد خرجت تماماً من الصورة».

وأومأت برأسها وقالت: «لم تكن سوى مأساة ذات فصل واحد. لقد استعدت عقلي بنفس السرعة التي فقدته بها تقريباً. وحينما استعدته، كان هناك رانجا، كما كان أبداً، ينتظرني». دُفع الباب وفُتح، ودخل الحجرة شاب نحيل يرتدي سروالاً قصيراً من الخاكي وحذاء من المطاط.

قال وهو يصافح ويل: «رانجا كاراكوران».

قالت رادها: «لو انك جئت قبل هذا بخمس دقائق، لكانت لك متعة مقابلة مستر باهي».

قال رانجا وقد ظهرت على وجهه علامة التقزز: «أكان هنا؟»

سأل ويل: «أهو من السوء بهذا القدر كله؟»

عدد رانجا قائمة الاتهامات: «أولاً، إنه يكرهنا، وثانياً، إنه سمسار وقواد الكولونيل «ديبا»، وثالثاً، إنه السفير غير الرسمي لكل شركات البترول. ورابعاً، حاول هذا الخنزير العجوز أن يتقرب من رادها. وخامساً، إنه يحاول إلقاء المحاضرات حول الاحتياج إلى حركة بعث ديني. بل إنه نشر كتاباً حول هذا الموضوع. وكان الكتاب بأكمله ومقدمته، من تأليف شخص ما في مدرسة هارفارد للاهوت. وهذا جزء من الحملة الموجهة ضد استقلال بالا. إن الله هو العذر الذي يستخدمه ديبا. لماذا لايكون المجرمون صرحاء بشأن ما ينوون القيام به؟ كل هذا الغثاء والهراء المثالي المثير للاشمئزاز ـ إنه يجعل المرء على وشك الغثيان».

مدت رادها يدها وقرصت أذنه في ثلاث ليّات حادة.

قال: «أنتِ أيتها الصغيرة الـ»
بدأ كلامه غاضبا، ثم سكت وانفجر ضاحكاً.

قال: «إنك على حق تماماً. فمهما كان الامر، ليس للمرء أن يدفع الامور بهذا العنف.»

سأل ويل رادها: «أهذا ما تفعلينه دائماً حينما يشتعل حماسه؟»

ـ «حينما يشتعل حماسه في اللحظة غير المناسبة، أو حول أشياء لايستطيع حيالها شيئاً.»

التفت ويل إلى الصبي وقال: «ألم يحدث أبداً أن كان عليك أن تقرص أذنها؟»

ضحك رانجا وقال: «أجد أنه من المرضي أكثر أن أخبط أردافها. ولسوء الحظ فإنها نادراً ما تحتاج إلى هذا.»

ــ «أيعني هذا أنها أكثر وأفضل توازناً منك انت؟»

ــ «أفضل توازناً؟ اسمع، إنها عاقلة وحكيمة بشكل غير عادي».

ــ «بينما انت عادي وطبيعي لا أكثر؟»

قال وهو يهز رأسه: «ربما إلى اليسار قليلاً من مركز الاشياء. إنني أشعر أحياناً بالانقباض والكآبة المفزعة ــ فأشعر أنني لا أصلح لأي شيء.»

قالت رادها: «بينما هو في الحقيقة، ممتاز لدرجة أنهم أعطوه منحة دراسية لدراسة الكيمياء في جامعة مانشستر.»

ــ «ماذا تفعلين معه حينما يلعب عليك ألاعيب الخاطىء التعيس اليائس تلك؟ أتشدين أذنه؟».

قالت: «أشدها، و. حسناً، وأشياء أخرى.» ونظرت إلى رانجا ونظر إليها ثم انفجرا ضاحكين معاً.

قال ويل: «بالضبط. بالضبط». ثم استمر يقول: «وكائنة ما كانت تلك الاشياء الاخرى، ولكن بما أنها كذلك، فهي الاسباب التي تجعل رانجا يتطلع إلى مشروع مغادرة بالا لمدة سنتين؟»

قالت رادها بقوة: «ولكنه لا بد أن يذهب»

تساءل ويل متعجباً: «أيمكن أن يكون سعيداً حينما يذهب إلى هناك؟»

قال رانجا: «هذا ما أردت أن أسألك عنه».

ــ «حسناً إنك لن تعجب بالمناخ. . ولن يروق لك الطعام، ولن تروق لك أنواع الضجيج ولا الروائح ولا هندسة المباني. ولكن العمل سيروق لك بالتأكيد أو تقريباً، ومن المحتمل أن تجد نفسك معجباً بعدد كبير من الناس.»

سألته رادها: «وماذا عن الفتيات؟»

سأل ويل: «كيف تريدينني أن أجيب على هذا السؤال؟ أواسيك أم أقول الحقيقة؟»

ــ «قل الحقيقة.»

ــ «طيب يا عزيزتي، الحقيقة هي أن رانجا سينجح نجاحاً وحشياً ساحقاً. . ستجد العشرات من الفتيات أنه لايقاوم. وستكون بعض هؤلاء الفتيات ساحرات الجمال. فماذا

سيكون شعورك إذا عجز هو عن المقاومة؟»

ــ «سأكون مسرورة له.»

التفت ويل إلى رانجا وقال: «وهل ستكون أنت مسروراً إذا تسلت هي مع شاب آخر، وأنت بعيد عنها؟»

قال: «أود أن أكون مسروراً بهذا الحال. ولكنها مسألة أخرى، إذا ما كنت سأشعر بالسرور أم لا.»

ــ «هل ستجعلها تقطع وعداً بأن تكون مخلصة لك؟»

ــ «لن اجعلها تعد بشيء.»

ــ «حتى رغم أنها فتاتك؟»

ــ «إنها فتاة نفسها ، ملك نفسها».

قالت الممرضة الصغيرة: «ورانجا ملك نفسه. إنه حر في أن يفعل ما يروق له».

أخذ ويل يفكر في مخدع عشيقته «بابز» الذي كان بلون الفراولة وضحك بعنف ومرارة. ثم قال: «وقبل كل شيء، حر في أن يفعل ما لا يروق له». ونقل عينيه من أحد الوجهين الشابين إلى الآخر ورأى أنهما كان ينظران إليه بنوع من الدهشة. ولكنه بلهجة مختلفة وبابتسامة من نوع آخر: «ولكنني نسيت أن احدكما حكيم وعاقل بشكل غير طبيعي، وأن الآخر إلى اليسار قليلاً من مركز الاشياء. إذن فكيف يمكنكما أن تتوقعا فهم ما يتحدث عنه هذا المريض العصبي القادم من الخارج». ودون أن يترك لهما الفرصة للإجابة على سؤاله قال متسائلاً: «أخبراني، كم تطول.» ثم قطع كلماته، وعاد يقول: «ولكن ربما لم أكن كتوماً ومخلصاً بهذا الشكل. فإذا كنت كذلك، فقولا لي فحسب أن أهتم بأموري الخاصة، وألا اتدخل في شؤون الاخرين. ولكنني أحب أن أعرف، وليس إلا من باب الاهتمام بالجانب التاريخي الانساني، منذ متى وانتما صديقان؟».

سألت الممرضة الصغيرة: «أتعني بسؤالك «صديقان» أم تعني «حبيبان»؟

ــ «لماذا لا أعني الاثنين، ونحن نتحدث عن الموضوع؟»

ــ «طيب، أنا ورانجا كنا صديقين منذ طفولتنا. وأصبحنا عاشقين ــ باستثناء تلك الفترة البائسة التي استغرقتها حكاية البيجاما البيضاء ــ منذ كنت في الخامسة عشرة والنصف وكان هو في السابعة عشرة ــ أي منذ حوالي عامين ونصف.»

ــ «ولم يعترض أحد؟»

ـ «ولماذا يعترضون؟»

ردد ويل: «أجل، بالتأكيد لماذا. ولكن تظل الحقيقة، في القسم الذي انتمي إليه من العالم هي أن كل الناس بالفعل، كانوا سيعترضون. »

قال رانجا: «ماذا عن الاولاد الآخرين؟»

ـ «من الجانب النظري كانوا أكثر قيوداً من الفتيات. ولكن في الحقيقة العملية.. حسناً، تستطيع أن تخمن ما يحدث حينما يختلط خمسمائة أو ستمائة مراهق من الذكور في مدرسة داخلية سوياً. أيحدث مثل هذا الشيء هنا؟»

ـ «بالطبع».

ـ «هذا يدهشني».

ـ «يدهشك؟ لماذا؟»

ـ «لأنني أرى أن الفتيات لسن مقيدات».

ـ «ولكن نوعاً واحداً من الحب لاينفي النوع الآخر.»

ـ «وكلاهما مشروعان؟»

ـ «بالطبع.»

ـ «إذن فإن لا أحد يمكن أن يهتم إذا كان موروجان قد اهتم بصبي آخر يرتدي البيجاما؟».

قالت رادها: «ولكن لسوء الحظ، فإن الراني قد قامت بمهمتها بإتقان لدرجة أنه لايستطيع أن يهتم بشخص آخر سواها، وسوى نفسه هو بالطبع.»

ـ «ولا الاولاد؟»

ـ «ربما كان هناك بعضهم الآن.. لا أعرف. كل ما أعرفه أنه لم يكن في عالمه أحد على أيـامي. لا أولاد، (ثم بطريقة أكثر تأكيدا)، ولا فتيات. ليس سوى الأم والعادة السرية والاسياد المنزلين. ليس سوى موسيقى الجاز والسيارات الرياضية والأفكار الهتلرية عن أن يكون زعيمًا عظيمًا، وعن تحويل بالا إلى ما يسميه دولة حديثة».

قال رانجا: «منذ ثلاثة أسابيع كان هو والراني في القصر في شيفابورام. ووجهوا الدعوة إلى مجموعة من بيننا من طلبة الجامعة لكي نستمع إلى أفكار موروجان ـ حول البترول والتصنيع، وعن التلفزيون والتصنيع، وعن حملة الروح الصليبية.»

ـ «هل حول البعض عن آرائهم؟»

ــ هز رانجا رأسه نافياً وقال: «لماذا يريد أي إنسان أن يستبدل شيئاً ثرياً وطيباً ونافعاً بغير حدود بشيء رديء وهزيل ومضجر، إننا لا نشعر بأي احتياج إلى قواربكم السريعة أو تليفيزيونكم. وحاجتنا أقل بكثير إلى حروبكم وثوراتكم، وحركات الاحياء لديكم وشعاراتكم السياسية، وهرائكم الميتافيزيقي القادم من روما أو من موسكو، ألم تسمع أبداً عن «الميثونا»؟.»[12].

ــ «الميثونا؟ ما هذا؟»

اجابه رانجا: «اسمح لي أن نبدأ بالخلفية التاريخية». وبطريقة الحذلقة الفاتنة لطالب جامعي يلقي محاضرة عن مسائل لم يسمع هو نفسه بها إلا متأخراً، انقض على الكلام يقول: «جاءت البوذية إلى بالا منذ الف ومائتي عام. وهي لم تأتِ من سيلان وهي ما يمكن أن يتوقع المرء منها، وإنما أتت من البنغال، ثم عبر البنغال فيما بعد من التبت. والنتيجة أننا من البوذيين الماهيانيين[13] وبوذيتنا تتأثر إلى حد كبير بتانترا. أو تعرف ماهو

---

(١٢) ميثونا Maithuna ــ واحدة من المحرمات الخمسة في النزعة التانترية Tantrism أو ما تسمى بالـ«ميمات» الخمس: الخمر madya، اللحم mamsa، السمك matsya، البقول mudra الجماع الجنسي maithuna وسبب التحريم هو اصرار النزعة التانترية على قداسة وطهارة كل الاشياء ونقائها. ومن هنا فإن الالتزام بتحريم الـ «ميمات» الخمس هو جوهر الرحلة المقدسة الإلزامية (الحج) على كل تانتري. وليست هذه الرحلة انتقالاً في المكان بقدر ما هي سلسلة من الطقوس المتصاعدة الالزام والمتزايدة الصرامة، ولكنها في نفس الوقت لاتمثل قانوناً لايمكن الخروج عليه، لأنها تتحقق ــ حتى في مرحلتها الاخيرة ــ حيث يتحقق التخلص من المحرمات الخمس. ويعتمد ذلك على قدرة الانسان على الدخول بعقله في حالة نفسية ووجدانية من الرفض للتمتع بمجرد هذه الاشياء الحسية حتى يتخلص الانسان من ازدواج وجوده، لكي يصبح واحداً، وليس كياناً مركباً من روح وجسد. راجع زيمر ص ٥٧٢ ــ ٥٧٣.

(١٣) الماهايانا Mahuyana ــ هو كتاب الماهايانا، الذي يضم القانون الأسمى للبوذية، الذي كتبه البوذا الأعظم ثم أخفاه حتى يستعد العالم لتقبله، وقد أوكل إلى الراهب «تاجاريونا» الذي لايموت، مهمة حراسته، وتقول الماهايانا، إن الامير الصالح سوبوتيي، لما عرف أن البوذا قد ظهر، فرح وقال: «هذه هي المرة الثانية التي تتحرك فيها عجلة الخلق والاشياء.. لنذهب حتى نشهد ذلك» ولكن البوذا قال: «وليست هذه هي المرة الثانية التي تتحرك فيها عجلة القانون الحق. فليس هناك دفع لأي شيء إلى الحركة، وليس هناك إيقاف لحركة أي شيء إن معرفة هذا وحده هو كمال الحكمة برابنا ــ بارامينا)، وهو ما يميز الكائنات التي جوهرها الاستفادة والمعرفة». بما يعني أنه ليست هناك بداية لحركة الوجود ولا نهاية لها. والمعنى الحرفي لكلمة «ماهايانا» هو «قارب العبور الأكبر». ومعرفتها تعني الوصول إلى المرتبة الاخيرة من مراتب الاستنارة والمعرفة البوذية. التي تعلّم أن الهدف والمعنى الخفي للحكمة هو الاستنارة الشاملة لـ «كل» الكائنات. وهذا يتناقض مع الـ «هينايانا» التي تقول إن الاستنارة مستحيلة إلاّ لقلة قليلة من العارفين. وأعظم من جسد الماهايانا هو البوذا المخلص «آفالوكيتسفارا» الذي تقول اسطورته إنه بعد سلسلة من التمارين الروحية والجسدية الشاقة من أجل=

تانترا؟»[١٤].

وكان على ويل أن يعترف بأنه لايملك إلا فكرة مهتزة بشدة.

قال رانجا وهو يضحك ضحكة انفجرت دون مقاومة من جانب غشاء حذلقته: «ولكي أقول لك الحقيقة، فإنني لا أعرف عن تانترا حقاً أكثر بكثير مما تعرف أنت. إن تانترا موضوع هائل، وأكثره كما أظن مجرد بلاهات سخيفة وخرافات ــ لاتستحق الاهتمام بها. ولكنها تحتوي على نواة صلبة من المنطق المعقول. إذا كنت من اتباع تانترا فأنت لاتعتزل العالم أو تنكر قيمته، إنك لاتحاول الهروب إلى نيرفانا بعيداً عن الحياة كما يفعل رهبان المدرسة الجنوبية من البوذية. كلا، إنك تقبل العالم وتسلم بوجوده، وتستفيد به،

= التطهر والفضيلة، كان على وشك أن يصل إلى النيرفانا (الانطفاء والاندماج النهائي الكامل بالكون) أي الابدية. وفي هذه اللحظة سمع كيتسفارا زئيراً هائلاً ــ يملأ ارجاء الكون، هو نحيب كل الكائنات وعويلها، التي جزعت أمام احتمال رحيله الوشيك من عالم الميلاد والحياة. وهكذا رفض آفالوكيتسفارا دخول النيرفانا ــ بسبب «الكارونا» أي تعاطفه وحنانه (راجع الهامش السابق عن كارونا) حتى تتهيأ لكل الكائنات فرصة دخول عالم النيرفانا بنعيمه قبله. وبذلك صار مخلصاً، مثل الراعي الصالح، الذي يدخل كل قطيعه إلى أمان الحظيرة، ثم يدخل هو بعد آخر القطيع، مغلقاً خلفه الباب، حيث لايكون أحد قد تبقى بعده في العراء. (راجع زيمر ص ٥٠٩، ٥٣٤)

(١٤) تانترا ــ Tantra ــ كما يقول هكسلي في السطور التالية، فإن «تانترا» والنزعة التانترية موضوع هائل مليء بالاساطير. ولكننا نستطيع أن نضيف إلى ما سيقوله رانجا في محاضرته المقتضبة، إن «تانترا» هو الوعي بالاضافة إلى الوجود كله: أي إنه الانسان في الوجود ومع الوجود. وقد كانت التانترية هي آخر مراحل الديانة البراهمانية الهندية (القائلة بان براهمان (الرب) الخالق هو أيضاً الوجود كله، متجسداً في مظاهر الكون، حيث الكون هو براهمان والوعي هو أيضاً براهمان والانسان جزء منه يحاول أن يتشبه به. وفي النصوص التانترية الاولى المسماة «الآجا» انفصل الوعي عن الكون لكي يصير صانعه، والحالّ فيه في وقت واحد، وليصبح أيضاً إلهاً واحداً لاشريك له، رغم أنه يتجسد في صور عديدة، ثم تطور بعد ذلك طبقاً لفكرة أن «الوعي» قد «أعاد» خلق العالم، ولم يخلقه من العدم، وفي اتساق مع فكرة أنه «صنعه» من جوفه ثم حلّ فيه «كالعنكبوت» لكي تصبح التجسيد الرئيسي للإله في «تانترا» هي «كالي» الربة السوداء المظلمة، كلية القدرة، الام، التي يتعلق العالم بجلبابها كالطفل. وأصبح دور الانسان هو أن «يعي» العالم، وأن يكتشف بوعيه له، وفيه، سعادته، وأن يتحقق، كتجسيد لبراهمان نفسه، في صورة «ساكتي» ابن براهمان وتجسيده في وقت واحد عن طريق الوعي. والوعي هنا معناه اكتساب القدرة على الخروج من إطار الزمن (سانسارا) دون الوصول إلى الأبدية (نيرفانا) مثلما فعل البودهيساتفا افالوكيتسفارا رغم أنه كان بوذياً لم يكن براهمانياً ولا تانترياً بالطبع. والوقوف خارج الزمن معناه القدرة على التخلص من عذاباته وآثاره المميتة دون تجاهلها ودون التوقف عن الوعي بها. وربما في هذا تكمن قدرة البراهمانية على استيعاب البوذية كلها ثم طردها من الهند بعد ذلك، ربما خوفاً من تأثيرها الثوري الاجتماعي (راجع زيمر ص ٥٦٨، ٥٥٩، ٦٠٠ ــ ٦٠٢).

إنك تستفيد من كل ما تصنع أو تفعل ومن كل ما يحدث لك، ومن كل ما تراه أو تسمعه أو تتذوقه أو تلمسه، باعتبارها وسائل لاحصر لها تؤدي إلى تحريرك من سجن نفسك.»

قال ويل بلهجة متشككة مؤدبة: «حديث جميل»

قال رانجا مستطرداً باصرار وقد خفف زهو الشباب بنفسه وادعائه من لهفة الشباب على تغيير أفكار الآخرين: «وهناك شيء آخر إلى جانب ما ذكرته، هو الاختلاف بين فلسفتكم وفلسفتنا. إن الفلاسفة الغربيين، وحتى أحسنهم، ليسوا أكثر من متحدثين بارعين، ولكن هذا ليس هو المهم. ليس الحديث هو ما اقصده. إن فلسفتهم نفعية وتهدف إلى الانتفاع الجزئي في الأعمال الصغيرة المنعزلة مثلما هو الحال في فلسفة الطبيعيات الحديثة ـ باستثناء أن الأعمال المقصودة أعمال تتم في المجال النفسي والنتائج لها طابع النتائج العلوية الـمنزلة من أعلى. إن المفكرين الميتافيزيقيين المشغولين بما وراء الطبيعة، عندكم يطلقون الاقوال القاطعة حول طبيعة الانسان والكون ولكنهم لايدعون للقارىء أي طريقة لاختبار مقدار الحقيقة في تلك الاقوال القاطعة. أما نحن، فحينما نطلق حكمًا من الاحكام، فإننا نتبعه بقائمة من العمليات التي يمكن أن تستخدم لاختبار مدى صدق ما اطلقناه من أحكام. خذ مثلاً عبارة «أنت هو ما أنت عليه» وهي قلب فلسفتنا كلها ولبها» ثم كررها بلغته الاصلية «تات تفام ازي» «إنها تلوح كفرضية من فرضيات الميتافيزيقا، ولكنها تشير في الحقيقة إلى تجربة نفسية، وقد وصف فلاسفتنا العمليات التي يمكن للناس بواسطتها أن يعيشوا هذه التجربة وأن يتجاوزوها، حتى يستطيع كل من يرغب في القيام بالعمليات الضرورية أن يختبر بنفسه مدى صدق «أنت هو ما أنت عليه». وهذه العمليات هي ما يسمونها «يوجا» أو «دهايانا» أو «زن»[١٥] أو في ظروف خاصة معينة، يسمونها «ميثونا؟».

ـ «وهذا يعيدنا إلى سؤالي الاصلي: ما هي الميثونا؟»

ـ «ربما كان الأحسن أن تسأل رادها.»

التفت ويل إلى الممرضة الصغيرة وقال: «ماهي؟»

ـ «المقدسة أم الشائعة العادية»؟

ـ «ليس هناك فرق».

تدخل رانجا قائلاً: «تلك هي المسألة كلها. فإنك حينما تمارس الميثونا يكون الحب العادي الشائع، هو الحب المقدس.»

---

(١٥) يوجا yoga، دهايانا dhayana، زن zen باللغات اليابانية، الهندية، السنسكريتية على التوالي، وهي بالصينية تشان ch'an كلها تعني «التأمل» والتركيز العقلي من أجل تحقيق السيطرة الكاملة على الجسد وعلى المحيط الخارجي لتحقيق الالتحام بالكون عن طريق معرفة الذات. (راجع زيمر ص ٥٤٨).

قالت الفتاة تقتبس من محفوظاتها: «بودها تافان يوشيديوني سانسرتيان».

ـ «لا أعرف شيئاً من لغتك السنسكريتية! ما معنى هذا؟»

ـ «كيف تترجم كلمة «بودهاتافان» يارانجا؟»

ـ «أن تكون على مثال بوذا، أن تكون بوذيا، خاصية أن تكون عارفاً مستنيراً.»

أومأت رادها برأسها وعادت تلتفت إلى ويل لتقول: «إنها تعني أن التماثل مع بوذا إنما يكمن في «اليوني!»

ـ «في اليوني؟» وتذكر ويل تلك التماثيل السحرية الحجرية الصغيرة التي ترمز للانوثة الابدية التي كان قد ابتاعها كهدايا يقدمها لزميلاته في المكتب من بائع متجول أحدب لأدوات العبادة في مدينة بنارس. دفع في كل واحدة منها، في كل «يوني» دفع ثمانية «انات» هندية، أما صورة «يونى لينجام» الأكثر قدسية فقد دفع فيها اثنتي عشرة «انه»، سأل: «في «اليوني» بالمعنى الحرفي أم المعنى الرمزي؟».

قالت المرضة الصغيرة: «يا له من سؤال يدعو إلى السخرية» وضحكت ضحكتها الصافية غير المتميزة التي تدل على البهجة الخالصة، وأضافت تقول: «أتظن أننا نمارس الحب بشكل رمزي؟» ثم كررت عبارتها المحفوظة: بودهاتافان يوشيديونى سانسريتان. لايمكن أن يكون هناك تطابق حرفي كامل ومطلق أكثر من هذا التطابق.»

سأل رانجا: «ألم تسمع أبداً عن الجماعة الاونيدية؟»

أومأ ويل برأسه ـ كان قد عرف مؤرخاً أمريكياً تخصص في الجماعات السكانية الامريكية في القرن التاسع عشر. سأله: «ولكن لماذا تعرفها أنت؟»

ـ «لأنها مذكورة في كل مراجعنا المدرسية عن الفلسفة التطبيقية. والميثونا بشكل اساسي هي نفس ما يدعوها شعب الاونيدا بالسيطرة على الشهوة الذكرية. وكانت هذه هي نفس ما قصدها رجال الكنيسة الكاثوليكية بعبارة «الجماع المخزون».

رددت المرضة الصغيرة: «المخزون، تدفعني هذه الكلمة دائمًا إلى الضحك.» وعادت الغمازتان على خديها إلى الظهور وبرقت أسنانها البيضاء وهي تضحك وتقول: «يا له من شاب مختزن!»

قال رانجا بقسوة: «لاتكوني بلهاء، هذا موضوع جدي.»

وظهر على الفور تعبيرها عن أسفها العميق. ولكن «المخزون» كان بالفعل شيئاً مضحكاً للغاية.

قال ويل مستنتجاً: «وبكلمة واحدة، فإنها نوع من السيطرة على النسل دون موانع للحمل.»

قال رانجا: «ولكن ليس هذا سوى بداية القصة. فالميثونا أيضاً تمثل شيئاً آخر. بل إنه شيء أكثر أهمية». كان ادعاء الطالب الذي لم يفرغ من دراسته بعد قد عاد يؤكد نفسه، ثم استمر رانجا في حديثه بإخلاص: «وتذكر النقطة التي كان فرويد يرددها دائماً.»

ــ «أية نقطة؟ كان لديه الكثير من النقاط.»

ــ «النقطة المتعلقة بالدافع الجنسي عند الاطفال. إن الشيء الذي تولد به، الشيء الذي نمارسه جميعاً في اثناء فترة الرضاعة والطفولة، هو نوع من النشاط الجنسي لايتركز حول الاعضاء التناسلية، إنه نشاط جنسي منتشر في الكيان العضوي للجسم كله. هذا هو الفردوس الذي نرثه. ولكن الطفل يفقد الفردوس كلما تقدم به العمر. والميثونا هي المحاولة المنظمة لاستعادة الفردوس». والتفت إلى رادها ليقول: «إن لك ذاكرة جيدة ما هي عبارة سبينوزا التي يقتطفونها في كتاب الفلسفة التطبيقية؟»

قالت من الذاكرة: «اجعلوا الجسد قادراً على القيام بأشياء كثيرة.»

ــ «سيساعدكم هذا على الوصول بالعقل إلى الكمال وهكذا تصلون إلى الحب العقلي لله.»

قال رانجا: «ومن هنا فإن كل أنواع اليوجا إنما تتضمن الميثونا».

قالت الفتاة باصرار: «وهي يوجا حقيقية، لاتقل عن يوجا الراجا أو يوجا الكارما أو يوجا الهاكتي. بل إنها في الحقيقة أحسن بكثير فيما يتعلق بأكثر الناس. إن الميثونا تصل بهم إلى هناك حقاً.»

سأل: «ما هو» هناك»؟».

ــ «هناك» هو ما تعرفه أنت».

ــ «اعرف ماذا؟»

ــ «تعرف من أنت في الحقيقة» ثم أضافت تقول: «وصدق أو لا تصدق، «تات تفام ازي» انت على ما انت عليه، وكذلك انا، تلك هي أنا.» وعادت الغمازتان إلى الحياة ثانية، وبرقت الاسنان البيضاء وهي تقول: «وذلك أيضاً هو.» وأشارت إلى رانجا ثم أضافت: «شيء لايصدق. أليس كذلك؟» ثم أخرجت لسانها له وقالت: «ومع هذا، فتلك هي الحقيقة».

ابتسم رانجا، ومد يده مشيراً باصبعه لكي يلمس قمة أنفها وقال: «وليست هذه

مجرد واقعة حقيقية، إنها الحقيقة الكتشفة». وربت على الأنف برقة وكرر يقول: «الحقيقة المكتشفة. ولذلك فامسكي عليك لسانك يا امرأة».

قال ويل: «إن ما أتعجب له هو السبب الذي يمنعنا من أن نكون عارفين مستنيرين ـ أعني، إذا لم تكن المسألة سوى مسألة ممارسة الحب بطريقة خاصة بشكل ما. ما الإجابة على ذلك؟».

بدأ رانجا يتكلم فقال: «أنا سأقول.»

ولكن الفتاة قاطعته قائلة: «اسمع. اسمع!»

واصغى ويل. سمع ذلك الصوت الغريب غير الانساني، وانيا بعيداً وإن كان واضحاً، وهو الصوت الذي كان أول من رحب به في «بالا». كان الصوت يقول: «انتباه. انتباه. انتباه.»

ـ «ذلك الطائر اللعين مرة ثانية!»

ـ «ولكن ذلك هو السر.»

ـ «انتباه؟ ولكنكِ منذ لحظة واحدة كنت تقولين إنه شيء آخر. وماذا عن ذلك الشاب المختزن؟»

ـ «ليس ذلك إلا لكي يكون انتباهك أكثر سهولة.»

قال رانجا مؤكداً: «وهو يجعله أكثر سهولة بالفعل. وهذه هي النقطة الرئيسية التي تدور حولها الميثونا، إنه ليس الاسلوب الفني الخاص الذي يحول ممارسة الحب إلى يوجا، وإنما هو النوع الخاص من الادراك الذي يجعله الاسلوب الفني ممكناً. إنه إدراك المرء لأحاسيسه وإدراك اللاإحساس الكامن في كل إحساس.»

ـ «ماهو اللا إحساس؟»

ـ «إنه المادة الخام للإحساس الذي يمدني بها ما هو خارج نفسي.»

ـ «وأنت تستطيع أن تنتبه إلى ما هو خارج نفسك؟»

ـ «بالطبع.»

والتفت ويل إلى الممرضة الصغيرة وقال: «وأنتِ أيضاً؟»

أجابت: «أستطيع أن أنتبه إلى نفسي وأن أنتبه في نفس الوقت إلى ما هو خارج نفس رانجا وإلى ما هو نفس رانجا ،إلى جسم رانجا وإلى جسمي وإلى كل ما هو إحساس. وإلى كل الحب والصداقة. إلى لغز الشخص الآخر ـ الغريب غربة كاملة،

الذي هو النصف الآخر من نفسك، والذي هو الشبيه تماماً لما هو خارج نفسك.. فالمرء ينتبه على الدوام إلى كل الاشياء التي قد يكتشف أنها خالية من العاطفة، غير رومانتيكية هائلة بل كئيبة إذا كان مسرفاً في عاطفيته أو إذا كان ما هو اسوأ من هذا، إذا كان روحانياً مثل الراني العجوز المسكينة. ولكنها ليست أشياء كئيبة، لأن المرء ينتبه أيضاً إلى أن تلك الاشياء في الحقيقة ــ إذا كان يدركها إدراكاً كاملاً ــ ليست سوى أشياء جميلة مثل الاشياء الأخرى، ولاتقل عنها روعة.»

قال رانجا مستنتجاً: «الميثونا هي الداهيانا.» وكان من الواضح أنه يشعر بأن هذه الكلمة الجديدة تستطيع أن تفسر كل شيء.

وسأل ويل: «ولكن ما هي الداهيانا؟»

ــ «الداهيانا هي التأمل».

ــ «التأمل».

فكر ويل في ذلك المخدع القرمزي بلون الفراولة الواقع فوق شارع تشيرينج ك وس رود. رأى أن «التأمل» لم تكن هي الكلمة التي كان من السهل عليه أن يختارها. بل إنه حتى هناك، ولدى إعادة التفكير، فإنه قد وجد نوعاً من الحرية، كانت تلك الخيالات الغريبة التي رآها تحت الاضواء المتغيرة الالوان لإعلان جين بورتر، كانت خيالات نابعة من «ذاته» أو من «نفسه» العادية اليومية البغيضة. ولسوء الحظ، فإنها كانت أيضاً خيالات نابعة من كل ما تبقى من وجوه ــ صور غريبة منحطة للحب، وللذكاء، وللآداب العامة ودماثة الخلق، ولكل أنواع الوعي باستثناء ذلك النوع من الوعي الشبيه بالجنون الموجع المعذب الذي ينشره شعاع منعكس من جثة ميتة، أو ينشره الوميض الوردي المنعكس من أكثر الخيالات ابتذالاً ورخصاً. نظر ثانية إلى وجه رادها المتألق. يا لها من سعادة! يا له من اقتناع واضح، لا بالخطيئة التي كان مستر باهي مصمماً على أن ينقذ العالم منها، ولكنه اقتناع بعكس تلك الخطيئة المبارك الذي تشع منه السكينة! كانت رؤية هذا الوجه السعيد شيئاً قادراً على أن يمسّ أعماق الانسان. ولكنه رفض لأعماقه أن تتأثر. إنني لا أمسّ، محرم عليّ اللمس ــ وكانت هذه صيغة من صياغات الامر المطلق الباتر. ولما حاول أن يغير مركز بؤرة ذهنه، فقد اجتهد لكي يرى الأمر كله على أنه أمر مضحك وجدير بالسخرية إلى حد بعيد. فإذن ماذا يجب علينا أن نفعل لكي نجد خلاصنا؟ يقع الجواب في اربعة حروف.

ابتسم للنكتة الصغيرة التي قالها لنفسه، ثم سألها بسخرية: «وهل كنتما تلقنان الميثونا في المدرسة؟»

أجابت رادها: «في المدرسة.» وكان في لهجتها وضوح وصراحة بسيطة اطاحت بكل

ما كان في سؤاله من تخابث شبيه بتخابث رابليه المتهكم الفرنسي الذكي.

وأضاف رانجا: «الكل يتعلمونها».

ــ «ومتى يبدأ هذا التعليم؟»

ــ «تقريباً في نفس الوقت الذي يبدأ فيه تعليم حساب المثلثات وعلم الاحياء. أي بين سن الخامسة عشرة والخامسة عشرة والنصف.»

ــ «وبعد أن يتعلموا الميثونا، ماذا يحدث بعد أن يخرجوا إلى العالم ويتزوجوا ــ هذا إذا كنتم تتزوجون أصلاً.»

قالت رادها لتؤكد له: «أوه، نحن نفعل، نحن نتزوج.»

ــ «أيظلون يمارسونها؟»

ــ «ليس كلهم بالطبع، ولكن نسبة معقولة منهم تمارسها.»

ــ «يمارسونها باستمرار؟»

ــ «إلا حينما يريدون إنجاب طفل.»

ــ «وأولئك الذين لايريدون إنجاب الاطفال ــ ولكن قد يروق لهم أن ــ يحصلوا على تغيير طفيف، شيء غير الميثونا ــ ماذا يفعلون؟»

قال رانجا باقتضاب: «موانع الحمل.»

ــ «وهل موانع الحمل متوافرة يسهل الحصول عليها؟»

ــ «يسهل الحصول عليها! إن الحكومة توزعها. مجاناً، بلا مقابل، هدية ــ بالطبع، فيما عدا أن هذه الموانع يجب أن يدفع ثمنها من جملة الضرائب.»

أضافت رادها تقول: «يقدم موزع البريد من هذه الموانع ما يكفي لثلاثين ليلة في بداية كل شهر.»

ــ «ولايصل الاطفال؟»

ــ «لايصل منهم إلا من نريدهم. لا ينجب أحد أكثر من ثلاثة. وأكثر الناس يتوقفون عند اثنين.»

قال رانجا عائداً إلى طبيعة الزهو فيه، معتمداً على الاحصائيات: «والنتيجة هي أن عدد السكان لدينا لايزيد إلا بنسبة ثلث من واحد بالمائة كل سنة. بينما تبلغ نسبة الزيادة في ريندانج مثل نسبتها في سيلان ــ أي ما يكاد يبلغ الثلاثة بالمائة. وزيادة الصين تبلغ

اثنين بالمائة، والهند تزيد بنسبة واحد وسبعة من عشرة بالمائة.»

قال ويل: «كنت في الصين منذ شهر واحد فقط. شيء مرعب! وفي العام الماضي أمضيت ثلاثة أسابيع في الهند، وقبل الهند كنت في أمريكا الوسطى التي تربو زيادتها على نسبة الزيادة في ريندانج وسيلان. ألم يذهب أحدكما إلى ريندانج-لوبو؟»

أومأ رانجا برأسه علامة الإيجاب.

قال مفسراً: «ثلاثة أيام في ريندانج. فأنت إذا وصلت إلى الصف السادس من الدراسة العليا، يكون سفرك إلى هناك جزءاً من منهجك الدراسي في علم الاجتماع في المستوى المتقدم. إنهم يسمحون لك بأن ترى بنفسك صورة العالم الخارجي.»

تساءل ويل: «وما هي فكرتك عن العالم الخارجي؟»

أجابه بسؤال آخر: «هل جعلوك تشاهد الاحياء القذرة حينما كنت في ريندانج-لوبو؟»

ـ «على العكس لقد بذلوا كل ما بوسعهم لكي يمنعوني من رؤية الاحياء القذرة. ولكنني غافلتهم وذهبت إليها».

كانت الذكرى ما تزال حية في ذهنه. لقد غافلهم وهو في طريق عودته إلى الفندق بعد حفل الكوكتيل المروع في وزارة الخارجية في ريندانج. كان كل الناس في الحفل، وهذا معناه أن أي انسان كان هناك.. كل أصحاب المقام الرفيع المحليين وزوجاتهم - الازياء الرسمية والأوسمة، منتجات كريستيان ديور وجواهر الزمرد، كل الأجانب المهمين - فالدبلوماسيون متوافرون، ورجال البترول الامريكيون والبريطانيون، وستة أعضاء من البعثة التجارية اليابانية، وسيدة تشتغل بالصيدلة وصنع الادوية من لينينغراد، ومهندسان بولنديان، وسائح الماني تصادف أن اكتشفوا أنه ابن عم لرجل الصناعة الكبير كروب فون بوهلين، وأميريكي هائل الحجم يمثل مجموعة مالية شديدة الاهمية في مدينة «طنجة» وأخيراً، الاربعة عشر مهندساً تشيكياً المتهللون لانتصارهم، والذين جاؤوا مع آخر شحنة شهرية من الدبابات والمدافع والبنادق الاوتوماتيكية المصنوعة في شركة «سكودا»، كان قد قال لنفسه بينما كان يسير هابطاً الدرجات الرخامية في وزارة الخارجية منحدراً نحو «ميدان الحرية»، كان قد قال لنفسه حينذاك: «وهؤلاء هم الناس الذين يحكمون العالم. الفان وتسعمائة مليون منا تحت رحمة بضع عشرات من السياسيين، وبضعة آلاف من ملوك المال والجنرالات والمرابين. أنتم سم الأرض[١٦] ـ ولن يفقد السم أبداً مذاقه ولا نكهته».

---

(١٦) من الواضح أن ويل فارنابي ينظر هنا إلى مجموعة الساسة والجنرالات والمرابين، باعتبارهم نقيض «المساكين والجياع والعطاشى والرحماء والاتقياء القلب وصانعي السلام والمطرودين من أجل البر» الذين =

بعد وهج حفل الكوكتيل وبهرجته، وبعد الضحك والروائح المترفة المغرية الفواحة من النسوة المتعطرات بعطور الكانابيه والشانيل، بدت تلك الشوارع الضيقة الواقعة خلف «قصر العدالة» الجديد اللامع مغرقة في العتامة والضجيج، وبدا اولئك الفقراء الملعونون المعسكرون في العراء تحت سيقان النخيل المنتشر على طول «شارع الاستقلال» بدوا وكأنما هجرهم الله والناس أكثر مما هَجَر حتى الوف المشردين اليائسين الذين رآهم يرقدون كالجثث في شوارع كلكتا. وفي تلك اللحظة فكر في الصبي الصغير، ذلك الهيكل الضئيل ذي البطن الشبيهة بالقدر المنتفخ، الذي التقطه وحمله حينما سقط من فوق ظهر الفتاة التي كانت تحمله وهي لاتكبره في العمر إلا قليلاً حمله مجروحاً مفزعاً من أثر السقطة وسار وراء الفتاة الصغيرة إلى القبو المحروم من النوافذ الذي كان بيتاً ومأوى لتسعة أطفال آخرين «وكان قد أحصى الرؤوس الداكنة المتقيحة».

قال : «المحافظة على حياة الاطفال، ومعالجة المرضى، ومنع القمامة والقاذورات من الوصول إلى موارد المياه ــ إن المرء ليبدأ في القيام بالأعمال الطيبة والتي لاشك في وضوح وقوة طيبتها. فإلى أين ينتهي المرء بأعماله، إنه ينتهي إلى زيادة كمية البؤس البشري وإلى الحضارة التي تهددها الاخطار المميتة.هذا موضوع الفكاهة الكونية أو «المقلب» الذي يبدو أن الرب يستمتع حقاً به.»

ثم ابتسم للشابين واحدة من ابتساماته الخشنة الضارية العريانة.

قال رانجا بحسم وسرعة: «ليس للرب علاقة بهذا، وليست الفكاهة فكاهة كونية، وإنما هي من صنع الانسان تماماً. ليست هذه الاوضاع قوانيناً علمية، من نوع قانون الجاذبية والقانون الثاني في الديناميكا الحرارية، إنها لاتملك حق الوجود. إنها لاتحدث إلا إذا كان الناس من الغباء بحيث يسمحون لها بالحدوث. ونحن هنا في «بالا» لم نسمح لها بأن تحدث، ولذلك فإن أحداً لم يتفكه بنا ولم تنطبق هذه الفكاهة علينا. لقد مرّ علينا ما يقرب من قرن كامل ونحن نتمتع بظروف صحية جيدة ــ ومع ذلك فإن بلادنا لم تزدحم بعد بالسكان ولسنا بؤساء ولايحكمنا نظام ديكتاتوري. والسبب بسيط للغاية: لقد اخترنا أن نتصرف بطريقة واقعية ومنطقية».

سأل ويل: «من أين بحق الله كنتم قادرين على الاختيار؟»

قال رانجا: «كان كل انسان صحيح، ذكياً في كل لحظة مناسبة ولكننا يجب أن نعترف أيضاً بأنهم كانوا محظوظين للغاية. وفي الحقيقة فإن «بالا» في مجموعها كانت محظوظة إلى درجة غير عادية. فقد كان من حظنا، قبل كل شيء، أننا لم نكن مستعمرة

= القى فيهم المسيح موعظة الجبل وقال لهم: «أنتم ملح الأرض»، اي أفضل ما فيها، الذين يحفظونها من الفساد. (راجع انجيل متى، الاصحاح الخامس الآية ٣ الى ١٣).

لاي دولة أخرى. إن ريندانج تتمتع بميناء رائع، وقد جلب لهم هذا الميناء غزواً عربياً في العصور الوسطى. أمـا نحن، فلا ميناء لنا، ولذلك فقد تركنا العرب في حالنا، وما زلنا بوذيين أو شيفيين ـ هذا حينما لانكون لا أدريين من اتباع تانترا».

تساءل ويل: «أهذا هو مذهبك أنت، لا أدري من اتباع تانترا؟»

قال رانجا بتحديد: «أجل، مع تأثيرات من الماهايانا. حسناً، ولنعد إلى ريندانج. لقد جاء البرتغاليون بعد العرب. ولكنهم لم يأتوا إلينا. فلا برتغاليين، لأنه لا ميناء. ولذا فليس لدينا أقلية كاثوليكية، وليس هناك الهراء المجدف القائل بإن إرادة الله هي الـتي حكمت بأن يتناسل الناس ويتكاثروا حتى يغرقوا في البؤس اللاإنساني، وبالتالي فليست لدينا مقاومة منظمة لتنظيم النسل. وليست هذه هي بركتنا أو نعمتنا الوحيدة. فبعد مائة وعشرين عاماً من الاستعمار البرتغالي، جاء الهولنديون إلى سيـلان وريندانـج. وبعد الهولنديين جاء الانجليز. وقد أفلتنا نحن من هذين البلاءين. لا هولنديين ولا انجليز، ولذلك لايوجد عندنا ملاك المزارع، ولا الحمالون الفقراء، ولا المحاصيل الرأسمالية التي تزرع للتصدير ولا الاستهلاك المخرب المنتظم لتربتنا الزراعية. وأيضاً لا ويسكي ولا مسيحيين من اتباع كالفين ولا زهري ولا مديرين أجانب، لقد تركنا وشأننا لكي نسير في طريقنا الخاص ولكي نتحمل مسؤوليتنا عن شؤوننا».

ـ «لقد كنتم بالتأكيد محظوظين في الماضي».

واستمر رانجا يقول: «وعلى قمة هذا الحظ الجيد إلى درجة مدهشة، كانت هناك الادارة الجيدة إلى درجة مدهشة أيضاً والتي حققها موروجان المصلح واندرو ماكفيل. هل حدثك الدكتور روبرت عن جده الاكبر؟»

ـ «لم يقل لي سوى بضع كلمات قليلة». .

ـ «هل حدثك عن تأسيس المحطة التجريبية؟»

هز ويل رأسه نافياً ذلك.

قال رانجا: «لقد كان للمحطة التجريبية دور كبير في سياستنا السكانية. وقد بدأ كل شيء بمجاعة. وكان الدكتور اندرو قد أمضى سنوات قليلة في مدراس بالهند قبل أن يأتي إلى «بالا» وفي السنة الثانية من إقامته هناك، لم تأتِ الرياح الموسمية المحملة بالأمطار. وماتت المحاصيل عطشاً وجفت مياه الخزانات، وحتى الآبار جفت هي الأخرى. ولم يكن هناك طعام في الهند كلها، باستثناء ما بأيدي الانجليز والأغنياء. مات الناس كالذباب. وهناك فقرة شهيرة في مذكرات الدكتور اندرو عن المجاعة. وتضم الفقرة وصفاً لها ثم تعليقاً عليها. كان قد حضر في صباه الكثير من الحفلات الدينية وأصغى إلى ما يُلقى فيها

من صلوات وأناشيد وكان يذكر في زمن المجاعة واحدة من تلك الصلوات باستمرار بينما كان يعمل وسط الهنود الذين يموتون من الجوع، كانت الصلاة تقول: «مكتوب أنه ليس بالخبز وحده يحيا الانسان»[17] وكان الواعظ يقولها من الفصاحة حتى لقد استطاع أن يقنع الكثيرين. «مكتوب أنه ليس بالخبز وحده يحيا الانسان». ولكن كان بوسع الدكتور اندرو أن يرى أنه بدون الخبز، لن يكون هناك عقل ولا روح ولا نور داخلي، ولا «أب» يحكم في الملأ الأعلى. لن يكون هناك سوى الجوع، ولن يكون هناك سوى اليأس والبلادة ثم الموت في النهاية».

قال ويل: «مقلب آخر من المقالب الكونية. وقد تمت صياغته بيدي يسوع نفسه. لقد قال: «فإن من له سيعطى ويزاد، وأما من ليس له فالذي عنده سيؤخذ منه»[18] فلن يؤخذ ممن ليس لعندهم شيء سوى مجرد امكانية أن يكونوا آدميين. هذا هو أقسى «مقالب» الرب وفكاهاته، وهو أيضاً أكثرها انتشاراً أو شيوعاً. لقد رأيت هذا «المقلب» يدبر ضد الملايين من الرجال والنساء وضد الملايين من الاطفال الصغار ــ في طول العالم وعرضه.»

«وهكذا فإن بوسعك أن تفهم لماذا تركت تلك المجاعة في عقل الدكتور اندرو مثل ذلك الانطباع الذي لايمكن أن يمحى. ولقد قرر وقرّ قرار صديقه الراجا، على أنه لابد أن يتوافر الخبز على الاقل في بالا على الدوام. ومن هنا جاء قرارهما بإنشاء المحطة التجريبية. وقد حققت المحطة الاستوائية الشبيهة بمحطة روثهامستيد الزراعية نجاحاً عظيمًا. وفي سنوات قليلة أصبح لدينا أصنافاً جديدة من الارز والذرة والدخن وشجرة الخبز. وأصبح لدينا سلالات أجود مما كان عندنا من الماشية والدواجن. ووصلنا إلى طرق أفضل في الزراعة والتسميد الطبيعي، وفي الخمسينات من هذا القرن شيدنا أول مصنع لسماد السوبر فوسفات يُبنى شرقي برلين. وبفضل كل هذه المنجزات صار الناس هنا يأكلون بصورة أفضل، ويعيشون لمدة أطول، ويفقدون من الاطفال نسبة أقل مما كانوا يفقدون في الماضي. وبعد عشرة أعوام من تأسيس محطة «روثهامستيد الاستوائية» قام الراجا بإحصاء رسمي للسكان. وقد ظل عدد السكان ثابتاً تقريباً لمدة قرن كامل. وقد بدأ الآن في الزيادة. وتنبأ الدكتور اندرو، بأن بالا يمكن أن تتحول في غضون خمسين أو ستين سنة إلى شيء شبيه بالاحياء القذرة المهلكة التي تتكون منها ريندانج الآن. فماذا كان من الواجب

(١٧) إجابة المسيح على تجربة ابليس الأولى، حينما طلب إبليس من المسيح أن يأمر الحجارة لتصير خبزاً. (راجع متى، الاصحاح الرابع. الايات من ١ الى ٤)

(١٨) إجابة المسيح على الحواريين حينما سألوه: لماذا يكلم الجموع بالامثال؟ فأجابهم: «لأنه قد اعطي لكم أن تعرفوا أسرار ملكوت السموات. أما لأولئك فلم يعط. فإن من له سيعطى ويزاد. وأما من ليس له فالذي عنده سيؤخذ منه» ــ راجع متى ــ الاصحاح ١٣ ــ الآيات من ١٠ الى ١٢.

عمله؟ كان الدكتور اندرو قد قرأ نظرية مالتس التي تقول «يتزايد انتاج الطعام بمتوالية حسابية، ويتزايد البشر بمتوالية هندسية، وليس أمام الانسان إلا خياران: إما أن يترك المسألة للطبيعة التي ستحل مشكلة تزايد عدد السكان بالطريقة القديمة المألوفة أي عن طريق المجاعات والأوبئة والحروب: وإما عن طريق القيود الخلقية ـ وكان هذا الحل راجعاً إلى أن مالتس كان كاهناً.»

رددت الممرضة الصغيرة وهي تقول: «القيود الخلقية» ببطء ضاغطة على حرف القاف بالطريقة التي تتبعها التمثيليات الاندونيسية التهكمية عند سخريتها من الكهنة الاسكتلنديين. ثم عادت تقول: «القيود الاخلاقية. وبالمصادفة، كان الدكتور اندرو قد تزوج قبل أن يقرأ هذا الكلام مباشرة من ابنة أخت الراجا ذات الستة عشر ربيعاً».

قال رانجا: «وكان هذا هو السبب الاخير الذي دفع إلى مراجعة وتصحيح ما قاله مالتس، حينما وضع المجاعة في جانب والتقييد في الجانب الآخر، وكان لابد أن يوجد طريق آخر أفضل واكثر سعادة وانسانية لحل المشكلة يمتد بين قرني مالتس القاتلين.. وبالطبع، كان هناك مثل هذا الطريق حتى في ذلك الحين، أي قبل اختراع المطاط والخمائر الصناعية. كانت هناك موانع الحمل الاسفنجية، وكان هناك الصابون، وكانت هناك الاغشية المصنوعة من أي مادة معروفة عازلة للماء بدءاً من الحرير المشبع بالزيت حتى الاحشاء المصمتة للاغنام. هذا هو التسليح الكامل الذي تزود به عملية سيطرة بالا على نسلها..»

ـ «وكيف كان رد فعل الراجا ورعاياه ازاء سياسة السيطرة البالية على النسل؟ أكان الرعب هو ذلك الرد.»

ـ «مطلقاً. لقد كانوا بوذيين طيبين، وكل بوذي طيب يعرف أن الاجهاض ليس سوى عملية قتل مؤجلة. فابذل أقصى ما بوسعك لكي تفلت من عجلة الميلاد والموت، ولكن بحق السماء، لاتحاول أن تضع تحت هذه العجلة الدوارة مزيداً من الضحايا الذين لالزوم لهم. إن في السيطرة على النسل معنى ميتافيزيقياً بالنسبة للبوذي الطيب. كما أن في هذه العملية معنى اقتصادياً واجتماعياً بالنسبة لجماعة قروية من زراع الارز. حقا إنه يجب أن يكون هناك ما يكفي من الشباب للعمل في الحقول ولكي يعولوا الاطفال الصغار والطاعنين في السن. ولكن يجب ألاّ يكون هناك عدد أكثر من اللازم من هؤلاء الشبان، لأنهم إذا زادوا عن القدر الضروري فإن العجائز والعمال وأطفالهم لن يجدوا كفايتهم من الطعام. وفي الماضي، كان على كل زوجين أن ينجبا ستة اطفال لكي يتمكنوا من الاحتفاظ باثنين أو ثلاثة. ثم جاءت المياه النظيفة والمحطة التجريبية. والآن يبقى خمسة أطفال على قيد الحياة من بين كل ستة أطفال. لم تعد وسائل التربية القديمة تقنع أحداً.. وكان الاعتراض الوحيد على السياسة البالية للسيطرة على النسل هو فجاجتها وغلظة الوسائل

المستخدمة فيها. ولكن كان هناك لحسن الحظ بديل أكثر جمالية ورقة. فقد كان الراجا متحمساً لفرقة التانتاريين البوذية وكان قد تعلم يوجا الحب. وكان الدكتور اندرو قد سمع بأمر الميثونا، ولما كان مؤمناً حقيقياً بـالعلم،! فقد وافق على تجربتها. وتلقى هو زوجته الشابة التدريبات المطلوبة»

ــ «وماذا كانت النتائج»؟

ــ «الموافقة على التجربة وبحماس شديد.»

قالت رادها: «هذه هي طريقة استقبال كل الناس لها.»

ــ «أرجوك، أرجوك، كفي عن التعميمات المطلقة! فبعض الناس شعروا بهذه الطريقة، وبعضهم لم يشعروا بها، كان الدكتور اندرو أحد المتحمسين لها. وقد خضع الموضوع برمته لمناقشة طويلة. وفي النهاية قرروا أنه يجب أن تكون موانع الحمل مثل التعليم مجانية تمولها الضرائب، ورغم أنها ليست اجبارية فإنها يجب أن تكون عامة الاستخدام بقدر الامكان. أما اولئك الذين قد يشعرون بالاحتياج إلى وسيلة أكثر تهذيباً ورقة، فلابد ان يتعلموا يوجا الحب.»

ــ «أتعني أن تقول لي أنهم قد تخلصوا من المشكلة؟»

ــ «لم يكن الامر بالغ الصعوبة. لقد كانت الميثونا جزءا من تقاليد دينية راسخة. ولايمكن أن يطلب من الناس أن يفعلوا أي شيء يتعارض مع دينهم، على العكس، لقد منحوا فرصة مغرية للانضمام إلى النخبة الممتازة بأن يتعلموا شيئاً غريباً ومقصوراً على فئة قليلة».

تدخلت الممرضة الصغيرة باندفاع لتقول: «ولا تنس نقطة هي أهم نقاط الموضوع كله ــ لقد كانت يوجا الحب بالنسبة للنساء ــ بالنسبة لكل النساء وأنا لايهمني ما قد تقوله عن التعميمات المطلقة ــ كانت يوجا الحب تعني الكمال ، كانت تعني أن يكتملن وأن يتحولن وأن يرتفعن عن أوضاعهن القديمة.» وسكتت لحظة قصيرة، ثم استأنفت كلامها بنغمة أكثر حدة: «والآن، لقد حان الوقت لكي نتركك لقيلولتك.»

قال ويل: «قبل أن تذهبا، أود لو أكتب خطاباً. مجرد رسالة قصيرة لرئيسي أقول فيها له إنني حي أرزق، وأنه لا خطر ــ فورياً ــ عليّ من أن يأكلني الأهالي.»

اندفعت رادها سريعاً إلى مكتب الدكتور روبرت وعادت تحمل ورقاً وقلماً ومظروفاً للخطاب.

كتب ويل بسرعة: «وصلت، ورأيت، وعرفت. قابلت الراني ومعاونها من ريندانج الذي أشار إلى أنه يستطيع أن يقدم البضاعة في مقابل البقشيش المناسب» وكان محدداً في

هذا الصدد «فذكر عشرين الفاً من الجنيهات. فهل أتفاوض على هذا الأساس؟ إذا أبرقت لي قائلاً: «المقال المقترح أوكى!» سوف أمضي في المفاوضة.. أما إذا أبرقت: «لاداعي لاستعجال المقال» فسوف اتجاهل الامر كلية. قل لوالدتي أنني حي وأنني سأكتب لها سريعاً.»

قال وهو يعطي المظروف المغلق المعنون إلى رانجا: «هاك هو. هل لي أن أسألك أن تشتري لي طابع بريد وأن ترسل لي هذا الخطاب في الوقت المناسب لكي يلحق بطائرة الغد؟»

قال الصبي: «دون شك.»

شعر ويل بوخز الضمير وهو يرقبهما ينصرفان. يالهما من شابين ساحرين! وهاهو يتآمر مع باهي ومع قوى التاريخ، لكي يخضع عالمهما ويقلبه رأساً على عقب. وطمأن نفسه بفكرة أنه إذا لم يفعل ذلك بنفسه، فسوف يفعله شخص آخر. وأنه حتى إذا حصل جو الدهايد على امتياز البترول الذي يريده، فسوف يكون بوسعهم أن يستمروا في ممارسة الحب بالاسلوب الذي تعودوا عليه. أم أنهم لن يستطيعوا ذلك؟.»

ومن عند الباب التفتت الممرضة الصغيرة إلى الخلف لتلقي كلمة أخيرة. قالت وهي تشير إليه باصبعها في تحذير: «لا قراءة الآن ونم بعض الوقت.»

قال لها ويل مؤكداً في رضا لمعاكسته ما تقول: «أنا لا أنام أبداً في أثناء النهار».

الفصل السابع

لم يكن يستطيع أبداً أن ينام في أثناء النهار. ولكنه حينما نظر بعد خروجهما إلى الساعة، اكتشف أنها كانت في الرابعة وخمس وعشرين دقيقة. وكان يشعر بانتعاش رائع. التقط كتاب «ملاحظات حول حقيقة الحقيقة». واستأنف قراءته التي قطعها عليه الزائرون.

«اعطنا اليوم إيماننا اليومي. وجنبنا يا ربنا العزيز. الاعتقاد..»

كانت تلك الجملة هي آخر ما وصل إليه في قراءة هذا الصباح. وإليكم الآن فصلاً جديداً، هو الفصل الخامس:

«أنا كما أظن نفسي، وأنا كما أنا في الحقيقة: بكلمات أخرى: الحزن ونهاية الاحزان. لايمكن تجنب ما يقرب من ثلث كل الاحزان التي يجب أن يمر بها الشخص الذي اظنه نفسي. وهذا الثلث هو الحزن الموروث في تقويم الانسان. هو الثمن الذي لابد أن ندفعه مقابل ما نتمتع به من حساسية ورهافة شعور ومقابل كوننا موجودات عضوية واعية بذاتها، طموحة إلى التحرر، ولكننا خاضعون لقوانين الطبيعة، مأمورون بأن نظل سائرين، في ثنايا الزمن الذي لا يمكن استرجاعه، وفي خلال عالم لا يبالي مطلقاً بخيرنا، منطلقين نحو العجز والبلى والموت المحقق. أما الثلثان الباقيان فهما من صنع أيدينا، ولايفرضهما العالم علينا بالضرورة.»

قلب ويل الصفحة، سقطت من بين الصفحات ورقة منتزعة من كراسة مذكرات على السرير. التقطها ونظر إليها. فرأى مكتوباً عليها عشرين سطراً بخط دقيق واضح. وفي نهاية الصفحة حرفان كتبا بخط كبير كتوقيع لاسم بالاحرف الأولى: «س. م.» من الواضح أنه ليس خطاباً. إنها قصيدة ولذلك فإنها ملكية عامة. قرأ:

في لحظة ما، بين الصمت
الوحشي وبين آخر أيام الأحد.
أقام الناس ألف ألف وثلاثمائة
ألف صلاة،
في لحظة ما
بين تعليق كالفين على ما قاله
المسيح «ليكن الله في عوننا»
وبين السحالي،
في لحظة ما بين النظر
والتحدث، في مكان ما
بين تيار كلماتنا المدهونة
بالشحم والمتربة،
وبين أول نجم في السماء،
تتطاير الفراشات العظيمة،
حول أشباح الزهور،
ويكمن المكان الرائق الصافي،
الذي أذكره أنا رغم كل شيء،
وتذكره أيضاً من لم تعد أنا.
الحب حكمة الشاطىء الآخر
التي تستغرق الليل بطوله.
وإذ أصغي إلى الريح، أتذكر
أيضاً.
تلك الليلة الأخرى، أولى ليالي
الترمل.
المؤرقة بلا نوم، والموت إلى
جواري قابع في الظلمة.
إنه لي، لي، ملكي كله. ملكي
دون مفر.
ولكنني أنا، ومن لم تعد أنا
في المكان الرائق الصافي
الواقع بين أفكاري وبين الصمت
أرى كل ما كان لي وفقدته،

العذاب والافراح
تسطع مثل زهور الجنتيانا وسط
حشائش الجبل
زرقاء، دون هموم، ومتفتحة.»[19]

ردد ويل بينه وبين نفسه: «مثل زهور الجنتيانا»، وفكر في تلك الاجازة الصيفية التي قضاها في سويسرا، حينما كان في الثانية عشرة وفكر في المرج الاخضر المرتفع فوق هضبة جريندلوالد، بازهارها غير العادية، وبفراشاتها العجيبة التي لاتعرفها المروج الانجليزية، وفكر في السماء ذات الزرقة الداكنة وأشعة الشمس وتحتها الجبال تلمع على الجانب الآخر من الوادي. وكان كل ما فتح الله على والده لكي يقوله حينئذ هو أن المنظر يبدو مثل صورة في إعلان عن شوكولاته «نستلة» باللبن، وكان الولد قد قال باصرار وهو يبدي اشمئزازه: «إنها حتى ليست شوكولاته حقيقية. شوكولاتة باللبن» وكان بعد هذه الكلمات قد أطلق تعليقاً ساخراً على الالوان التي كانت امه تستخدمها في الرسم برداءة شديدة «المرأة المسكينة!» ولكنها كانت تستخدمها بعناية ملؤها الحب والاشفاق. كان قد قال عن رسمها: «هذا هو إعلان الشوكولاته باللبن الذي رفضته شركة نستلة» ثم جاء دوره في تعليقات أبيه الساخرة: «بدلاً من التسكع هنا وهناك مفتوح الفم مثل عبيط القرية لماذا لاتفعل شيئاً ذكياً على سبيل التغيير؟ مثلاً، لماذا لاتشتغل قليلاً في قواعد اللغة الالمانية؟». كان بعد هذا التعليق قد دس يده في حقيبة الظهر وجذب من وسط البيض المسلوق والشطائر، الكتاب البني الصغير البغيض، يا له من رجل كريه! ومع هذا، فإذا كانت سوسيلا على حق، فلابد أن يكون المرء قادراً على رؤيته الآن، بعد كل تلك السنين يسطع مثل زهرة الجنتيانا ـ وخطف ويل نظرة أخيرة من السطر الأخير في القصيدة ـ أن يكون قادراً على أن يراه، أزرق، دون هموم ومتفتح».

قال صوت مألوف: «كيف الحال....»

---

(١٩) يبدو أن هكسلي اراد أن يعارض ببناء هذه القصيدة وبالتجربة التي تعبر عنها، بناء قصيدة «الرجال الجوف» لاليوت وما تعبر عنه. إن قصيدة هكسلي ـ سوسيلا، تتحدث عن الوعي الابدي، وعن عدم الهروب من شيء وعن اكتمال الحياة بالالم والمتعة، وتحمل صليب الحياة من أجل ـ ومن خلال ـ الوعي بها، حيث الوعي هو فرحة الحياة وجمالها، وحيث الابتهاج بالحياة ذاتها هو الجزاء المكمل للوعي (كما في تانترا ـ راجع الهامش). أما اليوت، ففي المقطع الخامس من «الرجال الجوف» فيقول: «هانحن ندور حول شجرة الصبار.. في الساعة الخامسة صباحاً، بين الفكرة والحقيقة: يسقط الظل؟ بين الحركة والفعل: يسقط الظل (لأن الملك لك)، بين التمدد والخلق يسقط الظل، بين العاطفة والاستجابة: يسقط الظل (ما أطول الحياة)، بين الشهوة والارتعاشة، بين القوة والوجود، بين الجوهر والحلول: يسقط الظل، لأن الملك لك...»

التفت نحو الباب وقال: «حديث الشيطان، أو بالاحرى، اقرأ ما كتبه الشيطان.» ورفع الورقة المنزوعة من المذكرة أمام عينيها.

رمقتها سوسيلا بنظرة خاطفة وقالت «أوه، تلك. لو أن النوايا الطيبة وحدها تكفي لصنع الشعر الجيد!» ثم تنهدت وهزت رأسها.

قالت بلهجة تأكيد: «حتى روث البهائم يمكن أن يُرى في صورة زهور الجنتيانا.»

ـ «ولكنني لم أتخيل هذه الصورة إلا في المكان الذي كنت تكتبين عنه ـ المكان الرائق الصافي الواقع بين الفكر والصمت.»

أومأت سوسيلا برأسها.

ـ «كيف ذهبت إلى هناك؟»

ـ «إنك لاتذهب إلى هناك، إنما هناك هو الذي يأتي إليك. أو بالأحرى، إن هناك قائم هنا بالفعل».

قال بلهجة شاكية: «إنكِ مثل رادها الصغيرة تماماً. ترددين كالببغاء ما يقوله الراجا القديم في بداية هذا الكتاب».

قالت: «إذا كنا نردده، فالسبب في هذا هو أنه تصادف أن كان صادقاً، فإذا لم نردده، نكون كمن يتجاهل الحقائق».

سأل: «حقائق من؟ ليست حقائقي أنا بالتأكيد».

قالت موافقة: «ليست كذلك في هذه اللحظة. ولكن إذا استطعت أن تفعل أشياء من النوع الذي أوصى به الراجا القديم، فإنها قد تكون حقائقك».

قال بعد صمت قصير: «ألم تواجهي المشاكل مع والديك، أم كان بوسعك دائمًا أن تنظري إلى روث البهائم وكأنه زهور الجنتيانا.»

قالت: «لم أواجهها في ذلك العمر. لابدّ للأطفال أن يكونوا كائنات مانيشية مزدوجة التكوين والعقيدة.[20] هذا هو الثمن الذي لابد لنا أن ندفعه مقابل أن نتعلم مبادىء

---

(٢٠) مانيشية، أو مانوية Manichean ـ من أتباع ، أو قائمة على، ديانة «ماني» في فارس القديمة (ولد في حدود ٢١٦ ميلادية) الذي قال بان العالم تتنازعه قوتان: النور، ممثلاً للخير والخصب والنظام، والظلمة، ممثلة للشر والقحط والفوضى. والقوتان تتنازعان الوجود كله وكائنتان في قلب الانسان. وسوسيلا تقصد هنا أن الاطفال يرون الوجود دائمًا في صورة مزدوجة: ابيض واسود، نور وظلام، خير وشر، ولا امتزاج أو اقتراب بين الاثنين. وأن النضج، أو الوعي، معناه رؤية أمكانية أن يحل =

الوجود الانساني. إن رؤية الروث في صورة زهور الجنتيانا، أو بالأحرى إن رؤية الروث وزهور الجنتيانا معاً، مع التأكيد على حرف «الجيم»، إن هذه الرؤية لَمِن المنجزات التي لايستطيعها إلا من أكمل تعليمه».

ــ «إذن فماذا كنت تفعلين مع والديك؟ مجرد أن تبتسمي وتتحملي مالا يمكن احتماله؟ أم تصادف أن كانوالديك ممن يمكن احتمالهم؟»

أجابت تقول: «كانا محتملين في حالة ابتعاد الواحد منهما عن الآخر وخصوصاً أبي. ولكن أحداً لم يكن يطيقهما أبداً إذا كانا سوياً ــ لم يكن يطيقهما، لأن أحدهما لم يكن يستطيع أن يطيق الآخر. كانت امرأة نشيطة صاخبة مرحة منطلقة قد تزوجت من رجل شديد الانطواء على نفسه يفضل الوحدة حتى لقد كان وجودها يضغط على أعصابه طول الوقت ــ حتى في الفراش كما أظن. لم تكن تكف عن محاولة الاحتكاك به وإيجاد نوع من الصلة المشتركة بينهما، أما هو فلم يبدأ محاولة من هذا النوع، الأمر الذي جعله يعتقد أنها امرأة ضحلة وغير مخلصة، وجعلها تظن أنه رجل بلا قلب، مليء بالاحتقار للناس، ولايتمتع بأي مشاعر إنسانية حقيقية».

ــ «كنت أتوقع أن تكونوا شعباً تكفل له معرفته ألاّ يقع في شرك من هذا النوع».

قالت له بثقة: «إننا بالفعل نعرف ما يكفينا لذلك. فالاولاد والبنات يتعلمون إلى درجة التخصص ما ينبغي عليهم أن يتوقعوه من الناس الذين يتمتعون بمزاج نفسي وتكوين جسدي يختلف تماماً عن تكوينهم ومزاجهم. ولسوء الحظ يتصادف ألا تنتج هذه الدروس أثراً كبيراً. ولا حاجة لذكر حقيقة واقعية تدل في بعض الحالات على أن المسافة السيكولوجية بين الناس المعنيين، هي في الحقيقة مسافة أوسع من أن يمكن عبورها أو إنشاء جسر فوقها.. وعلى أي حال، تبقى الحقيقة الواقعية، وهي أن والدي ووالدتي لم يحاولا أبداً أن يشرعا في عبور تلك المسافة، لقد وقع كل منهما في غرام صاحبه ــ ولايعرف السبب في هذا إلا الله. ولكنهما حينما بدءا حياتهما المشتركة، اكتشفت هي أنها تُجرح على الدوام وتتعرض للإيذاء بسبب مناعته ضد الارتباط الحميم، بينما تسببت طبيعتها المتحررة من كل عوامل الكبح وقدرتها الكبيرة على المصادقة الطيبة، تسببت في أن يرزح هو تحت عبء الشعور بالحرج والنفور. لقد كنت أتعاطف مع أبي على الدوام. فأنا قريبة منه قرباً شديداً من الناحيتين الجسدية والمزاجية، ولا أشبه أمي في أقل شيء. وأذكر كيف كنت أجفل وأرتعب، حتى وأنا طفلة صغيرة، وأهرب من فيضان حماسها

= احدهما مكان الآخر، او ان يبدو احدهما في صورة الآخر، أو أن يبدوان سوياً، متلازمين، أو ممتزجين.

وامتلائها بالحيوية. كانت أشبه بغزو مستمر موجه ضد إحساس المرء بالخصوصية والوحدة. وما زالت على هذه الصورة».

ـ «هل يجب عليك أن تلتقي بها كثيراً؟»

ـ «قليلاً جداً. إن لها عملها الخاص وأصدقاءها.. ففي مجتمعنا وعالمنا الخاص ليست كلمة «الأم» سوى الكلمة التي لاتستخدم أبداً إلا لتسمية وظيفة من الوظائف.. وحينما يتم انجاز الوظيفة في الزمن المحدد لذلك، يسقط اللقب عن حامله، يقيم الطفل السابق والمرأة التي كان من المعتاد أن يطلق عليها اسم «الأم» يقيمان علاقة أخرى من نوع جديد. فإذا استمرت العلاقة بينهما بشكل جيد، فإنهما سيستمران في الالتقاء كثيراً. وإذا لم تستمر، انفصلا وابتعد الواحد منهما عن الآخر. لايتوقع أحد منهما أن يلتصق أحدهما بالآخر، والالتصاق ليس مساوياً للحب ـ والالتصاق لاينظر إليه باعتباره شيئاً مقبولاً بصورة خاصة وبشكل نهائي.»

ـ «وهكذا فإن كل شيء على ما يرام الآن، ولكن ماذا عن المرحلة السابقة، ماذا حدث حينما كنت طفلة تكبرين بين شخصين لايستطيعان عبور الفجوة التي تفصلهما؟ ما الذي يعنيه ذلك ـ القصة الخرافية التي تنتهي بعكس النهاية المتوقعة: «وهكذا فقد عاشوا في تعاسة منذ ذلك الحين».

قالت سوسيلا: «وأنا لا أشك في أننا لو لم نكن قد ولدنا في بالا، لكنا قد عشنا في تعاسة منذ ذلك الحين. ولكن ما حدث، هو أننا قد مضينا في الحياة بشكل جيد إلى حد كبير، رغم كل شيء.»

ـ «كيف استطعتم تحقيق ذلك».

ـ «نحن لم نحقق شيئاً بأنفسنا. وإنما تم ترتيب كل شيء لنا بواسطة عوامل أخرى. هل قرأت ما يقوله الراجا القديم عن التخلص من ثلثي الاحزان اللذين نخلقهما بأيدينا ودون مبرر؟»

أومأ ويل برأسه وقال: «كنت اقرأ هذه الكلمات بالفعل حينما دخلت أنت الغرفة».

فاستمرت تقول: «حسناً، في أيام الماضي الرديئة، لم يكن بوسع العائلات البالانية إلّا أن تكون عائلات تقوم على اضطهاد أفرادها وخلق الطغاة والكذابين من بينهم، مثلما هي عائلاتكم اليوم. كانت عائلاتنا في الحقيقة مرعبة إلى درجة دفعت الدكتور اندرو وراجا الاصلاح إلى تقرير أنه لابد من القيام بشيء ما ازاءها. وقد تمت بمهارة صياغة الاخلاقيات البوذية والشيوعية القروية البدائية من أجل أن تساعد على تحقيق أهداف العقل والحكمة، وفي خلال جيل واحد، كان كل نظام الاسرة قد تغير تغييراً كلياً.»

وترددت سوسيلا للحظة ثم استطردت تقول: «اسمح لي بأن أوضح لك الامر، وبأن استخدم في ذلك أحداث حالتي أنا الخاصة ـ حالة طفلة وحيدة لشخصين لم يستطع أحدهما أن يفهم الأخر، وكانت آمالها ومطامحها تتصادم على الدوام أو يتشاجران بالفعل. فيما مضى من الايام في العهود الغابرة، كانت أية فتاة صغيرة تنشأ في مثل هذه البيئة والظروف جديرة بأن تتحول إما إلى شخصية يائسة أو متمردة أو أن تهبط إلى مستوى شخصية المنافق المتكيف مع ظروفه. ولكن في ظل الشريعة والإدارة الجديدة لم يكن عليّ أن أعاني من أية عذابات غير ضرورية، فلم أتحطم يأساً أو أُجبر على التحول إلى التمرد أو إلى التكيف الاجباري. لماذا؟ لأنني كنت قادرة على الهرب، وأملك حرية الإفلات منذ أصبحت قادرة على المشي».

ردد ويل: «الهرب، الهرب؟»
فقد بدا له الأمر أجمل من أن يكون حقيقياً.

قالت توضح له الأمر: «إنما أصبح الهرب جزءاً من النظام الجديد.. فحينما يصبح شعار «بيتنا يا بيتنا الحلو» الابوي شيئاً، لايمكن تحمله، فإن الطفل يُسمح له، أو يلقى من التشجيع الحقيقي ـ ويكون كل ثقل الرأي العام وراء هذا التشجيع ـ ما يدفعه إلى الهجرة إلى أحد بيوته الأخرى».

ـ «كم بيتاً يملكه الطفل البالاني؟»

ـ «حوالى عشرين تقريباً.»

ـ «عشرين؟ يا إلهي!»

قالت سوسيلا تفسر كلامها: «إننا جميعاً أعضاء في «ن. ت. ت.» أو «نادي تبادل التبني» وكل نادٍ من هذا النوع يتكون من عدد من الاسر ذات الازواج والزوجات يتراوح بين الخمس عشرة والخمس والعشرين.. وباستطاعة كل أعضاء النادي أن يتبنوا أبناء الاعضاء الآخرين، وسواء كانوا من المتزوجين حديثاً أو من قدامى المتزوجين بعد أن كبر أطفالهم أو من الأجداد والجدات أو ممن هم أكبر من الأجداد والجدات. وإلى جانب علاقات الدم التي تربط الابناء بالاباء، فإن لكل منا نصيبه من الامهات بالتبني، والاباء بالتبني والعمات والخالات والاعمام والاخوال بالتبني، والاشقاء والشقيقات بالتبني، والرضع والاطفال والمراهقين بالتبني».

هز ويل رأسه وقال: «وبذلك تنمو عشرون عائلة حيث لم تكن تنمو غير أسرة واحدة من قبل».

ـ «ولكن لاتنس أن ما كان ينمو من قبل هو النوع الذي تصنعونه أنتم من الأسر.

أما الاسر العشرون فهي جميعاً من النوع الذي نصنعه نحن.» ثم اضافت تقول بطريقة تشبه طريقة من تقرأ التعليمات الواردة في كتاب لتعليم الطهو: «خذ مثلاً من أسرة تتكون من شخص ضعيف جنسياً ويعمل مقابل أجر معين، وامرأة لاتحصل على أي إشباع، وصغيرين أو ثلاثة «إذا شئت» من المدمنين على مشاهدة التليفزيون وانقعهم جميعاً في محلول تمتزج فيه مدرسة فرويد في التحليل النفسي بالمسيحية المخففة، ثم افرغهم في شقة من أربع غرف واحكم إغلاقها عليهم واتركهم ينضجون لمدة خمسة عشر عاماً وسط العصير الذي ينضح منهم. أما مقادير وصفتنا للطهو فتختلف تماماً. خذ عشرين زوجاً وزوجاتهم المشبعين جنسياً مع نسلهم، وأضف إليهم العلم والحدس الفطري والمرح بكميات متساوية، ورش عليهم البوذية التانترية وبعثرهم دون ترتيب في مساحة خلوية مفتوحة على الهواء الطلق فوق شعلة دافئة من التعاطف».

سألها: «فماذا ينتج من مساحتك الخلوية المفتوحة؟»

ـ «نوع من العائلات مختلف كلياً عن نوع عائلاتكم. ليس مقفلاً، مثلما هو الحال مع أسركم، وليس خاضعاً لمصير قُدّر لـه من قبل ولا يقوم على الاضطرار أو الالزام. ينتج أسرة متفتحة، حرة المصير ينتمي إليها أفرادها بملء إرادتهم. تضم عشرين زوجاً من الآباء والأمهات، وثمانية أو تسعة أجداد وجدات وأربعين أو خمسين من الاطفال من الجنسين ومن كل الاعمار.»

ـ «وهل يظل الناس أعضاء في نفس نادي التبني طول حياتهم».

ـ «بالطبع لا. فالأطفال الكبار لايتبنون آباءهم ولا أشقاءهم أو شقيقاتهم. إنهم يخرجون فيتبنون جماعة أخرى من الكبار في السن، ومجموعة أخرى من زملائهم ومن يصغرونهم سناً. وأعضاء النادي الجديد يتبنونهم، ويتبنون أطفالهم أيضاً حينما يحين الوقت لذلك. وعلماء الاجتماع لدينا يطلقون على هذه العملية اسم «تهجين وخلط الثقافات الصغرى». وهي عملية تفيد ، في مجالها الخاص، مثلما تفيد عملية تهجين وخلط الانواع المختلفة، من الدجاج مثلاً أو نبات الذرة، إذ تقوم بين الجماعات الأكثر شعوراً بالمسؤولية علاقات صحية أكثر وأنواع من الفهم أعمق ومن التعاطف أكثر اتساعاً. ويتمتع بأنواع التعاطف والفهم كل عضو في كل نادٍ من نوادي تبادل التبني من الأطفال حتى الشيوخ المتقاعدين ممن تجاوزوا المائة.»

ـ «تجاوزوا المائة؟ إلامَ تتوقعون أن تمتد الحياة؟»

أجابته: «سنة أو سنتين أكثر من توقعاتكم. لقد تجاوز عشرة بالمائة منا سن الخامسة والستين. ويحصل العجائز على مأوى مجاني جماعي إن لم يكن باستطاعتهم أن يعملوا ليكسبوا معاشهم. ولكن من الواضح أن مثل تلك الملاجىء لاتكفي. إنهم يحتاجون إلى

شيء مفيد ومثير للتحدي لكي يقوموا بعمله. ويحتاجون إلى من يقومون هم برعايتهم ومن يبادلهم الحب بالتالي. ونوادي تبادل التبني تفي بهذه الاحتياجات».

قال ويل: «يبدو لي هذا مثيراً للشك مثل الدعاية التي تروج لواحد من الكوميونات الصينية الجديدة.»

قالت تؤكد له: «لاشيء أقل شبها بالكوميون من نادي تبادل التبني ـ فليست الحكومة هي التي تدير نادي تبادل التبني، إنما يديره اعضاؤه. ونحن لاننظم ولانعبّا تنظيمًا وتعبئة عسكريين. إننا لانهتم بتخريج أعضاء جيدين في الحزب، إنّا لانهتم الا بتخريج بشر طيِّبين ومن نوع جيد. إننا لانغرس في النفوس الاراء القطعية الجامدة، وأخيراً فإننا لانأخذ الاطفال من آبائهم أو نبعدهم عنهم، على العكس، إنما نعطي الاطفال آباء وأمهات إضافيين ونعطي الآباء والأمهات أطفالاً إضافيين. وهذا يعني أننا نستمتع بدرجة معينة من الحرية حتى في روضة الاطفال، وحريتنا تزداد كلما تقدمنا في العمر وصار بوسعنا أن نتعامل مع مجال أوسع من مجالات التجربة وأن نتحمل مسؤوليات أعظم. بينما لاتوجد في الصين أية حرية على الاطلاق.. فالاطفال هناك يسلمون إلى مروضين رسميين للأطفال، مهمتهم هي تحويل الاطفال إلى خدم مطيعين للدولة. والامور أفضل من هذا بكثير في الجزء الذي يخصكم من العالم ـ أفضل من هذا، ولكنها ما تزال سيئة بما فيه الكفاية. إنكم تفلتون من مروضي الاطفال المعينين من قبل الدولة، ولكن مجتمعكم يحكم عليكم بأن تسلموا أطفالكم إلى أسر منغلقة على نفسها، لاتملك سوى مجموعة واحدة من الاقارب والوالدين. إن القدر الوراثي المقدور هو ما يدسهم عليكم دون اختيار من جانبكم. وليس بوسعكم أن تتخلصوا منهم، ولايكون بوسعكم أن تحصلوا على إجازة من مهمة رعايتهم والقيام على شؤونهم، ولايكون بوسعكم أن تلجأوا إلى أشخاص آخرين طلباً للتغيير أو سعياً وراء المعونة النفسية أو الاخلاقية. وهذه حرية إذا شئت أن تسميها ـ كذلك ـ ولكنها حرية مجالها كشك صغير من أكشاك التليفون».

قال ويل ليكمل كلامها: «وهو كشك مغلق أيضاً (وأنا أفكر الآن في نفسي) ومزدحم برفيق مشاكس نكد وشهيد مسيحي وفتاة صغيرة أرعبها الرفيق المشاكس وابتزها قرب الشهيد من مشاعرها الطيبة حتى دفعاها إلى حالة من البلاهة المترددة غير الثابتة. هذا هو البيت الذي لم أهرب منه أبداً حتى بلغت الرابعة عشرة وجاءت عمتي.ماري للإقامة في البيت المجاور.»

ـ «ولم يهرب منك أبداً أبواك التعيسان؟»

ـ «ليس هذا صحيحاً صحة كاملة. فقد اعتاد أبي أن يهرب في البراري وأن تهرب أمي في النزعة الانجليكانية المتزمتة. كان عليّ أن أقضي مدة سجني دون أدنى تخفيف..

كان عليّ أن أقضي أربعة عشر عاماً من العبودية العائلية. لكم أحسدك، حرة كالطائر».

ــ «ليس الأمر بهذه الغنائية الجميلة! لنقل إنني حرة مثل انسان متطور، حرة مثل امرأة تنتمي للمستقبل ــ ولكنني لست محررة للأرقاء. إن تبادل التبني يؤمن الأطفال ضد الظلم وضد أسوأ نتائج عجز الآباء وعدم كفاءتهم. ولكنه لايؤمنهم ضد النظام أو ضد قبولهم للمسؤوليات. إنه على العكس، يزيد من عدد مسؤولياتهم وهو يعرضهم لتنوع ثري من النظم. أما في ظل عائلاتكم المنغلقة الخاضعة لمصيرها المقدر فإن الاطفال، كما تقول، يقضون فترة سجن طويل تحت سطوة مجموعة واحدة من السجانين. وهؤلاء السجانون الأبويون قد يكونون بالطبع طيبين وعقلاء وأذكياء. وفي هذه الحالة سينشأ السجناء الصغار دون أذى أو ضرر بدرجة أو بأخرى. ولكن أكثر سجانيكم الأبويين في الحقيقة ليسوا طيبين ولا حكماء ولا عقلاء بصورة كافية. إنهم أقرب إلى أن يكونوا قادرين ولكنهم أغبياء، أو غير قادرين ولكنهم طائشون، وإلا كانوا عصابيين، وأحياناً يكونون حقودين بشكل واضح، أو مجانين أو معتوهين دون مواربة. ولذلك فليرحم الله المسجونين الصغار الذين حكم عليهم القانون والعادة والدين بالبقاء تحت رحمة هؤلاء السجانين الرقيقة! ولكن لتفكر الآن فيما يحدث في أسرة متفتحة ينتمي إليها أفرادها بإرادتهم الحرة. ليست هناك أكشاك تلفون ضيقة وليس هناك سجانون فرضهم القدر المقدور. هنا ينشأ الأطفال وينمون في عالم هو نموذج صغير من المجتمع كله، عالم هو نسخة مصغرة الأبعاد من البيئة التي سيكون عليهم أن يعيشوا فيها حينما يكبرون. عالم «مقدس» و«صحي» و«متكامل» ــ فينبتون جميعاً من نفس الجذر ويحملون نغمات مختلفة وألواناً متباينة من نفس المعنى. في التفسير اللغوي وفي الحقيقة، إن نوع الاسرة عندنا، الأسرة المتفتحة التي ينتمي أفرادها إليها بحرية هي الاسرة المقدسة الحقيقية. أما نوع الاسرة عندكم فهو الاسرة غير المقدسة».

قال ويل : «آمين» وعاد يفكر في طفولته، وفكر أيضاً في موروجان المسكين الصغير بين مخالب الراني. سأل بعد برهة صمت: «ماذا يحدث حينما ينتقل الاطفال إلى واحد من بيوتهم البديلة؟ إلى متى يظلون هناك؟»

ــ «يعتمد كل هذا على أشياء كثيرة. فحينما يشبع أطفالي مني تماماً، فإنهم نادراً ما يبتعدون عني لأكثر من يوم أو يومين. ويرجع هذا أساساً إلى أنهم سعداء جداً في البيت، وأنا لم أكن سعيدة جداً في بيت أسرتي، ولذلك فقد كنت أبقى بعيداً عنه ــ حينما كنت أخرج لمدة شهر كامل».

ــ «وهل كان أبواك الجديدان يؤيدانك ضد أبويك الحقيقيين؟»

ــ «ليست المسألة مسألة القيام بأي شيء ضد أي شخص. إن كل ما يلقى التأييد

والدعم هو الذكاء والمشاعر الطيبة، وكل ما يلقى المعارضة والمقاومة هو الشقاء والتعاسة ونتائجها التي يمكن تجنبها. فإذا شعر طفل بالتعاسة في بيته الأول، فإننا نبذل كل ما بوسعنا لأجل إنقاذه في خمسة عشر أو في عشرين بيتاً آخرين. وفي نفس الوقت يحصل الاب والأم على نوع لبق وحذر من التدريب على أيدي الاعضاء الآخرين في ناديهم لتبادل التبني. وفي غضون أسابيع قليلة يصبح الأبوان صالحين للحياة مع أطفالهما مرة أخرى، كما يصبح الاطفال في حالة تسمح لهم بالإقامة مع أبويهم.»

وأضافت تقول: «ولكن لاتظن أن الاطفال لايلجأون إلى آبائهم وأجدادهم بالنيابة إلا إذا كانوا يواجهون المشاكل. إنهم يلجأون إليهم دائماً، وحينما يشعرون بالحاجة إلى التغيير أو إلى نوع جديد من الخبرة والتجربة. وليست هذه العملية مجرد دوامة اجتماعية. إنهم، كأبناء غير أصليين لهؤلاء الآباء، وحينما يذهبون، يتحملون ما ينبغي تحمله من المسؤوليات إلى جانب ما يتمتعون به من حقوق ـ إنهم ينظفون الكلب ـ على سبيل المثال ـ أو ينظفون قفص الطيور، أو يرعون الطفل الرضيع حينما تكون أمه مشغولة بشيء آخر. الواجبات توازن الامتيازات ـ ولكن هذا لايحدث في أكشاك التليفون المحرومة من الهواء التي تعودتم عليها. إنها واجبات وامتيازات يتمتع بها ويلتزم بها الطفل وسط أسرة متفتحة لاتخضع لقدر مسبق ومتحررة، تتمثل فيها كل مراحل عمر الانسان السبع إلى جانب عشرات من المهارات المختلفة، وحيث يتمرس الاطفال بكل الأشياء البارزة والهامة التي يقوم بها الكائن البشري أو يعاني منها: العمل واللعب والحب والتقدم في العمر والمرض والموت». وأمسكت سوسيلا عن الكلام وهي تفكر في دوجالد وفي والدته، ثم غيرت عامدة من نغمة صوتها وأضافت تقول: «ولكن ماذا عنك أنت؟ لقد غرقت تماماً في الكلام عن العائلات دون حتى أن أسألك عما تشعر به الآن. من المؤكد أنك في حالة أفضل كثيراً عن حالتك حين رأيتك آخر مرة.»

ـ «الفضل في ذلك للدكتور ماك فيل. وأعتقد أيضاً أن الفضل يعود إلى شخص كان يمارس الطب بالفعل دون ترخيص بذلك. ماذا بحق السماء فعلت بي بعد ظهر الأمس؟»

ابتسمت سوسيلا وقالت تؤكد له: «أنت الذي فعلته لا أنا.. لم أفعل سوى الضغط على الازرار.»

ـ «أية أزرار؟»

ـ «أزرار الذاكرة، وأزرار الخيال.»

ـ «وهل كان ذلك كافياً لأن اسقط في لجة ساكنة من النوم المغناطيسي؟»

ـ «إذا شئت أن تسميها كذلك.»

ــ «كيف أسميها إذن؟»

ــ «ولماذا تسميها بأي شيء؟ إنما الاسماء أشياء تُلْحِفُ في اثارة الاسئلة.. لماذا لاتقنع بمجرد أن النوم قد حدث فعلاً؟»

ــ «ولكن ما الذي حدث حقاً؟»

ــ «طيب، لنبدأ بقول إنه قد حدث بيننا نوع من الاتصال، اليس كذلك؟»

قال موافقاً: «لقد حدث ذلك بالتأكيد. ومع هذا فلا أعتقد أنني حتى أسرفت في النظر إليك»..

كان ــ رغم هذا ــ ينظر إليها الآن ــ ينظر وهو يتساءل، من تكون حقاً تلك المخلوقة الضئيلة الغريبة، ما الذي يكمن وراء قناع الوجه الناعم الهادىء، ما الذي تراه العينان الداكنتان حينما تعكسان تساؤله وتفحصه المتعمق، وفيمَ كانت تفكر.

قالت: «كيف كان بوسعك أن تنظر إليّ؟ بينما كنت قد سرحت في فراغك الخاص.»

ــ «أم أنني قد دفعت إلى هذا الفراغ؟»

هزت رأسها نافية وقالت: «دفعت؟ كلا. فلنقل إنه قد أخذ بيدك، أو لقيت المعونة للذهاب إلى هناك». سادت لحظة من الصمت ثم استأنفت تقول: «هل حاولت أبداً أن تقوم بعمل ما بينما يتجول حولك ويتعلق بك طفل صغير؟»

وفكر ويل في جارته الصغيرة التي عرضت عليه أن تعاونه في طلاء أثاث غرفة الطعام، وضحك حينما تذكر سخطه عليها.

استمرت سوسيلا تقول: «يا للحبيبة الصغيرة المسكينة! كانت تعني ما تقول حقاً كانت جادة تماماً في عرضها للمساعدة»

ــ «ولكن الطلاء سال على البساط، وامتلأت الجدران ببصمات الاصابع الملوثة بالطلاء..»

ــ «وهكذا كان عليك في النهاية أن تتخلص منها: «امشي يا شاطرة يا صغيرة! اذهبي لتلعبي في الحديقة!»

ساد بعض الصمت.

تساءل في النهاية: «وماذا بعد؟»

ــ «ألا يمكنك أن ترى؟»

هز ويل رأسه.

ـ «ماذا حدث حينما كنت مريضاً، وحينما كنت جريحاً؟ من الذي قام فعلاً بالعلاج؟ من الذي يشفي الجراح ويلقي ابرة الحقن بعيداً؟ أنت؟»

ـ «من غيري؟»

قالت بإصرار: «أنت؟ أنت الشخص الذي يحس بالألم وينزعج ويفكر في الخطيئة والمال والمستقبل؟ أكان «ذلك» هو أنت القادر على فعل ما ينبغي فعله؟»

ـ «أوه، أفهم الآن إلامَ تقصدين»

قالت بسخرية: «أخيراً؟»

ـ «إنني أبعد لكي ألعب في الحديقة حتى يتمكن الكبار من القيام بعملهم في هدوء ولكن من هم الكبار؟»

أجابت تقول: «لا تسألني، فهذا سؤال ينبغي أن يُطرح على عالم في اللاهوت والأعصاب..»

سألها: «بمعنى؟»

ـ «أقصد بالتحديد ما تقوله العبارة. أقصد شخصاً يفكر في الناس ـ في وقت واحد ـ بمصطلحات «ضوء الفراغ الكوني الساطع» وبمصطلحات الجهاز العصبي النباتي. فالكبار يتكونون من مزيج من العقل ووظائف الاعضاء»

ـ «والاطفال؟»

ـ «الاطفال هم الأصدقاء الصغار الذين يظنون أنهم يعرفون أفضل من الكبار وأكثر»

ـ «ولذلك يجب أن يُقال لهم أن يذهبوا ليلعبوا.»

ـ «بالضبط.»

سألها: «هل يعتبر هذا النوع من العلاج الذي اتبعته معي نوعاً شائعاً وقياسياً من العلاج في بالا؟»

أجابته مؤكدة: «إنه شائع وقياسي. في الجزء الخاص بكم من العالم يتخلص الاطباء من الأطفال عن طريق تسميمهم بالمهدئات. أما نحن فنتخلص من متاعبهم عن طريق محادثتهم عن الكاتدرائيات وطيور اللقلق؟». كان صوتها قد أصبح شبيهاً بالغناء وهي تقول: «وعن السحابات البيضاء الطافية في السماء، وعن البجعات البيضاء السابحة

فوق نهر الحياة الداكن الناعم الذي لايقاوم».

احتج قائلاً: «لا. لا. لا تفعلي ذلك ثانية!»

أشرقت ابتسامة فأضاءت الوجه الداكن الهادىء، ثم بدأت في الضحك. . نظر إليها ويل مدهوشاً. فعلى حين فجأة، ظهرت في مكانها «سوسيلا ماك فيل» أخرى مرحة ولا مبالية وساخرة.

قال وهو يشترك في الضحك: «أنا أعرف حيلك.»

قالت وهي ما تزال تضحك: «حيل؟» وهزت رأسها وهي تضيف: «كنت فقط أوضح كيف فعلت ما فعلت معك.»

ـ «أنا أعرف بالضبط كيف فعلتها. وأعرف أيضاً أنها تؤثر تأثيراً حقيقياً. والأكثر من هذا، فإنني أسمح لك بأن تفعليها ثانيةـ إذا كان ذلك ضرورياً.»

قالت بجدية أكثر: «إذا شئت، سأعلمك كيف تضغط على أزرارك الخاصة. إننا نلقنها لأبنائنا في كل مدارسنا الأولية. نلقنهم الأسس الثلاثة، بالاضافة إلى مبدأ س. ن»

ـ «وما هذا؟»

ـ «السيطرة على النفس. المعروفة باسم السيطرة على المصير».

رفع حاجبيه مدهوشاً وقال: «السيطرة على المصير؟»

قالت بتأكيد: «كلا، كلا. لسنا بلهاء تماماً كما يبدو أنك ظننت. إننا نعرف تماماً أن جزءاً واحداً فقط من مصيرنا هو القابل للسيطرة..»

«وأنتم تسيطرون عليه بالضغط على أزراركم؟»

ـ «بالضغط على أزرارنا ثم رؤية ما نود أن يحدث مجسداً.»

ـ «ولكن هل يحدث؟»

ـ «يحدث في كثير من الحالات».

ـ قال: «بسيطة!» وكانت في صوته نغمة تدل على السخرية.

قالت موافقة: «بسيطة إلى درجة عجيبة، ومع هذا، فإننا على قدر ما أعلم، الشعب الوحيد الذي يعلم أطفاله بانتظام وعلى أساس منهجي السيطرة على المصير. وليس عليك إلا أن تقول لهم ماذا ينتظر منهم أن يفعلوا، ثم اترك المسألة عند هذا الحد. إنك تقول لهم، تصرفوا بطريقة حسنة. ولكن كيف؟ إنك لاتقول لهم أبداً. كل ما تفعله هو أن تنفخ فيهم النشاط بأحاديثك ثم تعاقبهم. وهذه بلاهة خالصة.»

قال موافقاً: «بلاهة خالصة لايغالطها شيء» وتذكر مستر كراب، ناظر مدرسته في حديثه حول العادة السرية وتذكر نهش أعراض الآخرين في الاحتفالات الاسبوعية وخدمة النذير في يوم اربعاء الرماد حين يبدأ الصوم الكبير. كانوا يقولون: «اللعنة على من ينام مع زوجة جاره.»

ـ «إذا أخذ أطفالكم تلك البلاهة على محمل الجد، فسوف يكبرون لكي يصبحوا خطائين تعساء. فإذا لم يأخذوها على محمل الجد، فسيكبرون لكي يصبحوا شكاكين لايقلون تعاسة. فإذا تصرفوا انطلاقاً من موقف الشك التعيس فإنهم جديرون بأن يصبحوا بابويين أو ماركسيين. فلا عجب أن تمتلىء بلادكم بهذه الآلاف المؤلفة من السجون والكنائس والخلايا الشيوعية.»

ـ «أفهم من هذا أنكم في بالا لا تملكون إلا القليل من هذه الاشياء»

هزت سوسيلا رأسها.

قالت: «ليست هنا سجون من نوع سجن الكتراز، ولا يوجد وعاظ متعصبون من نوع بيللي جراهام ولا زعماء من نوع ماو تسي تونج ولا أولياء من نوع سانت فاتيما. ليس هناك جهنم مسعرة على الارض ولا فطيرة مسيحية شهية في السماء، ولا فطيرة شيوعية يوعد بها الناس في القرن الثاني والعشرين. ليس هنا سوى الرجال والنساء وأطفالهم يحاولون الخروج بأفضل ما يمكنهم الخروج به من «هنا والآن» بدلاً من أن يعيشوا في مكان آخر، مثلما تفعلون أنتم في غالب الأمر، أو في زمن آخر، أو في عالم آخر تصنعونه على هواكم من خيالاتكم. وليست هذه في الحقيقة غلطتكم. إنكم مجبرون في الغالب على أن تعيشوا بهذه الطريقة لأن الحاضر يبعث عندكم على اليأس. وهو يبعث على اليأس لأنكم لم تتعلموا أبداً كيف تربطون طرفي الفجوة التي تفصل بين النظرية والتطبيق، بين القرارات التي تتخذونها لتنفيذها في «العام المقبل» وبين سلوككم الفعلي.»

قال مقتبساً من العهد الجديد: «لأنني لا أفعل الخير الذي كنت جديراً بأن أفعله، وأفعل الشر الذي كنت جديراً بأن أتجنبه».

ـ «من قال هذا؟»

ـ «إنه الرجل الذي اخترع المسيحية ، القديس بولس.»

قالت: «ها أنت ترى ، إنها أرفع المثل العليا الممكنة، ولكن لايوجد أسلوب لتحقيقها».

ـ «باستثناء الاسلوب الذي يعتمد على قوى فوق القوى الطبيعية، بالاعتماد في تحقيق تلك المثل على شخص أو كائن آخر».

انفجر ويل فارنابي مغنياً وهو يطوح رأسه إلى الوراء:

«هناك ينبوع ممتلىء بالدماء يستمدها من شرايين «امانويل»
والخطاؤون يغطسون تحت هذا الفيضان
فيتخلصون من كل ما يلوثهم ويعلق بهم.»

غطت سوسيلا اذنيها وقالت: «هذا كلام رديء حقاً».

قال ويل موضحاً: «كانت هذه هي الترنيمة المفضلة عند ناظر مدرستي. وقد اعتدنا أن نغنيها مرة واحدة على الأقل كل اسبوع طوال الفترة التي قضيتها في المدرسة».

ـ قالت: «الحمد لله أن لم تكن هناك أية دماء في البوذية! لقد عاش جوتاما حتى بلغ الثمانين ومات لأنه كان شديد التهذيب فلم يكن يرفض أن يتناول الطعام الرديء. يبدو لي دائماً أن الموت العنيف يدعو إلى المزيد من الموت العنيف: «إذا لم تكن تؤمن بأن دماء من افتداني تفتديك أنت أيضاً، فسوف أغرقك في دمائك أنت». لقد حصلت في العام الماضي على منهج دراسي في تاريخ المسيحيـة؟ وارتجفت سوسيلا عندما تملكتها الذكرى ثم استمرت تقول: «ياله من رعب! وكان السبب في كل ذلك هو أن هذا الرجل الفقير الجاهل لم يعرف كيف يبشر بنواياه الطيبة».

قال ويل: «وما يزال أكثرنا في نفس القارب القديم. إنه الشر الذي نفعله ونحن جديرون بأن نتجنبه. ويا له من شر!»

ضحك ويل فارنابي ضحكة طويلة، فكان كمن يتصرف بطريقة لاتغتفر ازاء ما لا يمكن غفرانه. ضحك لأنه كان قد رأى طيبة قلب «مولي»، ثم اختار بعيون مفتوحة، المخدع القرمزي واختار معه تعاسة مولي وموتها، واحساسه الدائم بالذنب، ثم ما صحبه من الألم، الألم الذي يتجاوز كل مقياس أو تناسب مع سببه الوضيع والمضحك بشكل أساسي، الألم الممزق الذي شعر به حينما حدث في الوقت المناسب أن فعلت «بابز» ما كان أي أبله جديراً بأن يتوقع منها أن تفعله ـ إذ طردته من فردوسها الذي يضيئه إعلان «الجين» وحصلت على عشيق آخر.

سألته سوسيلا: «ماذا في الامر؟»

ـ «ولاشيء. لِـمَ تسألين؟»

ـ «لأنك لست شديد المهارة في إخفاء مشاعرك. كنت تفكر في شيء جعلك تشعر بالتعاسة».

قال وهو يصرف عينيه بعيداً: «إن لك عينين حادتين.»

أطبق صمت طويل، أينبغي له أن يخبرها؟ يخبرها بقصة «بابز» وقصة المسكينة «مولي» وقصته هو نفسه، يخبرها بقصة سوء الحظ والأشياء الغليظة التي لم يخبر بها أحداً أبداً، حتى أقدم أصدقائه وحتى وهو سكران؟ يعرف الاصدقاء القدامى الكثير عن المرء، يعرفون الكثير جداً عن الجماعات الاخرى التي يشترك فيها، يعرفون الكثير جداً عن اللعبة المعقدة والمضحكة التي كان يلعبها بمهارة دائماً (باعتباره سيداً انجليزياً مهذباً وبوهيمياً أيضاً، بالاضافة إلى أنه كان من المنتظر أن يصبح شاعراً، وكذلك فإنه غارق في اليأس لأنه يعرف أنه لن يستطيع أبداً أن يكون شاعراً جيداً وصحفياً كثير المشاغل والعمل ووكيلاً خاصاً مرتفع الاجر لرجل ثري يحتقره!). كلا. إن الاصدقاء القدامى لايفيدون في ذلك أبداً. ولكن ماذا عن هذه الغريبة الصغيرة الجسم ذات البشرة الداكنة، هذه الغريبة التي يدين لها فعلاً بالكثير والتي أصبح قريباً منها كل القرب رغم أنه لايعرف عنها شيئاً. معها لن تكون هناك نتائج نهائية، ولا أحكام متحيزة أو من جانب واحد ــ ربما كان هناك نوع غير متوقع من الاستنارة والفهم، نوع من المعونة العملية الايجابية. كذلك وجد نفسه يأمل في تفكيره الداخلي (هو الذي درب نفسه على الا يأمل في شيء أبداً. ويعلم الله أنه كان في حاجة إلى المعونة ــ رغم أن الله يعرف معرفة جيدة أيضاً أنه لن يقول إنه يحتاج إلى المعونة أبداً، لن يهبط إلى مستوى طلب المعونة من أحد).

مثل مؤذن فوق مئذنته، بدأ أحد الطيور المتكلمة في الصياح من فوق نخلة طويلة تنتصب وراء شجرات المانجو: «هنا والآن يا أولاد. هنا والآن يا أولاد!».

قرر ويل أن يأخذ المبادرة ــ ولكن بطريقة غير مباشرة، بأن يتحدث أولاً، لا عن مشاكله وإنما عن مشاكلها هي. وبدأ يتحدث دون أن ينظر إلى سوسيلا (لأنه فكر أنه لن يكون من الدماثة أن ينظر إليها).

ــ «قال لي الدكتور ماك فيل شيئاً عن.. عما حدث لزوجك.»

غرست الكلمات سيفاً في قلبها، ولكن كان هذا مما تتوقعه، وكان هذا صواباً ومما لايمكن تجنبه. قالت: «سيمر على الحادث أربعة شهور يوم الاربعاء القادم» ثم أضافت بطريقة تأملية: «شخصان..» وصمتت برهة ثم أضافت تقول: «فردان منفصلان ــ ولكن اجتماعهما أوجد شيئاً كالخلق الجديد. وفجأة يختفي نصف هذا المخلوق الجديد ولكن النصف الآخر لايموت ــ لا يستطيع أن يموت. يجب ألاّ يموت.»

ــ «يجب ألاّ يموت؟»

ــ «لأسباب كثيرة جداً ــ الاطفال، وأنا نفسي، وكل طبيعة الاشياء.» ثم أضافت تقول بابتسامة ضئيلة أضافت بعض الضوء إلى الحزن الكامن في عينيها: «ولست بحاجة إلى القول بأن الاسباب لاتقلل من صدمة البتر والخسارة أو أن تخفف من ثقل آثار

الكارثة. لاشيء يساعد على ذلك إلا ما كنّا نتحدث عنه الآن ـ السيطرة على المصير..» وهزت رأسها وهي تقول: «بل إن بوسع إسلوب السيطرة على المصير أن يمنحك ولادة خالية تماماً من الالم. أما أن يكون الثكل أو الترمل أو موت الاحباب خالياً تماماً من الالم، فهذا هو المستحيل. ومن الطبيعي أن يكون هذا هو ما ينبغي أن يكون، إنه لن يكون من الصواب إن استطعت أن تستل الالم الكامن في موت الاحباب. سوف تكون أقل من الانسان.»

ـ «يقول: «أقل من الانسان.. أقل من الانسان..» ثلاث كلمات قصيرة. ولكن، لكم تلخصه تلخيصاً كاملاً!

قال بصوت مرتفع: «إن ما يرعب حقاً، هو أن تعرفي أن موت الشخص الآخر إنما كان نتيجة خطأك أنت».

سألته: «هل كنت متزوجاً؟»

ـ «لمدة اثنتي عشرة سنة، وحتى الربيع الماضي..»

ـ «وهي الآن ميتة؟»

ـ «ماتت في حادث.»

ـ «في حادث؟ إذن كيف كان موتها نتيجة خطأك؟».

ـ «وقع الحادث لأن.. حسناً، لأنني فعلت الشر الذي لم أكن أريد أن أفعله، وفي ذلك اليوم أصاب الخطأ مرماه. لقد أربكها تأثير هذا الخطأ وشتت تفكيرها، ثم تركتها أنا لتقود سيارتها وتتصرف. تركتها تقود سيارتها رأساً ـ إلى التصادم.»

ـ «أكنت تحبها؟»

تردد لبرهة، ثم ببطء هز رأسه نافياً.

ـ «أكان هناك شخص آخر ـ شخص تهتم به أكثر؟»

برقت على شفتيه ابتسامة سخرية، كما لو كان يتهكم من نفسه وقال: «شخص ما كان بوسعي أن أهتم به أقل مما فعلت.»

ـ «وكان هذا هو الشر الذي لم تكن تريد أن تفعله ولكنك فعلته.»

ـ «فعلته، ومضيت في فعله حتى قتلت المرأة التي كان ينبغي لي أن أحبها ولكنني لم أحبها. مضيت في فعله حتى بعد أن قتلتها، حتى رغم كراهيتي لنفسي بسبب فعله ـ أجل ولقد كرهت حقاً ذلك الشخص الذي جعلني أفعله.»

ـ «أعتقد أنه جعلك تفعله، لأنه يملك جسداً من النوع المطلوب؟»

أومأ ويل، وأطبق الصمت.

تساءل ببطء: «أتعرفين كيف يكون الأمر حين تشعرين بأنه لاشيء حقيقياً تماماً ـ بما في ذلك أنت نفسك؟»

اومأت سوسيلا وقالت: «هذا يحدث أحياناً حينما يكون المرء بالقرب من نقطة اكتشاف أن كل شيء أكثر حقيقية مما كان المرء يتخيل. اللحظة التي تشبه لحظة استخدام ناقل الحركة في السيارة. عليك أن تنقله إلى حالة التعادل قبل أن تنقله إلى السرعة الأعلى.»

قال ويل: «أو السرعة الأقل» في حالتي كان الانتقال إلى الأسفل وليس إلى الأعلى. كلا. إنه لم يكن حتى إلى الأسفل، كان في الاتجاه المعاكس للاتجاه الأول. حدث هذا للمرة الأولى حينما كنت أنتظر الباص الذي سيأخذني إلى البيت من شارع فليت ستريت. كان الجميع، آلاف فوق آلاف من البشر، يتحركون كل منهم متميز ومنفرد، وكل منهم مركز للكون. ثم برزت الشمس من وراء إحدى السحب.. أصبح كل شيء متألقاً وواضحاً إلى درجة غير عادية، وفجأة، وبما يكاد يكون فرقعة مسموعة لاصبعين، أصبحوا جميعاً كالديدان أو اليرقات»

ـ «كالديدان؟»

ـ «أتعرفين تلك الديدان الصغيرة الشاحبة ذات الرؤوس السوداء التي يراها المرء فوق اللحم المتعفن. لم يتغير شيء بالطبع. كانت وجوه الناس كما هي، وظلت ملابسهم على ما كانت عليه. ومع ذلك فقد كانوا جميعاً ديداناً أو يرقات. لم يكونوا حتى ديداناً حقيقية ـ كانوا مجرد أشباح لديدان، مجرد خيال لديدان.. وكنت أنا خيال المتفرج على الديدان. لقد عشت في عالم الديدان هذا طيلة شهور. عشت فيه وعملت داخله، وفي داخله خرجت لتناول الغداء والعشاء ـ فعلت فيه كل شيء دون أدنى اهتمام بما كنت افعله. دون أدنى استمتاع باللذة التي تحملها نكهة العمل، فاقداً رغبتي تماماً، وعنينا عنة كاملة تماماً مثلما كان اكتشافي حينما حاولت أن أمارس الحب مع امرأة شابة كنت قبل هذا الهو معها بطريقة عارضة».

ـ «ماذا كنت تتوقع؟»

ـ «توقعت ذلك تماما.»

ـ «اذن فلماذا بالله..»

ابتسم ويل في وجهها واحدة من ابتساماته الخاطفة الواهنة وهز كتفيه، وقال:

«بدافع من الاهتمام العلمي. لقد كنت واحداً من علماء الحشرات أبحث الحياة الجنسية لاشباح الديدان».

ـ «واعتقد أن كل شيء بعد هذا بدا أكثر بعداً عن الحقيقة.»

قال موافقاً: «بل أكثر من هذا، إن كل ذلك ممكناً»

ـ «ولكن ما الذي جاء بالديدان في البداية؟»

أجاب يقول: «اسمعي، أقول لك إنني أولاً كنت ابن أبي وأمي. ابناً أنجبه سكير بلطجي من شهيدة من شهداء المسيحية. وفوق كوني ابناً لأبي وأمي..» وتردد قليلاً ثم أضاف يقول: «كنت ابن شقيق عمتي ماري.»

ـ «وما شأن عمتك ماري بهذا الموضوع؟»

ـ «كانت هي الشخص الوحيد الذي أحببته في حياتي، وحينما بلغت السادسة عشرة من عمري أصيبت هي بالسرطان. كانت الاصابة في ثديها الايمن، ثم أصيب الثدي الايسر أيضاً بعد عام واحد. ثم عاشت تسعة شهور وسط أشعة اكس والمرض المتنقل والمستفحل. وانتقل المرض إلى الكبد وكانت هذه هي النهاية. كنت إلى جوارها من البداية حتى النهاية. كانت هذه التجربة بالنسبة لصبي لم يبلغ العشرين نوعاً من التربية العفوية ـ ولكنها كانت عفوية!»

سألت سوسيلا: «ما موضوعها؟»

ـ «موضوعها هو انعدام الهدف، فقدان الغرض فقداناً كاملاً ومتجسداً.. وبعد أسابيع قليلة من انتهاء هذا المنهاج الخاص الذي تلقيته في الموضوع، جاء الافتتاح الكبير للمنهاج العام. إنها الحرب العالمية الثانية، التي جاءت بعد منهاج تجديد المعلومات الذي صنعته الحرب الباردة الأولى. وطوال هذه الفترة كنت أريد أن أصبح شاعراً، وكنت أكتشف أنني ببساطة لا أملك ما يلزم لكي أكون الشاعر الذي أرجوه. وبعد الحرب، كان عليّ أن اشتغل بالصحافة لكي أكسب المال. أما ما كنت أريده حقاً فهو أن أتضور جوعاً، إذا كان هذا ضرورياً، ولكن لكي أكتب شيئاً مقبولاً ـ نثراً جيداً على الأقل، طالما إنني أرى أنه لايمكن أن يكون شعراً من النوع الجيد.. ولكنني كنت أفكر دون رجوع إلى أبي وأمي العزيزين هذين.. وحينما مات أبي في يناير عام ١٩٤٦، كان قد تخلص من كل ما ورثته أسرتنا من أموال، وحينما أصبحت أمي أرملة ببركة الله، كان التهاب المفاصل قد أقعدها وشل حركتها وأصبحت بحاجة إلى المعونة. وبذلك كنت قد وصلت إلى فليت ستريت «شارع الصحافة» أقدّم العون لأمي بسهولة ونجاح أمتلىء منها إحساساً بالحفاوة الكاملة.»

ـ «ولماذا الشعور بالحفاوة؟»

ـ «ألا تشعرين بالحفاوة إذا وجدت نفسك تكسبين المال عن طريق إنتاج أرخص أنواع التزييف الأدبي وأكثرها ابتذالاً وسوقية؟ لقد كنت ناجحاً لأنني كنت كاتباً من الدرجة الثانية لايمكن الاستغناء عني.»

ـ «وكانت الديدان هي النتيجة الخالصة لكل هذا؟»

أومأ برأسه وقال: «لم تكن حتى ديداناً حقيقية. مجرد أشباح ديدان. وكانت هذه هي اللحظة التي دخلت فيها مولي إلى الصورة، لقد قابلتها في حفلة من حفلات الطبقة العليا من الديدان أقيمت في بلومزبري. قام بعض المدعوين بتقديم أحدنا إلى الآخر، وتبادلنا حواراً مؤدباً فارغاً من المعنى حول فن الرسم الخالي من الموضوع.. ولم أكن راغباً في رؤية المزيد من الديدان، فإنني لم أنظر إليها. ولكن لابد أنها كانت تنظر إلي. كان اللونان الأزرق والرمادي يمتزجان في عيني مولي امتزاجاً شديد الشحوب».. وتوقف قليلاً ثم أضاف يقول: «كانتا عينين تريان كل شيء ـ كانت قوية الملاحظة إلى درجة لاتصدق، ولكنها كانت تلاحظ دون حقد ودون رغبة في فرض الرقابة. كانت ترى الشر، إذا كان قائماً، ولكنها لاتدينه أبداً، لاتشعر إلا بالأسف والحزن العميق على الشخص الذي يرزح تحت اضطرار التفكير في تلك الأفكار أو القيام بتلك الافعال الرديئة الغريبة. حسناً، فلابد أنها كانت تنظر إلي ـ كما قلت لك ـ بينما كنت أتكلم، لأنها سألتني فجأة لماذا أنا حزين كل هذا الحزن. كنت قد شربت كأسين ولم يكن في طريقة سؤالها ولا في لهجتها شيء من الوقاحة أو العداء، وهكذا فقد أخبرتها بأمر الديدان وأنهيت كلامي قائلاً: «وأنت واحدة منها.» ثم نظرت إليها لأول مرة وقلت لها: «دودة زرقاء العينين ذات وجه يشبه وجوه القديسات الماثلات في صورة للمسيح على الصليب رسمها رسام فلمنكي من أهل الفلاندر».

ـ «هل أثار ذلك غرورها؟»

ـ «أظن ذلك. كانت قد هجرت عقيدتها الكاثوليكية، ولكنها كانت ما تزال تشعر ببعض الضعف ازاء حكاية المسيح المصلوب والقديسات. وأيا كان الأمر، فإنها طلبتني بالتليفون صبيحة اليوم التالي في موعد الافطار. سألتني إن كان يروق لي أن أذهب معها بالسيارة إلى الريف. كان اليوم هو الأحد، وبما يشبه المعجزة كانت السماء صافية. فوافقت. أمضينا ساعة وسط أشجار البندق نجمع الازهار الثلجية ونحدق في شقائق النعمان البيضاء. (وقال موضحاً) فالمرء لايقطف أزهار شقائق النعمان لأنها تذبل في غضون ساعة واحدة.. تطلعت كثيراً بعيني وسط تلك الغيضة من أشجار البندق، كنت أتطلع إلى الأزهار بالعيون المجردة، ثم أنظر إليها بالعدسة المكبرة التي كانت مولي قد

جاءت بها معها. ولا أدري السبب فيما شعرت به، ولكنني شعرت بأن النظر إلى قلوب أزهار الثلج وشقائق النعمان كان عملاً شافياً إلى درجة لاتصدق. ولم أرَ أية ديدان طيلة ما بقي من اليوم. ولكن شارع فليت ستريت كان ما يزال قائماً في مكانه ينتظرني، وفي وقت الغداء في يوم الاثنين كان المكان كله يعج بالديدان بنفس كثرتها الابدية. ملايين من الديدان. ولكنني كنت أعرف في تلك اللحظة ما ينبغي أن أفعله معها. ففي ذلك المساء ذهبت إلى الاستديو الخاص بمولي..»

ـ «هل كانت رسامة؟»

ـ «لم تكن رسامة حقيقية، وكانت تعرف هذا. كانت تعرفه ولم تكن ترفضه، لم تكن تفعل أكثر من أن تحاول الحصول على أفضل ما يمكن الحصول عليه حينما يفتقد الانسان الموهبة. لم تكن تمارس الرسم لأجل الفن، كانت ترسم لأنها كانت تحب ان تنظر إلى الاشياء، كانت تحب عملية بذل الجهد الذي لايكل من أجل أن تعيد إنتاج وخلق ما رأته من قبل. وفي ذلك المساء اعطتني لوحة لمزج الالوان وقطعة من قماش وقالت لي أن أفعل مثلها.»

ـ «وهل أثمر هذا؟»

ـ «أثمر بصورة جيدة لدرجة أنني بعد شهرين من هذه الليلة، حدث أن قطعت تفاحة عفنة إلى نصفين، ولم تكن الدودة في قلبها دودة أو يرقة ـ أعني أنها لم تكن كذلك في نظري من الناحية الموضوعية، فقد كانت كذلك، كانت على الصورة التي ينبغي أن تكون عليها الدودة أو اليرقة، وهذه هي الصورة التي رسمتها عليها، وهي الصورة التي رسمناها لها سوياً أنا ومولي ـ لأننا كنا دائماً نرسم نفس الاشياء في اللحظة نفسها».

ـ «وماذا عن الديدان الأخرى، الديدان الاشباح الموجودة خارج التفاحة؟»

ـ «اسمعي، كنت ما أزال أعود إلى حالتي القديمة، وخاصة في فليت ستريت وفي حفلات الكوكتيل، ولكن الديدان كانت أقل بصورة ملحوظة، وأقل مطاردة لي بشكل واضح، وفي نفس الوقت كان شيء جديد يجري في الاستديو. كنت أقع في الحب ـ كنت أقع في الحب لأن الحب يمسك بتلابيب الانسان، ولأنه كان من الواضح أن مولي كانت تحبني ـ أما السبب في هذا فلا يعرفه سوى الله وحده.»

ـ «يمكنني أن أرى عدداً كبيراً من الاسباب. إنها ربما كانت قد أحبتك لأنك..» رمقته سوسيلا بنظرة من يريد أن يقيمه ليكتشف حسناته فابتسمت وقالت: «حسناً، لأنك نوع جذاب تماماً من الاسماك الغريبة».

ـ «ضحك ويل وقال: «أشكرك لهذا الثناء الجميل».

واستمرت سوسيلا تقول: «ومن الناحية الأخرى، وليس هذا ثناء من نفس النوع أبداً، فإنها ربما تكون قد أحبتك لأنك جعلتها تشعر بالاسف والحزن الهائل عليك».

«هذه هي الحقيقة، وأخشى أن أقولها. فقد كانت مولي بفطرتها واحدة من الراهبات أخوات الرحمة.»

«ولسوء الحظ، فإن الراهبة من أخوات الرحمة لاتشبه في شيء زوجة الحب.»

قال: «وهذا هو ما اكتشفته بكآبة وحزن.»

— «بعد زواجكما كما أعتقد».

تردد ويل للحظة ثم قال: «كان هذا قبل الزواج في الحقيقة. ولم يكن السبب في هذا من جانبها أنه كانت هناك أية رغبة ملهوفة أو ملحة، ولكن السبب كان فقط هو رغبتها الشديدة في أن تفعل أي شيء يمنحني السعادة. لم يكن السبب، من ناحية المبدأ سوى أنها لم تكن تؤمن بالتقاليد، وكانت مؤمنة إيماناً بالحرية في الحب، والأكثر إثارة للدهشة (وتذكر هنا تلك الكلمات المثيرة للغضب والحنق التي كانت تلفظها بطريقة عفوية ومباشرة حتى في وجود أمه) إنها كانت مؤمنة إيماناً كاملاً بضرورة أن تتحدث بحرية عن تلك الحرية.»

قالت سوسيلا كمن يلخص الموضوع: «لقد عرفت النتيجة مقدماً، ومع هذا فقد تزوجتها.»

وأومأ ويل برأسه دون أن ينطق.

«أفهم من هذا أن السبب هو أنك رجل مهذب والرجل المهذب يحافظ على وعوده».

— «كان هذا السبب التقليدي هو أحد الاسباب جزئياً، ولكن السبب الآخر هو انني كنت أحبها.»

— «أكنت تحبها حقاً؟»

— «أجل. لا. لا أعرف. ولكنني كنت أعرف حقاً في ذلك الوقت. على الأقل ظننت أنني كنت أعرف. كنت في الحقيقة مقتنعاً بأنني أحبها حباً حقيقياً. وكنت أعرف وما زلت أعرف لماذا كنت مقتنعاً بذلك.. لقد كنت شاكراً وممتناً لهذا لأنها أبعدت عني تلك الديدان. وإلى جانب الامتنان كان هناك الاحترام. وكان هناك الاعجاب. كانت أفضل مني وأكثر أمانة بكثير. ولكنكِ على صواب لسوء الحظ: إن راهبة من أخوات الرحمة لاتبدو فضائلها مثلما هي في الاصل حين تصبح زوجة للحب. ولكنني كنت على استعداد لأن أقبل مولي على علاتها، بشروطها، وليس بشروطي. كنت على استعداد لأن أصدق أن شروطها أفضل من شروطي.»

سألته سوسيلا بعد صمت طويل: «ومتى بدأت في الانغماس في علاقات جانبية؟»

برقت على شفتي ويل ابتسامته الواهنة وقال: «بعد ثلاثة شهور من يوم زفافنا. وكانت العلاقة الاولى مع إحدى السكرتيرات في مكتبنا. وكم كانت مضجرة بحق الله. وبعد ذلك كانت هناك رسامة شابة، فتاة يهودية صغيرة الحجم ذات شعر متموج كانت موللي تمدها بالمال حين كانت تدرس في كلية سليد. وتعودت أن أذهب إلى الاستديو الخاص بها مرتين في الاسبوع، من الخامسة إلى السابعة مساء. واستمرت العلاقة ثلاث سنوات قبل أن تكتشف موللي أمرها.»

ــ «واعتقد أن هذا الاكتشاف قد أحزنها؟»

ــ «أكثر بكثير مما ظننت أبداً أنه قد يسببه لها من الحزن.»

ــ «إذن فماذا فعلت؟»

هز ويل رأسه وقال: «كانت هذه هي اللحظة التي بدأت الأمور تتعقد عندها. لم تكن لدي نية التخلي عن ساعات اللهو التي أقضيها مع راشيل، ولكنني كرهت نفسي لما أسببه لموللي من تعاسة. وكرهتها هي في نفس الوقت لأنها كانت تعيسة.. كرهت عذابها كرهت الحب الذي جعلها تتعذب، شعرت بأن هذا العذاب وهذا الحب غير عادلين معي، بأنهما نوع من الابتزاز لإجباري على أن أتخلى عن لهوي البريء مع راشيل. كانت بحبها لي إلى هذه الدرجة وبتعاستها الشقية لما كنت أفعله ــ وهو ما أجبرتني في الحقيقة على أن أفعله ــ كانت تمارس عليّ نوعاً من الضغط، كانت تحاول أن تقيد حريتي. ولكنها في نفس الوقت كانت تعيسة تعاسة حقيقية، ورغم أنني كرهتها لأنها كانت تبتزني بتعاستها فقد كنت «ممتلئاً بالاشفاق عليها» وردد قائلاً: «الإشفاق وليس التعاطف. التعاطف هو المشاركة في العذاب، أما ما كنت أريده بأي ثمن فهو أن أوفر على نفسي الالم الذي كان عذابها يسببه لي، وأن أتجنب التضحيات المؤلمة التي كان بوسعي لو قدمتها أن أضع نهاية لعذابها. كان الاشفاق هو الاجابة التي تقدمت بها، طالما أنني كنت أشعر بالاسف لها من الخارج، أتدركين ما أعنيه؟ أعني أنني أسفت لها كمتفرج، كعاشق لمشاهدة الجمال، كخبير في العذاب وناقد لصوره. ولقد كان هذا الاشفاق الجمالي من جانبي شديد العمق، وكان يزداد عمقاً في كل مرة تكاد تصل تعاستها فيها إلى ذروتها، حتى لقد كدت أظن هذا الاشفاق الجمالي حباً لها. كدت أظن ذلك ولكنني لم أعتقد به اعتقاداً كاملاً. وحينما كنت أعبّر عن إشفاقي عن طريق الرقة الجسدية «الشيء الذي كنت أفعله لأنه كان السبيل الوحيد لوضع نهاية مؤقتة لتعاستها وللألم الذي كانت تعاستها تصبه عليّ» حينما كان يحدث ذلك فدائماً ما كانت تلك الرقة تخيب وتفشل في الوصول إلى غايتها قبل أن أتمكن أنا من الوصول بها إلى ذروتها الطبيعية. كانت هذه الرقة تخيب بحكم من

الشعور النفسي الذي كان يجعلني أحسّ بأن مولي راهبة من أخوات الرحمة وليست زوجة أبداً. ورغم هذا، وعلى كل مستوى باستثناء المستوى الحسي فإنها قد أحبتني بطريقة الاخلاص والالتزام الكلي وهو الاخلاص الذي كان يستدعي إخلاصاً مماثلاً من جانبي ولكن ما كان لي أن الزم نفسي بها، وربما ما كان ذلك بوسعي. وهكذا فبدلاً من أن أشكر لها عطاءها وتكريسها نفسها من أجلي نفرت منها. كانت تطالبني بحقوقها، وكنت أرفض الاعتراف بحقها في هذه المطالب. وهكذا كنا نعود في نهاية كل أزمة، نعود إلى بداية الدراما القديمة ــ دراما حب عاجز عن أن يكون حسياً، ربط نفسه بنزعة حسية عاجزة عن الحب ليستثير استجابات غريبة في مزجها بين الشعور بالاثم وبين النخط، بين الاشفاق وبين النفور الذي كان يتحول أحياناً إلى كراهية تختلط دائماً بشعور خفي بالندم»، ويصاحب هذا المزيج كله، من حين إلى حين معلوم، سلسلة من الامسيات الخصبة أقضيها مع رسامتي الصغيرة ذات الشعر المجعد.»

قالت سوسيلا: «آمل على الاقل أنها كانت أمسيات ممتعة».

هز كتفيه وقال: «كانت ممتعة بصورة معتدلة فقط. فإن راشيل لم تكن تستطيع أبداً أن تنسى أنها مثقفة. كانت لها طريقتها التي تجعلها تسألني عن رأيي في بيرو دي كوزيمو في أقل اللحظات مناسبة لذلك. أما المتعة الحقيقية، والألم الحقيقي بالطبع ــ فلم أعرفهما ولم أمارسهما أبداً حتى ظهرت بابز في المشهد.»

ــ «متى كان ذلك؟»

ــ «منذ عام واحد فقط. في افريقيا.»

ــ «أفريقيا؟»

ــ «كان جو الدهايد قد أرسلني إلى هناك.»

ــ «هذا الرجل الذي يمتلك بعض الصحف؟»

ــ «ويمتلك أشياء من كل شيء آخر. كان متزوجاً من ايلين عمة مولي.. وقد أقول عنه أنه رجل أسرة نموذجي. وهذا هو ما يجعله شديد الاقتناع بصواب رأيه في كل ما يعرض له، حتى حينما ينغمس في أقذر العمليات المالية.»

ــ «وكنت تعمل لحسابه؟»

أومأ ويل برأسه وقال: «كانت هذه هي هدية الزواج التي قدمها لمولي: وظيفة لي في صحف الدهايد وبمرتب يكاد يبلغ ضعف مرتبي الذي كنت أحصل عليه من رئيسي السابق. كنت أشبه بالأمير أو ولي العهد. ولكنه كان مغرماً بمولي في ذلك الحين.»

ـ «وكيف كان رد فعله ازاء بابز؟»

ـ «لم يعرف شيئاً عنها أبداً ـ لم يعرف أبداً أنه كان هناك أي سبب وراء حادثة موللي.»

ـ «وهكذا فقد استمر في استخدامك من أجل زوجتك الميتة؟»

هز ويل كتفيه وقال: «كان عذري هو أنني لابد أن أعول أمي.»

ـ «وأنت بالطبع لاتستمتع بأن تكون فقيراً.»

ـ «بالطبع لا أستمتع بذلك.»

ساد بعض الصمت.

واخيرا قالت سوسيلا: «طيب، فلنعد إلى أفريقيا.»

ـ «كنت قد أرسلت إلى هناك لكتابة سلسلة من المقالات والتحقيقات حول القومية الزنجية. ولا داعي لذكر بعض العمل الشبيه بأعمال الاحتيال في موضوع خطوط الانابيب لحساب العم جو. وقد حدث في الطائرة، في طريق العودة إلى الوطن من نيروبي أن وجدت نفسي جالساً في المقعد المجاور لمقعدها.»

ـ «لم يكن يروق لك أقل من أن تجلس إلى جوار المرأة الشابة؟»

ردد قائلاً: «لايروق لي أقل من ذلك، أو أنني لا أرفض أكثر منه ولكن إذا كان المرء مدمناً فلابد له أن يأخذ جرعته ـ الجرعة التي يعرف مقدماً أنها سوف تدمره.»

قالت وهي تفكر فيما قاله: «إنه شيء مضحك، ولكن ليس لدينا في بالا أي مدمنين.»

ـ «حتى ولا مدمنين للجنس؟»

ـ «المدمنون للجنس هم أيضاً مدمنون لشخص واحد. وبكلمات أخرى، إنهم عاشقون.»

ـ «ولكن حتى العشاق يكرهون أحياناً من يعشقونهم.»

ـ «بالطبع. لأنني إذا كنت أحمل على الدوام نفس الاسم ونفس الانف ونفس العينين، فإنه لاينتج من هذا أنني دائماً المرأة نفسها. إن الاعتراف بهذه الحقيقة والتصرف على أساسها بطريقة معقولة، هو جزء من فن الحب.»

بقدر ما استطاع الايجاز، حكى ويل لسوسيلا بقية القصة. كانت القصة نفسها

تتكرر، أما وقد ظهرت بابز في المنظر، مثلما قال من قبل، فإن القصة المعادة كانت تزداد عمقاً وتأثيراً. كانت بابز صورة أخرى من راشيل، ولكنها صورة مكبرة كانت هي راشيل مزودة بقوة مضاعفة.

راشيل «مربعة» راشيل بالغة إلى الذروة. وكانت التعاسة التي جاءت من خلال بابز والتي كان عليه أن يصبها على رأس موللي أكثر بنفس النسبة من أي تعاسة كان عليها أن تعانيها من خلال راشيل. وبنفس النسبة أيضاً كان لابد أن يـزيد سخطه، وشعوره البغيض بأن حبها وعذابها يبتزانه، وكان لابد أن يزيد بنفس النسبة أيضاً ندمه وإشفاقه وتصميمه رغم الندم والاشفاق على أن يستمر في الحصول على ما أراده وعلى ما كره نفسه بسبب رغبته فيه، وعلى ما رفض بإصرار على أن يعيش دونه. وفي نفس الوقت كانت مطالب بابز تزداد، وكانت تطالب بأن يكون لها الحق في المزيد والمزيد من وقته ــ وليس فقط الوقت الذي يقضيانه في المخدع الوردي بلون الفراولة ــ وإنما في الخارج أيضاً، وفي المطاعم والملاهي الليلية، وفي حفلات الكوكتيل التي يقيمها أصدقاؤها المرعبون، وفي الريف وفي عطلات نهاية الاسبوع. كانت تقول: «أنا وأنت فقط يا حبيبي». . كـانا يمضيان بمفردهما في وحدة كاملة، هذه الوحدة التي منحته فرصة الغوص إلى الاعماق التي تكاد لاتبين من ابتذالها وخوائها العقلي. ولكن لهفته إليها استمرت كما هي على الرغم من كل ما شعر من ضجر ونفور، ورغم كل اشمئزازه العقلي والاخلاقي. وبعد واحدة من تلك العطلات الاسبوعية المرعبة كان «مدمناً لبابز» عاجزاً بقدر ما كان من قبل. وإلى جوارهـا، على نفس المستوى الذي تقف عليه أخت الرحمة زميلتها، كانت موللي قائمة، «مدمنة لويل فارنابي» عاجزة على الرغم من كل شيء. كانت عاجزة في كل ما يتعلق به ــ ذلك أن رغبته الوحيدة كانت هي أن تحبه أقل وأن تتركه ليذهب الى الجحيم في سلام. أما فيما يتعلق بموللي نفسها فقد كان الإدمان دائماً وبصورة لاتقاوم، مليئاً بالأمل. إنها لم تتوقف أبداً عن توقع المعجزة الخارقة التي سوف تحوله إلى ويل فارنابي العاشق العطوف غير الاناني الذي أصرت في عناد (وهي غارقة بين أسنان كل الادلة والبراهين وكل خيبات أملها المتكررة) على أن هذا العاشق العطوف هو ذاته الحقيقية. ولم يحدث إلا في أثناء تلك المقابلة الأخيرة القاتلة، فقط حينما أعلن عن رغبته في أن يتركها «وهو يخفي اشفاقه ويطلق العنان لهيمنة نفوره من تعاستها التي تبتزه» وأعلن نيته على أن يذهب لكي يعيش مع بابز ــ لم يحدث إلا في تلك اللحظة أن تخلى الأمل عن مكانه للقنوط، قالت له: «أتعني ذلك حقاً يا ويل، أتعني ذلك حقاً؟» ولقد أجابها: «أجل إنني اعنيه حقاً.» وفي قنوط كامل ذهبت إلى السيارة، في يأس مطبق قادت سيارتها وسط المطر، إلى موتها. وفي نهاية الجنازة، وحينما كانوا ينزلون النعش إلى القبر عاهد نفسه ألاّ يرى بابز مرة ثانية. لن يراها ثانية أبداً، أبداً، أبداً. وفي ذلك المساء، وحينما كان يجلس إلى مكتبه، يحاول أن يكتب مقالاً عن: «أين يخطىء الشباب» محاولاً ألاّ يتذكر المستشفى والمقبرة المفتوحة ومسؤوليته

عن كل ما حدث، جفل حينها سمع الازيز الصارخ لجرس الباب. لابد أنها رسالة تعزية تأخرت عن موعدها.. وفتح الباب، وهناك بدلاً من البرقية كانت بابز واقفة في صورة درامية دون أصباغ مجللة كلها بالسواد.

ـ «يا عزيزي المسكين، يا مسكيني ويل».

جلسا على الأريكة في غرفة الجلوس وربتت على شعره واستغرقا سوياً في البكاء. وبعد ساعة كانا عاريين معاً في الفراش. وفي خلال ثلاثة شهور، وكما كان بوسع أي غبي أبله أن يتوقع بدأت بابز تسأمه وتشعر معه بالتعب. وفي خلال أربعة أشهر هبط رجل مقدس قادماً من كينيا وظهر في أحدى حفلات الكوكتيل. والشيء يؤدي إلى الآخر، وبعد ثلاثة أيام، حينها جاءت بابز إلى البيت، جاءت لكي تهيىء المخدع للنزيل الجديد، ولكي تنبه القديم إلى موعد الانصراف.

ـ «أتعنين هذا حقاً يا بابز؟»

كانت تعني هذا حقاً.

سمعت اصطفاقة أجنحة بين الاغصان خارج النافذة، وبعد برهة، تصاعد صوت أبح دون نغمة معينة يقول: «هنا والآن يا أولاد».. هكذا صاح الطائر المتكلم.

صاح ويل يجيب عليه: «اسكت».

ردد طائر المايناه: «هنا والآن يا أولاد. هنا والآن يا أولاد. هنا و..»

«اسكت»

وأطبق الصمت.

قال ويل: «كان لا بد أن أسكته. لأنه بالطبع على صواب تماماً. هنا يا أولاد. الآن يا أولاد. إن «حينئذ» و«هناك» لا مناسبة لها على الإطلاق. أم أنها ليست كذلك؟ ماذا عن موت زوجك، على سبيل المثال؟ أكان «ذلك مناسباً؟».

نظرت سوسيلا إليه لبرهة في صمت، ثم أومأت برأسها في بطء وقالت: «أجل، إنه مناسب في سياق ما يجب أن أفعله الآن. مناسب تماماً. هذا شيء كان عليّ أن اتعلمه».

ـ «هل يتعلم المرء كيف ينسى؟»

ـ «ليست هذه مسألة نسيان. إن ما على المرء أن يتعلمه هو كيف يتذكر وأن يكون مع هذا متحرراً من الماضي. كيف أن يكون هناك مع الموتى وأن يكون مع هذا قائماً هنا ما يزال، في هذه اللحظة، مع الاحياء». منحته ابتسامة صغيرة حزينة وأضافت قائلة: «وليس هذا سهلاً».

ردد ويل قائلاً: «ليس هذا سهلاً.» وفجأة انهارت دفاعاته كلها، وغادره كل كبريائه. سألها: «هل ستساعديني؟»

قالت: «إنها صفقة رابحة» ومدت له يدها.

جعلهما صوت خطوات قادمة يلتفتان برأسيهما. كان الدكتور ماك فيل قد دخل الحجرة.

الفصل الثامن

«مساء الخير يا عزيزتي. مساء الخير يا مستر فارنابي».

كانت نغمة صوته تدل على الابتهاج، ولاحظت سوسيلا بسرعة أنه لم يكن ابتهاجاً مصطنعاً من أي نوع، وإنما كان ابتهاجاً طبيعياً وصادقاً. ومع هذا فلابد أنه قبل أن يأتي إلى هنا قد توقف في المستشفى، ولابد أنه رأى هناك لاكشمي، بالحالة التي رأتها بها سوسيلا نفسها منذ ما لايزيد عن ساعة أو ساعتين. أكثر هزالاً إلى درجة مرعبة مما كانت طول عمرها وأكثر شحوباً وأكثر شبهاً بجمجمة فقدت كل ما عليها من الجلد واللحم. إنه نصف عمر طويل من الحب والولاء والغفران المتبادل، وفي خلال يوم واحد أو يومين سيكون كل هذا قد انتهى إلى الأبد، وسوف يكون هو وحيداً، ولكن ليكتفِ هذا اليوم بما جلبه من الشر حتى الآن ــ وليكتفِ المكان والانسان بما تحمله منه. كان حموها قد قال لها ذات يوم حين كانا يغادران المستشفى سوياً: «لايحق للمرء أن يسبغ حزنه على الآخرين. ولكن لا يحق له بالطبع أن يتظاهر بأنه ليس حزيناً. ليس على المرء إلا أن يتقبل حزنه ومحاولاته العبثية لأن يكون رزيناً. تقبلي، تقبلي، تقبلي. . » ولقد تكسر حينئذ صوته وحينها رفعت عينيها إليه رأت أن وجهه كان مبللاً بالدموع. وبعد ذلك بخمس دقائق كانا يجلسان على أريكة خشبية، على حافة بحيرة اللوتس، في ظل تمثال بوذا الحجري الضخم. وفي تلك اللحظة قفزت ضفدعة لم يرها أحدهما من فوق منصتها، ورقة اللوتس المستديرة، إلى الماء بحركة ضئيلة وإن كانت حادة ومتهيجة مثل سائل ساخن. كانت سيقان اللوتس السميكة البارزة من طين البحيرة حاملة أوراقها المستديرة الخضراء بتويجاتها المتسخة منتصبة بها في الهواء، وهنا وهناك كانت تلك الزهور، رموز الاستنارة والنور البيضاء والزرقاء قد فتحت وريقاتها للشمس مرحبة بالزيارات واللمسات المتعجلة للفراشات والحشرات الضئيلة

والنحل البري الآتي من الغابة. وكانت عشرات من فراشات التنين الكبيرة تندفع، وتتوقف مرنقة وسط طيرانها ثم تندفع ثانية وألوانها الزرقاء والخضراء تلمع وهي تهوم فوق الفراشات الصغيرة.

وكان الدكتور روبرت قد همس قائلاً: «التشابه. تاثاتا»[٢١].

جلسا هناك لمدة طويلة يخيم عليهما الصمت. ثم فجأة لمس كتفها وقال: «انظري».

رفعت عينيها إلى حيث كان يشير. . كان ببغاءان صغيران قد نزلا على يد تمثال بوذا الأيمن، وكانا قد انغمسا في طقوس الحب والملاطفة.

سألته سوسيلا بصوت مرتفع: «هل توقفت ثانية عند بحيرة اللوتس؟»

منحها الدكتور روبرت ابتسامة صغيرة واومأ برأسه.

تساءل ويل: «كيف كان حال شيفا بورام؟»

أجابه الطبيب: «كانت ممتعة بما يكفي في حد ذاتها. نقطة ضعفها الوحيدة هي أنها قريبة كل القرب من العالم الخارجي. أما هنا فيستطيع المرء أن يتجاهل كل تلك الانواع المنظمة من الجنون ثم يمضي إلى عمله. وأما هناك فإن العالم الخارجي يكاد يطلق زفير تنفسه على رقبة المرء بكل ما ينبغي للحكومات أن تملكه من قرون الاستشعار ومراكز الاستمتاع وقنوات الاتصال. إن المرء ليسمعه ويشعر به ويشمه ـ أجل، يشمه». ورفع الطبيب وجهه ملتوياً إلى أعلى راسمًا تعبيراً يدل به على الاشمئزاز الضاحك.

قال ويل: «هل حدثت كارثة اسوأ من المعتاد منذ أن وصلت إلى هنا؟»

ـ «لم يحدث شيء غير عادي بمقاييسكم في الجزء الذي جئت منه من العالم. وكنت اتمنى لو أستطيع أن أقول نفس الشيء عن القسم الخاص بنا من العالم.»

ـ «ما هي المشكلة؟»

---

(٢١) تاثاتا، أو «التشابه» مبدأ من مبادىء مدرسة المعلم البوذي «يوجاكارا»، من كبار رهبان «الماهايانا». يقول إنه لما كانت كل الأشياء ليست سوى مظاهر لتجسد الفراغ الاعظم، الذي جاء منه خلق الكون كله، ولما كانت الاشياء ليست ـ في حالة تجسدها ـ سوى انعكاس للخيال الواحد الذي يعمل في صورة طوفان متتابع من الخيالات والتجسدات دون توقف، فإن هذا الخيال، هذه القوة السحرية للفكر الكامنة في الفراغ الاعظم، لابد أن تؤدي إلى الفراغ مرة أخرى. هكذا يتساوى الفراغ مع الخيال: العدم مع الوجود، اللاشيء مع امتلاء العالم بالإشياء، والاشياء كلها أيضاً، في جوهرها متساوية، أو متشابهة. فالتشابه إذن، هو الجانب الايجابي من الفراغ. إنه مبدأ الوجود والخلق. زيمر ص ٥٢٦.

ـ «المشكلة هي جارنا الملاصق لنا، الكولونيل ديبا. إنه، على سبيل افتتاح الكلام، قد عقد صفقة جديدة مع التشيكيين.»

ـ «لمزيد من التسليح؟»

ـ «قيمتها ستون مليوناً من الدولارات. كنت أستمع إلى الراديو هذا الصباح.»

ـ «ولكن لأي غرض بحق السماء؟»

ـ «الاسباب العادية. المجد والقوة.. المتع التي يسببها الغرور والمتع التي يسببها الابتزاز والتهديد.. الارهاب والاستعراضات العسكرية في الوطن والغزوات واهازيج النصر في الخارج. وهذا يؤدي بنا إلى الفقرة الثانية من الأخبار غير السارة. فقد ألقى الكولونيل مساء أمس خطبة أخرى من خطبه المشهورة حول ريندانج العظمى».

ـ «ريندانج العظمى؟» وما ذلك؟»

قال الدكتور روبرت: «من حقك تماماً أن تسأل. إن ريندانج العظمى هي المنطقة التي سيطر عليها سلاطين ريندانج ـ لويو في الفترة الواقعة بين عام ١٤٤٧ وعام ١٤٨٣. وهي تضم ريندانج وجزر نيقوبار وما يقرب من ثلث جزيرة سومطرة وكل جزيرة بالا. وهذه المنطقة اليوم هي المنطقة التي يؤمن الكولونيل ديبا بأنها وحدة واحدة تاريخياً ويجب أن تتوحد من جديد».

ـ «أهو جاد في ذلك؟»

ـ «يقولها والجدية الكاملة تعلو وجهه. كلا، هذا خطأ. يقولها ووجهه ممتقع مقلوب وبأعلى طبقات صوته الذي دربه، بعد مران طويل، لكي يصبح شبيهاً بصوت هتلر. شعاره هو ريندانج العظمى أو الموت.»

ـ «ولكن الدول الكبرى لن تسمح بذلك أبداً.»

ـ «ربما لا تحب هذه الدول أن تراه قائماً في سومطرة، ولكن «بالا» مسألة أخرى» وهز الطبيب رأسه ثم أضاف يقول: «لايوجد اسم «بالا» لسوء الحظ في مذكرة الاسماء الطيبة لأي واحدة من هذه الدول الكبرى. إننا لانريد الشيوعيين، ولكننا أيضاً لانريد الرأسماليين. إن أقل ما نرغب فيه هو التصنيع الشامل الذي يتلهف الطرفان على فرضه علينا لأسباب مختلفة بالطبع. فالغرب يريد هذا التصنيع لنا لأن اجور العمال عندنا منخفضة وسوف تكون أرباح المستثمرين مرتفعة بنفس النسبة.. أما الشرق فيرغب في التصنيع لأنه سيخلق البروليتاريا «الطبقة العاملة» حيث توجد الميادين الجديدة المفتوحة للاثارة الشيوعية الامر الذي قد يؤدي على المدى الطويل إلى اقامة دولة «ديمقراطية شعبية» جديدة. ونحن نقول: «لا» لكما معاً، ولذلك فإننا لانلقى شيئاً من الترحيب في كل

مكان. وبصرف النظر عن إيديولوجيات تلك الدول، فإن الدول الكبرى قد تفضل «بالا» واقعة هي وحقول بترولها تحت سيطرة «ريندانج» بدلا من «بالا» مستقلة دون حقوق للبترول. واذا هاجمنا «ديبا» فسوف يقولون إن هذا الهجوم من الامور التي لايمكن التساهل ازاءها، ولكنهم لن يرفعوا اصبعاً لمنعه. وحينما يستولي على بلادنا ويدعو رجال البترول للعمل فسوف يكونون سعداء».

سأل ويل: «وماذا يمكنكم أن تفعلوا مع الكولونيل ديبا؟»

ــ «لاشيء باستثناء المقاومة السلبية. إننا لانملك جيشاً وليس لنا أصدقاء أقوياء. أما الكولونيل فيملك الجيش والاصدقاء الأقوياء. وأكثر ما يمكننا أن نفعله إذا بدأ الكولونيل في اختلاق المشاكل هو أن نلجأ إلى الامم المتحدة. وفي نفس الوقت فسوف نحتج لدى الكولونيل ديبا على هذا الخطاب الملتهب الاخير الذي دار حول مسألة «ريندانج العظمى». سوف نحتج من خلال وزيرنا المفوض في ريندانج ـ لوبو، وسوف نحتج أمام الرجل الكبير شخصياً حينما يأتي في زيارته الرسمية إلى «بالا» بعد عشرة أيام».

ــ «زيارة رسمية؟»

ــ «بمناسبة الاحتفالات ببلوغ الراجا الشاب سنّ الرشد. لقد وجهت إليه دعوة الزيارة منذ وقت طويل، ولكنه لم يسمح لنا أبداً بأن نعرف على وجه اليقين ما إذا كان سيأتي أم لا، وقد تم الاتفاق اليوم نهائياً عل موعد الزيارة. فسوف نعقد اجتماعاً للقمة بالإضافة إلى حفل عيد الميلاد. ولكن، فلنتكلم الآن عن شيء أكثر فائدة. كيف كان حالك اليوم، يا مستر فارنابي؟»

ــ «لست في حالة جيدة فقط ــ وإنما رائعة. لقد تشرفت بزيارة من عاهلكم الحاكم.»

ــ «موروجان؟»

ــ «لماذا لم تخبرني بأنه العاهل الحاكم؟»

ضحك الدكتور روبرت وقال: «كان عليك أن تطلب مقابلته أولاً».

ــ «حسناً، إنني لم أطلبها. بل لم أطلب مقابلة الملكة الوالدة.»

ــ «هل جاءت الراني أيضاً؟»

ــ «بأمر من عصفورها الصغير. وأصبحت واثقة تماما من أن عصفورها الصغير قد وجهها إلى الاتجاه الصحيح، فان رئيسي، جو ألدهايد.. واحد من أعز أصدقائها».

ــ «وهي أخبرتك بأنها تحاول أن تأتي برئيسك إلى هنا، لكي يستغل بترولنا؟»

ــ «لقد رفضنا آخر ما تقدم به من العروض منذ أقل من شهر. أتعرف ذلك؟»

شعر ويل بالارتياح لأنه كـان قادراً على أن يجيب صادقاً تماماً بأنه لم يكن يعرف. فلا جو الدهايد أخبره ولا الراني أخبرته بهذا الرفض الحديث. واستمر ويل بصدق أقل: تقع وظيفتي في قسم خشب الورق وليس في قسم البترول. وساد بعض الصمت، وأخيراً سأل ويل: «ما هو موقفي الراهن هنا؟ غريب غير مرغوب فيه؟»

قالت سوسيلا: «اسمع، من حسن الحظ أنك لست سمساراً لبيع الاسلحة ولست عضواً في إرسالية تبشير».

ــ «ولا من المهتمين بالبترول رغم أنك في هذا الجانب قد تكون متهمًا بالمشاركة.»

ــ «بل إنك على قدر ما نعلم لست من الباحثين عن اليورانيوم».

ــ قـال الدكتور روبرت مختتمًا كلامه: «هؤلاء هم غير المرغوب فيهم من الدرجة الأولى. ولـكنك باعتبارك صحفياً فإنك تُضم إلى قائمة الدرجة الثانية، فالصحفي ليس من نوع الأشخاص الذين ينبغي لنا أن نحلم بدعوتهم لزيارة «بالا». ولكنك أيضاً لست من النوع الذي يُطلب منه أن يختصر زيارته طالما أنك استطعت الوصول إلى هنا».

قال ويل: «أود لو استطيع البقاء هنا لأطول مدة يمكن أن يُسمح بها».

ــ «هل لي أن أسأل عن السبب».

تردد ويل. لقد كان عليه أن يبقى المدة التي تكفيه للتفاوض مع السفير باهي لكي يربح تكاليف السنة التي يحلم بها من الحرية. ولكن كانت لديه أسباب أخرى يمكنه أكثر أن يعترف بها، فقال: «سأخبرك عن السبب، إذا لم يكن لديك اعتراض على الملاحظات الشخصية».

قال الدكتور روبرت: «قلها على الفور».

ــ «الحقيقة هي أنني كلما زاد ما رأيته منكم ازداد اعجابي بكم.. أريد أن اكتشف المزيد عنكم. ثم أضاف وهو يرمق سوسيلا بنظرة سريعة: «وفي خلال هذه العملية قد اكتشف عن نفسي أشياء ممتعة وهامة. فلِـمَ لا يسمح لي بالبقاء.»

ــ «سلوكنا العادي هو أن نطلب منك الرحيل حالما تسمح حالتك بالسفر. ولكننا قد نمد لك خط الإقامة إذا كنت مهتمًا ببالا اهتماماً جاداً، وقبل كل شيء، إذا كنت جاداً في الاهتمام بنفسك. أم أنه لاينبغي لنا أن نمد لك ذلك الخط. ما رأيك يا سوسيلا؟ إنه، رغم كل شيء يعمل بالفعل لحساب اللورد الدهايد».

كان ويل على وشك أن يحتج ثانية بأن وظيفته إنما تقع في قسم خشب الورق.

ولكن الكلمات التصقت بحلقه فلم يقل شيئاً، مرت الثواني، وكرر الدكتور روبرت سؤاله.

وأخيراً قالت سوسيلا: «أجل ، إننا سنقبل باستبقائه القيام بمخاطرة مؤكدة. ولكني قد أكون على استعداد شخصياً. . شخصياً لتحمل هذه المخاطرة. هل أنا على صواب؟» والتفتت إلى ويل.

ــ «طيب، أعتقد أنكم تستطيعون أن تثقوا بي، أرجو على الأقل أن تستطيعوا ذلك» وضحك محاولاً أن يحول الموقف كله إلى نكتة، ولكنه تضايق وشعر بالحرج حينما أحسّ بالدم يفور في وجهه. . أيصطبغ وجهه بالحمرة لما طلبه من ضميره مشمئزاً من نفسه؟ إذا كان هناك من سيتعرض للخداع فسوف تكون شركة «استاندارد كاليفورنيا للبترول» هي ذلك المخدوع. فإذا ما جاء «ديبا» إلى هنا فما الفرق بين من سيأخذ حق الاستغلال؟ أيهما تفضل أن يأكلك: ذئب أم نمر؟ الإجابة على هذا السؤال ليست مما يهم في شيء طالما كان الأمر يتعلق باهتمام الحمل. لكن يكون جو الدهايد اكثر سوءاً من منافسيه. وعلى أي حال، فان ويل تمنى لو لم يكن في عجلة من أمره لإرسال ذلك الخطاب. ولماذا لم يكن في وسع تلك المرأة المرعبة أن تتركه في سلام؟

من خلال الغطاء شعر بيد تتحسس ركبته السليمة. كان الدكتور روبرت يبتسم في وجهه.

قال: «يمكنك أن تمكث هنا شهراً. سوف أتحمل مسؤوليتك تماماً. وسوف نبذل كل ما في وسعنا لكي نطلعك على كل شيء.»

قال ويل: «أنا شاكر لك جداً».

قال الدكتور روبرت: «إذا اجتاحك الشك، فتصرف على أساس افتراض أن الناس أكثر شرفاً وأمانة مما يدفعك إلى تصورهم في هذه الصورة. . كانت تلك هي النصيحة التي أسداها إليّ الراجا القديم حينما كنت شاباً». واستدار الطبيب إلى سوسيلا وقال: «أخبريني، كم كان عمرك حينما مات الراجا القديم؟»

ــ «ثمانية أعوام فقط».

ــ «وبذلك فإنك تذكرينه جيداً».

ضحكت سوسيلا وقالت: «أيستطيع أي انسان أن ينسى الطريقة التي اعتاد أن يتحدث بها عن نفسه. كان يقول: «افتحوا قوسين: «أنا» اقفلوا القوسين، أحب أن أضع السكر على الشاي»

ــ «يا له من رجل عزيز. . .»

نهض الدكتور ماك فيل وعبر الغرفة نحو خزانة الكتب التي كانت تقف بين الباب وصوان الملابس، وجذب من الرف السفلي بها مجلداً لحفظ الصور سميكاً له غلاف أحمر اللون ساءت حالته بسبب رطوبة الجو الاستوائي وحشرات الورق وقال: «توجد له هنا صورة في إحدى هذه الصفحات» وراح يقلب الصفحات ثم قال: «ها هي». .

وجد ويل نفسه ينظر إلى صورة باهتة لرجل هندي عجوز ضئيل الحجم يضع النظارات على عينيه ويرتدي رداء من قماش القطن الابيض، والصورة تمثله وهو منهمك في إفراغ محتويات إناء فضي تغطيه الزخارف مما يستخدم لتقديم «الصلصة» على المائدة. فوق شيء كالعمود القصير المتكوم.

سأل ويل: «ماذا يفعل؟»

أجابه الطبيب: «يدهن رمزاً لعضو التناسل عند الذكر بالزبد السائل. كانت هذه عادة لم يستطع والدي المسكين أن يمنعه من ممارستها».

ــ «ألم يكن والدك يوافق على وجود أعضاء الرجال التناسلية؟»

قال الدكتور ماك فيل: «كلا. كلا. كان أبي يوافق تماماً على وجودها.. إنما كانت رموزها هي التي لم يوافق عليها».

ــ «ولماذا الرموز بالذات؟»

ــ «لأنه كان يعتقد أنه يجب أن يأخذ الناس دينهم كما يأخذ الفلاح اللبن دافئاً من ضرع البقرة، إذا كنت تفهم ما أعنيه. ولا يأخذونه بعد أن تنزع منه القشدة أو يأخذونه معقمًا أو «رائباً» لانفع فيه، كان يؤمن بأنهم ــ قبل كل شيء يجب أن يأخذوه دون أن يُعلّب أو يُعبأ في أي وعاء أسطوري أو رمزي».

ــ «وكان الراجا يعاني من نوع من الضعف ازاء الاوعية».

ــ «ليس ازاء الاوعية بوجه عام وإنما كان ضعيفاً فقط ازاء هذا النوع فقط من الاوعية المصنوعة من الصفيح. كان يشعر دائمًا بانجذاب خاص نحو هذا الرمز لقضيب الاله «شيفا» الذي كان إرثاً لأسرته. وكان هذا الرمز مصنوعاً من حجر البازلت الاسود، وكان عمره ثمانمائة عام على الاقل».

قال ويل فارنابي: «الآن فهمت»

ــ «كان يدهن رمز عضو الاله شيفا الذي توارثته الاسرة بالزبد ــ كان هذا عملاً من أعمال الرقة، وكان يعبر عن عاطفة جميلة ازاء مثل أعلى جليل. ولكن، حتى أكثر المثل العليا جلالاً تختلف اختلافاً كلياً عن اللغز الكوني الذي يفترض أنها تعبر عنه. ثم

فيمَ تشترك العواطف الجميلة المرتبطة بالمثل العليا الجليلة. . فيمَ تشترك مع ممارسة هذا اللغز وتجربته ممارسة وتجربة مباشرتين. . لايشتركان في شيء على الاطلاق. ولا حاجة بي إلى أن أقول إن الراجا القديم كان يعرف هذا كله معرفة كاملة. بل كان يعرفه أحسن من أبي. لقد شرب اللبن على حالته التي نزل بها من ضرع البقرة، لقد «أصبح» هو نفسه اللبن بالفعل. . ولكن عملية دهان رموز عضو الإله شيفا بالزبد كانت نوعا من الممارسات الرهبانية المقدسة التي لم يستطع أن يتحمل الإقلاع عنها. ولست بحاجة إلى أن أخبرك أنه ما كان ينبغي أبداً أن يطلب منه الاقلاع عنها. . ولكن أبي كان متـزمتاً فيـما يتعلق بالرموز. لقد عدل عن كلمة «جوته» وقلبها على وجهها الآخر فقال: «ليس كل ما يقبل الفناء متماثلاً»[٢٢]. وكان مثله الأعلى يتكون من العلم التجريبي الخالص عند طرف من أطراف الطيف المتعدد الألوان، ثم الصوفية التجريبية الخالصة عند الطرف الآخر.

هناك على كل مستوى توجد التجربة المباشرة، ثم توجد من بعدها التحديدات العقلية الواضحة عن تلك التجارب. رموز عضو الإله شيفا والصلبان، والزبد والماء المقدس، ومحاورات بوذا وأقواله الحكيمة، والأناجيل، والصور والغناء ــ لقد كان يود أن يمحوها جميعاً من الوجود».

تساءل ويل: «ومن أين كان يمكن أن تأتي الفنون إذن؟»

أجاب الدكتور ماك فيل: «إنها ما كانت لتظهر على الاطلاق. لقد كان «الشعر» هو أكثر ما يثير أعصاب أبي إلى درجة اصابته بالعمى. كان يقول إنه يحبه، ولكنه لم يكن يحبه في الحقيقة. كان الشيء الذي يستطيع ببساطة أن يفهمه هو وجود الشعر لأجل الشعر نفسه. الشعر باعتباره وجوداً متوحداً ومتميزاً، قائمـاً هناك في الفراغ الممتد بين التجربة المباشرة وبين رموز العلم. اسمع، فلنبحث عن صورته».

عاد الدكتور ماك فيل يقلب صفحات مجلد الصور ثم أشار إلى صورة جانبية لوجه كالصخرة له حاجبان هائلان.

قال ويل: «ياله من رجل اسكتلندي لحمًا ودماً».

ــ «ومع ذلك فقد كانت أمه وجدته من أهل بالا».

ــ «لايعثر المرء على أثر منها في وجهه».

---

(٢٢) يقول جوته في «فاوست» إن كل ما يقبل الفناء، متماثل في جوهره. والمقصود هنا، أن والد الدكتور ماك فيل، قد رفض أن يقبل الرموز الوثنية لأهل بالا، وحكم عليها ــ بينه وبين نفسه بالطبع ــ بأن تندثر. أما العلم التجريبي فهو ما يجب أن يبقى، رغم أنه «متغير»، وبالتالي فلا تشابه بينه وبين الرموز (هـ . م)

ـ «بينما كان من الممكن أن يظن الناس جده الذي أقلع من ميناء «بيرت» رجلاً من أهل راجبوتي»

حدق ويل في صورة قديمة لرجل شاب له وجه ينبىء بشخصيته، تحيط بصدغيه «سوالف» سوداء طويلة، وقد استند بمرفقه على عمود مرمري قصير، وقد وضع عليه ـ مقلوبة ـ قبعته المرتفعة الطويلة غير المزخرفة.

ـ «أهذا جدك الاكبر؟»

ـ «هذا أول من جاء إلى «بالا» من أسرة ماك فيل. دكتور آندرو. لقد ولد في عام ١٨٢٢، في مقاطعة «رويال برج» حيث كان والده جيمس ماك فيل يمتلك مصنعاً لصنع الحبال، وكان هذا المصنع رمزاً ملائماً تماماً. فقد كان جيمس مؤمناً مخلصاً بأفكار «كالفين»[٢٣] البروتستانتية، ولما كان مقتنعاً بأنه شخصياً واحد من المختارين السادة، فقد كان يستمد نوعاً من الرضا العميق المريح من الفكرة التي كانت تخامره عن أن كل هؤلاء الملايين من اخوته في البشرية الساعين في دروب الحياة، بينما تلتف حول أعناقهم أشرطة المشنقة المصنوعة من الحبال والتي قدرتها لهم الاقدار من قبل أن يولدوا بينما «عزرائيل» يعد الدقائق منتظراً لحظة أن يشد المقاعد من تحت أقدامهم».

ضحك ويل.

قال الدكتور ماك فيل موافقاً على ضحكه: «أجل، إنه أمر يبدو مضحكاً جداً، ولكنه لم يكن مضحكاً في ذلك الحين.» كان أمراً جاداً في ذلك الحين ـ أكثر جدية بكثير من القنبلة الهيدروجينية الآن. لقد كان من المعروف اليقيني أن تسعة وتسعين من مائة في المائة من الناس محكوم عليهم بأن يتقلبوا في نار جهنم إلى الابد. لماذا؟ إما لأنهم لم يسمعوا أبداً عن يسوع المسيح، وإما، إذا كانوا قد سمعوا به، فإنهم لم يستطيعوا أن يؤمنوا إيمانا كافياً بأن يسوع المسيح قد افتداهم وخلصهم من نار جهنم.

---

(٢٣) كالفين، جون (١٥٠٩ ـ ١٥٦٤) مؤسس النزعة البروتستانتية الاصلاحية التي عرفت باسمه والتي اصبح لها نفوذ كبير في انجلترا من خلال المذهب التطهيري (البيوريتاني) ثم في الولايات المتحدة. ثم أنه كان من أوائل الدارسين الفرنسيين للفلسفة اليونانية (افلاطون) واللاتينية (سينيكا) وكان كاثوليكياً متحمساً (تتلمذ على سانت أوغسطين)، فقد كتب كتابه الكبير «مؤسسات الدين المسيحي» الذي طالب فيه باصلاح الكنيسة، وألقى خطبة بهذا المعنى في جامعة باريس فأجبر على الفرار من العاصمة ثم من فرنسا كلها إلى جنيف، حيث فرض ديكتاتوريته الدينية والسياسية بصرامة بالغة. وتقوم نزعته على القول بالفساد الكامل للبشر بناء على سقوط آدم، والهيمنة المطلقة لإرادة الرب، وأفضلية الإيمان على الأعمال الصالحة، طالما أنه ليست للانسان إرادة حرة، والخلاص منحة من الله وليس نتيجة لأي عمل انساني إرادي، والله وحده هو الذي يعرف سلفاً أولئك الذين سوف يخلصون، أو المختارين، وعلى الناس أن يحيوا في ورع كامل لأن أحداً لايعرف إن كان مختاراً للخلاص أم لا. (هـ. م).

وكان البرهان الذي لم يستطيعوا أن يؤمنوا به إيماناً كافياً هو الحقيقة التي يمكن لهم أن يلاحظوها بأعينهم وأن يجربوها، حقيقة أن أرواحهم لم تكن تعيش في سلام.. لقد كانوا يعرفون الايمان الكامل بأنه شيء يستطيع أن يؤدي إلى سلام العقل وهدوئه الكاملين، ولكن سلام العقل أو هدوءه شيء لايمتلكه أي انسان بصورة عملية. وعلى ذلك فإنه لم يوجد انسان واحد يمتلك ــ عملياً ــ إيماناً كاملاً. ولذلك، فبصورة عملية كان قد قدر لكل انسان قبل أن يولد أن يخضع للعقاب الابدي. ثم باللاتينية «وهو المطلوب إثباته!»[٢٤].

قالت سوسيلا: «إن المرء ليتساءل كيف لم يصبهم الجنون جميعاً».

ــ «لم يؤمن معظمهم لحسن الحظ إلاّ من خلال قمم رؤوسهم. من هنا «ورث الدكتور ماكفيل على قمة رأسه الصلعاء»، كانوا مقتنعين بقمم رؤوسهم وحدها ــ إن تلك هي الحقيقة، مع أكبر تأكيد ممكن على حرف الحاء ــ ولكن عددهم وابعادهم كانت تعرف بصورة أفضل ــ كانت تعرف أن كل هذا ليس سوء هراء خالص. لم تكن «الحقيقة عند أكثرهم حقيقة إلا في يوم الأحد فقط، ولم تكن الحقيقة تصبح حينئذ حقيقة إلا بطريقة «مستر بيكويك» الفكاهية المهزارة. وكان جيمس ماكفيل يعرف كل هذا وكان قد عقد العزم على أنه لاينبغي لأطفاله أن يكونوا ممن يؤمنون في يوم السبت وحده مثل يهود التوراة. وكان عليهم أن يؤمنوا بكل كلمة من الهراء المقدس حتى في ايام الاثنين، وحتى في عطلات نصف اليوم التي لاتستغرق إلا فترة ما بعد الظهر، وكان عليهم أيضاً أن يؤمنوا بكل كيانهم، وليس فقط بقمم رؤوسهم التي تشبه السقوف المائلة في المنازل القديمة. كان لابد أن يلجههم قسراً الايمان الكامل وما يصاحبه من سلام وهدوء كاملين.. وكيف يكون ذلك؟ بأن نطلعهم على الجحيم ولنهددهم بنيران جحيم أكثر يقيمون فيها الآن وبأن نهددهم بالجحيم الذي ينتظرهم فيما بعد.. فإذا رفضوا بعنادهم الأحمق أن يحصلوا على الايمان الكامل وان يعيشوا في سلام وهدوء، فلتعطهم المزيد من الجحيم ولتهددهم بنيران جحيم أكثر توهجاً والتهاباً. وأخبرهم في نفس الوقت بأن الأعمال الصالحة ليست سوى أسمال وخرق ممزقة قذرة في نظر الله، ولكن فلتعاقبهم بعنف جزاء كل إساءة في السلوك أو الادب.. قل لهم إنهم بالطبيعة والفطرة فسقة فاسدون فساداً كلياً، ثم أضربهم جزاء لفطرتهم التي لايستطيعون منها فكاكاً».

التفت ويل فارنابي ثانية إلى مجلد الصور.

ــ «هل لديك صورة لجدك هذا الظريف؟»

قال الدكتور ماك فيل: «لدينا صورة له رسمت بالزيت ولكن الرطوبة كانت أكثر

(٢٤) وهو المطلوب اثباته Quod erat demonstrandum .

من أن يحتملها القماش، ثم تسللت الحشرات إليها، كان نموذجاً رائعاً لجنسه، كان يبدو مثل صورة للنبي أرميا رسمت في صميم عصر النهضة. إنك تعرف هذا النموذج ــ كان جليلاً مهيباً ذا عينين ملهمتين ولحية من نوع لحية الانبياء التي تغطي كمية كبيرة من الخطايا في تكوين ملامح الوجه، أما الأثر الوحيد الذي بقي من آثاره فهو رسم لمنزله بالقلم الرصاص».

قلب صفحة أخرى فظهرت صورة المنزل.

استمر الطبيب يقول: «شيد من حجر الجرانيت الصلب، ووضعت القضبان الحديدية على كل النوافذ.. ويا لها من لا إنسانية منظمة ومنضبطة تلك التي كانت تقيم في داخل هذا «الباستيل» العائلي الدافىء المريح»ـ ولست بحاجة إلى القول بأنها لا إنسانية منظمة ومنضبطة باسم المسيح ولأجل الاحساس الذاتي بالصواب ــ . لقد ترك الدكتور آندرو ترجمة ذاتية لنفسه ــ غير كاملة ــ وعن هذا الطريق عرفنا عنه كل شيء».

ــ «ألم يكن الأطفال يحصلون على أي معونة من امهاتهم؟»

هز الدكتور ماك فيل رأسه نافياً وقال:

«لقد كانت «جانيت ماك فيل» مؤيدة عنيفة لسلطة الاب، وكانت مؤمنة بتعاليم «كالفين» البروتستانتية المتزمتة إيماناً يماثل إيمان جيمس نفسه. بل ربما كانت «كالفينية» أفضل منه وأكثر تزمتاً، ولما كانت امرأة، فقد كان طريقها أكثر طولاً وبعداً، وكان عليها أن تقهر المزيد من أنواع الرقة الغريزية.. لكنها استطاعت بالفعل أن تقهر رقتها ببطولة. إنها بدلاً من أن تضع القيود على تصرفات زوجها، راحت تحثه وتحرضه وتدعمه، كانت هناك العظات الدينيّة والاخلاقية التي تُلقى على الاطفال قبل الافطار وعند تناول طعام الغداء في وسط النهار. وكانت هناك الاستجوابات فيما حفظته للاطفال من تعاليم ونصوص في ايام الآحاد، وحفظ الاناجيل عن ظهر قلب، وفي كل مساء، بعد أن تكون خطايا اليوم قد حصرت وحددت يبدأ عقاب الضرب المنظم على الأرداف العارية باستخدام عصا مرنة ذات مقبض من العظم من عصيّ النخيل، وينطبق هذا على الاطفال جميعاً، الصبية والبنات، مع تطبيق نظام الاولوية في السن».

قالت سوسيلا: «يجعلني هذا الحديث أشعر بالغثيان دائمًا. فليست هذه سوى نزعة سادية خالصة فيها تلذذ بإيذاء الاخرين».

قال الدكتور ماك فيل: «كلا ، ليست سادية خالصة، إنما هي سادية تطبيقية، سادية ذات دوافع خفية، إنها السادية في خدمة مثل أعلى، باعتبارها تعبيراً عن عقيدة دينية». ثم أضاف وهو يلتفت إلى ويل: «وهذا موضوع يجب على شخص ما أن يقدّم عنه دراسة تاريخية ــ العلاقات بين العقائد الغيبية وبين العقوبات البدنية في الطفولة. عندي

نظريـة تقول بأنه حيثما يُضرب الأولاد والبنات بانتظام، فإن الضحايا يكبرون لكي يفكروا في الله باعتباره «الآخر المقدس» أليست هذه هي اللغة الخاصة بالمتشردين واللصوص، أو «السيم» الذي ابتدعه هؤلاء في القسم الخاص بكم من العالم؟ أما ــ على العكس ــ حيث ينشأ الاطفال دون أن يخضعوا لأي عنف جسدي فان الله يصبح نوعاً من الاقتناع الذي يقبله العقل، حالاً في كل الوجود. والعقيدة الدينية لشعب ما إنما تعكس حالة «مؤخرات» أطفال هذا الشعب. انظر إلى العبرانيين «قدامى اليهود» الذين كانوا من المتحمسين المتعصبين لضرب الاطفال. وكذلك كان كل المسيحيين الطيبـين في عصور الايمان.

كان هناك الإله العبراني «يهوه» وكانت هناك «الخطيئة الاصلية» إلى جانب «والد كل الرومان» الغضوب غضباً لاينتهي وإلى جانب الجمود العقائدي البروتستانتي. بينما كان التعليم دائمًا بعيداً عن العنف عند البوذيين والهندوس. لايوجد هنـا تمزيق لـلأرداف الصغيرة ــ وعلى ذلك آمنوا بأن «تات تفام آزي» (أنت على ما أنت عليه)، وبالعقل من العقل لاينفصم. وانظر الآن إلى فرقة «الكويكرز» المسيحية المتحررة. لقد هرطقوا في العقيدة بما يكفي لكي يؤمنوا بفكرة «النور الداخلي»، فماذا حدث لهم؟ لقد أقلعوا عن ضرب أطفالهم فكانوا أول فرقة مسيحية تحتج على نظام استرقاق العبيد من البشر».

اعترض ويل قائلاً: «ولكن ضرب الاطفال قد أصبح في هذه الايام موضة قديمة تماماً. ومع هذا ففي هذه اللحظة تماماً أصبح من التقاليع الحديثة أن يؤمن المرء بفكرة المقدس الآخر».

ضرب الدكتور ماكفيل بالاعتراض عرض الحائط وتجاهله واستمر يقول: «ليست هذه سوى حالة من حالات رد الفعل الذي يتبع الفعل. فحينما حلّ النصف الثاني من القرن التاسع عشر، أصبح الفكر المتحرر لأصحاب النزعة الانسانية بالغ القوة لدرجة أن تأثر به حتى المسيحيون الطيبون فتوقفوا عن التفكير في الله باعتباره «المقدس الآخر» وتقدموا نحو اختراع «الفكر الجديد» و«الوحدة» و«العلم المسيحي» ــ أي كل تلك المرطقات شبه الشرقية حيث يتخـذ صورة «الشبيه المقدس». وكانت الحركة تتقدم بشكل طيب في أيام الفيلسوف الامريكي «ويليام جيمس» ولكن هذه الحركة أصبحت تلملم قواها الدافعة منذ ذلك الحين. ولكن القضية تخلق على الدوام نقيضها، وفي الوقت المناسب تحولت العقيدة التي كانت في البداية هرطقة وتجديفاً إلى عقيدة جامدة جديدة. فليسقط «الشبيه المقدس»! تحيا العودة إلى سانت اوغسطين وإلى مارتن لوثر ــ وبكلمة واحدة، تحيا العودة إلى أكثر ما ضرب من المؤخرات دون هوادة في كل تاريخ الفكر المسيحي. اقرأ «الاعترافات» وهي الترجمة التي كتبها لنفسه سانت أوغسطين، واقرأ «حديث المائدة» وهو أشهر ما كتب مارتن لوثر عن نفسه. كان ناظر مدرسة أوغسطين يضربه وكان والداه يضحكان منه حين يشكو

من الضرب. وكان لوثر يضرب بانتظام، ليس فقط بأيدي مدرسيه ووالده، بل بيدي والدته التي تعبده أيضاً. ولقد ظل العالم منذ ذلك الحين يدفع ثمن الندبات وآثار الضرب التي احمرت على ردفيه الصغيرين . كان من الممكن ألاّ تظهر إلى الوجود أبداً النزعة البروسية التوسعية العسكرية ولا الرايخ الثالث النازي لو لم تكن هناك عقيدة لوثر الغيبية القائمة على الجلد بالسياط. أو فانظر إلى عقيدة أوغسطين المشابهة في غيبيتها وقيامها على الضرب بصورة وصولها إلى نتائجها المنطقية عند «كالفين» والتي ابتلعها بها الورعون الاتقياء من نوع جيمس ماك فيل وزوجته جانيت كاميرون. إنها قضية منطقية مقدمتها الكبرى تقول: الله هو المقدس الآخر، وتقول المقدمة الصغرى: الانسان فاسد فساداً مطلقاً ومنحطاً. والنتيجة هي: افعل في مؤخرات أطفالك مثلما فعل أبوك في مؤخرتك أنت، ومثلما كان «أبوك السماوي» يفعله في المؤخرة الجماعية للانسانية منذ سقطة آدم: اضرب، اضرب، اضرب!»

ساد شيء من الصمت، نظر ويل فارنابي ثانية إلى اسم الشخص الجرانيتي الذي عاش في مصنع الحبال.. وفكر في كل الخيالات القبيحة والمضحكة التي رفعوا شأنها وجعلوها في مرتبة الحقائق السامية على الطبيعة.. وفكر في كل ما بعثته تلك الخيالات من صور القسوة الهمجية، وفكر فيما تسببت فيه من صور الألم الغامر التعاسة الطويلة المدى، فحينما لم يكن هناك اوغسطين القديس بقسوته الرحيمة، كان هناك روبسبير أوستالين، وحينما لم يكن هناك لوثر يحرّض الامراء على قتل الفلاحين، كان هناك طاغية معاصر يهبط بهم إلى درك العبودية».

سأل: «ألا تشعر أحياناً باليأس؟».

هز الدكتور ماك فيل رأسه وقال: «إننا لانيأس أبداً لأننا نعرف أن الاشياء لايجب بالضرورة أن تصبح أسوأ مما كانت عليه في الحقيقة دائماً».

وأضافت سوسيلا: «ونحن نعرف أن الامور يمكن أن تصبح في وضع أفضل إلى حد كبير. نعرف هذا لأن الأمور بالفعل الآن في وضع أفضل إلى حد بعيد، هنا والآن، في هذه الجزيرة الصغيرة إلى درجة مضحكة».

قال الدكتور ماك فيل: «ولكنها لسوء الحظ مسألة أخرى، إذا ماكنا سنصبح قادرين على أن نقنعكم أنتم باتباع نموذجنا، أو حتى إذا ما كنا سنصبح قادرين على المحافظة على واحتنا الصغيرة من الانسانية في وسط براريكم التي تضم العالم بأسره وتمتلىء بالقرود. يستطيع المرء أن يبرر لنفسه احساسه بالتشاؤم البالغ من الموقف الراهن... أما اليأس، اليأس الكلي، فلا.. إنني لا أستطيع أن أرى له مبرراً واحداً.»

ـ «ولا حتى حينما تقرأ التاريخ؟»

ــ «ولا حتى حينما أقرأ التاريخ».

ــ «إنني لأحسدك. كيف تستطيع ذلك؟»

ــ «بأن أتذكر ما هو التاريخ ــ إنه السجل لما كان البشر مجبرين على أن يفعلوه بدافع من جهلهم، وغرورهم الهائل الذي يجعلهم يقننون جهلهم ويحولونه إلى عقيدة دينية أو سياسية جامدة. » والتفت مرة ثانية إلى مجلد الصور وقال: «فلنعد ثانية إلى ذلك المنزل في «رويال بورج»، لنعد إلى «جيمس» و«جانيت» والأطفال الستة الذين سلمهم إليه «كالفين» في غضبته الشريرة الغامضة لرحمتها الرقيقة. «العصا والتقويم يجلبان الحكمة. أما الطفل الذي يُترك لنفسه فيجلب العار لأمه». هذا هو التعليم والتدريب قسراً بواسطة الضغط النفسي والتعذيب الجسماني ــ إنه الاسلوب البافلوفي كاملاً في تربية كلابه وتدريبهم. ولكن البشر لسوء الحظ لايعتمد عليهم ــ كما يعتمد على الكلاب ــ كحيوانات لتجارب الاديان المنظمة والدكتاتوريات السياسية. وبالنسبة للاطفال الثلاثة «توم» و«ماري» و«جين» أثمرت عملية التلقين القسري ثمرتها المرجوة.. لقد أصبح «توم» وزيراً، وتزوجت ماري من وزير آخر وماتت وهي تضع طفلها. أما «جين» فقد بقيت في البيت، وراحت تعتني بتمريض أمها عبر مرضها الطويل والكئيب بالسرطان، ثم تمت التضحية بها ببطء عبر الأعوام العشرين التالية على مذبح الاب المهيمن الطاعن في السن، الذي أصبح في النهاية خرفاً هوائي الأفكار والسلوك. وتبدو الأمور على خير ما يرام حتى الآن. ولكن «القالب» تغير مع «آني» الطفلة الرابعة. كانت جميلة. وعندما كانت في الثامنة عشرة من عمرها تقدم لخطبتها ضابط من سلاح الفرسان برتبة «كابتن». ولكن الكابتن كان من ابتاع الكنيسة الانجليكانية وكانت آراؤه حول فساد البشر المطلق ومسرة الله في الخير آراء خاطئة إلى درجة التجريم.. وحرم على «آني» هذا الزواج. وبدا الأمر كما لو كان القدر قد رسم لها أن تشارك «جين» مصيرها.. والتصقت هي بهذا المصير طوال السنوات العشر التالية، ولكنها في الثامنة والعشرين من عمرها سمحت لرجل بأن يغرر بها، وكان الرجل معاوناً ثانياً لأحد حكام جزر الهند الشرقية. دامت علاقتها بهذا الرجل لمدة سبعة أسابيع من السعادة تشبه الجنون ــ أول ما عرفته في حياتها من سعادة. كان وجهها قد تغير وحل مكانه نوع غير طبيعي من الجمال، وراح جسدها يشع بالجمال ويومض. ثم أبحر الموظف في رحلة تستغرق عامين إلى «مدراس» و«ماكلو». وبعد أربعة شهور، ظهر الحمل، وبدأت اللوعة، واليأس، فقذفت «آني» بنفسها إلى نهر التاي. وفي نفس الوقت، كان «الكساندر»، الثاني في هذا الخط، قد هرب من المدرسة وانضم إلى فرقة من الممثلين.. ومنذ ذلك الحين، لم يكن يسمح لمخلوق بأن يذكر اسمه أو يشير إلى «سيرته» في النزل القابع بجوار مصنع الحبال. وأخيراً كان هناك «آندرو» الأصغر، شبيه «بنيامين» بين أبناء «يعقوب». كم كان طفلاً نموذجياً، أو نموذجاً للطفولة كان مطيعاً، وقد أحب دروسه، وقد حفظ الاناجيل الاربعة عن ظهر قلب، أذكى وأكثر رقة من كل

اخوته الآخرين. ولكن حدث في الوقت المناسب تماماً ولكي تسترد أمه إيمانها بأن الانسان شرير بطبعه حدث أن ضبطته أمه وهو يلعب بأعضائه التناسلية. وضرب «آندرو» بالسوط حتى تفجر الدم من جلده، ثم ضبط مرة أخرى بعد بضعة أسابيع فضرب ثانية، وحكم عليه بالحبس الانفرادي في حجرة لايأكل فيها سوى الخبز والماء، وقيل له إنه قد ارتكب ــ بالتأكيد تقريباً ــ الخطيئة في حق «الروح القدس» وأنه لاشك في أن أمه بسبب هذه الخطيئة قد أصيبت بالسرطان. . وظل «آندرو» طوال ما بقي من طفولته فريسة لما يطارده في نومه من كوابيس عن الجحيم. ولكن ظل أيضاً فريسة لما يطارده من مغريات وحينها كان يستسلم لها ــ الأمر الذي كان من المؤكد حدوثه خفية في دورة المياه في أقصى المدينة ــ حين كان يستسلم لها كانت تطارده أيضا رؤى أكثر فظاعة من أنواع العقوبات التي تنتظره.»

قال ويل فارنابي معلقاً: «فماذا ترى في فكرة أن الناس يشكون من افتقار الحياة الحديثة للمعنى. انظر إلى صورة الحياة حينها كانت «بالفعل» ذات معنى، هل تختار القصة التي يحكيها أبله مجنون، أم القصة التي يحكيها واحد من أتباع «كالفين»؟ أعطني قصة الأبله المجنون في كل مرة.»

قال الدكتور ماك فيل: «أنا أوافق على هذا. ولكن، ألا يمكن أن يكون هناك احتمال ثالث؟ ألا يمكن أن يكون ثمة قصة شخص ما لا هو بالمعتوه ولا بالمتعصب المختل؟»

قالت سوسيلا: «أي يحكيها ــ على سبيل التغيير ــ شخص عاقل تماماً.»

قال الدكتور ماك فيل مردداً: «أجل، على سبيل التغيير. على سبيل التغيير المبارك. والحسن الحظ. فحتى في ظل التشريع والنظام القديمين، كان هناك دائماً عدد كبير من الناس الذين لم تستطع أكثر أنواع التربية شيطانية أن تدمرهم. فعلى أساس كل قواعد الاختبارات «الفرويدية» و«البافلوفية» كان لابد أن ينشأ جدي الاكبر مصاباً بنوع من القصور العقلي. ولكنه في الحقيقة شبّ عن الطوق لكي يصبح ذا عقلية فذة».وأضاف الدكتور روبرت يقول بطريقة من يلقي بجملة اعتراضية: «الأمر الذي لايثبت إلا مدى العجز الذي يعانيه حقاً المذهبان النفسيان: : «الفرويدي والبافلوفي» اللذان يحتلان عندكما مركز الصدارة. إن المدرسة الفرويدية، والمدرسة السلوكية التي أنشأها «بافلوف» يتواجهان في شكل قطبين متنافرين ولكنهما تتفقان تماماً حينها تتعرضان للاختلافات الفطرية التي غرستها الطبيعة بين الافراد. كيف يتعامل علماؤكم النفسيون الذين تم ترويضهم مع تلك الحقائق؟ إنهم يعاملونها بطريقة بسيطة جداً. إنهم يتجاهلونها. . إنهم يدّعون ادعاء مفضوحاً، بأن تلك الحقائق ليست موجودة. ومن هنا ينشأ عجزهم الكامل عن مواجهة الموقف الانساني بالصورة التي وجد بها في الواقع، أو عجزهم حتى عن تفسيره نظرياً،

انظر، على سبيل المثال، إلى ما حدث في تلك الحالة بعينها. لقد تم ترويض إخوة «اندرو» وأخواته عن طريق تدريبهم القاسي ثم تدميرهم. أما «آندرو» فإنه لم يخضع للترويض ولا للتدمير. لماذا؟ لأن عجلة «روليت» الوراثة قد توقفت عن الدوران عند رقم محظوظ. كان يتمتع بتكوين أكثر مرونة من تكوين الآخرين، كما كان يتمتع ببناء تشريحي مختلف، وبمزاج نفسي وكيمياء عضوية مختلفين عما يتمتع به إخوته الآخرون. لقد بذل والداه أسوأ ما كان لديهما من وسائل، تماماً مثلما فعلا مع بقية «الفقسة» التعيسة. وخرج «اندرو» من بيت التحنيط هذا بالوان زاهية، وتقريباً دون ندبة واحدة لأي جرح قديم.»

ـ «على الرغم من الخطيئة التي ارتكبها في حق الروح القدس؟»

ـ «لأجل سعادته، كانت تلك التجربة شيئاً تخلص من آثاره في خلال العام الاول من دراساته الطبية في جامعة «أدنبرة». لم يكن سوى صبي مراهق ـ تخطى السابعة عشرة بالكاد «كانوا يبدأون تعليمهم مبكرين في تلك الايام». وفي قاعة التشريح وجد الصبي نفسه يصغي إلى المرطقات المرعبة والتجديفات المسرفة التي كان زملاؤه الطلبة يحافظون على روحهم المعنوية عن طريق التلفظ بها دائماً وسط الاشلاء البطيئة التعفن. كان يصغي في البداية مرتعباً، بخوف يغشاه الغثيان من أن الله لابد منتقم منزل ثأره. ولكن شيئاً من هذا لم يحدث. وظلت أمور المجدفين تزدهر، وكان الزناة بالكلمات المرتفعة والأفواه الثرثارة يفلتون دون أن يصيبهم شيء أسوأ من جرعة صغيرة من الصفعات. وأخلى الخوف مكانه في عقل «آندرو» لإحساس عجيب من الارتياح والشعور بالخلاص. وازدادت جرأته بدرجة عظيمة، فبدأ يخاطر باطلاق بعض النكات الفاجرة من تأليفه. وكان تلفظه للمرة الاولى بكلمة داعرة من أربعة حروف تجربة من الاحساس المدهش بالتحرر، ويالها من تجربة دينية أصيلة! وفي نفس الوقت، قرأ في وقت فراغه رواية «توم جونز» وقرأ مقالة الفيلسوف «هيوم» عن «المعجزات»، وقرأ كتاب «جيبون» الكافر عن تاريخ سقوط روما. وراح يستفيد من اللغة الفرنسية التي تعلمها في المدرسة فائدة طيبة، فقرأ أعمال «لامتري»[٢٥]، وقرأ أعمال «الدكتور كابانيس»[٢٦] وأيقن من أن الانسان آلة،

---

(٢٥) لامتري، جوليان اوفروي (١٧٠٩ ـ ١٧٥١) طبيب وفيلسوف مادي فرنسي بدأ حياته بدراسة اللاهوت، وتحول إلى الطب، ومنه وصل إلى أفكار المادية في صورتها الأولية. ولما كانت فرنسا تحت السيطرة المباشرة ـ من الناحية الفكرية لكاردينالات روما، فقد اضطر لامتري إلى الهرب إلى بروسيا حيث أصبح صديقاً وجليساً لفردريك الاكبر الذي كتب كلمة في ذكرى الطبيب الفيلسوف عند موته وضعت كمقدمة للطبعة الالمانية الكاملة الاولى عن أعماله. ودارت أفكار لامتري حول ميكانيكية الجسم البشري وعن مادية الأفكار في الدماغ، مما كان له أثر كبير في الفكر المادي الوضعي من بعده.

(٢٦) كابانيس، بيير جان جورج (١٧٥٧ ـ ١٨٠٨) طبيب وكاتب فرنسي، كان من بين كتاب «الكراسات الثورية» التي مهدت للثورة الفرنسية الكبرى، وأصبح صديقاً لعدد كبير من اليعاقبة، وطبيباً لميرابو خطيب الثورة الأولى الذي عينّ كابانيس استاذ للطب العلاجي في جامعة باريس ١٧٩٧، وعضوا في =

وأن الدماغ يفرز الفكر كما تفرز الكبد الصفراء، كم كان كل هذا بسيطاً، وكم كان واضحاً مثل النور ويكل حماس من يغير عقيدته في اجتماع دعائي قرر أن يكون ملحداً. ولم يكن هذا سوى الامر المتوقع في ظروفه. . إنك لاتستطيع من بعد هذا أن تستمر في هضم «القديس أوغسطين» أو في ترديد هراءات القديس «اثناسيوس». وهكذا فإنك تجذب السدادة المحكمة الاغلاق لكي تترك كل هذا العبث ليسيل من الزجاجة إلى البالوعة المفتوحة. يا له من نعيم سعيد! ولكنه نعيم لايستمر طويلاً. إنك تكتشف أن شيئاً ما ينقصك. لقد أفرغ الطفل التجريبي حديث الولادة من كل القذارة الغيبية ومن الرغوة العفنة. ولكن الطبيعة تكره الفراغ. ويتخلى النعيم السعيد عن مكانه للاحساس المزمن بالقلق وعدم الاستقرار، وها أنتم الآن تصابون، جيلاً بعد جيل. . . بسلسلة متتالية من الدعاة المتعصبين من أمثال «وزلي» و«بيونري» و«مودي» و«بيللي» يعملون جميعاً بنشاط مثل شغالات النحل من أجل إعادة ضخ الغيبيات التي انسابت في البالوعات. إنهم يأملون بالطبع في استعادة الطفل الذي ضاع منهم. ولكنهم لا ينجحون أبداً. فكل ما يستطيعه الواحد من هؤلاء العاملين على احياء الغيبيات وإعادتها إلى الحياة، هو أن يمتصوا قليلاً من مياه البالوعة القذرة ليرفعوها إلى بعض الادمغة. ومن المقدر بالطبع لهذه الكمية القليلة أن تطرد إلى الخارج مرة أخرى، وهكذا دواليك، بلا نهاية. وهذه حقاً عملية مضجرة إلى أقصى حدّ ولاضرورة لها على الاطلاق كما تبين الدكتور «أندرو» في النهاية. وفي نفس الوقت كان هو في مكان، يعيش الدفعة الأولى من حريته التي عثر عليها منذ قليل. كان مستثار العقل متهلل الروح، ولكنه كان مستثاراً ومتهللا في الخفاء، مستتراً تماماً وراء مظهر الوقار واللامبالاة الدمثة الذي اعتاد أن يبدو به أمام العالم وأن يقدمه له.»

سأل ويل: «وماذا كان من أمر والده، ألم تقم بينهما معركة؟»

ــ «لامعركة. فلم يكن «آندرو» يحب المعارك. كان من نوع الرجال الذين يمضون دائماً في طريقهم الخاص. ولكنهم لايعلنون عن حقيقة مسيرتهم، ولايناقشون الآخرين الذين يفضلون طريقاً في اتجاه مختلف. لم يحصل الرجل العجوز أبداً على فرصة تمثيل دور النبي «أرميا» بنبوءاته المرعبة ولعناته. . أغلق «اندرو» فمه تماماً وامتنع عن ذكر «هيوم» الفيلسوف أو «لامتري» الطبيب، واستمر يؤدي حركاته التقليدية. ولكنه حينما انتهى من تدريبه العملي في الطب، لم يفعل أكثر من الامتناع عن العودة إلى البيت. بدلاً من

= مجلس الخمسمائة، ثم انضم إلى نابليون بعد انقلاب فريكتودور الذي استولى به الجنرال على السلطة، فأصبح عضواً في مجلس الشيوخ. كان لكتابه: «تقرير عن علم الطبيعة وأخلاق الانسان» تأثير كبير على الدراسات الانسانية وبعدها المادي فيما بعد كما وضع مشروعاً عن حق العلاج في الدولة الديموقراطية باسم «الثورة واصلاح الطب».

العودة، ذهب إلى «لندن» وحصل على وظيفة جراح وعالم طبيعي على السفينة «ميلامبوس» من سفن اسطول صاحب الجلالة، التي كان من المقرر أن تتخذ مركزاً لها في البحار الجنوبية حاملة أوامرها بانتقاء وتصنيف وجمع نماذج المواد الحية من نباتات وحيوانات، وأن تحمي الارساليات الدينية البروتستنتينية والمصالح البريطانية. واستغرقت رحلة السفينة «ميلامبوس» ثلاث سنوات كاملة. لقد عبروا بتاهيتي وانفقوا شهرين في «صاموا» وشهراً في جزر «الماركيز». كانت الجزر بعد مدينة «بيرث» البريطانية، أشبه بجنة عدن ــ ولكنها لسوء الحظ كانت «عدناً» خالية، لا من النزعة «الكاليفينية» والرأسمالية والاحياء الصناعية القذرة، وإنما كانت خالية أيضاً من «شكسبير» ومن «موتسارت»، وكانت أيضاً خالية من المعرفة العلمية ومن التفكير المنطقي. كان هذا هو الفردوس، ولكنه كان فردوساً لانفع فيه، لا نفع فيه. واستمروا في الابحار.. زاروا جزر «فيجي» وجزر «كارولين» وجزر «سليمان» في المحيط الهادي. ومضوا فرسموا الشاطىء الشمالي لغينيا الجديدة، وفي جزيرة «بورنيو» هبطت فرقة منهم على الشاطىء واسروا قردة من فصيلة «الاورانج اوتان» وكانت حاملاً ثم تسلقوا قمة جبل «كينا بالو» .. وتبع ذلك أسبوع في جزيرة «بانوي» وأسبوعان في خليج «أرخبيل ميرجوي». وبعد ذلك انطلقوا غرباً إلى جزر «اندامانس» ومنها إلى كتلة القارة الهندية. وحينما هبطوا على الشاطىء سقط جدي الاكبر من فوق جواده وكسرت ساقه.. وعثر قبطان سفينة «ميلامبوس» على جراح آخر وأبحر إلى الوطن. وبعد شهرين كان «اندرو» في اتقان الطبيب الشاب الجديد، يمارس الطب في مدينة «مدراس».. كان الاطباء نادرين في تلك الايام والامراض شديدة الانتشار إلى درجة مخيفة. وبدأ الرجل الشاب في الاثراء. ولكن الحياة بين التجار ووسط موظفي نائب الملك «حاكم الهند» كانت حياة مضجرة إلى درجة الاختناق. كانت «مدراس» بالنسبة له منفى، ولكنه منفى بدون ما يقدمه المنفى من تعويضات.. منفى دون مغامرات ولا إحساس بالغرابة، مجرد ابعاد إلى الأقاليم القصية، إلى المقابل الاستوائي لمقاطعات «سوانسي» أو «هادرزفيلد» في انجلترا نفسها. ولكنه ظل يقاوم الاغراء بحجز مكان له على كل سفينة توشك على الابحار إلى الوطن. وظن أنه لو ظل هناك لمدة خمس سنوات، فسوف يجمع ما يكفي من المال لشراء «عيادة» ممتازة في «ادنبرة» ــ كلا، في لندن نفسها في حي «الوست اند» الراقي. وتراءى له المستقبل، وردياً مذهباً. سوف تكون هناك زوجة، يفضل أن تكون ذات شعر أسود مشوب بالحمرة وشخصية معتدلة. ولابد أن يكون هناك أربعة أو خمسة أطفال ــ سعداء، لايضربون بالسوط، وملحدين.. وسوف تنمو «عيادته» وسوف يأتي مرضاه من دوائر اجتماعية اكثر تألقاً وشهرة. وبانتظاره الثروة والشهرة والاحترام، بل ورتبة الفروسية أيضاً. سيشيرون إليه ويقولون: سير أندرو ماك فيل يخرج من مركبته الخفيفة في «ميدان بلجريف». السير اندرو العظيم، طبيب الملكة الخاص.. استدعي إلى «سانت بطرسبرج» لكي يجري جراحة للدوق الاكبر، وإلى قصر «التوليري» وإلى

«الفاتيكان» وإلى «الباب العالي».. يالها من خيالات مبهجة لذيذة!.. ولكن الحقائق بدورانها وظهورها، كانت أكثر إثارة ومتعة بكثير. ففي ذات صباح جميل جاء إلى قسم الجراحة غريب له بشرة سمراء. كان من جزيرة «بالا» وقد أمره «صاحب السمو، الراجا» بأن يبحث عن جراح ماهر من «الغرب» وأن يعود به. وسوف تكون الجائزة ثمينة جديرة بأمير. وردد الرجل بإصرار، في انجليزيته المتلعثمة، «جديرة بأمير». ومن هنا إلى هناك قبل الدكتور «أندرو» الدعوة. من جانب، بالطبع، بدافع النقود، ولكن الدافع الأكبر كان شعوره بالضجر، ولأنه كان يحتاج إلى تغيير، ويحتاج إلى تذوق طعم المغامرة. إنها رحلة إلى «الجزيرة المحرمة» ــ وكان هذا الاغراء مما لايمكن مقاومته».

وتدخلت سوسيلا تقول معترضة: «وتذكر أن «بالا» كانت أكثر تحريماً على الغرباء من حالتها الآن».

«وهكذا يمكنك أن تتخيل كيف قفز الدكتور «أندرو» ليغتنم متلهفاً الفرصة التي قدمها له الآن سفير الراجا. وبعد عشرة أيام، ألقت سفينته مرساها عند الشاطىء الشمالي للجزيرة المحرمة. حملوه هو وحقيبته الطبية، وحقيبة أدواته وحقيبة أخرى صغيرة تحتوي على ملابسه وبعض الكتب التي لاغناء عنها، وجدفوا به في قارب طويل مكشوف عبر الجون الهادىء، ثم حملوه في محفة عبر شوارع «شيفابورام» وأجلسوه في البهو الداخلي للقصر الملكي. وكان مريضه الملكي ينتظره في قلق. ودون أن يسمح له بأي وقت لكي يحلق ذقنه أو يغير ملابسه، أُدخل الدكتور «آندرو» إلى حضرة الامير، لكي يلتقي برجل ضخم الحجم، أسمر اللون، في اوائل العقد الرابع من عمره، نحل جسده نحولاً مرعباً تحت ثيابه المزركشة بالقصب في إسراف.. وكان وجهه قد تورم وتشوه إلى درجة تجعله يكاد يشبه الوجه الآدمي فحسب، وصوته كان قد هبط إلى درجة الهمس المتحشرج. فحصه الدكتور اندرو. كان ورم خبيث قد امتد من تجويف عظام الفك الأعلى حيث كانت جذوره قد امتدت في كل الاتجاهات. كان الورم قد ملأ الانف وامتد إلى محجر العين اليمنى، وأغلق نصف الحلق وكان التنفس قد أصبح أمراً بالغ الصعوبة.. أما الابتلاع فكان مؤلماً، بالفعل، والنوم أصبح أمراً مستحيلاً ــ لأن المريض كان حينما يثقل رأسه ويستلقي، يسعل ويستيقظ لكي يصارع من أجل أن يتنفس الهواء في جنون. كان من الواضح أنه بدون جراحة تستأصل الورم كله من جذوره فإن الراجا لابد سيموت في خلال شهرين. ولم يكن هناك مفر من الاسراع بالجراحة الجذرية. وعليك أن تتذكر أن تلك كانت من الايام الجميلة القديمة التي كانت الجراحات فيها تتعفن دون استفادة من مخدر الكلوروفورم. وحتى في أحسن الظروف كانت أية عملية جراحية تعتبر قاتلة مميتة بنسبة مريض واحد من كل أربعة. وحينما تصبح الظروف أقل مواتاة كانت النسبة تنخفض بمعدل مخيف لتصبح خمسين إلى خمسين أو ثلاثين إلى سبعين، أو صفراً من كل مائة. وفي حالة «الراجا» كان من الصعب أن يكون تقدير نجاح العملية أكثر من هذا

سوءاً. فالمريض كان ضعيفاً بالفعل، ولابد أن تستغرق العملية وقتاً طويلاً بالاضافة إلى صعوبتها وما تسببه من آلام فادحة. . . . وكانت هناك فرصة كبيرة لأن يموت على مائدة الجراحة، فإذا ما عاش فلن يكون مصيره بالتأكيد المحقق سوى أن يموت بعد بضعة أيام بتسمم الدم. وراح الدكتور أندرو يفكر فيها إذا مات المريض، فماذا سيكون مصير الجراح الغريب الذي قتل ملكاً؟ وفي أثناء إجراء الجراحة، من الذي سيقيد حركة المريض الملكي بينما هو يتلوى تحت السكين والمشرط؟ مَنْ من الخدم أو رجال البلاط يمكن أن يتمتع بقوة العقل الكافية لكي يعصى أمر سيده حينما يصرخ متألماً أو يأمرهم أمراً واضحاً بأن يتركوه وشأنه؟

«ربما كان أكثر القرارات حكمة هو أن يقول على الفور ودون تردد بأن الحالة كانت دون أمل، وأنه لايستطيع أن يفعل شيئاً، وأن يطلب أن يعاد من فوره إلى «مدراس» . . ولكنه نظر ثانية في تلك اللحظة إلى الرجل المريض. كان «الراجا» ينظر إليه نظرة متمعنة من خلال القناع المضحك الذي اتخذه وجهه المشوه المسكين ـ كان ينظر بعيني مجرم مدان يتوسل من قاضيه الرحمة. وإذ مسّ هذا الرجاء قلب الطبيب فقد ابتسم الدكتور اندرو لمريضه ابتسامة مشجعة، وفجأة، وبينما كان يربت على اليد النحيلة، طرأت له فكرة جديدة. كانت فكرة عبثية، معتوهة، ولايمكن الوثوق بها على الاطلاق، ولكن على كل حال. . على كل حال. .

«فجأة تذكر أنه منذ خمس سنوات. . وحينما كان لايزال في «أدنبره» كانت هناك مقالة في مجلة «لانسيت» مقالة تنسب إلى البروفيسور «اليوتسون» السيىء السمعة بسبب دفاعه عن تنويم الحيوانات مغناطيسياً. وكان «اليوتسون» قد تجرأ على أن يتحدث عن عمليات جراحية دون ألم تُجرى للمرضى أثناء غيابهم عن الوعي بتأثير التنويم المغناطيسي.

«لابد أن الرجل كان معتوهاً مختل العقل أو كان محتالاً معدوم الضمير. لم تكن هناك قيمة من أي نوع لما وصف بأنه البرهان أو الدليل على مثل هذا الهراء. كان الامر كله نوعاً من الدجل، وخفة اليد، والتأفيق الواضح ـ كذلك مضت المقالة على طول ستة أعمدة من الصحيفة مليئة بالامتهان والسباب المفعم بالادعاء وغير المستعد للمناقشة. . وفي ذلك الوقت ـ ولأن «آندرو» كان ما يزال ممتلئاً بفلسفة «هيوم» وأفكار «لامتري» و«كابانيس» . . فإنه حينئذ كان قد قرأ المقالة في موافقة كاملة ودون اعتراض أو نقاش، وبعد القراءة كان قد نسي كل شيء حتى عن مجرد وجود التنويم المغناطيسي للحيوانات. أما الآن، وإلى جوار فراش الراجا، فقد عاد فتذكر الموضوع كله ـ البروفيسور المجنون، ومراحل التنويم، وعمليات البتر دون ألم، ونسبة الموت المنخفضة، والشفاء السريع. ربما على كل حال ، كان هناك شيء من الصدق في كل هذا. استغرق في تلك الافكار

استغراقاً عميقاً، حينما تحدث الرجل المريض إليه لكي يحطم صمتاً أطبق لمدة طويلة. كان الراجا قد تعلم الحديث بالانجليزية بطلاقة واضحة من بحار شاب كان قد هرب من سفينته في جزيرة «ريندانج ـ لوبو» وشق طريقه خفية عبر المضيق.. ولكنه كان ينطقها في تقليد مخلص للهجة البحار الذي علمه بلكنة أهالي لندن العامية «الكوكن». وردد الدكتور ماك فيل بضحكة صغيرة قائلاً: «لكنة أهالي لندن هذه تتردد مرة بعد أخرى في ذكريات جدي الاكبر. كان هناك ـ بالنسبة له ـ شيء غير لائق بطريقة لايمكن التعبير عنها، في سلوك ملك يتحدث مثل «سام ويللر» خادم «مستر بيكويك» في رواية ديكنز الشهيرة. وفي تلك الحالة، لم يكن عدم اللياقة مجرد مظهر اجتماعي.. فإلى جانب كونه ملكاً، فإن «الراجا» كان رجلاً مثقفاً يتمتع بأرقى تهذيب يمكن تصوره، لم يكن مجرد رجل ذي يقين ديني عميق راسخ، فإن أي عامي يمكن أن يكون ذا يقين ديني راسخ وعميق ولكنه كان أيضاً يتمتع بتجربة دينية وبصيرة روحية. فإن يعبر مثل هذا الرجل عن نفسه بلهجة السوقة في لندن كان شيئاً مما لايستطيع أن يبتلعه مثقف اسكتلندي من أوائل العصر الفيكتوري المتزمت، كما أن «الراجا» لم يستطع أبداً أن يقبل من جدي، رغم كل التعليم الدقيق الذي تلقاه جدي الاكبر، ادغامه غير الصحيح لحروف المد أو إسقاطه لحرف «الهاء» من نطقه للكلمات. ولكن كل هذه الخلافات لم تقع إلا في المستقبل، مستقبل علاقتهما. أما في تلك المقابلة المأساوية الأولى بينهما، فقد بدت لهجة «الراجا» غريبة ومستفزة، وهي لهجة الطبقات الدنيا من المجتمع. لقد ضم الرجل المريض يديه في إشارة توسل حارة وهمس قائلاً: «انقذني يا دكتور ماك فيل، انقذني.»

«وكانت الاستجابة حاسمة، فدون مزيد من التردد أخذ الدكتور آندرو كفي الراجا النحيلتين بين يديه وبدأ يكلمه بلهجة بالغة الثقة عن نوع جديد رائع من العلاج اكتشف في أوروبا ولم يستخدمه حتى تلك اللحظة سوى عدد لايتجاوز أصابع اليد الواحدة من أبرز الاطباء.. ثم استدار إلى الخدم ورجال الحاشية الذين كانوا ينعسون طوال الوقت خلف ملكهم ومن حوله، وأمرهم بأن يبرحوا الغرفة. ولكنهم لم يفهموا كلامه، غير أن لهجته وإشاراته المصاحبة لكلماته كانت واضحة إلى درجة لاتدع فرصة للخطأ. انحنوا وانسحبوا. وخلع الدكتور آندرو معطفه، وثنى أطراف أكمامه إلى الأعلى، وبدأ في استخدام تلك اللمسات الشهيرة للتنويم المغناطيسي التي كان قد قرأ عنها بارتياب شديد في مجلة «لانسيت». بدأت المسافة من قمة الرأس، نزولاً إلى ما فوق الوجه، ونزولاً إلى الوجه، ونزولاً إلى الصدر وأعلى البطن، وتكررت اللمسات مرة بعد مرة، حتى استولى السكون على المريض كمن غشي عليه، أو «بكلمات التعليق المتميزة التي كتبها صاحب المقال المجهول» يقول: «حتى يختار المهرج اليقظ أن يقول إن زميله البدين هو الذي وقع الآن تحت سلطان التنويم.» كان ذلك دجلاً وشعوذة وخداعاً رخيصاً. ولكن، على أي

حال، على أي حال.. ظل يعمل في صمت.. عشرين إشارة، خمسين إشارة. تنهد الرجل المريض وأغلق عينيه.. ستين.. ثمانين، مائة، مائة وعشرين. كانت الحرارة خانقة، وغرق قميص الدكتور آندرو في العرق وآلمته ذراعاه. ومضى في تجهم يكرر نفس الاشارات السخيفة. مائة وخمسين.. مائة وخمسة وسبعين، مائتين. ليس هذا كله سوى شعوذة ودجل.. ولكنه رغم كل شيء كان مصممًا على أن يجعل هذا الشيطان المسكين يغرق في النوم، حتى ولو استغرق ذلك اليوم كله. قال بصوت مرتفع وهو يمر بيديه في الاشارة رقم أحد عشر بعد المائتين: «إنك ستنام». وبدا الرجل المريض كما لو كان يغوص أكثر بين وسائده، وفجأة أمسكت اذن الدكتور آندرو بصوت سعلة طويلة فأضاف بسرعة: «ولكنك في هذه المرة لن تسعل. هناك مكان واسع يسمح بمرور الهواء، وأنت لن تسعل». وازداد تنفس الراجا هدوءاً. وأشار الدكتور آندرو بضع إشارات إضافية، ثم قرر أنه قد يكون من الافضل أن يستريح قليلاً.. مسح على وجهه ثم نهض وفرد ذراعيه ودار حول الغرفة مرتين.. ولما جلس مرة ثانية إلى جوار الفراش أمسك بإحدى ذراعي الراجا الشبيهتين بالعصي من المعصم وتحسس النبض. قبل ذلك بساعة كانت سرعة النبض تكاد تبلغ المائة، ولكن معدلها الآن هبط إلى السبعين.. رفع الذراع، وتدلت الكف مثل يد رجل ميت. وترك الطبيب الذراع فسقطت من تلقاء نفسها واستقرت إلى جوار صاحبها، ساكنة دون حركة حيث سقطت. قال الطبيب بصوت متزايد الارتفاع: «يا صاحب السمو، يا صاحب السمو.» ولم يصدر عنه جواب. ليس كل ذلك سوى تدجيل وشعوذة وخداع، ولكنه أنتج تأثيره رغم كل شيء، أنتج تأثيره بوضوح».

هومت وهبطت فراشة كبيرة مبرقشة الالوان، وحطت على أسفل قائم الفراش، وفردت جلاء اجنحتها القرمزية والبيضاء، ورفعت رأسها الصغير المسطح ومدت سيقانها الامامية ذات العضلات الكبيرة إلى درجة لاتصدق في وضع أشبه بوضع الصلاة. أخرج الدكتور ماك فيل عدسته المكبرة وانحنى إلى الامام لكي يفحصها.

قال بصوت مرتفع: «إنها من نوع: «جونجيلوس جونجيلويدز» إنها تتزين بثيابها لكي تبدو كالزهرة. حينما تهوم الفراشات غير الحذرة هابطة كالشراع لكي تمتص الرحيق من الزهور، فإنها «تمتصه». ولكنها إذا كانت من الإناث فإنها تأكل عشاقها.» وضع العدسة المكبرة جانباً ورجع بظهره إلى الوراء في مقعده وقال لويل فارنابي: «إن اكثر ما يجبه المرء في صفات الكون لهو هذا الزحام المحتشد فيه من الاشياء غير المتوقعة حشرة «جونجيلوس جونجيلويدز» إلى جانب «النوع البشري»، مقدم جدي الأكبر إلى «بالا» إلى جوار التنويم المغناطيسي.. ماذا يمكن أن يكون أقل تشابها؟»

قال ويل: «لاشيء، ربما باستثناء مقدمي «أنا» إلى «بالا» عن طريق سفينة محطمة

غارقة وجرف عميق قاتل، والتنويم المغناطيسي عن طريق مناجاة ذاتية عن كاتدرائية انجليزية».

ضحكت سوسيلا وقالت: «لحسن الحظ لم يكن عليّ أن أقوم بكل تلك الاشارات فوق جسمك. في هذا الجـو إنني حقاً أعجب بالدكتور آندرو. يستغرق تنويم الشخص بالاشارات أحياناً أكثر من ثلاث ساعات.»

ـ «ولكن هل نجح في النهاية؟»

ـ «نجاحاً مؤزراً.»

ـ «وهل أجرى العملية الجراحية بالفعل؟»

قال الدكتور ماك فيل: «أجل، لقد أجرى العملية بالفعل، ولكن ليس على الفور. كان عليه أن يجري استعدادات طويلة. فقد بدأ الدكتور آندرو بأن أخبر مريضه بأنه سيتمكن منذ تلك اللحظة من ابتلاع طعامه دون ألم. ثم قام بتغذيته تغذية جيدة طوال الاسابيع الثلاثة التالية، وفي الفترة بين كل وجبة كان ينومه ويظل المريض نائمًا حتى يحين موعد الوجبة التالية. إن جسدك يستطيع أن يؤدي لك خدمات عجيبة بمجرد أن تعطيه الفرصة للعمل. لقد زاد وزن الراجا اثني عشر رطلاً وشعر بنفسه كرجل جديد. لقد بدا كرجل جديد ممتلىء بالأمل والثقة. كان يعرف أنه يوشك أن يدخل تجربته العظمى.. وكذلك كان الدكتور آندرو في نفس الوقت. وفي غمار عملية تدعيم إيمان الراجا، استطاع الطبيب أن يدعم إيمانه هو الخاص، ولم يكن هذا الايمان إيماناً أعمى. لقد شعر بيقين كامل بأن العملية سوف تكون ناجحة. ولكن هذه الثقة التي لاتتزعزع لم تمنعه من أن يهيىء كل شيء يمكن أن يساهم في نجاحها. لقد بدأ يستفيد من النوم الذي يغرق فيه الراجا منذ فترة باكرة جداً من استعداداته. لقد ظل يقول لمريضه، إن النوم سوف يزداد عمقاً يوماً بعد يوم، وإنه سيكون في يوم إجراء العملية الجراحية أكثر عمقاً مما كان في أي مرة سابقة، وأنه سيستمر أيضاً لفترة أطول. لقد أكد للراجا ـ في اثناء نومه ـ قائلاً: «لسوف تستغرق في النوم طوال أربع ساعات كاملة بعد أن تنتهي العملية، وحينما تستيقظ لن تشعر بأقل ألم». لقد قال الدكتور آندرو تلك التأكيدات بمزيج من الشك الكامل والثقة المطلقة. كان العقل وتجربته السابقة يؤكدان له أن كل ذلك كـان مستحيلاً. ولكن التجربة السابقة في سياق الاحداث الحالية أثبتت أنها تفتقر إلى المعنى أو أنها تجربة غير مفيدة في ذلك السياق.. لقد حدث المستحيل بالفعل، وحدث عدة مرات. ولم يكن هناك أي سبب يدعوه إلى الاعتقاد بأنه لن يحدث مرة أخرى. كان الشيء الهام هو أن «يقول» إنه سوف يحدث.. وهكذا فقد راح يقول ذلك مرة بعد مرة. كان كل ذلك جميلاً، ولكن الاجمل منه كان اختراع الدكتور آندرو للتجربة النهائية الكاملة».

ـــ «تجربة نهائية كاملة لأي شيء؟»

ـــ «للجراحة . لقد جرب الطبيب ومريضه العبور بكل مراحل العملية اثنتي عشرة مرة. وقد حدثت آخر تجربة كاملة للعملية صبيحة يوم العملية نفسها. ففي السادسة صباحاً، دخل الدكتور آندرو إلى غرفة الراجا، وبعد قليل من الحديث المبتهج المتفائل، بدأ في القيام بالاشارات. وبعد بضع دقائق كان المريض غارقاً في غشية عميقة. ومضى الدكتور آندرو يشرح ـــ مرحلة بعد مرحلة ـــ ما سوف يفعله. قال وهو يلمس عظمة الخد القريبة من عين الراجا اليمنى: «إنني أبدأ بأن أفرد الجلد، وبعد ذلك، وبهذا المبضع، وقد لمس بسن قلمه الرصاص خد الراجا بالطول «أصنع حزاً غائراً. إنك لاتشعر بأي ألم بالطبع ـــ حتى ولا بأقل قدر من الانزعاج. وبعد ذلك نبدأ في قطع الانسجة الداخلية، وتظل أنت دون أن تشعر بشيء. . إنك ترقد في مكانك فحسب، نائمًا في راحة كاملة، بينما أفتح أنا الوجنة لكي أصل إلى الانف. وبين لحظة وأخرى، أتوقف لكي أربط أحد الاوعية الدموية، ثم استمر في العمل مرة ثانية. وحينما ينتهي هذا الجزء من العمل، أكون على استعداد للبدء في معالجة الورم. إن جذوره قائمة هناك في عظمة الفك العلوي وقد نما الورم إلى أعلى تحت عظمة الخد، وداخل محجر العين، كما نما إلى أسفل داخل المريء والحنجرة. وحينما أقطع هذا الجزء وأبعده عن الجسم، تظل أنت راقداً كما كنت قبل ذلك، دون أن تشعر بشيء، مستريحاً راحة كاملة، مسترخياً استرخاء لا حد له. . والآن، ارفع رأسك». واذ يقرن القول بالعمل، فإنه رفع رأس الراجا وثناه إلى الامام على الرقبة النحيلة وقال: «إنني أرفعه واثنيه حتى تتمكن أنت من التخلص من الدماء التي جرت داخل فمك وحلقك. لقد جرت بعض الدماء إلى داخل قصبتك الهوائية، وأنت تسعل قليلاً لكي تتخلص من هذه الدماء. ولكن هذا لايوقظك». وسعل الراجا مرة واحدة أو مرتين ثم حينما أرخى الدكتور آندرو قبضته الممسكة برأسه، سقط الرأس ثانية على الوسادة وهو ما زال غارقاً في النوم. بينما استطرد الطبيب يقول: «إنك لاتتنحنح حتى حينما أكون أنا أعمل في الطرف السفلي من الورم داخل الحنجرة.» وفتح الدكتور آندرو فم الراجا وأولج في حلقه إصبعين من أصابعه، وقال: «ليست المسألة سوى جذب الورم لانتزاعه من الحنجرة، وهذا هو كل شيء. لاشيء في ذلك يجعلك تتنحنح. . وإذا كان لابد لك أن تسعل لكي تطرد الدم، فيمكنك أن تفعل ذلك في نومك. أجل، يمكنك أن تفعله في نومك، في هذا النوم العميق، العميق.»

«وكانت هذه هي نهاية التجربة. . وبعد عشر دقائق، بعد أن قام الدكتور آندرو ببعض الاشارات الاضافية وأمر مريضه بأن يغرق في نوم أكثر عمقاً، بدأ الطبيب إجراء العملية. لقد فرد الجلد، وفتح الحز الغائر، وانتزع جلد الخد ولحم الوجنة وقطع الورم واجتثه من جذوره الكامنة في عظمة الفك العلوية وظل الراجا راقداً في مكانه في استرخاء

كامل، وظل نبضه قوياً وثابتاً عند رقم خمسة وسبعين، دون أن يشعر بأي ألم يزيد عما شعر به في خلال التجربة الوهمية. . ومضى الدكتور آندرو فغاص إلى الحلق، ولم يكن هناك أي سعال أو نحنحة. وجرت الدماء إلى القصبة الهوائية، وسعل الراجا ولكنه لم يستيقظ. وكان ما يزال نائماً بعد أن انقضت أربع ساعات بعد انتهاء العملية. ولحظة انتهاء الدقيقة الأولى من الساعة التالية، فتح عينيه، وابتسم ـ من بين ضماداته واربطته ـ للدكتور آندرو وسأله بلهجته المفردة الشبيهة بلكنة أهالي لندن قائلاً: متى ستبدأ إجراء العملية. وبعد أن تناول وجبته الخاصة وتم تنظيف فمه، قام الدكتور آندرو ببعض الاشارات الاضافية وأمره بأن ينام لمدة أربع ساعات أخرى وأن يسترد عافيته بسرعة. وحافظ الدكتور آندرو على هذا النظام طوال أسبوع كامل. . فقسم اليوم إلى قسمين: ست عشرة ساعة من النوم، وثماني ساعات من اليقظة. ولم يعانِ الراجا من أي ألم تقريباً، ورغم الظروف المساعدة تماماً على إحداث العفن والتي أجريت العملية في ظلها، ورغم استمرار تغيير الضمادات وتجديدها، فقد التأمت الجراح دون احتياج لأي تطهير. . كان من الصعب أن يصدق الدكتور آندرو عينيه حينما كان يتذكر أنواع الفزع التي شاهدها في مستشفى ادنبره الشبيه بالجحيم، وأنواع الفزع التي شاهدها في عنابر الجراحة في مدينة «مدراس» ثم أتيحت له فرصة أخرى لكي يثبت لنفسه ما يمكن أن يقوم به التنويم المغناطيسي للاحياء. فقد كانت كبرى بنات الراجا في الشهر التاسع من حملها الأول. وأرسلت «الراني» إلى الدكتور آندرو تطلبه للمعاونة متأثرة بما فعله الطبيب لزوجها. . ووجدها الطبيب تجلس مع فتاة هشة مرتعبة في السادسة عشرة من عمرها، كانت تعرف ما يكفي من لهجة أهالي لندن بطريقة متكسرة لكي يمكنها من أن تقول له إنها توشك على الموت ـ هي وجنينها معها. لقد تأكدت لها هذه النبوءة من خلال طيور ثلاثة سوداء عبرت طريقها في ثلاثة أيام متتالية. ولم يحاول الدكتور آندرو أن يناقشها. وبدلاً من المناقشة، طلب منها أن ترقد في مكانها، ثم بدأ في صنع الاشارات واللمسات. وبعد عشرين دقيقة غرقت الفتاة في نوم عميق. ومضى الدكتور آندرو فأكد لها أن الطيور السوداء في «بلاده» كانت علامة على الحظ السعيد، علامة على الميلاد والفرح. وأنها ستحمل طفلها وسوف تضعه بسهولة ودون ألم. أجل، دون ألم يزيد على آلام والدها في اثناء إجراء الجراحة. ووعدها بأنه لن يكون هناك ألم على الاطلاق، لا ألم من أي نوع.

وبعد ثلاثة أيام، بعد ثلاث أو أربع ساعات أخرى من الايحاء الكثيف والعميق، تحقق كل ما قال به. فحينما استيقظ الراجا في المساء ليتناول وجبة عشائه، وجد زوجته تجلس إلى جانب فراشه، فقالت له: «لقد رزقنا بحفيد، وابنتنا بحالة طيبة. . وقد قال الدكتور آندرو أنك قد تكون قادراً في الغد على أن تُحمل إلى غرفتها لكي تمنحها سوياً بركاتك.» وفي نهاية ذلك الشهر، حلّ الراجا مجلس الوصاية الذي كان يشرف على الجزيرة واستأنف ممارسة سلطاته الملكية، استأنفها شاعراً بالامتنان للرجل الذي أنقذ حياته. وقد

اقتنعت الراني بهذا إلى جانب انقاذ حياة ابنته، واستأنفا أيضاً مع الدكتور آندرو باعتباره مستشاره الأول.»

ـ «وعلى ذلك فإنه لم يعد ثانية إلى مدراس؟»

ـ «إنه لم يعد إلى مدراس، بل إنه لم يعد حتى إلى لندن. لقد مكث هنا في بالا.»

ـ «لكي يحاول أن يغير لكنة الراجا؟»

ـ «يغيرها نحو أي شيء؟»

ـ «كان ذلك سؤالاً لم يكن بوسعه أن يجيب عليه. ففي تلك الايام الأولى لم تكن لديه خطة معينة، لم يكن لديه سوى مجموعة من الاشياء التي يحبها أو يكرهها.. كانت هناك بعض أشياء يحبها في بالا، وكثير جداً من الاشياء التي لم ترق له على الاطلاق. كانت لديه أشياء أبغضها في اوروبا، وهناك أشياء أخرى وافق عليها بحماس. أشياء رآها في رحلاته وسفراته بدت له طيبة وذات مغزى، وأشياء أخرى ملأته بالاشمئزاز. كان قد بدأ في فهم أن الناس هم من يستفيدون من ثقافاتهم وهم ضحاياها في نفس الوقت. إنها تدفعهم إلى الازدهار، ولكنها أيضاً تطرحهم في الطين الذي تغرسهم فيه أو تزرع سرطاناً خبيثاً في قلب البرعم الذي تنتشه في داخلهم.. ألا يكون من الممكن في هذه الجزيرة المحرمة أن يتجنب الناس السرطان الخبيث، وتقليل احتمال السقوط في الطين وإتاحة الفرصة للبراعم المتفرقة القليلة لكي تكون أكثر جمالاً؟ كانت تلك هي الاسئلة التي حاول الراجا والدكتور آندرو أن يعثرا على إجابة لها على وجل واستحياء متردد في البداية. ثم بادراك متزايد لما كانت هذه الاسئلة تهدف إليه في الحقيقة.»

ـ «وهل عثرا حقاً على الاجابة؟»

قال الدكتور ماك فيل: «إن المرء ليدهش لما حققه هذان الرجلان حينما يلقي بنظره إلى الماضي. إنهما الطبيب الاسكتلندي والملك البالاني، الكالفني المتحول إلى الالحاد مع البوذي الورع من اتباع «ماهايانا». فيالغرابة اجتماع هذا الزوج غير المتجانس! ولكنهما سرعان ما اصبحا اثنين تجمعهما صداقة راسخة، والأكثر من هذا أنهما كانا اثنين يتمتعان بمزاجين وموهبتين متكاملتين، وفلسفتين ومخزونين من المعرفة متكاملين، كل منهما يكمل ما في الآخر من جوانب النقص، وكل منهما يستثير ويدعم امكانيات الآخر الأصلية. كان الراجا صاحب عقل حاد ومكين، ولكنه لم يكن يعرف شيئاً عن العالم المترامي خارج جزيرته، لم يكن يعرف شيئاً عن العلم الفيزيقي، ولا شيء عن التكنولوجيا الاوروبية أو الفن الاوروبي أو الاساليب الأوروبية في التفكير. ولم يكن الدكتور آندرو يقل عنه ذكاء، ولكنه بالطبع لم يكن يعرف شيئاً عن فنون الرسم الهندية أو عن الشعر أو الفلسفة الهندية. ولم يكن أيضاً يعرف شيئاً، كما اكتشف بالتدريج، عن علم العقل الانساني ولا عن فن

ممارسة الحياة. وفي خلال الشهور التي تلت اجراء العملية الجراحية أصبح كل منهما تلميذاً للآخر واستاذاً له في وقت واحد. ولم يكن هذا بالطبع سوى البداية.. إنهما لم يكونا مجرد مواطنين شخصيين ويهتمان بتحسين تكوينهما الخاصين وحدهما. كان للراجا مليون من الرعايا وكان الدكتور آندرو بالفعل هو رئيس وزرائه. كان تحسين التكوين الخاص هو الباب المؤدي إلى تحسين التكوين العام. فإذا كان الملك والطبيب الآن يقوم كل منهما بتعليم الآخر لكي يمزجاه بين أفضل ما في العالمين: الشرقي والاوروبي، القديم والحديث ــ فقد كان ذلك من أجل أن يساعد الأمة كلها على تحقيق نفس الشيء.. لكي يمزجا بين أفضل ما في العالمين ــ ماذا أقول؟ كلا، كانا يريدان أن يمزجا بين أفضل ما في «كل» العوالم، العوالم التي تحققت بالفعل داخل إطار الثقافات المختلفة، ومن ورائها، العوالم التي كانت امكانيات غير متحققة. كان ذلك طموحاً هائلاً، كان طموحاً مستحيلاً على التحقق الكامل، ولكنه على الأقل كان طموحاً يملك القدرة على أن يلهمهما وأن يدفعهما إلى خوض الآفاق التي تخشى الملائكة أن ترتادها ــ واصلين بذلك إلى النتائج التي اثبتت أحياناً، لدهشة كل انسان، انهما لم يكونا أبلهين تماماً كما كان يبدو عليهما. إنهما لم ينجحا أبداً بالطبع في المزج بين أفضل ما في كل العوالم،ولكنهما بقوة المحاولة الجسور الشجاعة، مزجا بين أفضل ما في أكثر بكثير من العوالم التي كان يمكن لأي شخص دعي أو عاقل أن يحلم بأن يستطيع التوفيق أو الربط بينها».

قال ويل مقتبساً من كتاب «أمثال الجحيم»: «إذا أصر الأبله على بلاهته، فقد يصبح حكيمًا.»

قال الدكتور روبرت موافقاً: «بالضبط. وإن أكثر البلاهات إسرافاً لهي البلاهة التي وصفها الشاعر الانجليزي ويليام بليك، وهي البلاهة التي كان الراجا والدكتور آندرو يتأملانها في تلك اللحظة ــ البلاهة الهائلة التي تتكون من محاولة المزاوجة بين الجحيم والسماء. لكنك إذا صممت على تلك البلاهة الهائلة فلن تكون حدود لضخامة ما تحصل عليه في النهاية، مع التسليم بالطبع بأنك سوف تتمسك ببلاهتك ولكن بذكاء. فالاغبياء من البلهاء لايصلون إلى أي مكان، إذ ليس سوى البلهاء الماهرين العارفين بما يفعلون وما يريدون وهم مَنْ تحولهم بلاهتهم إلى حكماء أو تثمر لهم الثمار الطيبة. ولحسن الحظ كان هذان الأبلهان من البلهاء الماهرين الحاذقين. كانا ــ على سبيل المثال ــ يتمتعان بما يكفي من المهارة لكي يجعلهما يعتمدان على بلاهتهما بطريقة معتدلة ومقبولة. ولقد بدأ عملهما بالاهتمام بمخففات الآلام. فقد كان «البالانيون» مـن البوذيين. وكانوا يعرفون مقدار ما يجلبه العقل من البؤس. إن قلبك يتعلق بشيء ما فتروح تدأب للحصول على ما تعلقت به، وإذا بك تركز نفسك حول هذا الدأب ــ فتحيا في جحيم من صنع يديك. أما إذا تباعدت في غير اهتمام، فسوف تعيش في سلام. قال بوذا: «لسوف أطلعك على الحزن،

ولسوف أطلعك على نهاية الأحزان.» ولقد كان الدكتور آندرو هنا مزوداً بنوع خاص من التباعد العقلي القادر على أن يضع نهاية لنوع واحد على الاقل من الاحزان، وهو بالتحديد الألم الجسدي. وشرع بمعونة «الراجا» نفسه، أو مع النساء بمعونة «الراني» ومعونة ابنتها إذ يقومون بدور المترجمين، شرع الدكتور آندرو في إعطاء الدروس في فنه حديث الاكتشاف لجماعات من الزوجات والأطباء، ومن المدرسين والأمهات والمرضى. ثم جاء دور «الولادة دون ألم» ومن هنا وقفت كل نساء «بالا» بحماس إلى جانب المجددين. ثم العمليات الجراحية دون ألم لاستئصال حصاة الكلى أو المثانة أو إزالة غشاء الماء فوق حدقة العين أو لاستئصال «البواسير» ـ وقد حازت هذه العمليات موافقة كل العجائز وأصحاب الآلام المزمنة. في ضربة واحدة أصبح أكثر من نصف السكان البالغين من حلفاء المجددين. ورغم ما كانوا عليه من تحيز مدفوع بمصالحهم فيما يفضلونه، فقد كانوا ودودين تجاه التقدم، أو على الأقل متفتحي العقول تجاه الاصلاح التالي.»

سأل ويل: ولكن إلى أين يهربون من الألم؟»

ـ «إلى الزراعة واللغة. لقد أرسلوا رجلاً إلى انجلترا لكي يتعلم كيف يقيم محطة تجريبية زراعية شبيهة بمحطة «روث هامستيد» في المناطق الاستوائية، كما شرعوا في العمل من أجل أن يحصل البالانيون على لغة ثانية. ولقد قرروا أن تظل «بالا» جزيرة ومحرمة على الاجانب، وذلك لأن الدكتور آندرو وافق بحماس على رأي «الراجا» في أن الارساليات التبشيرية، والمزارعين والتجار، كانوا أكثر خطراً بكثير من أن يتسامح معهم أحد أو يسمح بدخولهم. ولكن بينما لايسمح للمخربين بالدخول إلى الجزيرة، فإنه لابد أن يلقى الاهالي بعض العون على الخروج منها، إن لم يكن بأجسادهم فبعقولهم. ولكن لغتهم وأبجديتهم التي تعتمد على نسخة ذات شكل مقوس من الابجدية البراهمانية، أقول إن لغتهم هذه كانت سجناً لانوافذ له. ولم يكن لهم من مهرب، ولا أمل في نظرة يلقونها على العالم الخارجي حتى يتعلموا الانجليزية ويتمكنوا من قراءة الكتابة بالاحرف اللاتينية. وكانت منجزات الراجا نفسه في مجال تعلم اللغة قد أصبحت «موضة» بين رجال البلاط بالفعل. كانت السيدات والسادة يرصعون كلامهم بشذرات من لهجة أهالي لندن، بل إن بعضهم كان قد أرسل إلى «سيلان» في طلب معلمين للغة الانجليزية. وتحول الآن ما كان «موضة» إلى سياسة ثابتة. لقد أقيمت المدارس الانجليزية وجاء الراجا بمجموعة من عمال الطباعة البنغاليين بمطابعهم وأطقم حروفهم المطبعية من طراز «كسلون» أو «بودوني»، جاء بهم من «كلكتا» وكان أول كتاب يطبع في «شيفا بورام» مختارات من «الف ليلة وليلة»، وكان الثاني هو الكتاب البوذي «سوترا الماسة» الذي لم يكن يمكن الحصول عليه حتى ذلك الحين إلا مخطوطاً باللغة السنسكريتية. وبذلك أصبح هناك سببان قويان لتعلم اللغة الانجليزية عند من يرغبون في القراءة عن «سندباد» عن «معروف

الاسكافي» أو عند من يهتمون بحكمة «الشاطىء الآخر». وكانت هذه هي بداية العملية التعليمية الطويلة التي حولتنا في النهاية إلى شعب يملك لغتين. إننا نتحدث البالانية حينما نطهو الطعام أو حين نحكي القصص المضحكة وحينما نتحدث عن الحب أو نمارسه. «وبالمناسبة، فإننا نملك أكبر قاموس جنسي وعاطفي في كل جنوب شرق آسيا». ولكن حينما يصل حديثنا إلى العمل أو العلم أو الفلسفة التأملية، فإننا نتكلم بالانجليزية بشكل عام. وأكثرنا يفضل أن يكتب الانجليزية. . إن كل كاتب يحتاج إلى «أدب» معين يصبح إطاراً مرجعياً لأفكاره وكلياته، يحتاج إلى نسق كامل من النماذج يتفق معه أو ينطلق منه. ولقد كان لبالالا تراث من فن الرسم والنحت الجيد، ومن الهندسة المعمارية الفاخرة والرقص الرائع والموسيقى الرصينة المعبرة ـ ولكن لم يكن هناك «أدب» حقيقي، لم يكن هناك شعراء أو كتاب دراميون أو قصاصون قوميون. لم يكن هناك سوى الشعراء المتجولين، «المغنواتية» ينشدون الاساطير البوذية والهندوكية، ولم يكن هناك سوى عدد كبير من الرهبان يلقون المواعظ وينشغلون بتقسيم الشعرة الوهمية. ولكننا بتبني اللغة الانجليزية بوصفها لغتنا الثانية الرئيسية، قد منحنا لانفسنا أدباً يتمتع بتاريخ من أطول تواريخ الأدب. . ويتمتع بانتشار يعد من أوسع ما انتشره أدب معاصر في الحاضر. لقد منحنا لانفسنا خلفية تاريخية. . وعصا روحية نتوكأ عليها، وتراثا من الأساليب والتكنيكات، ومصدراً لاينفد للإلهام. بكلمة واحدة، منحنا لانفسنا إمكانية أن نصبح مبدعين في مجال لم نكن فيه مبدعين على الاطلاق من قبل. وبفضل الراجا وجدي الاكبر، أصبح هناك أدب «أنجلو ـ بالانيزي»، وقد أضيف أن «سوسيلا» هذه إن هي إلا واحدة من نجومه الساطعين المعاصرين.»

وقالت سوسيلا محتجة: «ولكنها نجمة تقع في الجانب المعتم.»

اغمض الدكتور ماك فيل عينيه، مبتسمًا لنفسه، ويدأ ينشد:

«من حياة ضائعة إلى حياة تضيع،
أقدم أنا، بكف بوذا،
الزهرة التي لم يقتطفها أحد،
مفاجأة الضفدع لنفسه بين أوراق اللوتس،
الفم المبلل باللبن عند صدري الريان، وحبي،
ومثل السماء الصافية التي تذلل الجبال،
وتجعل القمر الغارب مما يمكن احتماله،
هذا الفراغ الذي هو رحم الحب،
هذا شعر الصمت».

وفتح عينيه مرة أخرى وقال: «ليس هناك فقط شعر الصمت هذا، وإنما يوجد أيضاً هذا العلم، وهذه الفلسفة، وهذا الاعتقاد في الصمت.. ولقد حان موعد نومك».

ونهض واقفاً وتحرك نحو الباب وقال: «سأذهب لآتي لك بكأس من عصير الفاكهة.»

الفصل التاسع

«الوطنية لاتكفي. ولكن لاشيء غيرها يكفي. العلم لايكفي، الدين لايكفي الفن لايكفي، السياسة والاقتصاد لايكفيان، ولا الحب، ولا الواجب، ولا الفعل العملي مهما كان من عدم تحيزه، ولا التأمل مهما كان من سموه وجلاله.. إن نقصان أي شيء منها لن يكون مفيداً.»

صاح طائر من بعيد: «انتباه» نظر ويل إلى ساعته. كانت الثانية عشرة إلا خمس دقائق. أغلق كتاب «حقيقة الحقيقة» والتقط العصا المصنوعة من الخيزران والمزودة بسن معدني مدبب لتسلق الجبال والتي كانت مملوكة ذات يوم لدوجالد ماك فيل. ومضى خارجاً لكي يلحق بموعده مع فيجايا والدكتور روبرت.. كان مبنى المحطة التجريبية، بالطريق المباشر، يقع على مسافة تقل عن ربع الميل من كوخ الدكتور روبرت. ولكن اليوم كان حاراً حرارة فظيعة، وكان عليه أن يعالج أمر صعود طابقين من الدرجات . وكانت هذه رحلة شاقة بالنسبة لناقه من المرض ما زالت ساقه اليمنى تلفها الضمادات لتجبر كسرها.

شق ويل طريقه ببطء وألم على طول الطريق كثير المنحنيات وصعوداً على الدرجات. وفي قمة الطابق الثاني توقف لكي يلتقط أنفاسه ولكي يمسح العرق عن جبهته، ثم مضى في طريقه، حريصاً على الالتصاق بالجدار المجاور حيث كان شريط من الظل ما يزال ممتداً متجهاً نحو بوابة كبيرة من الخشب فوقها لافتة كتب عليها «المعمل».

كان الباب تحت اللافتة موارباً، دفعه ففتحه فوجد نفسه على عتبة حجرة طويلة ذات سقف مرتفع. كانت هناك الأحواض المعتادة في كل المعامل الكيميائية إلى جوار موائد العمل، والدواليب الزجاجية الصغيرة المليئة بالزجاجات والمعدات، والروائح المعتادة التي تمتزج فيها المواد الكيميائية بفئران التجارب في اقفاصها. وفي اللحظة الأولى استقر في ذهن

ويل انطباع يوحي بخلو الحجرة، من أي انسان، ولكن كلا ها هو موروجان الفتى، جالساً إلى مائدة صغيرة، غارقاً في القراءة، يكاد يكون مختبئاً عن الانظار وراء صوان للكتب يمتد على طول الزاوية اليمنى من الجدار. تقدم ويل إلى داخل الحجرة بأقصى ما يمكنه من الهدوء لأن مفاجأة الناس كانت من الادوار الممتعة دائمًا بالنسبة له. وكان أزيز مروحة كهربائية يغطي صوت خطواته المقتربة فلم يشعر موروجان بوجوده قبل أن يصبح على بعد خطوات قليلة من صوان الكتب. جفل الصبي كمن يشعر بالاثم وأولج كتابه بتسرع هستيري داخل حقيبة صغيرة جلدية، ومدّ يده ليأخذ كتاباً أقل حجمًا كان قد وُضع مفتوحاً على المائدة إلى جوار الحقيبة الجلدية، فاجتذبه ليضعه قريباً من مجال القراءة لعينيه. وبعد ذلك فقط استدار لكي يواجه الدخيل الجديد.

منحه ويل ابتسامة واثقة مهدئة وقال: «ليس هناك سواي.»

اختفت نظرة التحدي الغاضب من على وجه الصبي لكي تحل محلها نظرة ارتياح عميق وقال: «ظننت أنه...» وقطع عبارته، تاركاً الجملة دون أن تكتمل.

ــ «ظننتني شخصاً قد يوبخك لعدم قيامك بعمل ما يفترض منك عمله ــ أليس كذلك».

ابتسم موروجان مكشراً عن انيابه وأومأ برأسه ذي الشعر المتموج.

سأل ويل: «أين الآخرون جميعاً؟»

ــ «إنهم في الحقول ــ يشذبون الاشجار أو يلقحونها، أو يفعلون شيئاً من هذا القبيل». قال هذا بلهجة يملؤها الاشمئزاز والنفور.

ــ «وهكذا، إذا غابت القطط، لعب الفأر بحماس وحرية. ما الذي كنت تدرسه بهذا الشغف؟»

وفي براءة كاذبة لا إخلاص فيها، رفع موروجان الكتاب الذي كان يتظاهر الآن بقراءته وقال: «عنوانه: مبادىء علم تبيوء الحيوانات وتكيفها مع بيئتها.»

قال ويل: «هكذا أرى. ولكنني كنت أسأل عما كنت تقرأه؟»

هز موروجان كتفيه وقال: «أوه، ذاك. إنه لن يثير اهتمامك.»

قال ويل مؤكداً: «إنني أهتم جداً بكل ما يحاول أي شخص أن يخفيه عن العيون، أكان كتاباً من الصور الداعرة؟»

تخلى موروجان عن لعبته التمثيلية وظهر عليه الغضب الحقيقي وقال: «من تظنني، وعلى أي صورة؟»

كان ويل على وشك أن يقول له أنه نظر إليه باعتباره صبياً عادياً ولكنه أمسك لسانه فإن عبارة «الصبي العادي» كانت ستصبح كالإهانة أو التعريض للصديق الشاب الكولونيل ديبا. وبدلاً من هذا انحنى في تأدّب ساخر وقال: «ألتمس عفو جلالتكم، ولكنني ما زلت أشعر بالفضول والرغبة في المعرفة» ثم أضاف بلهجة أخرى: «أتسمح لي؟» ثم وضع يده على الحقيبة المنتفخة.

تردد موروجان للحظة قصيرة، ثم اغتصب ضحكة عصبية وقال: «هيا، تفضل.»

ــ «يا له من مجلد ضخم» وجذب ويل المجلد الثقيل فأخرجه من الحقيبة ووضعه على المائدة وقرأ عنوانه بصوت مرتفع: «سيوز وروبك وشركاهما. كاتالوج الصيف والربيع».

قال موروجان كمن يعتذر: «إنه كاتالوج العام الماضي. ولكنني لا أظن أن هناك الكثير من التغيير منذ ذلك الحين.»

قال ويل مؤكداً: «خذ. إنك مخطىء. فإذا لم تتغير النماذج والاساليب تغيراً كلياً في كل عام، فلن يكون هناك سبب لشراء أشياء جديدة قبل أن تكون الاشياء القديمة قد استهلكت. إنك لا تفهم المبادىء الأولى للنظام الاستهلاكي» وفتح الكاتالوج عشوائياً وقرأ بصوت مرتفع: «الرقائق اللينة العريضة في الاحذية المجنحة» ثم فتح المجلد على صفحة أخرى في مكان آخر فوجد الوصف الكامل بالصور لحمالة الصدر القرمزية الشفافة المصنوعة من ألياف «الداكرون» الصناعية والقطن الطبيعي. وقلب الصفحة فوجد على ظهرها «تذكار السنوات الخالية» في صورة ما سوف ترتديه شادية حمالة الصدر بعد عشرين عاماً ــ رداء أمامياً تحيطه الشرائط وتشده مصمم بحيث يشد البطون والأرداف المترهلة.

قال موروجان: «لايبدو هذا مثيراً حقاً للاهتمام، حتى تصل إلى ما يقرب من نهاية الكتاب. إنه يضم ألفا وثلاثمائة وثمانية وخمسين صفحة.» ثم أضاف بانفعال شديد: «تصور. ألف وثلاثمائة وثمانية وخمسين صفحة».

قلب ويل السبعمائة والخمسين صفحة التالية.

قال : «آه هذا يبدو أكثر إثارة. وقرأ: «مسدساتنا الشهيرة وبنادقنا الاتوماتيكية من عيار ٢٢.» ثم هنا، وبعد صفحات قليلة كانت «القوارب المصنوعة من لدائن الفيبر ذات القاع الزجاجي» وهناك كانت «آلات القوارب ذات الدفع المرتفع» وهناك كانت «محركات القوارب المكشوفة من قوة ١٢ حصاناً» وثمنها لايزيد عن ٢٣٤ دولاراً وخمسة وتسعين سنتاً. بما في ذلك خزان الوقود. قال ويل: «هذا كرم غير عادي».

ولكن كان من الواضح أن موروجان لم يكن ملاحاً. فإنه إذ أخذ الكتاب، مضى

يقلب بصبر نافد مجموعة كبيرة من الصفحات وقال:

«انظر إلى هذه الدراجة البخارية ذات الاسلوب الايطالي» وبينما كان ويل ينظر، راح موروجان يقرأ بصوت مرتفع: «هذا الموتوسيكل السريع الصقيل يستهلك جالوناً واحداً من الوقود في كل ١١٠ أميال.» وأضاف: «تخيل». كان وجهه المتجهم في العادة يلمع الآن ويتوهج بالحماسة وقال: «وباستطاعتك أن تقطع ستين ميلاً بكل جالون من الوقود فوق هذه الدراجة البخارية ذات قوة الاربعة عشر حصاناً. وهناك ضمان تقدمه الشركة بأن تقطع خمسة وسبعين ميلاً في الساعة ــ سامع، ضمان من الشركة».

قال ويل: «هذا شيء يلفت الانظار» ثم أضاف متسائلاً في فضول: «هل جاءك هذا الكتاب العظيم عن طريق شخص ما في أمريكا؟»

هز موروجان رأسه وقال: «لقد أعطاه لي الكولونيل ديبا.»

ــ «كولونيل ديبا؟» يا لها هدية من نوع غريب يقدمها «هادريان» لغلامه «آنتينيوس». نظر ثانية إلى صورة الدراجة ذات المحرك ثم عاد ينظر إلى وجه موروجان المتوهج. الآن ظهرت الحقيقة، وكشف هدف الكولونيل عن نفسه. «الحية أغوتني وأنا أكلت.» كانت الشجرة القائمة في وسط الجنة تدعى «شجرة البضائع الاستهلاكية» وكان أقل قدر من مذاق فاكهتها، بل كان مجرد منظر أوراقها الألف والثمانمائة بالنسبة لسكان كل «جنة عدن» متخلفة وغير متطورة، يتمتع بالقدرة على تحقيق المعرفة المخجلة التي تجعلهم يشعرون بأنهم، من الناحية الصناعية، عراة متجردون كما ولدتهم أمهاتهم. كان «الراجا» المقبل لجزيرة «بالا» يُدفع دفعاً لكي يتحقق من أنه لا يزيد عن أن يكون مثل حاكم لا يرتدي «بنطلوناً» ويحكم قبيلة من المتوحشين.

قال ويل بصوت مرتفع: «ينبغي عليك أن تستورد مليوناً من النسخ من هذا الكتالوج فتوزعها ــ مجاناً بالطبع مثل مانعات الحمل ــ على رعاياك.»

ــ «لماذا؟»

ــ «لكي تفتح شهيتهم فيتوقون إلى امتلاك الاشياء. وحينئذ سوف يشرعون في المطالبة الصاخبة المدمرة بالتقدم ــ آبار التبرول، والتسلح، وجو الدهايد، والمهندسين السوفييت.»

قطب موروجان جبينه ثم هز رأسه وقال: «لن يؤدي هذا إلى نتيجة.»

ــ «أتعني أنهم لن يقعوا في الغواية؟ حتى ولا عن طريق الموتوسيكلات السريعة المصقولة ولا حمالات الصدر القرمزية الشفافة؟ لايمكن أن أصدق هذا».

قال موروجان بمرارة: «قد لايكون هذا مما يمكن تصديقه. ولكنه حقيقة. إنهم لايهتمون بهذه الاشياء.. فقط لايهتمون.»

ـ «يمكنني أن أقول: والشبان بوجه خاص.»

أشرع ويل فارنابي أذنيه. كانت قلة الاهتمام هذه مثيرة جداً للاهتمام. سأله:
ـ «أيمكنك أن تخمن السبب؟».

أجاب الصبي: «أنا لا أخمن.. إنما أنا أعرف». وكأنما قد قرر فجأة أن يقدم استعراضاً مسرحياً يقلد فيه والدته، فبدأ يتحدث بلهجة مليئة بنقمة متكبرة كانت متناقضة إلى درجة سخيفة مع عمره ومظهره. بدأ كلامه قائلاً:

ـ «أبدأ فأقول إنهم مشغولون تماماً بـ....». تردد قليلاً، ثم خرجت الكلمة البغيضة من بين شفتيه كالفحيح المختلط بالاشمئزاز المؤكد.. «بالجنس».

ـ «ولكن الناس كلهم مشغولون بالجنس. وهذا هو ما يمنعهم في نظرك من التلهف على الموتوسيكلات السريعة القوية..»

قال موروجان بإصرار: «الجنس هنا مختلف».

سأل ويل، وهو يتذكر وجه الممرضة الصغيرة المتفجر بالشهوة: «بسبب «يوجا» الحب؟»

أومأ الصبي برأسه وقال: «إن لديهم شيئا يجعلهم يظنون أنهم سعداء سعادة كاملة، وانهم لايرغبون في أي شيء آخر.»

ـ «يا لها من دولة مباركة قانعة».

قال موروجان بسرعة غاضبة: «ليس في هذا الشيء من البركة ولا القناعة. أليس هذا سوى شيء غبي مثير للاشمئزاز. ليس هنا تقدم، وإنما الجنس وحده، الجنس، الجنس. وهناك بالطبع هذا العقار الوحشي الذي يعطونه جميعاً.»

ـ «عقار؟» ردد ويل الكلمة بشيء من الدهشة. عقار في مكان تقول عنه سوسيلا أنه يخلو تماماً من العقاقير المخدرة؟ أضاف يقول: «عقار من أي نوع؟»

ـ «إنه يستخرج من أحد أنواع الفطر. «الفطر». كان يتكلم بلهجة تكاد تكون صورة كاريكاتيرية مضحكة من أكثر نغمات لهجة الراني روحانية ناقمة مجللة بالغضب.

ـ «تلك الثمرات الحمراء اللطيفة من الفطر التي يجلس فوقها القزم حارس الكنوز في الحواديت عادة؟»

ـ «كلا . هذه ثمرات صفراء. وقد اعتاد الناس أن يخرجوا لكي يجمعوها من الجبال. أما في هذه الايام فإنها تزرع في أحواض خاصة بالفطريات في المحطة التجريبية للمناطق المرتفعة عن سطح البحر. إنه عقار يستزرع بطريقة علمية ـ شيء طريف، أليس كذلك؟»

صفق باب وسمعت أصوات أشخاص يتكلمون، وأصوات خطوات الأقدام تقترب على طول الممر. وفجأة حلقت روح «الراني» الساخطة، فتحول موروجان مرة أخرى إلى تلميذ المدرسة الذي يوجعه ويخزه ضميره والذي يحاول جاهداً أن يخفي جوانب إهماله وتقصيره. في مثل لمح البصر، حل كتاب المناهج الأولية لعلم التكيف مع البيئة «محل كتالوج معارض «سيرز روباك» التي تضم كل أصناف البضائع واختفت الحقيبة المتنفخة المثيرة للشكوك تحت المنضدة. وبعد لحظة دخل «فيجايا» بخطى واسعة إلى الحجرة عاري الصدر حتى الوسط لامع الجسم كالبرونز المطلي بالزيت بسبب عرق العمل تحت لفح شمس الظهيرة. ومن ورائه جاء الدكتور روبرت. رفع موروجان عينيه عن كتابه بطريقة التلميذ النموذجي الذي قاطعه في وسط قراءته المتطفلون القادمون من العالم الخارجي الصاخب. . وشعر ويل بفكاهة الموقف، فألقى بنفسه على الفور بحرارة في غمار الدور الذي وكل إليه.

قال مجيباً على اعتذارات فيجايا بسبب تأخرهم عن الموعد: «كنت أنا الذي جئت مبكراً جداً. وكان من نتيجة هذا أن أصبح صديقنا الشاب هذا عاجزاً عن متابعة قراءته لدروسه. فقد كنا نفرغ كل ما في رأسينا من كلام.»

سأل الدكتور روبرت: «وماذا كان الموضوع؟»

«كل شيء. الكرنب والملوك والسيارات وبطون الحشرات المتدلية. وحينما دخلتما، كنا قد بدأنا نتكلم عن نباتات الفطر السامة. كان موروجان يحدثني عن الفطر الذي يستخدم هنا كمصدر للعقاقير.»

قال الدكتور روبرت ضاحكاً: «ماذا كان الموضوع بكلمة واحدة؟»

الإجابة: «كل شيء بشكل عملي. إن موروجان، وقد نشأ في اوروبا لسوء حظه، يسمي هذا الفطر عقاراً ويشعر ازاءه بكل أنواع الرفض التي تثيرها الكلمات القذرة من خلال الفعل المنعكس الشرطي. أما نحن، فعلى العكس، نعطي المادة، أسماء طيبة ـ اننا نسميها «دواء الموكشا»[27] كاشف الحقيقة، حبة الجمال والحق. ونحن نعرف من خلال

(٢٧) أخذ هكسلي كلمة «موكشا» السنسكريتية التي تعني «الراحة» أو «التحرر» التي تعبر عن مرحلة من مراحل اليوجا في البوذية، ومن مراحل الوصول إلى النيرفانا في تانترا، عن طريق تحقيق الأهداف =

تجاربنا المباشرة، أن الاسماء الطيبة تؤتي نتائج طيبة. بينما لايملك صديقنا الشاب هذا أية معرفة أولية بهذه المادة ولا يمكن إقناعه حتى بأن يمنحها فرصة تجربتها إنها عقار بالنسبة له، والعقار شيء – على سبيل التحديد – لايصح للشخص المهذب أن يتعاطاه».

سأل ويل: «ماذا يقول صاحب السمو في ذلك؟»

هز موروجان رأسه وقال متمتمًا: «كل ما تمنحك أياه هو كمية كبيرة من الاوهام فلماذا أخرج من طريقي لكي أترك الناس يجعلون مني أبلهاً فاقد الوعي؟»

قال فيجايا في سخرية تنمّ عن تفكه حسن النية: «طبعاً، لماذا حقاً؟ لماذا وأنت في حالتك الطبيعية ترى أنك أنت وحدك بين كل أبناء الجنس البشري الذي لايمكن أن يكون أبلهاً فاقد الوعي وليست لديه أوهام عن أي شيء.»

قال موروجان محتجاً: «أنا لم أقل ذلك أبداً. كل ما عنيته هو أنني لا أريد شيئاً من سعادتكم الزائفة»، وقد لفظ كلمة «سعادة» بالمندية.

تساءل الدكتور روبرت: «وكيف تعرف أنها زائفة؟»

– «لأن الشيء الحقيقي لايتحقق للناس إلا بعد سنوات وسنوات من التأمل و«التبتل» وهذه الكلمة نطقها بالمندية أيضاً «وال... الـ» أنت تعرف، وعدم الذهاب مع النساء.»

قال فيجايا موضحاً لويل: «إن موروجان واحد من الطهريين المتزمتين.إن غضبه يثور لأن من يحمل في دمائه أربعمائة ملليجرام من دواء الموكشا حتى ولو كان مبتدئاً،أجل وحتى الفتية والفتيات الذين يمارسون الحب سوياً – يصبح بوسعه أن يحصل على لمحة خاطفة للعالم بالصورة التي يبدو بها لمن تحرر من قيود الذات الضيقة».

قال موروجان بإصرار:«ولكنها لمحة غير صادقة ولا حقيقية».

ردد الدكتور روبرت متعجباً: «ليست صادقة ولا حقيقية.يمكنك أيضاً أن تقول إن خبرة الاحساس هي الاخرى ليست صادقة وليست حقيقية بنفس الدرجة.»

قال ويل معترضاً: «إنك تفترض مسبقاً إجابة السؤال. إن خبرة الممارسة يمكن أن تصبح حقيقية في علاقتها بشيء ينفذ إلى داخل جمجمتك، ولكنها لا علاقة لها بتاتاً بأي شيء خارج هذه الجمجمة.»

قال الدكتور روبرت موافقاً: «بالطبع».

= الأربعة العظمى، الوحدة والتكامل والامتزاج والوعي التي تؤدي كل منها إلى الأخرى في دائرة مغلقة. زيمر ص ٤٧٥، ٥٢٣ وغيرها.

ــ «فهل تعرف ما يجري داخل جمجمتك حينما تتعاطى جرعة من خلاصة هذا الفطر؟»

ــ «إننا نعرف القليل عن هذا.»

وأضاف فيجايا: «ونحن نحاول باستمرار أن نكتشف المزيد.»

قال الدكتور روبرت: «لقد اكتشفنا على سبيل المثال أن الناس الذين لاتظهر على لوحة تسجيل النشاط الكهربائي لأدمغتهم أية آثار لنشاط موجات «الفا» حينما يكونون في حالة استرخاء، لايتوقع منهم أن يستجيبوا استجابة ذات قيمة لدواء «الموكشا» وهذا يعني أننا لابد أن نعثر على وسائل أخرى لتحرير ما يقرب من خمسة عشر بالمائة من عدد السكان.»

قال فيجايا: «هناك شيء آخر بدأنا نفهمه منذ قليل، وهو النتائج العصابية الملازمة لتلك التجارب أو المرتبطة بها. ما الذي يحدث داخل الدماغ حينما تتجلى لك رؤ يا؟ وما الذي يحدث حينما تعبر من الحالة السابقة على الوجد إلى الحالة التي يمارس فيها عقلك الوجد الحقيقي؟».

سأل ويل: «وهل تعرف أنت ذلك؟».

ــ «أن «أعرف» كلمة كبيرة. اسمح لي بأن أقول إننا في الوضع الذي يسمح لنا بأن نضع بعض التخمينات المقبولة. إن الرؤى التي تتجلى فيها الملائكة وأرض الميعاد الجديدة وصور العذراء والبوذا المنتظر ــ كلها مرتبطة بنوع ما من الاستثارة غير العادية لمناطق التصور أو التجسيد الأولى في الدماغ، أو للعصب البصري على سبيل المثال. ولكننا فحسب لم نكتشف بعد كيف ينتج دواء «الموكشا» تلك الاستنشارة غير العادية. ولكن الحقيقة الهامة هي أن هذا الدواء ينتج هذه الاستثارة بشكل أو بآخر. وبشكل أو بآخر أيضاً فإنه يؤثر تأثيراً غير عادي من نوع ما في المناطق الساكنة من الدماغ وهي المناطق غير المتعلقة بشكل خاص بعمليات الادراك أو التحرك أو الإحساس؟»

تساءل ويل: «وكيف تستجيب هذه المناطق الساكنة؟»

ــ «اسمح لي بأن نبدأ بالحديث عما «لا» تأتي استجابتها في صورته. إنها لاتستجيب في شكل الرؤى البصرية أو السمعية. كما أن استجابتها لاتأتي في شكل التليباتي أو التواصل الروحي عبر المسافات البعيدة، ولا في شكل استبصار الاشياء الغائبة ولا في شكل أي نوع آخر من أنواع الاستعراضات التي لاتدخل في إطار إدراكنا للنفس البشرية لا شيء هناك من ذلك الهراء المسلي السابق على التفكير الصوفي. إن استجابتها هي التجربة الصوفية في كامل ازدهارها. إنك تعرف ما أعنيه: الواحد في الكل والكل في الواحد. هي التجربة الاساسية بكل ما يرتبط بها ويتواجد معها، الامتلاء بالمعنى والحنان الذي لاحد له، والغموض الذي يشبه غموض الاشباح.»

قال الدكتور روبرت: «ولا داعي لذكر الفرح، الفرح والبهجة اللذين لايمكن وصفهما.»

قال ويل: «ثم تسلل الجماعة كلها إلى داخل جمجمتك، تصبح خاصة بها بشكل صارم. ثم لا إشارة إلى أية حقيقة خارجية باستثناء ثمرة من ثمار الفطر.»

صرخ موروجان متدخلاً في المناقشة: «إنها صورة للجماعة غير حقيقية وغير صادقة هذا هو بالتحديد ما كنت أحاول أن أقول».

قال الدكتور روبرت: «إنك تزعم أن الدماغ «ينتج» الوعي. وأنا أزعم أنه يعكس الوعي. إن تفسيري لا يزيد تكلفاً أو بعداً عن الاحتمال أكثر من تفسيرك. كيف يمكن على أي وجه لمجموعة من الاحداث التي تخضع لقانون معين أن يتمرس بها الدماغ ويعانيها على أساس أنها تخضع لقانون مختلف كل الاختلاف وغير قابل للقياس على الاطلاق؟ ليس هناك من يملك أقل فكرة عن ذلك. كل ما يستطيع المرء أن يفعله هو أن يتقبل الحقائق وأن يلفق الافتراضات. وأن كل افتراض منها يتماثل في قوته وتماسكه مع الافتراض الآخر من الناحية الفلسفية. إنك تقول بأن دواء «الموكشا» يؤثر بشكل ما في المناطق الساكنة من الدماغ الامر الذي يدفع هذه المناطق إلى انتاج مجموعة من الاحداث الذاتية التي أطلق عليها الناس اسم «التجربة الصوفية». أما أنا فأقول أن دواء «الموكشا» يؤثر بشكل ما في المناطق الساكنة من الدماغ الامر الذي يؤدي إلى فتح بعض الصمامات العصبية مما يسمح لقدر أضخم من العقل «العقل بمعناه المطلق» بأن ينساب إلى داخل عقلك أنت. إنك لا تستطيع أن تثبت أو تظهر للانظار صدق فرضيتك، وأنا لا أستطيع كذلك أن أُظهر للأنظار صدق فرضيتي. وحتى إذا كان بوسعك أن تثبت أنني على خطأ، فهل يؤدي ذلك إلى أي اختلاف أو فارق عملي؟».

قال ويل: «إنني جدير بأن أظن أن هذا سوف يؤدي إلى كل الفروق والاختلافات الممكنة؟»

سأله روبرت: «هل تحب الموسيقى؟»

ـ «أحبها أكثر من غالبية الأشياء الأخرى.»

ـ «إذن، وإذا كان لي أن أسأل.. فما الذي تشير إليه خماسية «موزار» من مقام «ج» الصغير؟ هل تشير إلى الله؟ إ إلى المعبود الصيني طاو؟ أم إلى الاقنوم الثاني في الثالوث المقدس؟ أم إلى المعبود الهندي اتمان براهمان؟».

ضحك ويل وقال: «أرجو ألا يكون مقصده أياً منها.»

ـ «ولكن هذا لايعني التقليل من ثمرة الاستمتاع بالخماسية من مقام «ج» الصغير

حسناً، هذا هو نفس نوع التجربة التي تدخلها حينما تتعاطى دواء «الموكشا»، أو حينما تؤدي الصلاة وتصوم وتمارس التمارين الروحية. وحتى إذا لم يكن شيء من ذلك يؤدي إلى شيء آخر خارجه، فسوف يظل هو أكثر ما يحدث لك أهمية. تماماً مثل الموسيقى، ولا يمكن مقارنته بأكثر من هذا. فلو أنك أعطيت فرصة لهذه التجربة، إذا كنت متهيئاً لأن تمضي في صحبتها، فسوف تكون النتائج أكثر شفاء وقدرة على التسامي إلى درجة لايمكن أن تقارن. وهكذا يمكن أن يحدث في جمجمة المرء كل ما يتخيله. وربما كان هذا أمراً خاصاً، وليست هناك معرفة موحدة، عن أي شيء باستثناء الوظائف الحيوية للاعضاء الخاصة بالمرء نفسه. من يهتم بذلك؟ إن الحقيقة تظل هي أن بوسع تلك التجربة أن تفتح للانسان عينيه وأن تباركه، وأن تسمو بحياته كلها.»

أطبق صمت طويل، ثم استأنف الطبيب كلامه ملتفتاً إلى موروجان: «اسمح لي بأن أقول لك شيئاً، سوف أقول لك شيئاً لم يكن في نيتي أن أتحدث فيه مع أي انسان. ولكنني أشعر الآن بأنه ربما كان عليّ واجب ما، واجب ازاء العرش، واجب ازاء «بالا» وشعبها ـ إنه التزام بأن أخبرك بأمر هذه التجربة الخاصة جداً. وربما كان في إخباري إياك عنها مساعدة لك في أن تكون أكثر فهمًا ـ بقليل ـ لشؤون بلادك وأساليبها.»

سكت الطبيب للحظة، ثم مضى يقول، في لهجة هادئة أشبه بلهجة من يقرر حقيقة شائعة معروفة: «أظن أنك تعرف زوجتي».

أومأ موروجان برأسه بينما ظل وجهه مكفهراً، وغمغم قائلاً:

ـ «لقد شعرت بالاسف حين سمعت أنها مريضة جداً».

قال الدكتور روبرت: «إنها الآن مسألة أيام قليلة. أربعة أو خمسة أيام على الأكثر. ولكنها ما زالت كاملة اليقظة، كاملة الوعي بما يدور حولها. سألتني بالأمس إذا كان بوسعنا أن نتناول دواء «الموشكا» سوياً». وأضاف بطريقة اعتراضية: «لقد تناولناه سوياً مرة أو مرتين في كل سنة، طوال السنوات السبع والثلاثين الاخيرة ـ منذ أن قررنا الزواج. وكانت الآن تطلب أن نتناوله سوياً مرة أخرى، للمرة الاخيرة، آخر مرة. كان هذا يتضمن نوعاً من المخاطرة، بسبب ما أصاب كبدها من تلف. ولكننا قررنا أن المخاطرة تستحق القيام بها. وقد كنا على حق، كما تبين لنا فيما بعد. إن دواء «الموكشا»، أو العقار كما تفضل أنت أن تدعوه، لم يضرها على الاطلاق. كان كل ما حدث لها هو التسامي والانفتاح العقلي».

سكت، وفجأة عرف ويل كيف تدور الفئران السجينة في المصيدة حول نفسها وكيف تتملكها الحيرة في حركتها العمياء وأحسّ من خلال النافذة المفتوحة بزخم الحياة

الاستوائية وسمع نداء بعيداً صادراً من أحد «طيور المايناه». كان الطائر يقول «هنا والآن يا أولاد. هنا والآن يا أولاد. هنا والآن..»

أخيراً قال الدكتور روبرت: «إنك مثل هذا الطائر من طيور المايناه. دُربت على أن تردد كلمات لا تفهمها ولا تعرف سبب ترديدها: «هذا شيء غير حقيقي وغير صادق. غير حقيقي وغير صادق». ولكنك إذا خبرت بنفسك ما جربناه أنا ولاكشمي بالأمس لتحسنت معرفتك، وإذن لعرفت أنه شيء أكثر حقيقة وصدقاً مما تدعوه أنت بالحقيقة الواقعية.. أكثر حقيقة وصدقاً عما تفكر فيه أنت الآن وتحس به في هذه اللحظة. أكثر حقيقة وصدقا من العالم الماثل أمام عينيك. ولكنه ليس حقيقياً ولا صادقاً بالطريقة التي تعلمت أن تقولها. «ليس حقيقياً». ووضع الدكتور روبرت يده بحنان على كتف الصبي، واستمر يقول: «لقد قيل لك أننا لسنا سوى مجموعة من المدمنين على تعاطي المخدرات، غارقين إلى ذقوننا في الاوهام وفي التصورات الزائفة التي تدعوها «سامادهي».

اسمع يا موروجان، انس كل الكلمات الرديئة التي حُقنت بها. انسَها على الأقل حتى اللحظة التي تقوم فيها بتجربة واحدة. تناول أربعمائة ملليجرام من «الموكشا» واكتشف بنفسك ما يفعله هذا الدواء، وما يمكن أن يقوله لك عن طبيعتك الخاصة، وعن هذا العالم الغريب الذي كان عليك أن تعيش فيه، وأن تتعلم فيه، وأن تتعذب داخله وان تموت فيه في النهاية. أجل، حتى إذا كان لابد لك أن تموت ذات يوم، ربما بعد خمسين سنة من هذه اللحظة، وربما غداً مَنْ يعرف؟ ولكن هذا سوف يحدث، وأن المرء لَيكون غبياً إذا لم يعدّ نفسه لهذا الحدث».

والتفت إلى ويل وقال: «أتحب أن تأتي معنا بينما نستحم تحت «الدش» ونرتدي ثياباً نظيفة.»

ودون أن ينتظر جواباً، سار فخرج من الباب المؤدي إلى الدهليز الرئيسي في المبنى الطويل. تناول ويل عصاه المصنوعة من الخيزران، وتبع الدكتور روبرت، بصحبة فيجايا، خارجين من الغرفة.

سأل فيجايا بعد أن أغلق الباب من ورائهما: «أتعتقد أن هذا الكلام قد ترك أي تأثير على موروجان؟»

هز فيجايا كتفيه وقال: «أشك في هذا».

قال ويل: «من المحتمل أن يكون غير قابل للتأثر بأي شيء يمكنكم أن تقولوه وخاصة تحت تأثير والدته واشتهائه العنيف للآلات ذات الاحتراق الداخلي. كان ينبغي أن تسمعه وهو يتحدث في موضوع الدراجات الآلية السريعة.»

قال الدكتور روبرت: «لقد سمعناه مراراً.» «وكان قد توقف أمام باب أزرق اللون ينتظرهم حتى يلحقوا به»، ثم أضاف يقول: «حينما يبلغ السن القانونية لاعتلاء عرشه، ستكون الدراجات الآلية السريعة إحدى القضايا السياسية العظمى.»

ضحك فيجايا وقال: «أن تركب الدراجة الآلية، أو لا تركب الدراجة الآلية.. هذه هي المسألة.»

أضاف الدكتور روبرت: «ولن يكون هذا هو السؤال في «بالا» وحدها. إنما هو السؤال الذي سيكون على كل بلد متخلف أن يجيب عليه بطريقة أو بأخرى.»

قال ويل: «والجواب هو نفس الجواب على الدوام. فحيثما ذهبت ــ ولقد ذهبت إلى كل مكان تقريباً ــ وجدت الناس قد كرسوا أنفسهم بكل قلوبهم لركوب الدراجات الآلية.. جميعهم.»

قال فيجايا موافقاً: «دون استثناء. ركوب الدراجات الآلية، من أجل ركوب الدراجات الآلية، وإلى الجحيم بكل اعتبارات التحقق والمعرفة بالذات، والتحرر. ولا داعي لذكر الصحة العامة، أو الحقائق الشعبية أو السعادة.»

قال الدكتور روبرت: «بينما نحن قد اخترنا دائماً أن نكيّف اقتصادنا وتكنولوجيتنا طبقاً للاحتياجات الانسانية لا أن نكيف كائناتنا الانسانية طبقاً لاقتصاديات وتكنولوجية بلد آخر واحتياجاته.

إننا نستورد ما لا نستطيع أن نصنعه، ولكننا لانصنع ولا نستورد إلا ما نحن بحاجة إليه وما نستطيع أن نسدد ثمنه أو ننتج ما يحتاج صنعه.وأن ما نستطيع أن نسدد ثمنه لا يتحدد فقط بمواردنا من الجنيهات الاسترلينية أو الماركات الالمانية أو الدولارات الامريكية ولكنه يتحدد أيضاً وبشكل أساسي، (ردد الكلمة الأخيرة بإصرار واضح) برغبتنا في أن نكون سعداء، وبطموحنا إلى أن نكون بشراً كاملين.لقد قررنا بعد أن أمعنا النظر بعناية في الأمر، أن الدراجات الآلية السريعة من الاشياء، ومن الاشياء الكثيرة جداً، التي لانستطيع ببساطة أن ننتجها ولا أن نستوردها. وهذا الشيء سيكون على موروجان الصغير أن يتعلمه سائراً على الطريق الصعب ــ طالما أنه لم يتعلم، ولا يريد أن يتعلم، السير على الطريق السهل.»

سأل ويل: «وما هو الطريق السهل؟»

ــ «التعليم وكاشفات الحقيقة. وموروجان لايملك أياً منهما، أو بالأحرى، إنه يملك نقيض كل منهما. لقد نال تعليماً سيئاً في أوروبا ــ المربيات السويسريات، والمعلمون الانجليز، والأفلام الامريكية، والاعلانات التي يصدرها كل الناس.ولقد كشفت الحقيقة

أمام ناظريه بفضل غمامة الروحانية التي وضعتها أمه على عينيه. ولذلك فلا عجب أنه يتلهف على الدراجات الآلية.»

— «ولكنني أعتقد أن رعاياه لايتلهفون عليها.»

— «ولماذا يتهلفون عليها؟ لقد تعلموا منذ الطفولة كيف يكونون مدركين للعالم ادراكاً كاملاً، وكيف يستمتعون بإدراكهم وعلى قمة هذا التعليم، فقد اطلعوا على العالم وعلى أنفسهم وعلى الآخرين تحت الضوء الذي تعكسه على هذه الاشياء كاشفات الحقيقة. الأمر الذي يساعدهم بالطبع على أن يحصلوا على إدراك أكثر عمقاً وعلى استمتاع مشبع بالفهم أكثر اتساعاً، حتى تتبدى أمام أنظارهم أكثر الاشياء عادية وأكثر الاحداث تفاهة، كما لو كانت جواهر ثمينة أو معجزات خارقة.» ثم ردد بتأكيد: «جواهر ثمينة أو معجزات خارقة. إذن فلماذا ينبغي لنا أن نلجأ إلى الدراجات الآلية أو الويسكي أو التلفزيون أو أغاني بيللي جراهام أو إلى أي شيء آخر من الأشياء التي تلجأون لها أنتم لكي تعو، كم ما تفقدونه ولكي تصرف انتباهكم عما تخسرون.»

قال ويل مقتبساً من كتاب «حقيقة الحقيقة»: «لن يفيدكم حقاً نقصان شيء من كل شيء. إنني أدرك الآن ما كان «الراجا القديم» يتكلم عنه. إنك لاتستطيع أن تكو ن اقتصادياً جيداً ما لم تكن سيكولوجياً جيداً أيضاً. أو إنه لايمكنك أن تكون مهندساً جي اً ما لم تكن أيضاً دارساً لعالم ما وراء الطبيعة من نوع جيد.»

قال الدكتور روبرت: «وإياك أن تنسى كل العلوم الاخرى: علم الصيدلة، وعلم الاجتماع، وعلم وظائف الاعضاء، ولا داعي لذكر علم تحليل المفردات البحث والتطبيقي وعلم وظائف الاعصاب وعلم كيمياء المعادن، وعلم التصوف المحدود، والعلم المطلق اللانهائي». ثم أضاف وهو ينصرف بنظره بعيداً لكي يصبح أكثر وحدة مع أفكاره عن «لاكشمي» الراقدة في المستشفى: «العلم الذي سوف نخضع بموجبه للفحص عاجلاً أو آجلاً — علم المقارنة، والقياس إلى الآخرين.» سكت للحظة، ثم قال بلهجة مختلفة: «حسناً، فلنذهب لنغتسل.» وفتح الباب الازرق وقادهم إلى داخل غرفة طويلة لتبديل الملابس يقوم في نهايتها صف من «الادشاش» واحواض الاغتسال، وعند نهايتها المقابلة في الجدار الآخر مجموعات من المشاجب والمناشف.

اتخذ ويل مقعداً فجلس عليه، وبينما راح زملاؤه يغسلون أجسامهم على الأحواض استمر في الحديث الذي كانوا مشغولين به. قال:

— «أيمكن أن يُسمح لأجنبي سيىء التعليم بأن يجرب قرصاً من أقراص الحقيقة والجمال؟»

وكان الجواب سؤالاً ثانيا. قال الدكتور روبرت متسائلاً: «هل كبدك في حالة جيدة؟»

ـ «ممتازة»

ـ «وأنت لا يبدو عليك أنك تعاني من انفصام الشخصية إلى درجة تزيد على الدرجة العادية. ولذلك فإنني لا أستطيع أن أرى أي مبرر لكي أنصحك نصيحة مضادة.»

ـ «إذن فهل يمكنني أن أقوم بالتجربة؟»

ـ «حينما تشاء».

خطا الدكتور روبرت خطوة واحدة فدخل وارء حاجز «الدش» واستدار لكي يقف تحت الماء. وفعل فيجايا نفس الشيء.

حينما خرج الرجلان من تحت الماء سأل ويل:

ـ «أليس المفترض فيكما أنكما من المثقفين؟»

أجاب فيجايا: «نحن نقوم بعمل ذهني.»

ـ «إذن فلماذا كل هذا الكدح اليدوي المرعب الذي تقومان به بإخلاص؟»

ـ «لسبب بسيط جداً: فقد كان لدي هذا الصباح بعض الوقت الخالي.»

قال الدكتور روبرت: «وكذلك أنا.»

ـ «وهكذا فقد خرجتما إلى الحقول وقمتما بعمل شبيه بأعمال تولستوي.»

ضحك فيجايا وقال: «يبدو أنك تتخيل أننا نقوم بهذا العمل لأسباب اخلاقية.»

ـ «أليست هذه هي الأسباب الحقيقية؟»

ـ «كلا بالتأكيد. إنني أقوم بعمل عضلي لأنني أمتلك بعض العضلات. فإذا لم أستخدم عضلاتي فسوف أصبح مدمناً على الجلوس سيىء المزاج».

قال الدكتور روبرت: «ودون أن يكون هناك شيء فيما بين الجلد وعظمتي الاليتين. أو بالأحرى، مع وجود كل شيء فيما بينهما في حالة من اللاوعي الكامل والتجمد القاتل. جميع المثقفين الغربيين مدمنون على الجلوس. وهذا هو السبب في أن أكثركم مجزأون، غير متكاملين إلى درجة كريهة. في الماضي، كان حتى على من يحمل لقب «دوق» أن يسير قليلاً على قدميه، كذلك كان المرابي والفيلسوف الميتافيزيقي. وحينما لم يكن عليهم أن يستخدموا سيقانهم فإنهم كانوا يهتزون بعنف فوق صهوات الخيول. أما الآن فإنكم تنفقون تسعة

أعشار وقت يقظتكم جالسين فوق الحشايا المصنوعة من رغوة المطاط يتساوى في ذلك رب العمل المليونير وعاملة الآلة الكاتبة التي تعمل لديه، والفيلسوف المنطقي الوضعي والمفكر الوضعي.

المقاعد اللينة المنتفخة للمؤخرات اللينة المنتفخة ـ في البيت والمكتب، في السيارات والبـارات، وفي الطائرات والقطارات والسيارات العامة. ليس هناك تحريك للسيقان، لا صراع ضد المسافة والجاذبية ـ ليس هناك سوى المصاعد والطائرات والسيارات ليس هناك سوى رغوة المطاط والجلوس الأبدي. إن قوة الحياة التي اعتادت أن تجد لها متنفساً من خلال العضلات المتألمة قد تحولت لكي تنقضّ على الأمعاء والجهاز العصبي لكي تدمرها بطيئاً.»

ـ «وهكذا فإنكم تتحملون عذاب الحفر و«العزق» كنوع من العلاج؟»

ـ «كلا، كنوع من الوقاية، لكيلا يصبح العلاج ضرورياً. ففي «بالا» ينبغي حتى على كل استاذ، أو موظف حكومي بشكل عام أن يقوم بالحفر و«العزق» لمدة ساعتين كل يوم.»

ـ «كجزء من واجباته؟»

ـ «وأيضاً كجزء من متعته.»

قال ويل مبتسماً في سخرية: «لن يكون ذلك جزءاً من متعتي أنا».

قال فيجايا بلهجة تفسيرية: «هذا لأنك لم تتعلم كيف تستخدم «عقلك ـ جسدك» بالطريقة الصحيحة، فلو أن أحداً قد أطلعك عـلى كيفية القيام بالأعمال مع الحد الادنى من التوتر والحد الاقصى من الادراك، لكان بوسعك أن تستمتع حتى بالكدح اليدوي المخلص».

ـ «أفهم من هذا أن كل أطفالكم يتلقون هذا النوع من التدريب.»

ـ «إنهم يشرعون في العمل من تلقاء أنفسهم منذ اللحظة الأولى. إنهم يسألون على سبيل المثال: ما هي الطريقة الصحيحة للسيطرة على نفسك بينما تحاول أن تغلق أزرار ثيابك؟» وإذ حاول فيجايا أن يربط العمل بالكلمات، بدأ في إغلاق أزرار القميص الذي كان قد ارتداه لتوه. واستمر يقول: «إننا نجيب على هذا السؤال بأن نضع رؤوسهم وأجسادهم بالفعل في أفضل وضع فيسيولوجي ممكن. ونشجعهم في نفس الوقت على أن يلاحظوا كيف تكون مشاعرهم حينما يكونون في أفضل وضع فيسيولوجي ممكن، أي أن يكونوا مدركين لما تتكون منه عملية اغلاق الأزرار إدراكاً يقوم على مصطلحات اللمسات والضغوط اليدوية والاحاسيس العضلية. وحينما يبلغون الرابعة عشرة من أعمارهم يكونون

قد تعلموا كيفية الحصول على أكثر وأفضل النتائج الممكنة ـ بصورة موضوعية وذاتية ـ من أي نشاط يكون عليهم القيام به. وهذه هي المرحلة التي نشرع في دفعهم خلالها إلى العمل. إنهم يقومون بنوع ما من العمل اليدوي لمدة تسعين دقيقة في كل يوم.»

ـ «إنها العودة إلى تشغيل الأطفال القديم المثمر!».

قال الدكتور روبرت: «أو بالأحرى إنها التقدم خلاصاً من بطالة الاطفال الرديئة الحديثة. إنكم لاتسمحون لمراهقيكم بالعمل، وهكذا يكون عليهم أن يتخلصوا من البخار الحبيس المضغوط بالانحراف، وإما أن يمعنوا في كبت البخار داخلهم حتى يكتمل استعدادهم لأن يصبحوا مدمنين على الجلوس خاضعين لإدمانهم» وأضاف يقول: «لقد حان الآن وقت الذهاب.. سوف أتقدم أنا الطريق».

حينما دخلوا إلى المعمل، كان موروجان يغلق حقيبته المتفخة ليحمي ما بداخلها من كل العيون المتلصصة.. قال: «أنا مستعد» ثم حمل «العهد الأحدث»، انجيله ذا الالف والثلاثمائة والثمانية والخمسين صفحة تحت إبطه وتبعهم خارجاً إلى ضوء الشمس المشرقة. وبعد دقائق قليلة، كانوا مزدحمين داخل سيارة «جيب» قديمة، تتدحرج على طول الطريق الممتد من وراء الساحة التي يطلق فيها الثور الابيض، ومن وراء بحيرة اللوتس وتمثال بوذا الحجري الضخم ليخرج من بوابة «مركز مراقبة المحطة» إلى الطريق الرئيسي. قال فيجايا وهم يهتزون ارتفاعاً وانخفاضاً ويترجرجون دون انقطاع: «آسف لأننا لم نستطع أن نوفر وسيلة للانتقال أكثر راحة».

ربت ويل على ركبة موروجان وقال: «هذا هو الرجل الذي ينبغي أن تقدم إليه اعتذارك. إنه الذي تتحرق روحه اشتياقاً إلى سيارات «الجاكوار» و«الثندربيرد».

قال الدكتور روبرت من مكانه في المقعد الخلفي: «أخشى أن يكون اشتياقاً لابد أن يظل دون إشباع».

لم يصدر عن موروجان أي تعليق ولكنه ابتسم ابتسامة الاحتقار الخفي التي تصدر عمن يعرف أكثر من الآخرين.

قال الدكتور روبرت مستمراً: «ليس في وسعنا أن نستورد الدمى واللعب.. لا يمكننا أن نستورد سوى الضروريات.»

ـ «من مثل؟»

ـ «سوف ترى بعد لحظة واحدة».

استداروا حول أحد المنحنيات، فبدت تحتهم مباشرة، الاسقف الفخارية الماثلة والحدائق التي تظللها الأشجار في قرية كبيرة. اتجه فيجايا بالسيارة نحو حافة الطريق

وأوقف المحرك وقال:

«إنك تنظر الآن إلى «روثهامستيد الجديدة» المعروفة باسم «ماداليا» هنا يزرع الأرز والخضراوات والفواكه وتربى الدواجن. ولاداعي بالطبع لذكر مصنعين للفخار ومصنع للاثاث، طالما كانت هناك تلك الأسلاك» ولوح بيده في اتجاه صف طويل من الأبراج تتسلق السفح المتدرج الشبيه بالشرفات المتصاعدة وراء القرية، ثم تختفي عن الأنظار فوق حافة الجبل لكي تعود إلى الظهور بعيداً سائرة صعداً من قاع الوادي التالي نحو الحزام الأخضر من الأدغال الجبلية والقمم المختفية وراء السحب من خلفها ومن فوقها.

قال فيجايا: «تلك واحدة من الوارادات التي لا يمكن الاستغناء عنها ـ المعدات الكهربائية. وبذلك تمت السيطرة على مساقط المياه فقمنا بمد خطوط التحويل. وهناك شيء آخر له أولوية سامية». ووجه اصبعه الممدود نحو كتلة ضخمة من الاسمنت لا نوافذ لها كانت تبرز بضخامة من وسط المنازل الخشبية بالقرب من المدخل العلوي للقرية.

سأل ويل: «وما تلك؟ أهي نوع من الفرن الكهربائي»

ـ «كلا، إن الأفران تقع على الجانب الآخر من القرية. هذه هي الثلاجة الجماعية».

قال الدكتور روبرت شارحاً: «فيما مضى من الأيام كنا نفقد ما يقرب من نصف ما ننتجه من المحصولات القابلة للتلف. أما الآن فإننا عملياً لانفقد شيئاً. كل ما نزرعه يعود إلينا ولايعود إلى البكتريا العالقة في الجو المحيط بنا».

ـ «وبذلك فإنكم تملكون ما يكفي لطعامكم.»

ـ «أكثر من الكفاية. إننا نأكل أحسن مما يأكل أي بلد آخر في آسيا وهناك فائض للتصدير. كان لينين يقول إن الكهرباء زائد الاشتراكية تساوي الشيوعية. أما معادلتنا نحن فتختلف إلى حد ما. إننا نقول بأن الكهرباء ناقص الصناعة الثقيلة بالاضافة إلى السيطرة على النسل تساوي الديمقراطية والوفرة، أما الكهرباء زائد الصناعة الثقيلة ناقص السيطرة على النسل فتساوي الدولة الشمولية الاستبدادية والحرب.»

سأل ويل: «بالمناسبة، من يملك كل هذا. هل أنتم رأسماليون أم اشتراكيون تمتلك الدولة عندكم كل شيء؟»

ـ «لسنا على أي طريق من هذين إننا تعاونيون في أغلب الأحوال..

كانت الزراعة في «بالا» على الدوام مشكلة تتكون من «تدريج» سفوح الجبال وريها تستدعي جهوداً جماعية وموجهة واتفاقات ودية. إن المنافسة التي تقتضي تبادل قطع الرقاب لشيء مناقض للمناخ السائد في بلد جبلي يعيش على زراعة الأرز. وقد وجد شعبنا أنه من

السهل تماماً أن يتجاوز وضعاً يقوم على تبادل المعونة في مجتمع القرية لكي يصل إلى التكنيكات التعاونية الموجهة للبيع والشراء والمشاركة في الربح والتمويل.»

ـ «حتى التمويل التعاوني»

ـ أومأ الدكتور روبرت برأسه وقال: «لايوجد عندنا واحد من أولئك المرابين مصاصي الدماء الذين تجدهم منتشرين في طول الريف الهندي وعرضه... لقد قام نظام الإقراض والإعارة عندنا على أساس نموذج اتحادات الضمان التي كان «ويلهلم ريفايزن» قد أقامها منذ قرن كامل في المانيا. وقد استطاع الدكتور آندرو أن يقنع الراجا بأن يدعو واحداً من اتباع «ريفايزن» الشبان لكي يأتي إلى هنا فينظم عملية التمويل المصرفي التعاوني.. وما زال هذا النظام مستمراً في أداء خدماته بقوة.»

سأل ويل: «وماذا تستخدمون كنقود؟»

دس الدكتور روبرت يده في جيب بنطلونه وأخرج حفنة من النقود الفضية والذهبية والنحاسية. وقال مفسراً: «إن بالا» ـ بشكل متواضع بلد منتج للذهب.. نحن نستخرج من المناجم ما يكفي لكي يعطي لاوراقنا النقدية دعمًا ذهبياً قويًا. والذهب يدعم صادراتنا. إننا نستطيع أن ندفع نقداً ـ بالذهب ـ ثمن المعدات الغالية مثل خطوط التحويل ونقل الكهرباء تلك التي رأيتها والمولدات الكهربائية عند بداية تلك الخطوط».

ـ «يبدو أنكم قد حققتم حلاً ناجحاً جداً لمشاكلكم الاقتصادية».

ـ «لم يكن حلها بالأمر الصعب» فقد كانت البداية هي أننا لم نسمح لأنفسنا بأن ننجب من الأطفال أكثر مما نستطيع أن نوفر لهم من الطعام والملبس والمسكن والتعليم إلى درجة تقترب من درجة الانسانية الكاملة. ولما لم تكن بلادنا مزدحمة بالسكان، فقد أصبحنا في وفرة. ولكن رغم ما حققناه من وفرة ورخاء فقد قاومنا الاغراء الذي وقع الغرب فريسة له الآن، إغراء الاسراف في الاستهلاك، إننا لانصيب أنفسنا بأمراض القلب بأن نمتنع عن أن نعب من الدهون المجهزة ستة أضعاف ما نحن بحاجة إليه. ونحن لاننوم أنفسنا بأن نتوهم الاقتناع بأن جهازين من أجهزة التليفزيون سيحملان لنا من السعادة ضعف ما يمنحه لنا جهاز واحد فقط. وأخيراً فإننا لاننفق ربع الانتاج القومي برمته من أجل الاستعداد للحرب العالمية الثالثة، ولا حتى من أجل الاستعداد للشقيق الرضيع للحرب العالمية، أي للحرب المحلية رقم مليون وخمسمائة ألف. إن التسلح والمديونية العالمية والإهدار المخطط للثروات ـ تل هي الأعمدة الثلاثة للرخاء الغربي فإذا تم القضاء على الحرب وإهدار الطاقة والصيارفة الممولين لانهرتم على الفور. وبينما تسرفون أنتم في الاستهلاك فإن بقية العالم تغوص أكثر فأكثر في حمأة الخراب المزمن. في حمأة الجهل والنزعة الحربية وتكاثر النسل ـ تلك هي الحمأة الثلاثية وأفظع ما فيها هو تكاثر النسل.

ليس هناك أمل في حل المشكلة الاقتصادية. ولا حتى أقل الاحتمالات إمكاناً، ما لم تتم السيطرة على هذا الجانب الرئيسي. فكلما تزايد عدد السكان تناقص احتمال الرخاء والوفرة » ورسم بأصبعه المنحنى الهابط للرسم البياني الذي يقصده بإصبعه الممدود في الهواء، ثم استمر يقول: «وبينما يتناقص احتمال الرخاء والوفرة تتزايد احتمالات انتشار السخط والتمرد». وارتفع إصبع السبابة مرة ثانية، «إنها القسوة السياسية التي لاترحم وحكم الحزب الواحد والتعصب القومي الأعمى ويبدأ الولع بالقتال والتناحر في الظهور. إن عشرة أو خمسة عشر عاماً أخرى من تزايد النسل الذي لاسيطرة على زمامه سوف تملأ العالم كله من الصين إلى بيرو عبر افريقيا والشرق الاوسط بالقادة والزعماء العظام. كلهم يكرسون جهودهم من أجل كبت الحرية وكلهم مدججون بالسلاح الذي سيحصلون عليه من روسيا أو من أمريكا أو منهما معاً وهذا سيكون الوضع الأحسن وكلهم يلوحون بالرايات ويهزون ألوية الحرب، وكلهم يصرخون من أجل «المجال الحيوي».

«سأل ويل: «وماذا سيكون من أمر «بالا»؟ هل ستحل بكم بركة «الزعيم العظيم» بعد عشر سنوات من الآن؟»

أجاب الدكتور روبرت قائلاً: «لن يحدث هذا إذا استطعنا أن نوفر الشروط اللازمة. لقد حاولنا على الدوام أن نفعل كل ما بوسعنا من أجل أن يكون ظهور «الزعيم العظيم» لدينا أمراً بالغ الصعوبة.»

رأى ويل، من زاوية عينه، أن موروجان كان يرسم على وجهه تعبير الاحتقار والاشمئزاز المشبع بالازدراء. كان من الواضح أن «انثينيوس» الصغير يرى نفسه بعين خياله في صورة بطل من أبطال كارليل. التفت ويل ثانية إلى الدكتور روبرت. قال:

ــ «أخبرني، كيف يفعلون هذا؟»

ــ «اسمع، إننا في الاساس لانخوض الحروب ولا نستعد لها. وبالتالي فإننا لانحتاج إلى فئات تحتكر السلطة، أو إلى جماعات عسكرية وراثية، أو إلى مصدر موحد للنفوذ يأتمر الجميع بأمره. وبعد ذلك هناك نظامنا الاقتصادي. إنه نظام لايسمح لاي شخص بأن يجمع ثروة تزيد على أربعة أو خمسة أضعاف متوسط الثروة الفردية هنا. وهذا يعني أنه لايوجد لدينا أي سادة للصناعة أو ماليين مهيمنين على المجتمع. والأفضل من هذا هو أنه لايوجد لدينا أي سياسيين أو بيروقراطيين مسيطرين على الدولة. إن «بالا» اتحاد فيدرالي من الوحدات التي تحكم نفسها ذاتياً، وحدات جغرافية، ووحدات مهنية، ووحدات اقتصادية. وبذلك فإن هناك مجالاً واسعاً جداً للمبادرات المحدودة الحركة وللقادة الديمقراطيين، ولكن ليس هناك مكان لدكتاتور من أي نوع على رأس حكومة مركزية. هناك نقطة أخرى: ليس لدينا كنيسة مستقرة دائماً وديننا يؤكد على

ضرورة التجربة المباشرة ويستنكر الايمان بالعقائد الجامدة التي لا تتغير كما يستنكر العواطف التي يثيرها هذا النوع من الإيمان. وبذلك أنقذنا أنفسنا من أوبئة البابوية ومن حركات الإحياء والتجديد الجارية المتطرفة من ناحية أخرى. وعلى طول تجربتنا التي تناقلتها الأجيال، غرسنا بذرة التساؤل والشك الخلاق بصورة منظمة. إن عدم تشجيع الأطفال على أن يأخذوا الكلمات بجدية أكثر من اللازم، وتعليمهم أن يحللوا كل ما يسمعوه أو يقرأوه إنما هو جزء أساسي من مقرراتنا الدراسية .

والنتيجة: إن مثير الشغب المتفاصح بالكلمات، من نوع هتلر أو جارنا عبر المضيق الكولونيل ديبا، لايجد الفرصة المناسبة لنفسه في بالا».

كان هذا كثيراً جداً بالنسبة لموروجان. فانفجر قائلاً، بعد أن عجز عن السيطرة على نفسه:

ـ «ولكن انظر إلى الطاقة والنشاط اللذين يغرسهما الكولونيل ديبا في شعبه.انظر إلى ما غرسه في الشعب من إخلاص وقدرة على التضحية بالنفس؟ ليس لدينا هنا أي شيء من هذا القبيل».

قال الدكتور روبرت بإخلاص: «والحمد لله على ذلك».

وردد فيجايا من ورائه: «الحمد لله».

قال الصبي محتجاً: «لماذا؟ إنها أشياء طيبة. إنني أعجب بها».

قال الدكتور روبرت: «وأنا أيضاً أعجب بها. تعجبني بنفس الطريقة التي يعجبني بها الاعصار. فلسوء الحظ لايستطيع هذا النوع من الطاقة والنشاط والاخلاص والقدرة على التضحية بالنفس أن يكون متوائمًا مع الحرية، ولا داعي لذكر العقل أو الرقة أو الانسانية. ولكن الرقة الانسانية والعقل والحرية هي الأشياء التي ظلت «بالا» تعمل من أجلها منذ عهد الرجل الذي سميت أنت باسمه موروجان المصلح.»

جذب فيجايا من تحت مقعده صندوقاً من الصفيح ورفع غطاءه فوزع على الجميع شطائر الجبن والفواكه وقال: «سيكون علينا أن نأكل اثناء تحركنا؟ وشغل المحرك وأدار السيارة ثانية إلى الطريق بيد واحدة بينما انشغلت يده الأخرى بشطيرته. قال مخاطباً ويل: «سأريك في الغد مواقع القرية، ومشهد اسرتي وهي تتناول غذاءها وهو المشهد الاكثر جدارة بالفرجة. أما اليوم فإن لدينا موعداً في الجبال».

وبالقرب من المدخل المؤدي إلى القرية ادار فيجايا السيارة إلى طريق جانبي يمضي صاعداً بالتدريج بين حقول الارز والخضراوات المتدرجة، التي تتخللها مساحات الزهور، ونباتات متناثرة هنا وهناك.. تزرع كما قال الدكتور روبرت من أجل أن تزود مصانع الورق في «شيفابورام» بالخامات التي تحتاج إليها.

تساءل ويل: «كم صحيفة تصدر في «بالا»؟» ودهش حينما عرف أنه لاتصدر سوى صحيفة واحدة فمضى متسائلاً:

ــ «ومن الذي يتمتع بهذا الاحتكار؟ الحكومة؟ أم الحزب صاحب السلطة؟ أم جو الدهايد المحلي؟»

قال الدكتور روبرت مؤكداً: «لا أحد يتمتع بأي احتكار. هناك مجموعة من المحررين يمثلون ستة أحزاب ومصالح مختلفة. وكل منهم يحصل على المساحة المحددة له من الجريدة لكتابة التعليق والنقد الذي يريد. والقارىء يقف في الموضع الذي يسمح له بالمقارنة بين مناقشاتهم لكي يتخذ الرأي الخاص به في النهاية. إنني أتذكر ضخامة الصدمة التي نالتني حينما قرأت للمرة الأولى واحدة من صحفكم ذات التوزيع الضخم. صدمني حجم العناوين وانحيازها الواضح، والإصرار المستمر على اتخاذ اتجاه واحد في تقديم المعلومات وفي كتابة التعليقات، والاعتماد على الكلمات الزائفة وعلى الشعارات بدلاً من المناقشات. لم يكن هناك أي ميل جاد إلى العقل، وإنما كان هناك جهد متصل من أجل تأكيد ردود الأفعال الشرطية في عقول الناخبين، أما بقية ما ينشرون عنه، فهي الجريمة وحوادث الطلاق، والأحداث الشاذة الغريبة وأعمال العنف والخديعة، أي شيء يحافظ على تشتت القارىء، وأي شيء يمنع القراء من التفكير».

استمرت السيارة في تسلق السفح، حتى أصبحوا سائرين فوق الحافة الممتدة بين سفحين هابطين ممتدين طولاً وعمقاً تبدو في قاعهما بحيرة تحف بها الاشجار وتقع إلى اليسار وإلى اليمين وادٍ أكثر اتساعاً حيث كان يقوم مصنع ضخم يقع بين قريتين تظللهما الاشجار على مسافة واحدة من كل منهما فبدأ المنظر كما لو كان نتيجة لنوع من الحساب الدقيق.

أومأ الدكتور روبرت وقال: «إليك واحدة من الصناعات التي لايمكن الاستغناء عنها. ونحن ننتج منها كل ما نحن بحاجة إليه، وهناك فائض منها للتصدير.»

ــ «وهاتان القريتان تمدان المصنع بالقوة البشرية اللازمة؟»

ــ «أجل، في الفترات التي تقع بين مواسم الزراعة والعمل في الغابة وورش نشر الخشب.»

ــ «أيمكن أن يكون هذا النوع من العمل المقسم بين أعمال كثيرة مفيداً؟»

ــ «هذا يعتمد على ما تعنيه بكلمة «مفيد». إنه لايؤدي إلى الحد الاقصى من الكفاءة الانتاجية. ولكننا في «بالا» لانعتبر الحد الاقصى من الكفاءة الانتاجية بالمعنى القطعي الجازم كما هو الحال عندكم. إنك تفكرون أولاً في الحصول على أكثر وأفضل

انتاج ممكن في أقصر وقت مستطاع. . أما نحن فنفكر أولاً في الكائنات البشرية وفي وسائل ارضائهم واشباعهم. إن تغيير السمهنة التي يعمل بها المرء دورياً لايحدث بغرض الحصول على أكبر انتاج في أقل عدد من الايام. ولكن أكثر الناس يروق لهم هذا التفكير أكثر من القيام بعمل واحد طوال حياتهم. فإذا كان علينا أن نختار بين الكفاءة الآلية وبين الاشباع الانساني فإننا نختار الاشباع الانساني».

قال فيجايا متطوعاً: «حينما كنت في العشرين من عمري، أشتغلت لمدة أربعة شهور في هذا المصنع للاسمنت، ثم انفقت عشرة أسابيع في العمل في مصنع السوبر فوسفات ثم ستة أشهر في الاحراش كحطاب أعمل في تقطيع كتل الخشب من جذوع الاشجار».

ـ «أكلّ ذلك من أجل الكدح المخلص الشاق.»

قال الدكتور روبرت: «منذ عشرين عاماً تطوعت للقيام بمهمة قصيرة في أفران صهر النحاس. وبعد القيام بها أصابني ميل إلى الإبحار في قارب لصيد الأسماك. إن تجربة كل أنواع العمل ليس إلا جزءاً من تعليم كـل انسان. فالمرء يتعلم قدراً كبيراً من المعلومات ويتلقى كمية ضخمة من المعرفة بهذه الطريقة ـ يتعلم أشياء كثيرة عن المهارات المختلفة وعن الاشياء وعن التنظيمات المتنوعة، وعن كل أنواع البشر وعن طرقهم المتباينة في التفكير».

هز ويل رأسه وقال: «ما زلت مقتنعاً بأنني أفضّل أن أعرف مثل هذه الاشياء من أحد الكتب».

ـ «ولكن ما تحصل عليه من بعض الكتب ليس هو الشيء الحقيقي أبداً». وأضاف الدكتور روبرت قائلاً: «إنكم جميعاً في أعماقكم ما زلتم أفلاطونيين مثاليين. إنكم تعبدون الكلمة وتبغضون المادة بغضكم للموت».

قال ويل: «قل كلامك هذا لكاهن الكنيسة. إنهم لايكفون عن سبابنا بدعوى أننا ماديون مبتذلون».

قال الدكتور روبرت: «مبتذلون ولكنكم مبتذلون بالتحديد لأنكم ماديون ناقصون وعاجزون. إنكم ماديون تجريديون ـ هذه هي حرفتكم التي تعترفون بها. بينما نحن نجعل من هدفنا أن نكون ماديين بصورة محددة ـ ماديين على المستوى الذي يخلو من الكلمات، حيث لاشيء سوى الابصار واللمس وتشمم الروائح والعضلات المشدودة المتوترة والأيدي الملوثة بمواد العمل. إن المادية التجريدية لاتقل سوءاً عن المثالية التجريدية فهي تؤدي إلى ما يشبه استحالة التجربة الروحية المباشرة. إن تجربة أنواع مختلفة من

العمل باعتبارنا ماديين محددين، لهي الخطوة الأولى التي لا غنى عنها في سبيل أن نتعلم الروحانية المحددة».

قال فيجايا مكملاً: «ولكن أعلم أنه حتى أكثر النزعات المادية تحديداً لن تحملك بعيداً في طريقك ما لم تكن واعياً كل الوعي بما تفعله وبما تمارسه وتختبره. سيكون عليك أن تعرف معرفة كاملة أجزاء المادة التي تتعامل معها والمهارات التي تمارسها والناس الذين تشتغل معهم».

قال الدكتور روبرت: «هذا صحيح تماماً، لقد كان عليّ أن أوضح لك أن المادية المحددة ليست سوى المادة الخام لحياة كاملة الانسانية. إننا لانتحول إلى الروحانية المحددة إلا من خلال الادراك والمعرفة، الادراك والمعرفة المستمرين الكاملين. كُنْ كامل المعرفة والادراك لما تمارسه أو تفعله، وسوف يصبح العمل هو «يوجا» العمل، واللعب سيصبح هو «يوجا» اللعب، وستكون الحياة اليومية هي «يوجا» الحياة اليومية».

فكّر ويل في الممرضة الصغيرة وفي خطيبها رانجا وقال: «وماذا عن أمر الحب؟».

أومأ الدكتور روبرت برأسه وقال: «وهكذا هذا الأمر أيضاً. الادراك والمعرفة يحولانه ويجسدانه، يحولان ممارسة الحب إلى «يوجا» ممارسة الحب».

بدت الصدمة على موروجان بصورة جعلته يبدو كما لو كان يقلد أمه في إبدائها للدهشة والشعور بالصدمة.

قال فيجايا: «الوسائل النفسية الجسدية تهدف إلى غايات علوية محلقة» وكان يرفع صوته ليعلو على الصرير الصارخ الذي صدر عن المحرك الذي كان فيجايا قد حوله إلى «نقلة» أكثر بطئاً، وأضاف يقول:

«ذلك هو ــ أولاً ــ كل ما تعنيه كل هذه الجوانب من «اليوجا» . ولكنها تعني أيضاً شيئاً آخر، إنها أيضاً وسائل للتعامل مع مشكلات السلطة والقوة» ونقل المحرك إلى «نقلة» أكثر هدوءاً وعاد فخفض من صوته إلى نغمته العادية وأضاف قائلاً فكرر كلمته الأخيرة: «مشكلات السلطة والقوة. وهي المشكلات التي تواجهك في كل مستوى من مستويات التنظيم ــ في كل مستوى، من الحكومات القومية إلى حضانات الاطفال أو العروسين اللذين يقضيان شهر العسل. ذلك أن هذه «اليوجا» هذا الادراك الكامل لكل شيء ليس مجرد مسألة وضع الصعوبات والعراقيل في طريق ظهور «الزعماء العظام». إن هناك كل الملايين المتوقعين من الطغاة والجلادين الذين يمارسون ــ أو يتوقون إلى ممارسة نفوذهم في مجالاتهم الصغيرة، هناك كل الصغار المحرومين من المجد ممن هم على شاكلة هتلر، ونابوليونات القرى، وكالفينات وتوركويميدات العائلات الصغيرة. ولا داعي لذكر كل قطاع الطرق والأوغاد الذين يتمتعون بما يكفي من الغباء لكي يتيحوا للآخرين فرصة أن

يدمغوهم بصفات المجرمين. فكيف يمكن للمرء أن يكبح جماح وأن «يسرج» القوة الهائلة التي تفور داخل هؤلاء الناس لدفعهم إلى العمل بطريقة مفيدة ما أو على الأقل لمنعها من إنزال الأذى والضرر بالآخرين؟»

قال ويل: «هذا هو ما أريدك أن تقوله لي. فمن أين تبدأون؟»

أجاب فيجايا: «إننا نبدأ من كل مكان في لحظة واحدة، ولكن طالما أن المرء لايستطيع أن يقول أكثر من شيء واحد في وقت واحد، فاسمح لي بأن نبدأ بالحديث عن تشريح السلطة وفيسيولوجيتها. دكتور روبرت، أرجو أن تسرد عليه الكيمياء الحيوية.»

قال الدكتور روبرت: «لقد بدأت هذه القصة منذ ما يقرب من أربعين عاماً حينما كنت أدرس في لندن ـ بدأت بالزيارات التي كنت أقوم بها للسجن في عطلاتي الاسبوعية وقراءة التاريخ حينما أجدني خالياً من العمل ذات مساء» ردد كلامه قائلاً: «التاريخ والسجون، لقد اكتشفت أنهما كانا مرتبطين ارتباطاً وثيقا. إنهما سجل جرائم البشرية وبلاهاتها وعثرات حظها (هذه استعارة من المؤرخ جيبون أليس كذلك؟) ثم المكان الذي تجتمع فيه البلاهات والجرائم الخائبة فينضم إليهما نوع خاص من سوء الحظ، ولما توغلت في قراءة كتبي وتبادل الأحاديث مع طيوري السجينة وجدت نفسي أطرح بعض الاسئلة ـ أي نوع من الناس يصبحون منحرفين خطرين ـ المنحرفون الكبار في كتب التاريخ ـ والصغار الذين يقيمون في سجون «بنتونفيل» أو «وورمود سكرابلز»؟

أية أنواع من البشر تحركهم شهوة القوة والسلطان، والرغبة في الغلبة والسيادة وأولئك القساة من الرجال والنساء الذين يعرفون ما يريدون ولاشيء يمنعهم من الإيذاء والقتل في سبيل أن يحصلوا عليه، الوحوش الذين يجرحون الآخرين ويقتلونهم، لا في سبيل المكسب أو الربح، وإنما مجاناً ودون مقابل، لأن الجرح والقتل شيء يبعث على الابتهاج ـ من هم هؤلاء الوحوش؟ كنت أناقش تلك الأسئلة مع المختصين ـ الأطباء والمحللين النفسيين، وعلماء الاجتماع والمدرسين وكانت تعاليم «مانتيجازا»[٢٨] و«جالتون»[٢٩] قد تجاوزها الزمن وفقدت صلاحيتها وأكد لي أكثر من عرفتهم من

(٢٨) مانتيجازا، روبرت ـ عالم انجليزي من أواخر القرن الثامن عشر وأوائل القرن التالي، بدأ التجارب الأولى في علوم النفس والوراثة والتربية وعلاقتها بالفسيولوجيا وعلم الاحياء تأثر بالفكر المادي الميكانيكي، ولكنه مات شديد التدين.

(٢٩) جالتون، فرانسيس ١٨٢٢ ـ ١٩١٣ ـ عالم انجليزي ورحالة جاب بلدان افريقيا جنوبي الصحراء. اشتهر بدراسته عن الوراثة، أسس علم الجينات، أو حاملات الخصائص الوراثية.ولكن مبادىء هذا العلم تغيرت بشكل كلي بعد تطور الكيمياء العضوية وتطور الدراسات حول الطاقة الكهربائية في الخلايا الحية وفي الدماغ البشري. وابتكر جالتون طريقة للتعرف على الشخصية عن طريق بصمات الاصابع.

المختصين أن الأجوبة الوحيدة الصحيحة لتلك الاسئلة كانت هي الاجوبة التي تقوم على أساس فهم الثقافة والاقتصاد والاسرة. كانت المسألة كلها ترجع إلى الامهات والتدريب على دخول المرحاض وإلى عملية التكيف المبكرة في عمر الانسان وإلى العناصر المتورمة المزمنة في البيئة المحيطة بالشخص المقصود. ولكنني لم أقتنع بذلك إلا نصف اقتناع فحسب. إن الامهات والتدريب على دخول المرحاض وكل الهراء مما يقال عن عناصر البيئة المحيطة بالانسان ـ كانت كل هذه الاشياء هامة أهمية واضحة. ولكن هل كانت كلها هامة؟ وفي خلال زياراتي للسجن كنت قد بدأت رؤية الدليل على وجود النموذج الداخلي من نوع ما ـ أو بالأحرى نوعين من النماذج الداخلية، وذلك لأن المنحرفين الخطرين وصانعي المتاعب المحبين للسلطان والقوة لاينتمون إلى فصيلة واحدة. فكما كنت قد بدأت في التحقق منذ ذلك الحين، ينتمي إلى هذا النوع أو ذلك من الفصيلتين المتمايزتين المنفصلتين ـ «أصحاب العضلات» ثم «الأقزام من مثل بيتريان». وقد تخصصت أنا في أشباه «بيتريان» من الدهاة الماكرين».

تساءل ويل: «أهم الصبيان الذين لايكتمل نموهم أبداً؟»

ـ «أبداً هي الكلمة الخاطئة. ففي الحياة الحقيقية، تصل الأمور دائماً بمن يشبه «عقلة الأصبع» هذا إلى النمو. ولكنه فقط لاينمو إلا متأخراً جداً ـ إنه ينمو من الناحية الجسدية ببطء أكثر من إيقاع سنوات حياته وعدد أعياد ميلاده».

ـ «وماذا عن الفتيات من فصيلة «عقلة الأصبع»؟

ـ «إنهن نادرات جداً . أما الصبيان فإنهم أكثر شيوعاً من ثمار التوت السوداء يمكنك أن تتوقع واحداً من فصيلة «عقلة الأصبع» من بين كل خمسة أو ستة من الاطفال الصبيان. فإذا حصلت على صورة بالاشعة السينية لعظام الساعد عند عشرة من الأطفال، فلسوف تكتشف أن سبعة من بينهم سيكونون من فصيلة «عقلة الأصبع» إذا كان العشرة من بين الأطفال أصحاب المشاكل الصبيان الذين يعجزون عن القراءة والذين يرفضون التعليم ولايروق لهم أن يدخلوا في علاقة مع انسان، ثم يتحولون في النهاية لكي يقدموا أكثر أشكال الانحراف عنفاً وقسوة.»

قال ويل: «إنني أحاول أن أفكر في مثال تاريخي جيد لنموذج منحرف عن فصيلة «عقلة الأصبع».

ـ «ليس لك أن تذهب بعيداً جداً في التاريخ، إن أحدث نموذج لهذه الفصيلة وفي نفس الوقت أحسنها وأضخمها، هو أدولف هتلر.»

ـ «هتلر؟» وكانت لهجة موروجان وهو يلفظ الاسم لهجة من اختلطت صدمته بالدهشة. كان من الواضح أن هتلر يحتل مركزاً مرموقاً بين الابطال الذين يؤمن بهم.

قال الدكتور روبرت: «اقرأ ترجمة حياة «الفوهرر».. إنه «عقلة اصبع» حتى ولو لم يكن هناك من هذه الفصيلة سواه، لم يكن له أمل في المدرسة. كان عاجزاً عن المنافسة ،عجزه عن التعاون. حاسداً كل من يحققون نجاحاً طبيعياً من الصبيان. ولأنه يحسدهم فقد كان يكرههم، ولكي يجعل نفسه يشعر مشاعر أفضل فقد راح يحتقرهم بوصفهم كائنات منحطة وأقل منه شأناً. ثم جاء الوقت الذي بدأت فيه مراهقته.. ولكن أدولف كان متخلفاً من الناحية الجنسية. كان الصبيان الآخرون يتقدمون إلى الفتيات ويتوددون إليهن، وكانت الفتيات يستجبن للأولاد. أما أدولف فكان شديد الخجل شديد التشكك في رجولته.. كان عاجزا باستمرار عن ممارسة العمل بصورة ثابتة ودائمة، ولكنه كان يستطيع أن يستقر في البيت فقط حيث يقوم «العالم الآخر» الذي صنعه من خياله هناك، على الأقل، كان يستطيع أن يكون ميكل انجلو، ولكنه بهذه الصفة كان لسوء الحظ عاجزاً عن الرسم. كانت مواهبه الوحيدة هي الكراهية، والمكر الحقير، بالاضافة إلى مجموعة لاتعرف الكلل من الحبال الصوتية وقدرة على الكلام دون توقف بأعلى طبقات صوته من أعماق مرضه العصبي الصادر من كونه «عقلة اصبع» عاجز عن أي شيء. إن ثلاثين أو أربعين مليوناً من القتلى، ولايعرف إلا الله كم ملياراً من الدولارات ـ كان هذا هو الثمن الذي كان على العالم أن يدفعه مقابل نضج أدولف المتأخر. ولكن لحسن الحظ فإن أكثر من يبطؤ نموهم من الصبيان لاتتاح لهم الفرصة لأن يكونوا أكثر من منحرفين صغار الحجم. ولكن حتى المنحرفين الصغار، إذا زاد عددهم، قد يكلفون العالم ثمناً باهظاً مماثلاً لذلك الثمن. وهذا هو السبب الذي يجعلنا نحاول أن نستأصلهم ـ أو نستأصل أسباب ظهورهم ـ في أحواض «الشتل» الصغيرة ـ أو بالأخرى ـ طالما نتعامل مع «عقلة الأصبع فإن هذا هو السبب الذي يجعلنا نحاول أن نجعل براعمهم تتفتح وتنمو».

ـ «وهل تنجحون في ذلك؟»

ـ «أومأ الدكتور روبرت برأسه وقال: «ليس هذا بالأمر الشاق وخاصة إذا بدأت العمل مبكراً بما فيه الكفاية فيما بين سن الرابعة والنصف والخامسة. يخضع كل أطفالنا لفحص عميق. هناك فحوص للدم. واختبارات نفسية، وفحوص جسمانية، ثم تؤخذ صور الأشعة السينيّة لعظام سواعدهم ومعاصمهم ثم تؤخذ لموجات أدمغتهم صورة الكترونية. وبهذا الشكل تحدد كل الحالات الحادة من فصيلة «عقلة الأصبع» ثم يبدأ العلاج المناسب على الفور. وفي خلال عام واحد يصبح الجميع ـ بشكل عملي ـ طبيعيين بصورة كاملة. إن محصولاً بشرياً من الفاشلين والمجرمين القادرين، ومن الطغاة والساديين القادرين، ومن المعادين للبشر والثوريين لمجرد الثورة والغادرين أيضاً، يتحول إلى محصول بشري من المواطنين النافعين الذين يمكن أن يحكموا دون حاجة إلى أن ننزل بهم العقوبات أي أن يُشهر فوق رؤوسهم السيف. أما في الجزء الخاص بكم من العالم،

فما زال الانحراف يوكل إلى الكهنة وإلى الباحثين الاجتماعيين وإلى الشرطة. هناك الشعائر والطقوس دون توقف، وأنواع العلاج الاجتماعي الذي يهدف إلى تدعيم الشخص وتقويته، وهناك أيضاً الكثير من الأحكام بالسجن. فما هي النتيجة؟ إن نسبة الانحراف تمضي في الارتفاع درجة بعد درجة، لاعجب في ذلك. إن الكلمات التي تتحدث حول المنافسة بين الاشقاء والتي تشير إلى الجيحم وإلى شخصية المسيح ليست بديلاً نافعا للكيمياء الحيوية.إن عاماً من السجن لن يُشفي «عقلة اصبع» من اضطراب غدده الصماء ولن يعاون «عقلة اصبع» سابق على التخلص من النتائج النفسية لحالته. إن ما تحتاج إليه لمعالجة انحراف «عقلة اصبع» هو التشخيص المبكّر، وثلاثة أقراص قرمزية يومياً يتناولها قبل كل طعام. فإذا مُنح «عقلة اصبع» بيئة متسامحة، فسوف تكون النتيجة نوعاً من التعقل الجميل وقدراً معقولاً من الفضائل الأساسية في غضون ثمانية عشر شهراً. ولا داعي لذكر الفرصة العادلة لوجود الحكمة النهائية الكاملة أو التعاطف المصاحبين لهذه البيئة، وهما ما نسميهما «براجانا بارامیتا» و«كارونا»، حيث لم يكن هناك من قبل أدنى احتمال لوجودهما.والآن دع فيجايا يحدثك بأمر «أصحاب العضلات» ولعلك أن تكون قد لاحظت أن أحدهم (وانحنى الدكتور روبرت إلى الأمام لكي يلمس ظهر العملاق المريض) وقال مستطرداً: «يا له من لحم صلب ويا لحسن حظنا نحن الأقزام الضعفاء أن الحيوان ليس متوحشاً، متوحشاً».

أبعد فيجايا إحدى يديه عن عجلة القيادة وضرب بها على صدره وأطلق زئيراً مرتفعاً غليظاً وقال: «لاتستفز الغوريلا» ثم أطلق ضحكة مرحة. ثم مضى يقول: «فكر في الديكتاتور العظيم الآخر، فكر في جوزيف فيزاريونوفيتش ستالين. لقد كان هتلر هو النموذج الاسمى لـ «عقلة الأصبع» المنحرف. أما ستالين فهو النموذج الاسمى «لصاحب العضلات» المنحرف. لقد كان من المقدر له بشكل مسبق ــ بسبب شكله وحجمه ــ أن يكون رجلاً انبساطياً، يتجه بكليته إلى خارج ذاته. إنه ليس شبيهاً بواحدة من نسوتكم الانبساطيات اللينات المستديرات الاجساد اللواتي ينسكب منهن الطعام في حركتهن الخالية من المعنى ويتهالكن من فرط لهفتهن على مصاحبة شبيهاتهن صحبة لاتتميز فيها واحدة عن الأخرى.

«كلا» إنه الرجل المنبسط المتجه إلى الخارج الذي يمسك بمقود العربة لكي يدوس على كل شيء. إنه الذي يشعر دائماً بالحاجة الضاغطة إلى أن «يفعل شيئاً» فلا تمنعه عنه شكوك ولا مخاوف، لاتعاطف ولا حساسية. لقد نصح لينين خلفاءه في وصيته بأن يتخلصوا من ستالين: فقد كان الرجل مولعاً بالسلطة شديد الميل إلى إساءة استخدامها. لكن النصيحة جاءت متأخرة جداً وكان ستالين قد ضرب بجذوره وتأصل بقوة لدرجة كفلت له الحماية من الاستئصال. وبعد عشر سنوات كانت سلطته قد أصبحت مطلقة. وكان تروتسكي قد ذُبح كالشاة، وكان كل أصدقائه القدامى قد أُطيح بهم. ثم صار مثل

الله وسط ملائكته المسبحين بحمده، فأصبح وحيداً في سمائه الصغيرة الهادئة التي لايسكنها سوى المداهنين الخانعين. وكان طوال الوقت مشغولاً إلى درجة لاترحم، لكي يصفّي «الكـولاك» صغار ملاك الأرض، وينظم المزارع الجماعية، وليشيد صناعة السلاح، ولكي ينقل الملايين اليائسة من الحقول إلى المصانع. كان يعمل في عناد ودأب وبكفاءة تسندها رؤ ية واضحة لما يريد أن يصل إليه، الشيء الذي كان يعجز عنه عجزاً مطلقاً «عقلة الأصبع» الالماني بخيالاته المحمومة وأهوائه المتقلبة ويمكنك، في المرحلة الأخيرة من الحرب، أن تقارن استراتيجية ستالين باستراتيجية هتلر. كان الحساب البارد يواجه أحلام اليقظة التي تعوض ما يحمله الواقع من خيبة الأمل، والواقعية الواضحة النظرات تواجه الهراء الخطابي والبلاغي الذي كان هتلر قد راح في النهاية يدفع نفسه إلى الاقتناع به. كانا وحشين، متشابهين في الانحراف ولكنهما مختلفان كل الاختلاف في المزاج وفي الدوافع الداخلية غير الواعية، وفي الكفاءة في النهاية. إن فصيلة «عقلة الاصبع» قادرة إلى درجة مدهشة على إشعال نيران الحروب والثورات، ولكنها تتطلب «أصحاب العضلات» لكي يدفعوها إلى خواتيمها المكللة بالنجاح. هذه هي الادغال.

قال فيجايا عبارته الأخيرة بلهجة مختلفة وهو يلوح بيده في اتجاه كتلة هائلة من الأشجار بدت كما لو كانت تغلق أمامهم الطريق.

بعد لحظة واحدة كانوا قد خلفوا وهج الضوء الساطع فوق سفوح التل العاري وانـدفعوا في ممـر ضيق يغمره ضـوء أخضر رقيق، كـان يتلوى بين جـدران الأدغـال الاستوائية. كانت النباتات المتسلقة تتدلى من الأغصان المقوسة من فوقهم، وفيما بين سيقان الاشجـار الضخمة نمت نباتات السرخس الطرية وسيقان النباتات الاستوائية القصيرة ذات الأوراق العريضة والتي تمتد منها شبكات كثيفة من الشجيرات والأغصان التي كانت تبدو لويل، وهو يتطلع إليها، أشياء غريبة كل الغرابة ولا أسماء لها. كان الهواء مشبعاً بالرطوبة إلى درجة الاختناق، وكانت هناك رائحة حمضية ساخنة صادرة من ذلك النماء الأخضر الكثيف ومن ذلك النوع الآخر للحياة الذي هو العفن والاضمحلال والموت. سمع ويل صليل فؤوس بعيدة يكتمه تشابك الأغصان الكثيف ويصاحبه صرير منشار يتصاعد في إيقاع منتظـم. استدار الطريق في انحناءة واحدة أخرى وفجأة تخلت الظلمة الخضراء عن مكانها لضوء الشمس الساطعة. كانوا قد دخلوا بقعة في الغابة أُخليت من الأشجار. كان ستة من قاطعي الأخشاب ذوي الاكتاف العريضة وأنصاف العراة منهمكين في تقطيع أغصان شجرة أسقطت منذ قليل. وتحت ضوء الشمس راحت مئات من الفراشات الزرقاء والارجوانية والبنفسجية تطارد بعضها البعض، تتماوج وتحوم في رقصة دائرية لا نهاية لها. وعلى نار موقدة في جانب بعيد من الساحة التي انتزعت اشجارها كان رجل عجوز يغلي محتويات قدر من الحديد، وبالقرب منه وقف ظبي مستأنس بسيقانه الرقيقة وجلده ذي النقاط الرمادية الانيقة، وقف يحملق بهدوء.

قال فيجايا. «يا أصدقائي القدماء» ثم صاح ببعض كلمات باللغة البالانية وأجاب قاطعو الأخشاب على صياحه بصياح مماثل ولوحوا له بأيديهم ثم استدار الطريق دورة حادة إلى اليسار فراحوا ثانية يتسلقون الطريق الأخضر الضيق الممتد بين الاشجار.

قال ويل بينما كانوا يتركون وراءهم الساحة الخالية من الاشجار: «لقد كان أولئك الحطابون نماذج رائعة لأصحاب العضلات طالما كنا نتحدث عن فصيلتهم».

قال فيجايا: «إن هذا النوع من البنيان الجسدي لاغراء دائم. ولقد اشتغلت مع عشرات من هؤلاء الرجال، ولكنني من بينهم لم أقابل أبداً «بلطجيــاً»، واحداً ولا عاشقاً واحداً للسلطة إلى درجة الخطر».

انفجر موروجان يقول بازدراء: «وهذه هي مجرد الطريقة الأخرى للقول بأن أحداً هنا لايتمتع بأي طموح».

سأل ويل: «وما تفسير ذلك؟»

ــ «بسيط جداً فيما يتعلق بأفراد فصيلة «عقلة الأصبع». إنهم لايُمنحون الفرصة أبداً لكي تتفتح شهيتهم إلى السلطة. إننا نعالجهم من انحرافهم قبل أن يتاح له الوقت اللازم للتطور والنمو. ولكن «أصحاب العضلات» مختلفون. إنهم يتمتعون هنا بنفس العضلات الضخمة، وبنفس الميل الذي يتمتعون بـه عندكم إلى سحق مـا يقع خـارج قشرتهم الصلبة: فلماذا إذن لايتحولون إلى نماذج من ستالين أوديبا، أو على الأقل إلى طغاة محليين في منازلهم أو وسط زملائهم في العمل؟ إن ترتيباتنا الاجتماعية قبل كل شيء، لاتمنحهم إلا فرصاً ضئيلة جداً لعرض نوع من البلطجة على أسرهم، أما ترتيباتنا السياسية فإنها تجعل من المستحيل عليهم بصورة عملية أن يفرضوا أي هيمنة على مجـال أكبر من مجـال العائلة. وثانياً، فإننا ندرب «أصحاب العضلات» على أن يكونوا واعين حساسين، إننا نعلمهم أن يستمتعوا بما يضمنه الوجود اليومي من أشياء عادية. وهذا يعني أنهم يملكـون بديلاً على الدوام ــ بل بدائل لا حصر لها ــ لمتعة أن يكون أحدهم هو الرئيس المهيمن. وأخيراً فإننا نوجه جهودنا مباشرة إلى مشاعر عشق السلطة والسيطرة الذي ينمو مع ذلك النوع من البنيان الجسدي فيما يكاد يكون كل صوره. إننا نوجه عشق السلطة هذا في قنوات خاصة ونغير اتجاهه، نحوله من عشق ممارسة السيطرة على الناس إلى حب السيطرة على الاشياء. إننا نوكل إليهم كل المهام الصعبة لكي ينجزوها ــ المهام الشاقة والعنيفة التي تشغل عضـلاتهم وتشبع شبقهم الشديد إلى السيطرة ولكنها لاتشبع هذا الشبق على حساب أي انسان ومن خلال سبل غير مؤذية ولا ضرر منها أو مفيدة بشكل ايجابي.»

ــ «وهكذا فإن أولئك الاشخاص الرائعين يسقطون الاشجار بدلاً من اسقاط الناس ــ أليس الأمر كذلك؟»

ــ «بالضبط.. وحينما ينالون ما يكفيهم من الغابات، يستطيعون المضي إلى البحر، أو يجربون عضلات سواعدهم في التعدين في المناجم، أو إن شئت ، وبطريقة نسبية في أحواض مشاتل الارز.»

فجأة ضحك ويل فارنابي..

ــ «ما هي النكتة؟ ماذا يضحكك؟»

ــ «كنت أفكر في أبي. ربما كان القليل من تقطيع الاشجار هو الكفيل بإعادة خلقه ــ ولا داعي لذكر تخليصه من أسرته الملعونة. لقد كان لسوء الحظ سيداً انجليزياً فكان تقطيع الأشجار شيئاً لايخطر على البال.»

ــ «ألم يكن أمامه أي نوع من التنفيس الجسدي عن طاقاته؟»

هز ويل رأسه نافياً وقال ليوضح الأمر: «كان والدي يظن أنه رجل مثقف إلى جانب كونه سيداً مهذباً. ولكن المثقف لايمارس الصيد أو إطلاق الرصاص أو لعب الجولف، إنه لايفعل شيئاً عدا التفكير وشرب الخمور. وإلى جانب البراندي كانت تسلية أبي الوحيدة هي فرض بطلجته على الآخرين، وبريدج المزايدة والكلام في نظرية السياسة. كان يتخيل نفسه في صورة نسخة القرن العشرين من «لورد أكتون» الذي كان الفيلسوف الأخير للنزعة الليبرالية. والذي كان لذلك وحيداً لارفيق له. وكان ينبغي أن تسمعه عندما يتحدث عن مشكلات الدولة الحديثة، ذات السيطرة الشاملة. كان يردد القول الشائع: «السلطة مفسدة والسلطة المطلقة تفسد فساداً مطلقاً. مطلقاً.» ثم يحتسي بعد ذلك كأساً أخرى من البراندي ثم ينثني بشهية متجددة إلى لعبته المفضلة، وهي سحق زوجته وأطفاله إذ ينزل فوقهم بكل ثقله.»

قال الدكتور روبرت: «وإذا لم يكن «أكتون» نفسه قد تصرف بهذا الشكل فلم يكن ذلك إلا لأنه تصادف أن كان رجلاً فاضلاً ذكياً ــ لم يكن هناك في نظريته شيء موجه إلى تقييد آثار انحراف «صاحب العضلات» أو «عقلةاصبع» ثم يجد العلاج المناسب ومنعه من أن يسحق أي شخص يمكن أن يطأه بقدمه. كانت هذه هي نقطة الضعف القاتلة في فلسفة «أكتون». لقد كان جديراً بالإعجاب تماماً بوصفه منظراً سياسياً. ولكنه لم يكن له أي وجود بوصفه محللاً نفسياً عملياً. ويبدو أنه ظن أن مشكلة السلطة يمكن أن تحل عن طريق الترتيبات الاجتماعية الجيدة التي تزود ــ بالطبع ــ بنوع جيد من النظم الاخلاقية وقدر معقول من العقيدة الدينية الواضحة. ولكن مشكلة السلطة لها جذورها في التشريح والكيمياء العضوية وفي التكوين المزاجي للانسان. لابد أن يكبح جماح السلطة على المستويين القانوني والسياسي، وهذا واضح بشكل كاف. ولكن من الواضح أيضاً أنه لابد أن تكون هناك كوابح وموانع على المستوى الفردي على مستوى الغريزة والعاطفة، على

مستوى الغدد والامعاء، على مستوى العضلات والدم ولو قد أتيح لي ما يكفي من الوقت لألفت كتاباً عن العلاقة بين التكوين العضوي للانسان وبين الأخلاق والدين والسياسة والقانون.»

رد ويل قائلاً: «القانون؟ كنت على وشك أن أسألك عن القانون. هل أنتم مجردون تماماً من أي نظام نقابي؟ لاتشهرون سيوفاً على الاطلاق؟ أم أنكم ما زلتم بحاجة إلى القضاة ورجال الشرطة؟»

قال الدكتور روبرت: «إننا مازلنا بحاجة إليهم ـ ولكننا لانحتاج إلى نفس العدد الكبير منهم الذي تحتاجون أنتم إليه. فنحن في المحل الأول لانرتكب الكثير جداً من الجرائم. وذلك بفضل العلاج الوقائي والتعليم الوقائي. وفي المحل الثاني فإن العدد القليل جداً من الجرائم التي ترتكب يتم التعامل معها على أيدي جماعة «العلاج داخل المجتمع» التي تتمتع بمسؤولية جماعية ازاء الانحراف والمنحرفين. وفي الحالات الصعبة يُضاف إلى علاج الجماعة ـ أو يحل محله ـ علاج طبي بالإضافة إلى كمية مناسبة من عقار «الموكشا» يتناولها الشخص المعني في تجارب محددة يشرف عليها ويوجهها شخص يتمتع بدرجة غير عادية من نفاذ البصيرة».

ـ «إذن فأين يتدخل القضاة؟»

ـ «إن القاضي يصغي إلى الأدلة المقدمة ويقرر ما إذا كان الشخص المتهم بريئاً أم مذنباً فإذا وجده مذنباً أوصى به لجماعة «العلاج داخل المجتمع» التي يتبعها حيثما كان ذلك هو العلاج المطلوب، أو إلى الهيئة المحلية من خبراء الطب والدراسات النفسية الدقيقة.وفي فترات محددة، يقدم الخبراء، وأعضاء جماعة «العلاج داخل المجتمع» تقريرهم إلى القاضي، وحينما تكون التقارير مرضية تحفظ القضية..»

ـ «فإذا لم تكن التقارير مرضية أبداً؟»

ـ قال الدكتور روبرت: «إنها دائماً مرضية على المدى الطويل.»

ساد بعض الصمت.

فجأة سأله فيجايا: «هل حدث أبداً أن قمت بتسلق الصخور؟»

ضحك ويل وقال: «كيف تفسر إذن أن أتيت معكم بساقي الثالثة هذه؟»

ـ «كان ذلك تسلقاً اضطرارياً. هل تسلقت الصخور ذات مرة لمجرد التسلية؟»

قال ويل: «تسلقتها بما يكفي لاقناعي بأنني لست كفؤاً لهذا النوع من التسلية..»

نظر فيجايا إلى موروجان نظرة سريعة وقال: «وماذا من أمرك أنت حينما كنت في سويسرا؟».

اشتد احمرار وجه الصبي وهز رأسه نافياً وقال مغمغماً: «لا يمكنك أبداً أن تقوم بشيء من هذه الأعمال إذا كان لديك استعداد للإصابة بالسل.»

قال فيجايا: «يا للخسارة.. لقد كان يمكن أن يكون هذا مفيداً لك حتماً».

سأل ويل: «هل يقوم الناس بالتسلق كثيراً في هذه الجبال؟»

ـ «إن التسلق جزء ثابت وأساسي من المقررات المدرسية».

ـ «لكل تلميذ؟»

ـ «القليل منه لكل تلميذ. مع المزيد من التعامل مع الصخور بالنسبة لاصحاب العضلات النامية من الناس ـ وهذا يعني نسبة تصل إلى واحد بين كل اثني عشر صبياً، وواحدة بين كل سبع وعشرين من البنات. سرعان ما سترى الآن بعض الصغار يشرعون في أول تسلق لهم في المرحلة السابقة على المرحلة الأولية».

أخذ الطريق الضيق في الاتساع ومضى ضوؤه يزداد اشراقاً، وفجأة أصبحوا خارج الغابة المبللة بقطرات الندى ليخرجوا إلى حافة عريضة من الأرض المستوية تقريباً تحيطها من ثلاثة جوانب جدران من صخور حمراء تتصاعد لمسافة تزيد على الألف قدم في سلسلة متتالية من الدرجات المنبسطة والقمم المدببة المنعزلة بعضها عن البعض. كان الهواء طازجاً ومنعشاً، وحينما تركوا أشعة الشمس لكي يظللهم الظل الممتد من تحت ركام السحب المنخفضة الطافية وسط السماء كالجزيرة أصبح الجو أقرب إلى البرودة. انحنى الدكتور روبرت إلى الأمام وأشار عبر الزجاج الأمامي للسيارة إلى مجموعة من الابنية البيضاء، تنتصب فوق مسطح صغير بالقرب من مركز الهضبة.

قال: «هذه هي محطة المناطق المرتفعة. إنها على ارتفاع سبعة آلاف قدم فوق سطح البحر. تحيط بها مساحة تزيد على سبعة آلاف هكتار من الأرض الجيدة المنبسطة حيث يمكننا أن نزرع بالفعل كل ما يزرع في جنوب أوروبا. القمح والشعير،البازلاء الخضراء والكرنب والخس والطماطم. فالثمار لاتنضج حيث تزيد درجة الحرارة في الليل على ثمانٍ وستين درجة فهرنهايت. التوت والفراولة والبندق واللوز، البرقوق والكمثرى والمشمش. هذا بالاضافة إلى كل النباتات الثمينة التي تنتمي إلى المناطق الجبلية في مثل هذا الارتفاع. بما في ذلك نباتات عش الغراب الذي يرفضه صديقنا الشاب بكل ما يملك من العنف.

سأل ويل: «أهذا هو المكان الذي تتجه إليه رحلتنا؟»

ـ «كلا. إننا سنمضي إلى منطقة أكثر ارتفاعاً» وأشار الدكتور روبرت إلى آخر نقطة

تبدو من مكانهم.. وهي حافة من الصخور الحمراء، تهبط الأرض عندها من جانب واحد لكي تصل إلى الادغال، بينما تمضي في ارتفاعها من الجانب الآخر دون انقطاع نحو قمة مرتفعة مختفية عن الأنظار وضائعة بين السحب، وقال:

«سنصعد إلى معبد «شيفا» القديم حيث اعتاد الحجاج أن يأتوا كل ربيع وخريف، حينما يعتدل الطقس مرتين في العام. هذا واحد من أفضل الأمكنة عندي في الجزيرة حينما كان أطفالي صغاراً، أعتدت أنا ولاكشمي أن نأتي إلى هنا للنزهة كل أسبوع تقريباً.كم من السنوات مضت على ذلك..»

كانت نغمة حزن رقيقة قد تخللت صوته. تنهد وأغمض عينيه وهو ينحني في مقعده إلى الخلف..

استداروا حول الطريق الذي يؤدي إلى «محطة المناطق المرتفعة» وشرعوا مرة ثانية في تسلق السفح المرتفع.

قال فيجايا: «هانحن ندخل آخر مرحلة وأسوأ المراحل كلها.إنها سبع لفات ضيقة، ونصف ميل في نفق غير مرصوف..»

نقل المحرك إلى النقلة الأولى، وأصبح تبادل الحوار مستحيلاً. وبعد عشر دقائق كانوا قد وصلوا إلى هدفهم.

الفصل العاشر

هبط ويل بحذر من السيارة وهو يمد ساقه المتخشبة وراح ينظر فيما حوله. كان صدر الحافة العريضة قد تمت تسويته بين المنحدرات الحمراء الشاهقة إلى الجنوب والتعاريج الممتدة في كل الاتجاهات الاخرى، وفي منتصف هذه الشرفة الطويلة الضيقة قام المعبد ـ برجاً شامخاً أحمر اللون مشيداً بنفس المادة التي صنعت الطبيعة منها الجبال، هائل الحجم، رباعي الشكل قد اتجهت جدرانه نحو الجهات الاصلية الاربع، وصبغت الجدران من الخارج بخطوط أفقية متوازية. كان للمعبد مظهر التوازن في تقابل مع الصخور، ولكنه لم يكن يتمتع بالاتساق الذي تتمتع به الاشكال المجردة في الهندسة الاقليدية، هندسة المصطلحات والخطوط المتقابلة، وإنما كان يتمتع بالاتساق العملي المحسوب الذي يتمتع به الكائن الحي. أجل، الكائن الحي، لأن كل سطوح جدران المعبد ذات الزخرفة الثرية، وكل خطوطه الخارجية المنطلقة على صفحة السماء المنحنية إلى الداخل بطريقة عضوية تضيق محيطاتها كلما تصاعدت نحو الحلقة المرمرية العليا التي ينتفخ الحجر الأحمر من فوقها مرة ثانية مثل فصوص البذور في نبات مزدهر لكي تؤدي إلى قبة منبعجة مكورة ذات خطوط عديدة تغطي البناء كله.

قال الدكتور روبرت: «لقد شُيّد هذا المعبد قبل الغزو النورماندي لانجلترا بنحو خمسين عاماً.»

قال ويل معلقاً: «ويبدو أنه لم يشيد بيد أي مخلوق، كما لو كان قد نما من قلب الصخر. نما مثل برعم ساق الصبار، عند العقدة التي تبدأ فيها مرحلة أخرى من الساق في ارتفاعها اثني عشر قدماً ثم تنفجر الزهور عند هذا الارتفاع».

لمس فيجايا ذراعه وقال: «انظر.. هذه جماعة من المبتدئين في تعلم التسلق يهبطون الصخور.»

التفت ويل نحو الجبل فرأى شاباً يرتدي حذاء مزوداً بالمسامير تحت ملابس التسلق وهو يشق طريقه هابطاً وسط شق بين الصخور يواجه الهاوية. وفي النقطة التي تهيأت عندها في الشق الصخري بقعة للوقوف، توقف وأدار رأسه إلى الخلف وأطلق صيحة مثل صيحة المتسلقين في جبال الالب. وعلى ارتفاع خمسين قدماً من فوقه برز صبي من خلف كتلة ضخمة من الصخور ودلى نفسه من الحافة التي كان يقف فوقها وشرع في الهبوط وسط الشق وسأل فيجايا وهو يلتفت إلى موروجان «ألا يغريك هذا المنظر؟»

هز موروجان كتفيه وهو يحاول في تثاقل أن يبالغ في تمثيل دور الشخص الكبير العاقل الذي ملأه الضجر، والذي يعرف أن لديه شيئاً لكي يقوم به أفضل من مراقبة الاطفال وهم يلعبون، وقال: «لايمثل لي أي إغراء.» وتحرك مبتعداً وجلس على تمثال منحوت لأسد مجنح، وجذب من جيبه مجلة أمريكية مازالت في المظروف الذي أُرسلت به بالبريد وشرع في القراءة.

سأله فيجايا: «ما نوع الادب الذي تقرأه؟»

قال موروجان: «قصة علمية». وكان في صوته رنة جفاء واضحة.

ضحك الدكتور روبرت وقال: «أي شيء للهرب من الحقيقة.»

قلب موروجان صفحة من مجلته واسترخى في القراءة متظاهراً بأنه لم يسمع.

قال الدكتور فيجايا الذي كان يراقب المتسلق الصغير وهو يتقدم في هبوطه:«إنه ممتاز جداً، إن معهم رجلاً مدرباً عند كل من نهايتي الجبل.. إنك لاتستطيع أن ترى الرجل رقم واحد. فهو وراء تلك الكتلة من الصخور وسط شق موازٍ على ارتفاع ثلاثين أو أربعين قدماً أخرى ويوجد خطاف حديدي مثبت هناك لكي تستطيع أن تربط الحبل إليه، وبذلك يمكن أن تسقط الجماعة كلها ومع ذلك يبقون جميعاً سالمين وفي أمان تام».

ظل قائد الجماعة يطلق صيحات التوجيه والتشجيع وقد فرد ساقيه وذراعيه، مثبتاً القدمين واليدين في فتحات التسلق المنحوتة في صخور كل من جداري الشق الطولي الذي هبط فيه. وحينما اقترب منه الصبي ترك القائد له مكانه وهبط مسافة عشرين قدماً أخرى، ثم توقف وصاح صيحته الجبلية مرة أخرى. ظهرت من خلف كتلة الصخر فتاة كانت تلم شعرها خلف رأسها على شكل ذيل الحصان، وقد ارتدت بنطلوناً وحذاء برقبة مزوداً بالمسامير، ودلت نفسها وسط جدران الشق الطولي.

قال فيجايا مشجعاً وهو يراقبها: «ممتازة».

وفي نفس الوقت خرجت جماعة من الشبان لكي يشاهدوا ما يحدث، وقد برزوا من داخل بناء منخفض عند قاع المرتفع، هو مبنى كان من الواضح أنه تحوير استوائي لأكواخ جبال الألب. وقيل لويل إنهم ينتمون لثلاث جماعات أخرى من المتسلقين كانوا قد تلقوا تدريبهم الابتدائي الأوليّ على التسلق في فترة باكرة من اليوم نفسه.

سأل ويل: «هل يربح الفريق الأفضل جائزة ما؟»

أجابه فيجايا: «لايكسب أحد أي شيء فليست هناك منافسة. إنها أقرب ما تكون إلى المحنة.»

قال الدكتور روبرت مفسراً: «محنة أو اختبار هو المرحلة الأولى من عملية انتهائهم من مرحلة الطفولة ودخولهم مرحلة المراهقة. محنة تساعدهم على فهم العالم الذي سوف يعيشون فيه، وتساعدهم على التحقق من حضور الموت حضوراً دائمًا مهدداً. وهو الخطرُ الاساسي الذي يهدد الوجود كـله. ولكن بعد المحنة يأتي الكشف والرؤيا فبعد دقائق قليلة سوف يخوض هؤلاء الصبية والفتيات أول تجربة لهم مع دواء «الموكشـا» سوف يتناولونه جميعاً معاً، وسوف يكون هناك احتفال ديني في المعبد.»

ــ «أهو احتفال يماثل احتفال «خدمة التعميد» في الكنيسة؟»

ــ «باستثناء أن احتفالنا هذا شيء أكثر من مجرد الهراء الاسطوري. وبفضل دواء «الموكشا» فإنه يحتوي على اختبار وممارسة فعليين للشيء الحقيقي.»

هز ويل رأسه وقال: «الشيء الحقيقي؟ أهناك مثل هذا الشيء؟ أتمنى لو كـان باستطاعتي أن أصدق هذا.»

قال الدكتور روبرت: «وليس من المطلوب منك أن تصدقه أو أن تؤمن بـه.. فالشيء الحقيقي ليس افتراضاً. إنه حالة من حالات الوجود، إننا لانلقن أطفالنا مسلمات جامدة، ولاندفعهم إلى الانفعال عاطفياً برموز مشحونة بالغامض من المعاني - حينما يحين الوقت المناسب لهم لكي يتعلموا أعمق حقائق العقيدة الدينية، فإننا نرسلهم لكي يتسلقوا هاوية جبلية ثم نعطيهم أربعمائـة ميلليجرام من مادة الكشف عن الحقيقة. إن المراهق يقوم بتجربتين مباشرتين يحتك فيهما بالحقيقة. يستطيع عن طريقهما أي فتى ذكي أو فتاة ذكية أن تستخلص فكرة جيدة جداً عن حقيقة الحقيقة.»

قال فيجايا: «ولاتنسَ المشكلة العزيزة القديمة للقوة والسلطة، إن تسلق الصخور فرع من فروع علم الاخلاق التطبيقي. وهو بديل وقائي آخر للبلطجة».

ــ «وهكذا فقد كان ينبغي أن يكون أبي متسلقاً للجبال بالإضافة إلى كونه حطاباً».

قال فيجايا وهو يوشك أن ينفجر ضاحكاً: «ربما يحق للمرء أن يضحك ولكن تظل

الحقيقة هي أن هذه التجربة تنفع. بالفعل إنها تنفع وتؤتي ثمارها. لقد استطعت أولاً وأخيراً أن أشق طريقي لأستنقذ نفسي من عشرات من أكثر الاغراءات قبحاً كانت تدفعني إلى أن ألقي ثقلي على أي انسان، وأن ثقلي كما ترى لكبير إلى درجة ملحوظة.» ثم أضاف يقول: «وقد كانت الدوافع والمحرضات إلى ذلك قوية حقاً».

قال ويل: «لايبدو أن هناك مكاناً يمكن أن أقبض عليك منه سوى مكان واحد.ففي اثناء عملية محاولتك لشق طريقك للإفلات من الاغراء، فإنك قد تسقط و. .»

وتذكر فجأة ما حدث لدوجالد ماك فيل فسكت دون أن يتم كلامه.

كان الدكتور روبرت هو من أتم الجملة بنفسه، فقال: «إنك قد تسقط فتقتل نفسك.» ثم استمر يقول بعد سكتة قصيرة: «كان دوجالد يتسلق الجبل بمفرده ولا أحد يعرف ما قد حدث. ولم يعثر على جسده إلا في اليوم التالي.» ثم أطبق صمت طويل.

سأل ويل: «أما زلت تظن أن هذه فكرة جيدة؟» وكان يشير بعصاه المصنوعة من الخيزران نحو الشخوص الضئيلة للفتيان الذين كانوا ما يزالون يزحفون بمشقة على سطح ذلك الشق الطولي الموحش وسط الصخور الجرداء.

قال الدكتور روبرت: «أجل، ما زلت أظنها فكرة جيدة.»

ـ «ولكن سوسيلا المسكينة. .»

قال الدكتور روبرت مردداً: «أجل ، سوسيلا المسكينة، والأطفال المساكين ولاكشمي المسكينة، وأنا المسكين، ولكن لو أن دوجالد لم يتعود على المخاطرة بنفسه، فربما أصبح كل الناس مساكين لأسباب أخرى. من الافضل أن تراود خطر قتلك لنفسك بدلاً من أن تراود خطر قتلك للآخرين، أو على الأقل، أن تنزل بهم الشقاء، بأن تؤذيهم لأنك عدواني بالفطرة أو شديد التعالي أو بالغ الجهل، من الأفضل إذن أن تتخلص من عدوانيتك على حافة هوة جبلية عميقة.» ثم استمر يقول بلهجة أخرى: «والآن أريد أن أطلعك على المنظر».

قال فيجايا: «وسوف أذهب لكي اتبادل الحديث مع هؤلاء الفتية والفتيات» وسار نحو الجماعة المحتشدة تحت الصخور الحمراء.

تبع ويل الدكتور روبرت عبر بوابة تحيط بها الاعمدة تاركاً موروجان لقصته العلمية فعبرا المنصة إلى الحجرة العريضة التي تحيط بالمعبد. وفي إحدى زوايا هذه المنصة انتصب رواق صغير تعلوه قبة رشيقة. دخلا الرواق، واتجها إلى النافذة التي لا يغطيها الزجاج وراحا يتطلعان إلى الخارج.كان البحر يمتد عند خط الأفق مثل جدار صلب من الزمرد واللازورد. وتحتهم تمتد حفرة الادغال على بعد ألف قدم في مسقطٍ رأسيّ خالٍ من

التعرجات. ووراء الادغال تمتد مدرجات من صنع الانسان، انبسطت فوقها الحقول التي لاحصر لها، في تنازل رأسي مائل نحو الوديان الضيقة والأحراج. وكانت المنحدرات الاكثر انخفاضاً تمضي في ثبات نحو القاع لكي تتحول إلى سهل عريض، حيث قامت مدينة متوسطة الحجم عند أقصى أطرافه، بين حدائق السوق والشاطىء الذي تحف به سيقان النخيل الطويلة. كانت الجبال والادغال والمدرجات المزروعة والحقول المنبسطة على السفوح والسهل من تحتها والمدينة ثم البحر.. تبدو كلها من هذا الارتفاع تحت سطوع الشمس المشرقة مثل رسم دقيق تفصيلي لمدينة في كتاب من كتب الساعات التي كانت تنسخ وترسم بالايدي في القرون الوسطى.

قال الدكتور روبرت: «هذه هي «شيفابورام». وتلك الابنية المتشابكة هناك فوق التل وراء النهر ـ هي معبد بوذا الكبير.. لقد شيد في زمن يسبق بقليل زمن بناء معبد «بوروبودور» في الهند، وأن ما فيه من أعمال النحت لتماثل في جمالها أي تمثال في أعماق الهند.» ساد بعض الصمت ثم استأنف الدكتور روبرت كلامه: «هذا المنزل الصيفي الصغير، هو المكان الذي اعتدنا أن نتناول فيه طعامنا أثناء الرحلات إذا هطل المطر. لن أنسى أبداً تلك اللحظة التي راح فيها دوجالد «ولابد أنه كان في العاشرة حينذاك» يلعب بأن يتسلق هنا على حافة هذه النافذة لكي يقف على ساق واحدة في وضع الإله «شيفا» الراقص. ولقد سقط قلب لاكشمي المسكينة ولكن دوجالد كان مثل «منظف المداخن» في مهارته الفطرية في التسلق والمحافظة على توازنه. الشيء الذي لايزيد الحادث الذي وقع له إلا غموضاً.» هز رأسه، ثم أستأنف يقول بعد شيء من الصمت: «في آخر مرة جئنا فيها جميعاً إلى هنا منذ نحو ثمانية أو تسعة شهور كان دوجالد ما يزال على قيد الحياة والضعف قد بلغ من لاكشمي إلى الدرجة التي تمنعها من الخروج مع احفادها طوال يوم كامل. وقام دوجالد بنفس تلك الحركة التي يمثل فيها الإله «شيفا الراقص» لكي يسلي توم كريشنا وماري ساروجيني، وقف على ساق واحدة، وراح يحرك ذراعيه بسرعة لدرجة أنه كان بوسع المرء أن يقسم أنه كان له أربع أذرع بدلاً من ذراعين». سكت الدكتور روبرت فجأة وقطع كلامه، التقط قشرة من ملاط الحائط كانت ساقطة على الأرض وقذفها من النافذة وقال: «اسقطي، اسقطي اسقطي.. في الفضاء الفارغ. بالغرابة أن يكون هذا في نفس الوقت هو أقوى رمز للموت وأقوى رمز لأكثر صور الحياة امتلاء واتساعاً.» وفجأة أشرق وجهه وقال: «أترى هذا الصقر؟» أشار الدكتور روبرت إلى نقطة في منتصف المسافة بين شرفتهم السامقة وبين سقف الادغال المعتم حيث كان شبح بني اللون صغير الحجم لصقر سريع يحوم، بجناحيه الثابتين وقال: «إنه يذكرني بقصيدة من الشعر كان الراجا القديم قد كتبها عن هذا المكان.» وسكت الدكتور روبرت للحظة، ثم بدأ ينشد:

هنا في الأعالي، تسألني،
هنا في الأعالي ، طائراً، حيث شيفا

يرقص فوق العالم،
ماذا تظنني أفعل بحق الشيطان؟

* * *

لا جواب يا صديقي ـ فيما عدا
أن هذا الصقر تحتنا يتلفت،
لفتاته السوداء، السهمية
مجرجراً أسلاك فضة طويلة عبر الهواء ـ
إنها توهيج صرخاتها.

* * *

أنت تقول، يا لبعدي عن السهول الحارة
لإنك تقول: يا لبعدي عن كل أهلي
ومع ذلك يا لقربي هنا فيما بين السماء المتكللة بالسحب،
وبين البحر من تحتي فجأة يتبدى،
فاقرأ، سرها المشرق، وسري».

* * *

ـ «أفهم من هذا أن السر هو هذا الفراغ الخالي؟»

ـ «أو بالأحرى هو ما يرمز إليه هذا الفراغ الخالي. إنه طبيعة بوذا الكامنة في كل فنائنا الأبدي. الشيء الذي يذكرني..»

سكت ونظر إلى ساعته.

سأل ويل وهما يخطوان خارجين إلى وهج الضوء: «ماهي الفقرة التالية من البرنامج؟»

أجابه الدكتور روبرت: «الخدمة في المعبد·فسوف يقدم المتسلقون الشبان انجازهم إلى شيفا ـ وبكلمات أخرى: سوف يقدمون نجاحهم إلى شبيههم الخاص مجسداً في صورة الرب. وبعد هذا سوف يمضون إلى الجزء الثاني من احتفالهم الشعائري ـ تجربة التحرر من ذواتهم..»

ـ «بواسطة دواء «الموكشا»؟».

أومأ الدكتور روبرت برأسه وقال: «إن قادتهم يعطونهم إياه قبل مغادرتهم كوخ جمعية المتسلقين .... وبعد ذلك يصعدون إلى المعبد. وتبدأ المادة في التأثير عليهم أثناء الخدمة» ثم قال مستطرداً: «بهذه المناسبة إن الخدمة تجري باللغة السنسكريتية، وبذلك لن تفهم منها كلمة واحدة. أما الخطاب الذي سيلقيه فيجايا فسوف يكون بالانجليزية ـ إنه

يتحدث فيهم بوصفه «رئيس جمعية التسلق على الصخور.. وكذلك سوف تكون كلمتي. وبطبيعة الحال سيدور أكثر حديث الشبان بالانجليزية»...

في داخل المعبد كانت تسود ظلمة باردة أشبه بظلمة الكهوف، لاتخففها إلا أضواء النهار الشاحبة المتسللة إلى الداخل من زوج من النوافذ المغطاة بشباك القضبان النحاسية، ثم الاضواء الصادرة من سبعة من المصابيح المعلقة مثل نجوم شاحبة صفراء مرتعشة فوق رأس الصورة القائمة في صدر المذبح. كانت الصورة تمثالاً للإله «شيفا» من النحاس، لايزيد طوله على طول الطفل. وكانت تحيط برأسه هالة المجد النورانية، وأذرعته الأربع تشير إلى اتجاهات مختلفة. وشعره المشعث يتطاير بوحشية وقدمه اليمنى تسحق شخصاً قزمياً يوحي بأكثر الطبائع الكريهة خبثاً، وقد أرتفعت القدم اليسرى برشاقة ووقف الإله في مكانه ساكناً بتعبيره الذي يدل على عمق شعوره بالارتياح.. وجلس على الأرض بسيقان متقاطعة اثنا عشر فتى وفتاة من الرجال الستة الذين قاموا بمهمة قيادتهم وتدريبهم، بعد أن خلعوا ملابس التسلق، ووضعوا الصنادل في أقدامهم وتجردت صدورهم وارتدوا البنطلونات القصيرة أو الجونلات ذات الألوان الزاهية. وفوقهم وعلى أعلى درجات المذبح وقف كاهن عجوز، حليق الرأس مكللا بالثياب الصفراء وكان يغمغم بشيء غير مفهوم في صوت جهوري.. وترك الدكتور روبرت ويل واقفاً عند مكان مناسب للمراقبة وتقدم على أطراف أصابعه إلى حيث كان فيجايا وموروجان يجلسان ثم أقعى على الأرض إلى جوارهما..

أخلت الهمهمة العميقة للغة السنسكريتية مكانها لغناء أخن النغمة مرتفع الصوت، وبعد لحظات أخلى الغناء مكانه لسلسلة من الصيحات الكهنوتية الابتهالية التي كانت تتبادل نوعاً من الحوار مع الإجابات الشبيهة بتهليل المصلين.

بعد ذلك أُحرق البخور في مبخرة نحاسية، ورفع الكاهن العجوز ذراعيه يطالب بالصمت. وخلال الفترة الطويلة المثقلة بالمعاني والتي ساد فيها الصمت المطبق والسكون الكامل مضى خليط دخان البخور الرمادي يتصاعد مستقيماً دون ارتعاش أمام الإله. وحينما التقى بتيار الهواء القادم من النوافذ المرتفعة انفجر وغاب عن الانظار لكي يتحول إلى سحابة غير منظورة ملأت كل مساحة الفراغ المعتم بالعبير الغامض الذي يوحي بعالم آخر غير هذا العالم.. وفتح ويل عينيه ورأى أن موروجان، دوناً عن كل المبتهلين الآخرين المشاركين في أداء الشعائر، كان يتململ ساخطاً في قلق — بل إنه لم يكن يكتفي بإظهار ملله، وإنما راح يعبر بوجهه عن رفضه النافذ الصبر.. لم يكن قد تسلق الصخور من قبل أبداً، ولذلك فإن التسلق كان عنده مجرد حماقة لامعنى لها. وكان دائماً قد رفض أن يجرب دواء «الموكشا» ولذلك فإن من يستخدمونه كانوا عنده مما لا يمكنه احتمالهم، وقد آمنت أمه «بالسادة المنزلين من السماء».، العفاريت، وكانت تتبادل الثرثرات بانتظام مع الروح —

كوت هومي ــ ولذلك فإن صورة «شيفا» كانت في عينيه وثناً مبتذلاً ليس له قمية. فكر ويل بينه وبين نفسه وهو ينظر إلى الغلام: «يا له من تمثيل إيماني صامت فصيح ومعبر، ولكن يا لخيبة الصغير المسكين موروجان. إن أحداً لم يكن يولي أشياءه العتيقة العزيزة أقل اهتمام». «شيفا باناما» كذلك قال الكاهن العجوز محطماً ما ساد من صمت طويل وردد ثانية: «شيفا باناما» وأشار إشارة يدعو بها شخصاً إلى المثول بين يديه..

نهضت من مكانها الفتاة الطويلة التي كان ويل قد رآها تشق طريقها هابطة بين جدران الشق الصخري المشرف على الهوة، وصعدت درجات المذبح، وإذ وقفت على اطراف أصابعها، وبدأ جسدها المدهون بالزيت يلمع مثل تمثال نحاسي آخر تحت ضوء المصابيح. علقت باقة مستديرة من الزهور الصفراء على ذراعي «شيفا» العلويين على اليسار وإذ وضعت كفاً على كف، وقفت تنظر إلى وجه الإله المشرق بابتسامة هادئة ثم شرعت تتكلم في صوت كان يرتعش في البداية ولكنه أخذ يزداد ثباتاً بالتدريج:

«أنت أيها الخالق، أنت أيها المدمّر، أنت يا من تحفظ الحياة، وتضع لها النهاية، يا من ترقص في ضوء الشمس بين الطيور ووسط الأطفال في لعبهم.

ويا من ــ في منتصف الليل ــ ترقص بين جثث
الموتى في الأرض المشتعلة.
أنت شيفا. أنت بهايرافا[٣٠] المعتم
المخيف.
أنت الشبيه والوهم، الفراغ بلا نهاية
وكل الأشياء.
أنت سيد الحياة، ولذلك فقد أتيتك بالزهور
أنت سيد الموت، ولذلك فقد أتيتك بقلبي
هذا القلب الذي هو الآن أرضك المشتعلة
هناك الجهل والذات سوف تأكلهما النار
أما انك سوف ترقص، يا بهايرافا، وسط الرماد
أما أنك سوف ترقص أيها الرب شيفا، حيث الزهور
تتكاثر.
وسوف أرقص أنا معك.

وإذ رفعت الفتاة ذراعيها وأشارت إشارة دلت على الولاء والانغماس الغامرين الذين

---

(٣٠) بهايرافا ــ أحد أسماء شيفا، حينما يكون هو الليل والموت والعقم والخراب الخالي من الحياة والذي يقضي عليها.

ملا قلوب مائة جيل من العباد الراقصين. ثم استدارت مبتعدة، وسارت عائدة إلى الضوء الخافت، صاح شخص ما قائلاً: «شيفا باناما». وتعالى شخير مورروجان باحتقار حينما أجابت على الصيحة اصوات شابة أخرى. . «شيفا باناما، شيفا باناما». كذلك بدأ الكاهن العجوز فقرة أخرى من مخطوطات الابتهالات القديمة. . وفي منتصف إنشاده انطلق من إحدى النوافذ ذات القضبان النحاسية طائر رمادي صغير له رأس قرمزي، ومضى يحوم بعنف ويخفق بجناحيه حول مصابيح المذبح، ثم صرخ صرخة رعب مرتفعة واندفع خارجاً مرة أخرى. واستمر الغناء، وبلغ ذروته، وانتهى إلى الابتهال الخامس طلباً للسلام: شانتي، شانتي، شانتي. استدار الكاهن العجوز مرة ثانية إلى المذبح، والتقط مشعلاً رشيقاً طويلاً، وأشعله من أحد المصابيح المعلقة فوق رأس شيفا وتقدم لكي يشعل سبعة مصابيح أخرى كانت معلقة داخل كوة محفورة في الجدار تحت القاعدة التي كان الراقص يقف فوقها. انعكس الضوء على زخارف المعدن المصقولة اللامعة، فكشف عن تمثال آخر — وفي هذه المرة جمع التمثال بين شيفا وبارفاتي[٣١] في شكل «عذراء القوس»[٣٢] وكان التمثال جالساً، بينما أمسكت ذراعان من أذرعته الأربع بالطبلة وشعلة النار الرمزيتين وراحت الذراعان الأخريان يلاطفان الربة العاشقة، بساقيها وذراعيها الملتفة التي كانت تحيط بها في ذلك العناق البرونزي الأبدي. لوح الكاهن العجوز بيده، وفي هذه المرة نهض صبي بني البشرة قوى العضلات فخطا إلى دائرة الضوء. . ولما انحنى إلى الأمام قام فعلق باقة الزهور التي كان يحملها في عنق بارفاتي، ثم ثنى سلسلة طويلة من الزهور ونثر كومة أخرى من زهور الاوركيد البيضاء على رأس شيفا.

قال: «كل منكما، أنتما معاً.»

وردد كورس الاصوات الشابة وراءه يقول:

— «كل منكما، أنتما معاً.»

هز مورروجان رأسه بقوة. . .

---

(٣١) بارفاتي هي الابنة المقدسة للإله «هيمالايا» وكانت أيضاً تجسيداً للربة الكبرى «كالي دوجراساتي» المقابل الانثوي الابدي لشيفا والصورة المرئية لما يكمن فيه من حيوية وطاقة وهي التي كان على الرب الأكبر، شيفا، أن يعرفها بين حين وآخر، من أجل خير الكون. وكانت بارفاتي أيضاً، بعد أن أصبحت تجسيداً للربة كالي قد أرسلت بأمر من ملك الأرباب «أندرا» يصحبها الإله، ورسول الآلهة «كاما» لكي يقطعا على شيفا تأملاته حتى يقع في حب بارفاتي، ويمتلىء العالم من حبهما الأبدي. (زيمر ١٤١).

(٣٢) عذراء القوس، شكل أو وضع من أوضاع الحب بين شيفا وبارفاتي الكثيرة التي وصفت بالتفصيل في كتاب الحب «كاماسوترا» وفيه نرى بارفاتي من ظهرها وقد تعلقت بساقيها حول أسفل بطن شيفا وبذراعيها حول عنقه، بينما تدلت رموز اله الحب «كاما» وهي قوس الزهور والسهام الخمسة من يدي شيفا على ظهر بارفاتي العاشقة.(زيمر ٣٨/٤٠، ١٤٥/١٤٩)

قال الصبي ذو البشرة البنية الداكنة:

ـ «أوه، يا من ذهبت. يا من ذهبت، يا من ذهبت إلى الشاطىء الآخر أنت أيها النور.»

وأنت أيها النور الآخر ـ ايتها الحرية التي توحدت مع حرية مثلها.. ايها الحنان بين ذراعي حنان لانهاية له».

«شيفا ياناما.»

عاد الصبي إلى مكانه وساد صمت طويل ـ نهض فيجايا على قدميه وبدأ يتكلم.

قال: «الخطر. الخطر. الخطر نقبله بتعمد وإن كنا نقبل منه الشيء القليل، الخطر مشتركاً مع صديق، أو مجموعة من الأصدقاء.. نشترك فيه بوعي، تشترك فيه إلى حدود الوعي والادراك، حتى تصبح المشاركة والخطر وحدة واحدة، مثل اليوجا. صديقان يشدهما حبل واحد على سطح صخرة. وأحياناً يكون هناك ثلاثة أصدقاء أو أربعة. كل منهم يعي وعياً كاملاً بعضلاته المشدودة، وبمهارته الخاصة، وبخوفه الخاص، وبروحه إذ يتنزل عليها الخوف.. وكل منهم بالطبع يعي في نفس اللحظة بالآخرين جميعاً، مهتم بهم.. يأتي الأفعال الصحيحة لكي يكون واثقاً من أنهم سيكونون جميعاً سالمين وفي أمان. الحياة عند أقصى درجات توترها الجسدي والعقلي، الحياة عندما تكون أكثر وفرة، وأغلى وأثمن إلى حد لايمكن تقديره، بسبب ما يهددها من الحضور الأبدي للموت. ولكن، بعد يوجا الخطر، أي وحدته وتركزه، هناك يوجا القمة وتركزها،يوجا الراحة وترك الامور لتجري في اعنتها، يوجا التفتح النفسي والجسدي الكامل والكلي، اليوجا التي تقوم على التقبل الواعي لما يعطى للمرء على صورته التي يأتيه بها، دون رقابة يفرضها عقلك الأخلاقي المشغول، ودون إضافات يقدمها مخزونك من الأفكار المستعملة، أو حتى يقدمها مخزونك الاكبر حجماً من خيالاتك التي تشتهي وجودها وليس لها وجود حقيقي. إنك فقط تجلس في مكانك وعضلاتك مسترخية كعقل مفتوح لضوء الشمس والسحب، مفتوح للمسافات البعيدة والأفق الممتد، مفتوح في النهاية لتلك الحالة من «اللافكر» التي لاشكل لها ولا كلمة تشذ عن صمتها، التي يسمح لك سكون القمة بأن تقدسها بعمق وعلى الدوام، في قلب التيار المتذبذب الدفاق لتفكيرك اليومي.

«والآن، حان وقت الهبوط، أوان الجرعة الثانية من يوجا الخطر.أوان تجديد التوتر وإدراك الحياة في أكثر جوانبها البراقة حينما تتعلق متأرجحاً على حافة الدمار. ثم تحل الحبل الذي تتعلق به عند قاع الهاوية ثم تمضي بخطوات واسعة فتهبط الطريق الصخري نحو أوائل الاشجار. وفجأة تصبح في الغابة فيتم استدعاء نوع آخر من اليوجا ـ يوجا الأدغال، اليوجا التي تقوم على أن تكون كامل الادراك بالحياة وهي على قيد خطوة منك، حياة الأدغال بكل ما فيها من تنوع وتعفن وقذارة متزاحمة متراكمة، بكل ما فيها من تقابل

بين زهور الاوركيد والحشرات السامة، الطفيليات المتمرغة في الوحل وطيور الكناريا، الكائنات التي تشرب الرحيق وتلك التي تمتص الدماء، الحياة تستخرج النظام من قلب الفوضى والقبح، الحياة تحقق معجزاتها من ميلاد ونمو، ولكن يبدو انها لاتحقق تلك المعجزات بهدف ما سوى أن تدمر نفسها. الجمال والرعب. الجمال والرعب. ثم فجأة، حينما تهبط عائداً من إحدى رحلاتك في الجبال، فجأة تعرف أن صلحاً أو وفاقاً ما قد تمّ بينهما، انصهاراً ثم تداخلاً كاملاً. الجمال يتوحد مع الرعب في يوجا الادغال. الحياة تصالحت مع التهديد الدائم للموت في يوجا الخطر. الفراغ تطابقت هويته مع إحساس الذات بنفسها في يوجا «سبت» القمة وسكونها الشامل.»

أطبق الصمت. تثاءب موروجان في مظاهرة فلفت الأنظار. أشعل الكاهن العجوز عوداً آخر من البخور وراح يتمتم. ثم لوح بعود البخور أمام الإله الراقص. ثم لوّح به مرة ثانية أمام تمثال الحب الكوني الذي يمارسه شيفا مع الربة.

قال فيجايا: «تنفسوا بعمق، وحينما تتنفسون، انتبهوا لهذه الرائحة من البخور. ركزوا انتباهكم عليها، اعرفوها كما هي عليه ــ حقيقة لايمكن وصفها ولاتطولها الكلمات، لايطولها العقل ولاتفسير لها. اعرفوها في صورتها الخام. اعرفوها كسرٍ غامض. العطر والنساء والصلاة ــ كانت تلك هي الأشياء التي أحبها محمد أكثر من كلٍ شيء. إنها المادة التي لايمكن تفسيرها للبخور الذي نتنفسه. والجلد الذي نلمسه، والحب الذي نشعر به، ومن ورائها جميعاً، سرّ الاسرار، الواحد في الكثرة، الفراغ الذي هو كل شيء، الشبيه الحاضر كلياً في كل حضور، في كل نقطة من مكان وبرهة من زمن. فتنفسوا. تنفسوا.» ثم قال في همسة أخيرة وهو يعود إلى الجلوس: «تنفسوا».

غمغم الكاهن العجوز في تنهيدة دافئة: «شيفا پاناما».

نهض الدكتور روبرت واتجه نحو المذبح، ثم توقف ، والتفت إلى الخلف وأشار إلى ويل فارنابي.

همس حينما لحق به ويل: «تعال واجلس معي. يروق لي أن ترى وجوههم».

ــ «ألن أكون عقبة في طريقك؟»

هز الدكتور روبرت رأسه، وتقدما سوياً إلى الأمام، وصعدا الدرجات وبعد أن قطعا ثلاثة أرباع المسافة إلى المذبح جلسا جنباً إلى جنب في شبه الظل الساقط بين منطقة الظلمة وضوء المصابيح. وفي هدوء كامل، شرع الدكتور روبرت يتحدث عن «شيفا ــ ناتاراجا»[٣٣]إله الرقص.

---

(٣٣) شيفا ــ ناتاراجا ــ أحد اسماء شيفا، راقصاً. برقصه يخلق العالم والكون وبالرقص قد يدمره أيضاً.

قال: «انظروا إلى صورته، انظروا إليها بتلك العيون الجديدة التي منحهـا لكم دواء «الموكشا». انظروا كيف تتنفس وتنبض، انظروا كيف تخرج من نور إلى نور أكثر إشراقاً. تخترق زمنا راقصة إلى زمن، ترقص إلى مالا نهاية وفي الآن الأبدي. إنه يرقص ويرقص في كل عالم في اللحظة نفسها. . انظروا إليه.»

لاحظ ويل، وهو يتفحص تلك الوجوه الملتفة إلى أعلى مدققاً في أحدها ثم في الآخر، لاحظ اشراقات البهجة والتعرف والفهم البازغة، علامات التعجب القانت بما تملأه من ابتهال، الذي يرتعش على حواف الراحة أو الرعب.

قال الدكتور روبرت بإصرار: «امعنوا النظر. امعنوا النظر أكثر.» ثم أضاف يقول بعد دقيقة طويلة من الصمت مردداً: «إنه يرقص في كل عالم في اللحظة ذاتها. في كل العوالم. وفي عالم المادة قبل كل شيء. انظروا إلى الهالة المستديرة العظيمة، تحف بها رموز النار، التي يرقص الإله في وسطها. إنها ترمز إلى الطبيعة، إلى عالم الكتلة والطاقة. في داخلها يرقص شيفا رقصة التحول والمفارقة اللانهائية إنها تسليته، لعبته الكونية. اللعب لأجل اللعب، مثل طفل. ولكن هذا الطفل هو «نظام الأشياء». إن مساحته هي مجرات النجوم، وملعبه هو الفضاء اللانهـائي والمسافة بين كل أصبع وأصبع ألف من ملايين السنين الضوئية. انظروا إليه هنا فوق المذبح هذه الصورة من صنع الانسان. تجسيد ضئيل من النحاس لايزيد ارتفاعه على أربعة أقدام. ولكن «شيفا ــ ناتاراجا» يملأ الكون. إنه هو الكون. اغلقوا عيونكم وانظروه يتصاعد في الليل، يتبع الامتداد اللانهائي لتلك الأذرع والشعر الوحشي الذي يتطاير بلا نهاية. ناتاراجا يلهـو بين النجـوم وفي قلب الذرات. ولكنه يلهو أيضاً داخل كل شيء حي، كل مخلوق رقيق الاحساس، داخل كل رجل وامرأة وطفل. اللعب لاجل اللعب. ولكن الملعب الآن هو الوعي. ان ساحة الرقص قادرة على الشعور بالعذاب. بالنسبة لنا تبدو هذه اللعبة التي لاهدف لها كنوع من الإهانة. إن ما قد نحبه حقاً هو الله الذي لايدمر أبداً ما خلقه بيديه، أو إذا كان لابدّ أن يوجد ألم وموت، فلينزلهما إلـه يشعر بصواب أفعاله، يعاقب الشرير ويجزي المحسن بسعادة لانهائية. ولكن المحسن ينـزل به الأذى في الحقيقة، والبريء يعاني العذاب. إذن فليكن هناك إله يتعاطف مع الابرياء المعذبين ويأتيهم بالراحة. ولكن ناتاراجا يرقص فحسب. لعبته لعبة لا علاقة لها بالموت أو بالحياة لا تتحيز لأي شر كما لا تتحيز لأي خير. في يده العليا إلى اليمين يمسك الطبل الذي يستخرج به الوجود من قلب العدم. «راب، داب داب». . فيرتسم رسم الخلق، ويتعالى في أذن الكون صوت بوق يقظته. ولكن انظروا الآن إلى يده العليا إلى اليسار. إنها ترفع النار التي سيمحق بها كل ما تم خلقه. إنه يرقص بهذا الشكل ــ فيالها من سعادة - إذن فهيا اهبطوا واقفزوا. هيـا إلى الصحة الكاملة. اهبطوا إلى السرطان والجنون. اقفزوا لتخرجوا من امتـلاء الحياة إلى العـدم

ولتخرجوا ثانية من العدم إلى الحياة. ليست هذه كلها سوى لعبة عند «ناتاراجا»، واللعبة غرض وهدف في حدّ ذاتها، لا هدف لها إلى مالا نهاية، إنه يرقص لأنه يرقص، والرقص هو «ماها ــ سوكها» بالنسبة له، أو بركته الأبدية ومتعته التي بلا نهاية. بركته الأبدية ومتعته التي بلا نهاية.» كذلك كرر الدكتور روبرت عبارته الأخيرة، ثم عاد يكررها ولكن في صيغة استفهام: «بركته الابدية ومتعته التي بلا نهاية» وهز رأسه ثم مضى يقول: «بالنسبة لنا ليست هناك بركة ولا متعة، ليس سوى الاهتزاز والتأرجح بين السعادة والرعب مع إحساس بالغضب والسخط عندما نفكر في أن آلامنا جزء من رقصة ناتاراجا لاينفصل عنها مثل ملذاتنا، تماماً مثل موتنا وحياتنا. فلنفكر في هذا بهدوء لبرهة قصيرة.»

مرت الثواني والصمت يزداد عمقاً. وفجأة وفي جفول بدأت إحدى الفتيات في البكاء. وترك فيجايا مكانه، وركع على ركبته إلى جوارها ووضع يده فوق كتفها. وخفت صوت النحيب بالتدريج.

أخيراً استأنف الدكتور روبرت كلامه فقال: «المعاناة والمرض، والشيخوخة والتحلل والموت. أنا اطلعكم على الحزن. ولكن لم يكن هذا هو الشيء الوحيد الذي أطلعنا عليه بوذا. لقد أطلعنا أيضاً على نهاية الحزن.»

صاح الكاهن العجوز بانتصار: «شيفا باناما».

«افتحوا عيونكم ثانية وانظروا إلى «ناتاراجا» هناك فوق المذبح. انظروا ملياً. في يده العليا في اليمين، كما رأيتم بالفعل، يمسك الطبلة التي تدعو العالم إلى الوجود، وفي يده العليا إلى اليسار يمسك النار المدمرة. إنهما الحياة والموت، النظام والتشتت، متوازيان متساويان. ولكن انظروا الآن إلى الزوج الآخر من أيدي شيفا.. اليد السفلى إلى اليمين مرفوعة والكف مقلوبة إلى الخارج. ماذا تعني هذه الإشارة؟ إنها تعني: «لا تخف، فكل شيء على ما يرام».. ولكن كيف يمكن لأي مخلوق عاقل ألاّ يخاف؟ كيف يستطيع أي مخلوق أن يتظاهر بأن الشر والعذاب صحيحان وعلى ما يرام، بينما يكون من الواضح تماماً أنهما خطأ كامل؟ ناتاراجا عنده الجواب. انظروا الآن إلى يده السفلى إلى اليسار. إنه يستخدمها لكي يشير إلى قدميه. فماذا تفعل قدماه؟ انظروا ملياً وسوف ترون أن قدمه اليمنى مغروسة بثبات وقوة في جسم مخلوق مرعب ضئيل الحجم غير إنساني ــ إنه الشيطان «موبالاكا».. إنه قزم، ولكنه شرير بالغ القوة بشره وخبثه وجشعه وأنانيته الطاغية. إنه يطؤه بقدمه ويقصم ظهره! وهذا هو بالتحديد ما يفعله ناتاراجا. إنه يطرح الوحش الضئيل على الأرض تحت قدمه اليمنى. ولكن لاحظوا أنه لايشير باصبعه إلى هذه القدم اليمنى التي تطأ الوحش.. إنما يشير إلى القدم اليسرى، القدم التي يقوم برفعها من الأرض في رقصة. فلماذا يشير إليها؟ لماذا؟ هذه القدم المرفوعة، هذا التحدي الراقص لقوة الشر ــ إنها رمز الخلاص، الـ«موكشا»، الحرية. ناتاراجا يرقص في كل العوالم في

اللحظة ذاتها ــ في عالم الطبيعيات والكيمياء، في عالم التجربة الكاملة العادية الانسانية وأخيراً في عالم التشابه، عالم العقل والضوء الرائق الواضح». وبعد لحظة من الصمت استأنف الدكتور روبرت حديثه فقال: «والآن، أريدكم أن تنظروا إلى التمثال الآخر، إلى صورة شيفا مع الربة. انظروا اليهما هنالك في كهفهما الصغير المصنوع من الضياء. والآن اغلقوا عيونكم لتروهما مرة أخرى ــ ساطعين مجيدين مترعين بالحياة. يا للجمال ويا لاعماق المعنى الكامنة في حنانهما ورقتهما المتبادلة ويا للحكمة التي لاتطولها أية حكمة نطق بها البشر في تلك التجربة الحسية من الامتزاج الحسي المليء بالعذاب، الأبدية تمارس الحب مع الزمن! الواحد يمتزج في الزواج بالكثير، والنسبي يصبح مطلقاً عن طريق اتحاده بالواحد. النيرفانا[٣٤] تتطابق مع السامسارا[٣٥]، مظاهر بوذا الطبيعية التي تتجلى في الزمن واللحم والاحساس.».

«شيفا ياناما» وأشعل الكاهن العجوز عوداً آخر من البخور، ثم بدأ ينشد أغنية سنسكريتية بصوت ناعم، في دفقات متتالية من الابتهالات الطويلة. وعلى الوجوه الفتية أمام ويل، كان بوسعه أن يقرأ علامات الهدوء المصفى والإنصات العميق، والابتسامة الرصينة التي يصعب فهمها والتي تعلن الترحيب باشراق البصيرة المفاجىء، حينما تتكشف الحقيقة أو يتكشف الجمال.. وفي نفس الوقت، كان موروجان في خلفية المشهد قد جلس بإجهاد مستنداً الى عمود قريب، وهو يداعب انفه الاغريقي الغريب.

بدأ الدكتور روبرت يتكلم ثانية: «التحرر، نهاية الحزن، الامتناع عن أن تكون ما تظن ــ جاهلاً ــ إنه أنت، والتحول إلى ما أنت عليه في الحقيقة. لبرهة قصيرة، وبفضل دواء «الموكشا» سوف تعرفون كيف يكون الأمر حينما يصبح كل منكم ما هو في الحقيقة، وما كان عليه في الحقيقة على الدوام. يا لها من بركة لايحدها زمان ولكن، مثل كل شيء آخر، فإن هذا التخلص من حدود الزمن عابر وزائل، وسوف يمضي إلى نهايته مثله مثل كل شيء آخر. وحينما يصل إلى نهايته المحتمة، ماذا ستفعلون بهذه التجربة؟ وما سوف تفعلون بكل التجارب الأخرى المشابهة التي سيدفعكم إليها دواء «الموكشا» في السنوات القادمة؟.

---

(٣٤) النيرفانا، هي نهاية الطريق إلى المعرفة وهدفه الذي يسعى إليه طالب المعرفة بوعي عن طريق التأمل والتمارين الروحية الشاقة والاستنارة الباطنية الكاملة. والنيرفانا كلمة سنسكريتية تعني «الانطفاء» أو السكون والاندماج الكامل بالكون، أي دخول الأبدية.

(٣٥) سامسارا، كلمة سنسكريتية تعني «الوجود». والمعنى المقصود هنا، من القول بأن النيرفانا تساوي السامسارا، يعني القول بأن الفناء في الأبدية عن طريق الوعي والاستنارة الباطنية، يساوي الوجود الأكمل. فالسامسارا هي اكتمال الوجود أيضاً، وليس هناك سوى وجود مكتمل في النيرفانا، أو يسعى إلى الاكتمال بالوصول إليها.

هل ستكتفون بالاستمتاع بها مثلما قد تستمتعون بأمسية في مسرح العرائس، ثم تعودون إلى السلوك الشبيه بسلوك المنحرفين البلهاء الذين تتخيلون أنهم أنتم؟ أم أنكم بعد أن تلمحوا الحقيقة تلك اللمحة الخاطفة سوف تكرسون حياتكم، ليس أبداً كالمعتاد، للعمل الذي يقوم على أن تكونوا ما أنتم عليه في الحقيقة؟ إن كل ما نستطيع نحن الكبار أن نفعله بتعاليمنا، وكل ما تستطيع «بالا» أن تفعله لكم بترتيباتها الاجتماعية، هو أن تمدكم بالأساليب الفنية وبالفرص للعمل والازدهار. وكل ما يستطيع دواء «الموكشا» أن يفعله هو أن يعطيكم فرصاً متلاحقة من اللمحات الخاطفة المبهجة لمدة ساعة أو ساعتين، بين حين وآخر، من بركة التحرير والاستنارة الواعية. ويبقى من واجبكم أنتم أن تقرروا إن كنتم سوف تتعاونون مع البركة المعطاة لكم وإن كنتم سوف تنتهزون الفرص. ولكن هذا أمر مرده إلى المستقبل. أما هنا والآن، فإن كل ما عليكم أن تفعلوه هو أن تتبعوا نصيحة طائر «المايناه»: انتباه! انتبهوا وسوف تعثرون على ذواتكم، بالتدريج أو فجأة سوف تصبحون واعين بالحقائق الازلية العظيمة الكامنة وراء تلك الرموز القائمة فوق المذبح.»

«شيفا ياناما» ولوّح الكاهن العجوز بعود البخور في يده. وعند آخر درجات المذبح، جلس الفتية والفتيات ساكنين كالتماثيل. تعالى صرير أحد الأبواب، وسمعت خطوات تقترب. التفت ويل برأسه فرأى رجلاً قصيراً سميناً يشق طريقه بين المتأملين الصغار. صعد الدرجات فانحنى إلى الأمام وهمس بشيء ما في إذن الدكتور روبرت ثم استدار وسار عائداً نحو الباب.

وضع الدكتور روبرت يداً على ركبة ويل وقال هامساً: «إنه أمر ملكي» وكان يبتسم ويهز كتفيه، وأضاف يقول: «كان هذا هو الرجل المسؤول عن الكوخ الجبلي. لقد تحدثت «الراني» بالتليفون منذ لحظة لكي تقول إنها لابد أن ترى موروجان بأسرع ما يمكن. وإنه أمر عاجل.» وبينما كان يضحك دون صوت، نهض وساعد ويل أن يقف على قدميه.

الفصل الحادي عشر

كان ويل فارنابي قد أعدّ لنفسه افطاره حينما عاد الـدكتور روبـرت من زيارتـه الصباحية الباكرة للمستشفى وكان يحتسي قدحه الثاني من الشاي البالاني ويأكل شطيرته من خبز الفاكهة ومربى الرمان.

وأجاب الدكتور روبرت على تسـاؤلات ويل عن صحة زوجته قائلاً: «لم ينتبها ألم شديد في الليل. لقد نامت لاكشمي لمدة أربع أو خمس ساعات نوماً جيداً، وكانت قادرة في هذا الصباح على أن تتناول بعض الحساء الخفيف».

واستمر يقول إنه كان بوسعها أن يتمنيا يوماً آخر من الراحة.. وعلى ذلك، وطالما أنه كان من المتعب ـ سريضة أن تراه أمامها طول الوقت، وطالما أن الحياة رغم كل شيء ينبغي أن تستمر وينبغي للانسان أن يستخلص منها أفضل ما فيها، فقد قرر أن يستقل سيارة لكي يصعد بها إلى «محطة المناطق المرتفعة» لكي يشارك لبضع ساعات في أعمال فريق البحث الذي يعمل في معمل الأمصال الدوائية.

ـ «ويعملون في دواء «الموكشا»؟»

هز الدكتور روبرت رأسه وقال: «ليس هذا سوى عملية تكرار لاجراءات معملية ثابتة. إنه أمر يوكل إلـى الفنيين، وليس الى الباحثين. إنهم مشغولون بشيء جديد».

وبدأ يتحدث عن بلورات «لاندول» التي تم استخلاصها وعزلها أخيراً من بذور نبات «أولولويكي» التي جيء بها من المكسيك في العام الماضي والتي تستنبت الآن في الأحواض المغطاة الخاصة في المحطة. وقال إن هناك على الأقل ثلاثة أنواع مختلفة من هذه

البلورات يبدو على أحدها أنه بالغ القوة. وقد أشارت التجارب التي أجريت به على الحيوانات أنه يؤثر على الجهاز الشبكي.

ولما أصبح ويل بمفرده، جلس تحت المروحة الرأسية المثبتة في السقف وأخذ في قراءته لكتاب «حقيقة الحقيقة»:

«إننا لانستطيع أن نخلّص أنفسنا من لامعقوليتنا الأساسية بأن نزداد تعقلاً. إن كل ما نستطيع أن نفعله هو أن نكون لامعقولين بطريقة معقولة.

في «بالا»، وبعد ثلاثة أجيال من «الاصلاح» لاتوجد جماعات إنسانية شبيهة بقطعان الأغنام، ولايوجد «رعاة صالحون» كهنوتيون لكي يبشروا أو ينذروا. ليست هناك قطعان أشبه بقطعان البقر أو الخنازير وليس هناك قواد يحملون الترخيصات غير المحدودة، سواء كانوا قادة ملكيين أو عسكريين، رأسماليين أو ثوريين لكي يدمغوا أفراد القطيع بالعلامات المميزة، أو يجمعوهم من المرعى أو يرسلوهم إلى المجزر للذبح. ليست هناك سوى جمعيات تطوعية مشتركة من الرجال والنساء يسيرون على طريق الانسانية الكاملة.

الانغام المتآلفة المنسجمة، أم مسطحات الحصى المفروشة في نظام؟ العمليات المتنامية أم الاشياء المنفصلة الجوهرية؟ البوذية والعلم الحديث يختاران «الأنغام المتآلفة المنسجمة» جواباً لهما، أما الفلاسفة الكلاسيكيون في الغرب فيختارون «الحصى المفروش في نظام» جواباً لهم، البوذية والعلم الحديث يفكران في العالم بمصطلحات الموسيقى أما الصورة التي ترد إلى الذهن حينما يقرأ المرء فلاسفة الغرب فهي أشبه بصورة شخص في إحدى لوحات الموزايك البيزنطية جامدة الحركة، صارمة التوازن والتقابل، صنعت من ملايين المربعات الصغيرة من مادة صخرية ما، وثبتت ولصقت بقوة إلى جدران كنيسة طويلة لانوافذ لها.

إن رشاقة الراقصة، وما يصيبها بعد أربعين عاماً من التهاب المفاصل كلاهما وظيفتان من وظائف الهيكل العظمي. إن قدرة الفتاة على القيام بدوراتها على القدم الواحدة في الباليه إنما يرجع الفضل فيها إلى بنيان العظام المتين، وبفضل هذا البنيان نفسه، إذ يصبح أكثر تجمداً يحكم على الجدة بأن تجلس على معقد يتحرك على عجلات. وبنفس هذا الشكل فإن ما تقدمه ثقافة ما من دعم قوي، هو الشرط الأولي لأصالة كل الأفراد ولقدرتهم على الابداع وهو أيضاً عدوهم الاساسي. إن الشيء الذي قد لاتستطيع في غيبته الكاملة، إن تنحو نحو الانسانية الكاملة، هو في الغالب الاعم، نفس الشيء الذي يمنعنا من النمو.

إن قرناً كاملاً من البحوث التي أُجريت على دواء «الموكشا» قد أثبتت بوضوح أن الناس العاديين تماماً قادرون قدرة كاملة على أن تلوح لهم الرؤى المشرقة بل وأن يمروا بتجارب تحررية مكتملة. وفي هذا الصدد فإن الرجال والنساء الذين يصنعون الثقافة

الرفيعة ويستمتعون بها، لايتميزون في شيء عن أصحاب التعليم المتواضع أو الفكر البسيط. إن الرموز التعبيرية التي ابدعها الفنانون البالانيون لاتفضل في شيء الرموز التعبيرية التي أبدعها الفنان في أي مكان آخر. إنها وهي رموز من انتاج السعادة والاحساس بالتحقق قد تكون أقل إثارة للمشاعر، وربما كانت أقل إشباعاً من الناحية الجمالية من الرموز التراجيدية أو التعويضية المعزية «رموز العزاء» التي أبدعها ضحايا الاحباط والجهل، وضحايا الطغيان والحرب والخرافات المحرضة على الجريمة والتي تغرس الشعور بالإثم. إن السمو البالاني، لايكمن في التعبير الرمزي، وإنما هو يكمن في نوع من الفن الذي يستطيع أن يمارسه كل الناس رغم أنه أكثر سمواً وأثمن قيمة من كل الفنون الأخرى — إنه فن الممارسة الملائمة الواقية للتجارب، فن أن يصبح الانسان أكثر قرباً والتصاقاً في تعرفه على كل العوالم التي نسكنها ونحلّ فيها بوصفنا كائنات بشرية . . لاينبغي أن نحكم على الثقافة البالانية بالطريقة التي نحكم بها على الثقافات الأخرى «حتى ولو كان السبب هو الافتقار إلى أي مقياس أفضل للحكم عليها.»

. . لاينبغي أن نحكم عليها من خلال المنجزات التي حققها عدد قليل من الصناع البارعين الموهوبين الذي ينتجون الرموز الفلسفية أو الفنية كلا، إنما ينبغي أن نحكم عليها من خلال كل ما يستطيع أن يمارسه وكل ما يمارسه بالفعل، كل أعضاء الجماعة، العاديون منهم وغير العاديين من تجارب في كل الاحتمالات وعند كل نقطة يتقاطع فيها الزمن مع الأبدية تسبقها وتتلوها نقاط أخرى كثيرة».

كان جرس التليفون هذا قد بدأ في الرنين. أكان من الواجب أن يتركه وشأنه أم كان الأفضل أن يجيب عليه وأن يسمح لمن يطلبه بأن يعرف أن الدكتور روبرت قد خرج ولن يعود طوال اليوم؟ ولما اتخذ ويل القرار الأخير، رفع السماعة.

قال: «هنا كوخ الدكتور ماك فيل». وكانت في صوته نغمة السلطة التي يتمتع بها السكرتير، ثم أضاف يقول: «ولكن الدكتور خرج ولن يعود طول هذا اليوم».

جاء الجواب بالفرنسية: «ألف شكر»، كذلك قال الصوت الملكي الفخم من الطرف الآخر، ثم أضاف يقول: «كيف حالك يا عزيزي فارنابي؟»

بوغت ويل، فراح يغمغم بتشكراته على التساؤل الكريم الصادر من سموها.

قالت الراني: «إذن فقد أخذوك لكي ترى واحداً مما يسمونه احتفالاتهم الشعائرية بعد ظهر الأمس».

كان ويل قد أفاق بما فيه الكفاية من المباغتة لكي يجيب بكلمة طبيعية وبلهجة هي أبعد ما تكون عن التحيز فقال: «كانت شيئاً جديراً بالمشاهدة».

قالت الراني وهي تركز بتأكيد على الحروف التي تقابل في النطق تلك الكلمات التي تبدأ بها كلمات المديح أو كلمات الذم: «جدير بالمشاهدة، ولكن فقط بوصفه كاريكاتيراً مليئاً بالكفر والتجديف بالشعائر الحقيقية. إنهم لم يتعلموا أبداً أن يضعوا التفرقة الأولية بين النظام الطبيعي ونظام ما فوق الطبيعة.»

غمغم ويل يقول: «تماماً. تماماً».

قال الصوت عند الطرف الآخر بلهجة آمرة: «ماذا قلت؟»

ردد ويل بصوت أكثر ارتفاعاً: «تماماً.»

«أنا سعيدة لأنك توافق على هذا.» ومضت الراني تقول: «ولكنني لم أطلبك لكي أناقش الفرق بين الطبيعي وماهو فوق الطبيعة ورغم ما لهذا الاختلاف من أهمية سامية جليلة. كلا. لقد اتصلت بك لأمر أكثر إلحاحاً بكثير.»

ــ «زيت البترول؟»

قالت بتأكيد: «زيت البترول.. لقد اتصل بي تواً مَنْ أبلغني رسالة مزعجة جداً من ممثلي الشخصي في «ريندانج».. وأضافت تقول: «إنه يحتل مكانة رفعية جداً، وتأتيه كل أنواع الانباء».

وجد ويل نفسه يتساءل عمن يكون من بين كل اولئك الضيوف المصقولين والمثقلين بالأوسمة والنياشين في حفل الكوكتيل الذي شهده في وزارة الخارجية قد خان زملاءه الخونة، وتعامل مع ناحيتين من وراء ظهور زملائـه الذين يتعامل كل منهم مثله مـع ناحيتين ــ بما فيهم هو نفسه بالطبع.

استمرت الراني تقول: «في خلال الايام القليلة الماضية، تدفق على «ريندانج لوبو» ممثلون لما لايقل عن ثلاث من كبريات شركات البترول، أوروبيين وأمريكيين. ويقول لي مخابري إنهم جميعاً يحاولون التأثير على الشخصيات الرئيسية الأربعة أو الخمسة في الوزارة الذين سوف يكونون ــ في تاريخ مقبل قريب ــ هم أصحاب النفوذ في اتخاذ القرار بشأن من يحصل على الامتياز الخاص بجزيرة «بالا».

فرقع ويل بلسانه ليعبر عن استيائه.

وأشارت هي في مواربة إلى أن مبالغ جسيمة من المال، إن لم تكن قد دفعت بصورة مباشرة، فإنها على الأقل قد حددت ولوح بها على سبيل الاغراء.

قال معلقاً على هذا الكلام:«شيء شائن وشنيع».

وافقت الراني على أن «شائن وشنيع» هي الكلمات المناسبة. وأن هذا هو السبب

الذي يوجب القيام بشيء ما في هذا الصدد، وأن يتم التصرف فيه على الفور. كانت قد عرفت من السفير «باهي» أن ويل قد أرسل خطاباً إلى اللورد الدهايد وأن إجابة منه سوف تصل بالتأكيد في غضون بضعة أيام: ولكن أياماً قليلة كانت زمناً طويلاً جداً. فقد كانت للزمن أهميته البالغة، ليس فقط بسبب ماكانت تلك الشركات المنافسة تقوم به، وإنما أيضاً «وهنا خفضت الراني صوتها فكسته بالغموض» لأسباب أخرى... وظل صوتها يردد بلهفة: «الآن، الآن، الآن دون تأخير». ولابد أن يتم إعلام اللورد الدهايد برقياً بما يدور هنا من أمور. «فالمخلص السفير باهي قد عرض أن يرسل البرقية بالشفرة عن طريق المندوب الرسمي لريندانج في لندن». كذلك قالت الراني في جملة اعتراضية وأنه لابدّ ــ إلى جوار إعلام اللورد الدهايد ــ أن يرسل التماساً سريعاً بأن يسند اللورد إلى «مراسله الخاص» مهمة اتخاذ الخطوات المطلوبة ــ وفي المرحلة الراهنة فإن الخطوات المناسبة يجب أن تكون أولاً وأساساً ذات طبيعة مالية ــ طالما أنه قد يكون من الضروري أن يؤمنوا الانتصار لقضيتهم المشتركة».

واختتم الصوت بقوله: «وعلى ذلك فإنني ــ بعد اذنك ــ سأطلب من «باهي» أن يرسل البرقية على الفور. بأسمائنا المشتركة يا مستر فارنابي ، اسمك واسمي. وأرجو «ياعزيزي» أن يكون هذا مقبولاً لديك.»

لم يكن هذا مقبولاً على الاطلاق.. ولكن لم يبد له أن ثمة أي عذر يمكنه انتحاله للرفض طالما كان بالفعل قد كتب ذلك الخطاب لجو ألدهايد. وهكذا فقد صاح: «أجل بالطبع»، وكان في صوته ما ينمّ عن التظاهر بالحماس حتّمته لحظة صمته الطويلة التي يمكن أن تثير الشكوك قبل أن يلفظ كلمتيه الأخيرتين حينما كان يحاول أن يبحث عن إجابة أخرى، وأضاف يقول: «لابد لنا أن نحصل على الإجابة في وقت ما من الغد.»

قالت الراني مؤكدة: «سوف تحصل عليها الليلة.»

ــ «أهذا ممكن؟»

ــ «كل شيء ممكن إذا كانت «العناية الالهية» في صفنا، أو إذا كنا نحن مع الله.»

قال:«تماماً. تماماً. ولكن ما يزال.»

ــ «إنني أسير وفقاً لما يقوله لي عصفوري الصغير. إنه يقول: «الليلة» ويقول أيضاً: «إنه سوف يعطي لمستر فارنابي «كارت بلانش»، «كارت بلانش».» كذلك رددت بقوة، ثم أضافت تقول: «وسوف يكون فارنابي ناجحاً نجاحاً مؤزراً.»

قال بشك: «إنني لأتساءل إن كان ذلك حقاً؟»

ــ «يجب أن تكون ناجحاً.»

ـ «يجب؟»

قالت باصرار: «يجب.»

ـ «لماذا؟»

ـ «لأن الله هو مَنْ ألهمني أن أعلن وأن أشن حملة الروح الصليبية».

ـ «إنني لا أفهم العلاقة فهمًا كاملاً.»

قالت : «ربما لم يكن من حقي أن أخبرك» ولكنها أضافت بعد لحظة من الصمت «ولكن، لِمَ لا أخبرك رغم كل شيء . لقد وعد لورد الدهايد بأن يساند الحملة الصليبية بكل موارده إذا نجحت قضيتنا. ولما كان الله يريد للحملة الصليبية أن تنجح فإنه لايمكن لقضيتنا أن تخفق في تحقيق النجاح.»

أراد أن يصيح: «وهو المطلوب إثباته.» ولكنه أمسك نفسه والجم لسانه. فما كان لمثل هذا القول أن يوصف بالتهذيب. وعلى أي حال فإن هذا الموضوع لم يكن موضوعاً للتفكه أو لإطلاق النكات.

قالت الراني: «طيب، يجب الآن أن أتصل بمستر باهي. إذن إلى اللقاء «بالفرنسية» يا عزيزي فارنابي.. ثم قطعت المكالمة.

هز ويل كتفيه، ثم عاد إلى «حقيقة الحقيقة» ليكمل القراءة.. وهل كان أمامه شيء آخر يمكن أن يفعله؟.

«النزعة الثنائية. بغيرها سوف يكون من الصعب أن يوجد أدب جيد. وعن طريقها، يمكن بالتأكيد تقريباً، أن تكون هناك حياة جيدة.

إن لفظة «أنا» تؤكد وجود جوهر لذاتي مستقل وثابت دائم أما لفظة «أكون» فتنكر الحقيقة المقررة من أن الوجود كله إنما هو علاقة وتغير. «أنا أكون».

كلمتان ضئيلتان، ولكن يا لضخامة ما فيهما وما تعبران عنه من زيف.

إن المؤمن بالنزعة الثنائية صاحب العقلية الدينية يأتي بالأرواح التي تم تصنيعها محلياً من عمقها البعيد: أما الذي لايؤمن بالنزعة الثنائية فيأتي بالعمق البعيد إلى حيث روحه هو، ولكي تكون أكثر دقة، فإنه يجد أن العمق البعيد موجود هناك ـ حيث تقوم روحه ـ بالفعل.»

تصاعدت ضجة سيارة تقترب.. ثم ساد الصمت حينما توقف المحرك، وسمع صوت انصفاق باب ثم صوت خطوات تسير على حصباء الطريق، ثم انتقلت إلى أرضية الشرفة.

قال صوت فيجايا العميق: «هل أنت مستعد؟»

ألقى ويل جانباً كتاب «ملاحظات حول حقيقة الحقيقة». والتقط عصاه المصنوعة من الخيزران، ورفع نفسه بصعوبة على قدميه، ثم سار نحو الباب الأمامي.

قال وهو يخطو خارجاً إلى الشرفة: «مستعد أعلك لجامي كالحصان.»

أخذ فيجايا ذراعه فأمسكه وقال: «إذن فهيا بنا» ثم أضاف منبهاً «انتبه إلى هذه الدرجات.»

كانت هناك امرأة ترتدي ثوباً قرمزياً وقد أحاطت عنقها بعقد من المرجان ووضعت في اذنيها حلقاً من نفس الحجر تقف إلى جوار سيارة «الجيب» بوجهها المستدير الممتلىء، وكانت تبدو في منتصف عقدها الرابع.

قال فيجايا: «هذه هي «ليلا راو». مديرة مكتبتنا، وسكرتيرتنا، وأمينة صندوقنا ومديرتنا العامة. وكان يمكن أن نضيع وأن نشوه لولاها.»

فكر ويل، حينما كان يصافحها، في أنها تبدو كما لو كانت نسخة أكثر سمرة من واحدة من أولئك السيدات الانجليزيات النشيطات اللواتي لاتنفذ طاقتهن، واللواتي يتجهن – حينما يكبر أطفالهن – إلى ممارسة الأعمال الخيرية أو تحصيل الثقافة بطريقة منتظمة. هؤلاء المسكينات العزيزات لسن على درجة عالية من الذكاء؟ ولكن ياالإيثارهن، وياالإخلاصهن ويالطيبتهن الأصيلة الحقيقية – ثم وياللاسف، يالثقل دمائهن.

كنت أسمع عنك من صديقي الشابين، رادها ورانجا كذلك اندفعت مسز راو تقول من تلقاء نفسها حينما كانوا يسيرون في بطء بالسيارة على طول بحيرة اللوتس ثم إلى الطريق الرئيسي.

قال ويل: «أرجو أن أكون قد حظيت بتقديرهما بنفس الاخلاص الذي قدرتهما أنا به.»

أشرق وجه مسز راو بالسعادة وقالت: «أنا سعيدة جداً لأنك أحببتهما!»

تدخل فيجايا قائلاً: «إن رانجا يتمتع بذكاء خارق بصورة غير عادية.»

واستمرت مسز راو في حديثها لكي تزيد من دقة كلمات فيجايا، فقالت إن رانجا يتمتع بتوازن دقيق بين رغبته في الانغلاق على نفسه وبين العالم الخارجي من حوله. وإنه دائماً يغريه ، وبالقوة الاغراء أن يهرب إلى النيرفانا كما يفعل الراهب البوذي الذي وصل إلى الاستنارة الكاملة، ووصل إلى رتبة «الارهات»، فيهرب إلى فردوس العالم الصغير المرتب بجمال والمصنوع من التجريد الخالص.. إنه يواجه الاغراء دائماً ولكنه على

الدوام يقاوم الاغراء، ذلك أن رانجا «العالم المتصوف» كان أيضاً نوعاً آخر من رانجا، رانجا القادر على التعاطف. مستعداً ــ إذا ما عرف من يعامله كيف يطرح أمامه النوع الصحيح من المناشدة أو الاغراء ــ لأن يتفتح أمام حقائق الحياة المحددة ولأن يكون سليم الادراك قوي الاهتمام قادراً على المعاونة الايجابية، ولكم كان حظه سعيداً وحظ كل إنسان آخر لأنه عثر على فتاة مثل رادها، وهي الفتاة ذات الذكاء البالغ البساطة، والبالغة المرح والحنان، والتي تملك كل هذه المواهب في مجالات الحب والسعادة. لقد أسرت مسز راو لرفيقها بأن رانجا ورادها قد أصبحا من بين تلاميذها المقربين المفضلين.

وافترض ويل موافقاً أنهما كانا تلميذين في مدرسة بوذية من نوع مدارس الأحد الدينية المتزمتة. ولكنه صعق مذهولاً حينما عرف أن المدرسة كانت في الحقيقة مدرسة لتعليم يوجا الحب، وأن هذه «العاملة في سبيل السكينة» كانت تعمل هناك في تعليم الشباب لمدة السنوات الست السابقة بالتبادل مع عملها في مهنة تنسيق وتنظيم المكتبات. وافترض ويل أن هذا التعليم كان يتم بالوسائل التي جفل منها موروجان، والتي وجدت الراني أنها وسائل تستحق السخط الشديد بكل ما تتصف به الراني من رغبة في التملك مشبعة بالميل المنحرف إلى الاتصال الجنسي بمن حرم عليها. وفتح ويل فمه لكي يطرح عليها ما جال بذهنه من أسئلة. ولكن انعكاسات الموضوع في ذهنه كانت قد خضعت لمؤثرات أكثر سمواً ولأنواع أخرى من «العاملات في سبيل السكينة». لقد رفضت الاسئلة ببساطة أن تعبر شفتيه. ثم فات أوان أن يسأل هذه الأسئلة بمرحلة طويلة. فإن مسز راو كانت قد بدأت تتحدث عن هوايتها أو مهنتها الأخرى.

كانت تقول: «لو أنك تعرف مقدار المشاكل التي تواجهها مع الكتب في هذا المناخ. إن الورق يتعفن والغراء يذوب، والملازم تتفكك ويضطرب نظامها، والحشرات تلتهم كل شيء. حقاً، إن الأدب والمناطق الاستوائية لايجتمعان.»

قال ويل: «وإذا كان للمرء أن يصدق ما قاله الراجا القديم عندكم فإن الأدب لايمكن أن يجتمع مع ملامح محلية أخرى كثيرة إلى جانب مناخكم. إنه لايقبل التواؤم مع الاضطراب البشري، ولا يقبل الانسجام مع الحقيقة الفلسفية، ولا يجتمع هو والحكمة الفردية أو النظام الاجتماعي المعقول، إنه لا يقبل التواؤم إلا مع النزعة الثنائية، والجنون الاجرامي، والطموح المستحيل، والأثم الذي لاضرورة لوقوعه.» وابتسم ابتسامة هازلة ثم مضى يقول: «ولكن لابأس، فإن الكولونيل ديبا سوف يعيد كل شيء إلى نصابه وموضعه الصحيح. فبعد أن يتم غزو بالا لكي تصبح احتياطياً للحرب والبترول والصناعة الثقيلة، فإنكم دون شك سوف تحصلون على عصر ذهبي من الأدب والفكر الاسطوري الغيبي».

قال فيجايا: «لابد لي أن أضحك.. فالمشكلة الوحيدة هي أنك قد تكون على

صواب. وإنما يخالجني شعور لايريحني يوحي إلّي بأن أطفالي سوف يكبرون لكي يشاهدوا نبوءتك وهي تتحقق.»

تركوا السيارة الجيب بعد أن أوقفها فيجايا بين عربة يجرها ثوران وبين سيارة شحن جديدة ظهرت عليها علامة تدل على جنسيتها اليابانية، وهبطوا عند مدخل القرية وتقدموا على الأقدام.. وبين المنازل ذات السقوف المائلة القائمة وسط الحدائق تظللها شجرات النخيل والباباظ وشجرات فاكهة الخبز، قادتهم الشوارع الضيقة إلى مكان كأنه السوق المركزي للقرية.

توقف ويل، وانحنى على عصاه الخيزرانية، وأخذ يتطلع حوله.. على أحد جوانب الميدان انتصب مبنى يمكن أن يكون نموذجاً خلاباً من الزخرفة الشرقية الثقيلة، وله واجهة من الجص المزخرف وعقدة بارزة عند كل ركن من الأركان الأربعة ــ وكان من الواضح أن المبنى هو قاعة اجتماعات المدينة.وفي مواجهة هذا المبنى على الجانب المقابل من الميدان نهض معبد صغير شُيِّد من نفس الحجر الأحمر وقد انتصب في مركزه برج يعلو طابقاً فوق طابق، وقد تتالت على الطوابق المتصاعدة مجموعات الشخوص المنقوشة والمنحوتة التي تحكي أساطير تصور بوذا في تقدمه من الطفل المدلل إلى «العارف الأعظم». وفيما بين هذه الأثرين ــ المبنى والمعبد ــ كان أكثر من نصف المساحة الخالية مغطى بشجرة ضخمة متشابكة الفروع والجذوع من أشجار «البنيان» أو «الأناب» وعلى طول ظلال فروعها وأغصانها الممتدة اصطفت بضائع ما يقرب من عشرة أو اثني عشر تاجراً مع بضع من بائعات السوق. وكانت خيوط أشعة الشمس الطويلة المتسللة النافذة بين فتحات المساحة الخضراء المعلقة فوق الرؤوس، لكي تومض هنا فوق صف من جرار الماء السوداء والصفراء، أو لكي تلتمع هناك على عقد من الفضة أو دمية خشبية ملونة أو حرام من القطن المطبوع، هنا كومة من الفاكهة، وإلى جوارها جسد فتاة صغيرة مرحة، وهناك وميض عينين ضاحكتين فوق أسنان الفم الضاحك اللامعة، أو لمعة الذهب الحمراء البنية لنصف جسد عار تحت الشمس.

قال ويل معلقاً بينما كانوا يشقون طريقهم وسط «طبالي» البائعين تحت الشجرة الضخمة: «الجميع يبدون في صحة جيدة».

قالت مسز راو: «صحتهم جيدة لأنهم «يتمتعون» بصحة جيدة».

ــ «وهم سعداء ــ على سبيل التغيير» وكان في تلك اللحظة يفكر في الوجوه التي رآها في كلكتا، وفي مانيلا وفي ريندانج لوبو ــ وكان يفكر أيضاً في الوجوه ــ بهذا الصدد ــ التي كان يراها في شارع «فليت ستريت» وفي شارع ستراند.. قال وهو يحملق عابراً بعينيه من وجه إلى وجه: «والنساء، حتى النساء، تبدو عليهن السعادة.»

قالت مسز راو لتشرح الأمر: «ليس لاحداهن عشرة أطفال.»

قال ويل: «ليس لإحداهن عشرة أطفال في البلد الذي قدمت أنا منه.. على الرغم من.. «علامات الضعف، علامات العذاب.» توقف للحظة لكي يراقب بائعة من بائعات السوق، متوسطة العمر كانت تزن شرائح من فاكهة الخبز المجففة في الشمس لأم شابة كانت تحمل طفلها في حقيبة أطفال معلقة على ظهرها. قال مختتمًا ملاحظاته: «هناك نوع من الاشعاع».

قالت مسز راو برنة انتصار: «الفضل في ذلك يعود إلى «ميثونا» الفضل يعود إلى يوجا الحب» والتمع وجهها بمزيج من الحماسة الدينية والكبرياء المهنية.

ساروا حتى تركوا مساحة الظل الذي تلقيه شجرة «البنيان» وعبروا منطقة تشعلها أشعة الشمس الحامية وصعدوا عدداً من الدرجات المتآكلة حتى ولجوا المعبد بضوئه الخافت. برز تمثال ذهبي هائل لبوذا الجالس من قلب الظلمة. كانت رائحة البخور والزهور الذابلة عابقة بالجو، ومن مكان ما خلف التمثال تصاعد صوت متعبد غير مرئي وهو يغمغم بابتهالات لانهائية. ودون صوت، وعلى قدمين عاريتين، خرجت فتاة صغيرة مسرعة من أحد الأبواب الجانبية. ولم تلتفت الصغيرة إلى الكبار أدنى التفاتة فتسلقت بخفة القطة ساقي التمثال ثم وضعت باقة من زهرات الأوركيد البيضاء على كف التمثال الممدودة المفتوحة. رفعت الفتاة رأسها لتنظر إلى وجه بوذا المرتفع، وتمتمت ببضع كلمات وقد أغمضت عينيها لبضع لحظات، ثم تمتمت كلماتها مرة أخرى وتحولت إلى الخلف وراحت تهبط بنفس الخفة وهي تترنم لنفسها بأغنية خفية حتى خرجت بهدوء من نفس الباب الذي دخلت منه.

قال ويل وهو يتطلع إليها اثناء خروجها: «ساحرة. لايمكن أن يكون هناك أجمل منها. ولكن ماذا يمكن أن تظن فتاة مثلها أنها تفعل بالتحديد؟ أي نوع من الدين يفترض أنها تؤمن به وتقوم بشعائره؟»

قال فيجايا ليفسر الموقف: «إنها تمارس طقوس العقيدة المحلية، عقيدة بوذية الماهيانا، ومن المحتمل أنها عقيدة تضم قليلاً من عبادة شيفا.»

ـ «وهل تشجعون أنتم أيها المثقفون مثل هذه الاشياء؟»

ـ «إننا لانشجع ولانحاول أن نمنعهم. إننا نقبل هذا الوضع. نقبله مثلما نقبل حقيقة أن العنكبوت يفرز خيوطه وينسجها هناك على هذه الزخرفة العلوية البارزة في الجدار.. إنها وقد خضعت لطبيعة العناكب فإن النسيج يصبح حتمياً ولا فرار منه. كذلك الأديان، طالما أن للناس طبيعة بشرية. لاتستطيع العناكب أن تكف عن صنع المصائد للذباب، والناس لايستطيعون أن يكفوا عن صنع الرموز. هذا هو السبب الذي لأجله

يقوم رأس الانسان في مكانه ـ من أجل أن يحول فوضى التجربة المعينة إلى مجموعة متسقة من الرموز التي يمكن التعامل معها. وفي بعض الاحيان تمثل الرموز عن قرب شديد بعضاً من جوانب الحقيقة الخارجية التي تقع خارج دائرة تجربتنا المباشرة، وحينئذ تحصل على العلم والحس السليم وفي أحيان أخرى، يحدث، على العكس ألّا تكون للرموز أية علاقة بالحقيقة الخارجية، وحينئذ تصيبك الأمراض العصابية والتهيئات الوهمية. ولكن ما يغلب حدوثه في معظم الأحوال هو أن يكون هناك مزيج، جزء منه واقعي أو حقيقي وجزؤه الآخر خيالي أو وهمي، وهذا هو الدين. وتعتمد جودة الدين أو رداءته على طريقة تركيب المزيج. ففي نوع النزعة الكالفينية التي نشأ عليها الدكتور آندرو على سبيل المثال، فإنك لاتخلط سوى ما يملأ أصغر قدر من النزعة الواقعية بملء جرة كبيرة من الخيال المريض.. وفي حالات أخرى يكون المزيج أكثر توازناً. النصف يضاف إلى النصف، أو ستون بالمائة تضاف إلى أربعين، أو سبعون بالمائة يضاف إليها ثلاثون، ويكون المزيج في صالح الحقيقة ورقة الشعور. أما النزعة القديمة المحلية التي كانت سائدة عندنا فتتضمن قدراً ضئيلاً إلى درجة ملحوظة من السم في مزيجها.

أومأ ويل برأسه وقال: «إن قرابين الزهور البيضاء إذ تقدم إلى صورة تمثل التعاطف والاستنارة تبدو بالتأكيد خالية من الضرر إلى درجة كافية. وإنني بعدما رأيته بالأمس فقد أكون مستعداً لأن أدلي بكلمة طيبة في جانب الرقص الكوني واندماج الزوجين المقدسين.»

قال فيجايا: «ولنتذكر أيضاً أن هذا الشيء بالذات ليس عملاً اضطرارياً. فكل شخص يحصل على الفرصة العادلة للإيغال في الطريق. لقد سألت عما تظن الطفلة أنها تفعل. سأقول لك:

إنها بنصف عقلها تظن أنها تتحدث إلى شخص ـ شخص هائل مقدس يمكن أن «يحن قلبه» «بزهرات الاوركيد البيضاء فيندفع إلى تلبية ما تطلبه. ولكنها قد بلغت من العمر ما يكفي لأن يُقال لها ما يمكن قوله عن الرموز الأكثر عمقاً الكامنة وراء تمثال «اميتابها» بوذا المحبة، وعن التجارب التي ولدت تلك الرموز العميقة. وبالتالي فإنها تعرف جيداً بالنصف الثاني من عقلها إن «اميتابها» ليس شخصاً حقيقياً بل إنها تعرف، لأن هذا قد قيل لها، إن المصلين إذا حدث أن تحققت رغباتهم التي همسوا بها في الصلاة فإنما ذلك يحدث لأن للأفكار في عالمنا المادي النفسي الغريب ميلاً إلى أن تتحقق إذا استطاع صاحبها أن يركز عقله عليها تركيزاً كافياً. وهي تعرف أيضاً أن هذا المعبد ليس ما ظلت دائماً تحب أن يكون باعتباره منزلاً يقيم فيه بوذا. إنها تعرف أن مثل هذا المنزل ليس سوى رسم بياني واضح في عقلها اللاواعي ـ ثقب كالحجر الصغير المظلم تمرح فيه السحالي صاعدة هابطة على السقف، وتتقافز الصراصير في كل ناحية. ولكن النور المشرق يجلس في قلب الظلمة الحالكة. وإنما هذا شيء آخر تفعله الطفلة ـ إنها دون وعي من

جانبها تتعلم درساً عن نفسها، فقد قيل لها أنها فقط لو كفت عن أن توحي لنفسها بالاقتراحات، فإنها على العكس قد تكتشف أن عقلها الصغير النشيط هو أيضاً عقل كبير، حقيقي..»

ـ «ومتى يتمّ تعلم هذا الدرس؟ متى ستكف عن أن توحي لنفسها بالاقتراحات؟»

ـ «إنها قد لاتعلم أبداً. إن كثيراً من الناس لايتعلمون هذا الدرس أبداً.. من ناحية أخرى، فإن كثيراً آخرين يتعلمونه.»

أخذ فيجايا ذراع ويل وقاده نحو الظلمة الأكثر حلكة الجاثمة وراء تمثال النور. تزايد وضوح الغناء وهناك، وبشكل لايرى إلا بصعوبة وسط الظلال، جلس المغني، الذي كان رجلاً عجوزاً طاعناً في السن، تعرى جسمه إلى خصره، وباستثناء شفتيه المتحركتين، كان جسمه ساكناً متصلباً في مثل سكون وتصلب تمثال «اميتابها» الذهبي.

سأل ويل: «ماذا ينشد؟»

ـ «شيئاً باللغة السنسكريتية؟»

كان الغناء مكوناً من سبعة مقاطع لايمكن فهمها، ولكنها ظلت تتردد المرة بعد المرة.

ـ «إنه التكرار الطيب القديم الضائع سدى.»

قالت مسز راو باحتجاج: «ليس من الضروري أن يضيع سدى. إنه يقودك في بعض الأحيان حقاً إلى مكان ما».

قال فيجايا تدفعه رغبة في تدقيق المعنى: «إنه لايقودك إلى مكان ما بسبب ما تعنيه الكلمات أو توحي به وإنما ببساطة لأنها تتكرر. إن بوسعك أن تكرر قولك: «هاي ديدل ديدل» فتدفعك هذه الكلمات إلى نفس الحالة التي تدفعك إليها كلمة «أوم» أو «كيريالا يسون» أو «لا إله إلا الله». إنها تؤثر فيك لأنك حينها تكون مشغولاً بترديد كلمات «هاي ديدل ديدل» أو بترديد اسم الله، فإنك لاتكون مشغولاً بشكل كلي بنفسك. المشكلة الوحيدة هي أنك قد تؤرجح نفسك على إيقاع الكلمات إلى أسفل مثلما تدفع نفسك إلى أعلى ـ إلى أسفل إلى حالة اللاتفكير في بلاهة ما تفعله تماماً مثلما تندفع إلى أعلى في حالة اللاتفكير في الوعي الخاص.»

قال ويل: «وبذلك فإنني أفهم أنكم لاتشجعون الناس على اتيان مثل هذه الأعمال، ولاتوصون طفلتك الصغيرة صاحبة زهرات الأوركيد بفعلها؟»

ـ «لا أوصيها بفعلها إلا إذا كانت قلقة أو عصبية بشكل غير عادي، وهي ليست كذلك. إنني أعرفها معرفة جيدة، فهي تلعب مع أطفالي».

ـ «إذن فماذا تفعله في حالتها؟»

قال فيجايا: «من بين أشياء أخرى، فإنني أقوم بمصاحبتها إلى المكان الذي نحن الآن ذاهبين إليه.»

ـ «أي مكان؟»

ـ «حجرة التأمل.»

تبعه ويل عبر فتحة مقوسة ودهليز قصير. أزيحت ستائر ثقيلة فولجوا حجرة واسعة ذات جدران بيضاء ناصعة ونافذة طويلة على يسارهم كانت تطل على حديقة صغيرة زرعت بأشجار الموز وفاكهة الخبز. لم يكن هناك أثاث، وإنما عدد متناثر من الوسائد المربعة الصغيرة. وعلى الجدار المواجه للنافذة لوحة زيتية كبيرة. رمق ويل اللوحة بنظرة سريعة، ثم اقترب منها لكي ينظر إليها عن قرب أكثر.

قال ويل بعد برهة طويلة: «يا إلهي من رسمها؟»

ـ «جوبيند سينغ».

ـ «ومن هو جوبيند سينغ؟»

ـ «إنه أفضل رسام للمناظر الخلاوية انتجته بالا. لقد مات في عام ٤٨»

ـ «لماذا لم نر عندنا أبداً شيئاً من رسمه؟»

ـ «لأننا نحب أعماله كثيراً لدرجة تمنعنا من أن نصدّر شيئاً منها.»

قال ويل: «هنيئاً لكم، ولكنها خسارة لنا.» ونظر ثانية إلى الصورة وقال: «هل ذهب هذا الرجل إلى الصين أبداً؟»

ـ «كلا، ولكنه درس الرسم مع رسام من مدينة كانتون كان يعيش في بالا. كما أنه بالطبع قد شاهد الكثير من اللوحات المقلدة لأعمال «صانج» الرسام الصيني التي يصور فيها مناظر خلاوية.»

قال ويل: «هناك استاذ للرسم يُدعى «صانج» اختار أن يرسم بألوان الزيت وكان مهتمًا بالظلال.»

ـ «لم يحدث ذلك إلا بعد أن ذهب إلى باريس. وقد حدث ذلك في عام ١٩١٠ وقد أقام صداقة مع الرسام الفرنسي فويارد.»

أومأ ويل وقال: «يستطيع المرء أن يخمن مثل هذا التخمين من هذا الثراء غير العادي في النسيج».

ومضى يتأمل اللوحة في صمت ثم قال أخيراً: «ولماذا تعلقونها في حجرة التأمل؟»

جابهه فيجايا بسؤال مقابل: «لماذا نعلقها هنا في ظنك؟»

ــ «أيكون السبب هو أن هذا الرسم هو ما تدعوه بالرسم البياني الماثل في العقل؟»

ــ «كان المعبد هو الرسم البياني. أما هذا الرسم فشيء أفضل بكثير. إنه تجسيد حقيقي أو تجلٍ فعلي. تجسيد أو تجلٍ لعقل كبير وحقيقي يمثل في عقل شخص واحد مرتبطاً بمنظر خلاوي، وقماشة للرسم، ولتجربة الرسم ذاتها. لقد حدث مصادفة أن كانت هذه الصورة للوادي المجاور لوادينا هذا جهة الغرب. وقد تمّ الرسم في المكان الذي تختفي فيه خطوط الكهرباء فوق حافة الجبل.»

قال ويل: «يا لها من سحب، ويا لهذا الضوء أيضاً».

قال فيجايا باحثاً عن الدقة: «إنها أضواء الساعة الأخيرة قبل الغسق، كان المطر قد توقف منذ برهة قصيرة وبزغت الشمس من جديد أكثر إشراقاً وسطوعاً من قبل. تسطع بالبريق غير الطبيعي الذي تصنعه الأشعة المتسللة تحت سقف من السحب. إنه البريق الأخير المقضي عليه بالزوال لساعة الأصيل، الذي يرقش كل سطح يلمسه ويزيد كل ظل عمقاً.»

ــ «يزيد كل ظل عمقاً..» كذلك ردد ويل بينه وبين نفسه بينما كان يحدق في الصورة . إن ظلال هذه الكتلة الهائلة السامقة من السحاب، والتي تنزل بعتمتها على جبل بأكمله تكاد تتحول إلى لون أدكن قاتم، وفي منتصف المسافة في الخلفية تلوح سحب الجزيرة. وفيما بين الدكنة والدكنة يسطع بريق نباتات الأرز الصغيرة، أو الحرارة الحمراء للأرض المحروثة، أو توهج الصخور الجرداء العارية، أو القتامة السخية مع لمعان الماس الصادر عن نباتات الزينة المسرفة الاخضرار. وهنا في مركز الوادي تقوم مجموعة من المنازل ذات السقوف المائلة نائية وضئيلة، ولكن يا لوضوحها للناظرين، ويا لدقتها ونصوعها، ويا لعمق مغزاها. أجل عمق مغزاها. ولكن لن تجد جواباً إذا سألت نفسك: «ما مغزاها؟» وعلى الفور حول ويل تساؤله الصامت إلى كلمات.

وكرر فيجايا وراءه: «ماذا تعني هذه المنازل؟ إنها بالتحديد تعني ما تكونه.كذلك هي الجبال وكذلك السحب، وكذلك الأضواء والظلمات.. وهذا هو السبب في أن هذه صورة دينية أصيلة وحقيقية. أن ما يزعم أنها صور دينية تشير دائمًا إلى شيء آخر، شيء يكمن وراء الاشياء التي تمثلها بالفعل ــ إنها قد تشير إلى جزء ما من الهراء الميتافيزيقي أو إلى عقيدة جامدة سخيفة من الأساطير المحلية. أما الصورة الدينية الحقيقية الأصيلة فإنها على الدوام مترعة بالمعنى المباشر والخاص. وهكذا يكون هذا هو السبب الذي يدفعنا إلى أن نعلق هذه الصورة ــ من هذا النوع ــ في حجرتنا التي نخصصها للتأمل.»

ــ «أهي أفضل في هذا الصدد من مشاهد تؤخذ من حياة قديس أو مخلص؟»

أومأ فيجايا برأسه وقال: «لنبدأ القول بأن هذا هو الخلاف بين الموضوعي والذاتي. إن صورة ترسم للمسيح أو لبوذا ليست سوى تسجيل لشيء لاحظه شخص مؤمن بالمذهب السلوكي ثم فسره شخص متخصص في الفكرة والتصورات الدينية. ولكنك حينما تواجه منظراً خلاوياً مثل هذه اللوحة، فإنه من المستحيل بالنسبة لك من الناحية النفسية أن تنظر إليها بعيني «ج. ب واطسون» صاحب المذهب السلوكي أو بعقل القديس الكاثوليكي الفيلسوف «توماس الاكويني».. إنك في مواجهتها تكاد أن تكون مرغمًا على الخضوع لتجربتك المباشرة، وإنك لمضطر عملياً إلى أن تقوم بعمل من أعمال التعرف على الذات.»

ـ «التعرف على الذات؟»

قال فيجايا بإصرار: «أجل، التعرف على الذات. هذا المنظر للوادي المجاور إنما هو منظر لعقلك أنت ولعقل كل انسان ـ في جانب منه ـ بالصورة التي يوجد بها فوق وتحت مستوى التاريخ الشخصي. هنا تتجسد أسرار الظلمة، ولكن الظلمة تتجمع هي والحياة في جانب واحد. وهناك اشراقات الضوء، والضوء يسطع من المنازل في مثل البريق الذي يسطع به من الاشجار والحشائش والمساحات الزرقاء الممتدة بين السحب. إننا نبذل أقصى ما في وسعنا لكي ندحض الحقيقة، ولكنها تظل حقيقة رغم كل شيء، والانسان مقدس في مثل قدسية الطبيعة، لانهائي كالفراغ الكوني. ولكن هذا يعني الاقتراب اقتراباً خطيراً من التفكير الغيبي، ولم يحدث أبداً أن أنقذت فكرة مجردة إنساناً ما، فلنتمسك إذن بالحقائق المادية، لنتمسك بالمعلومات الموضوعية.» وصوب إصبعه مشيراً إلى الصورة واستمر يقول: «حقيقة قريبة يلمع نصفها تحت أشعة الشمس، ويغرق نصفها في الظل والسر. حقيقة تلك الجبال الزرقاء، وحقيقة الجبال الأخرى من فوق الأولى والأكثر خيالية وسحراً والتي صنعت من بخار الماء. حقيقة البحيرات الزرقاء في السماء بحيرات الخضرة الشاحبة أو السبخ الرمادي الخام فوق الأرض التي يضيئها نور الشمس.. حقيقة تلك الحشائش في المقدمة وذلك الدغل من سيقان الخيزران لاتبعد عن أسفل السفح إلا ياردات قليلة، وفي نفس الوقت حقيقة تلك القمم النائية والمنازل الضئيلة إلى درجة لاتصدق على بعد ألفين من الأقدام تحت القمم نفسها في أسفل الوادي.» ثم أضاف يقول بلهجة اعتراضية: «المسافة، إن قدرة لوحات المناظر الخلاوية على التعبير عن حقيقة المسافة والبعد، لسبب آخر لاعتبار هذه اللوحات هي أكثر الصور الدينية أصالة وصدقاً.»

ـ «لأن المسافة تمنح المنظر سحراً وفتنة؟»

ـ «كلا، لأنها تمنحه الحقيقة. إنها تذكرنا بأن الكون يضم أبعاداً أكثر بكثير من مجرد الناس ـ بل إنها تذكرنا بأن هناك من الناس أكثر بكثير من مجرد الناس. إنها تذكرنا بأن ثمة مسافات عقلية شاسعة داخل جماجمنا في مثل ضخامة المسافات الممتدة هناك

في خارجها. إن ممارسة تجربة المسافة، المسافة الداخلية والمسافة الخارجية، المسافة في الزمان والمسافة في المكـان ـ تلك هي أولى التجارب الدينية وأكثرها جوهرية. «أواه أيها الموت في الحياة، أيتها الأيام التي لم يعد لها وجود» هكذا قال شاعر من الشعـراء، ويمكننا أن نضيف: أواه أيتها الأماكن، أيها العدد اللانهائي من الأماكن التي ليست هي «هذا» المكان، أيتها المتع الزائلة، أيتها الرؤى والتعاسات الماضية، وكلكم أحياء حياة لاحدود لها في ذكرياتنا ورغم ذلك فكلكم موتى، موتى دون أمل في أن تبعثوا من جديد. ثم القرية هناك في أسفل القاع من الوادي واضحة للناظرين حتى رغم الظل الذي يغمرها، حقيقة ولا مراء فيها إلى هذه الدرجة، ومع هذا فهي إلى هذه الدرجة أيضاً من البعد، نائية لايمكن بلوغها ولا ملامستها أو مخاطبة أهلها. إن صورة مثل هذه لَبرهان على قدرة الانسان على تقبل كل ما في الحياة من صـور الموت، وكل أنواع الغياب الغارقة في تثاؤب النعـاس التي تحيط بكلّ حضور.»

وأضاف فيجايا يقول: «بالنسبة لعقلي، فإن أسوأ قسمات فنكم غير التجسيدي، هي ثنائية أبعاده الثابتة المتكررة، هي رفضه لأن يضع في اعتباره تجربة المسافة كتجربة كونية شاملة. إن لوحة من لوحات النزعة التعبيرية المجردة، يمكن أن تكون جذابة وجميلة جداً بوصفها شيئاً ملوناً ومن الممكن أيضاً أن تستخـدم بوصفهـا بقعة حبـر من بقع اختبارات «روشـاش»[٣٦] للشخصية والذكاء، اذ يستطيع كل شخص أن يجد فيها تعبيراً رمزياً عن مخاوفه الخاصة وشهواته وأحـلام يقظتـه وموضـوعات كـراهيته. ولكن المـرء لايستطيع أن يعثر فيها أبداً على تلك الحقائق الاكثر انسانية (أم أنه ينبغي على المرء أن يقول عنها إنها تلك الحقائق الأكثر انسانية بكثير من كل شيء) والتي يكشفها الانسـان حينما يواجه العقل المسافات الخارجية للطبيعة أو حينما يواجه المسافات المشابهة الداخلية والخارجية لصورة لمنظر خلاوي مثل هذه التي تتطلع الآن اليها. إن كل ما أعرفه هو أنني لا أجد في رسومكم التجريدية الحقائق التي تكشف عن نفسها هنا، وأشك في قدرة أي شخص آخر على أن يجدها. . الأمر الذي يجعل من نزعتكم التعبيرية غير الموضوعية المجردة التقليدية هذه نزعة غير دينية في جوهرها. بل يمكنني أن اضيف أن هذا هو السبب الذي يجعل أفضل منتجات هذه النزعة مضجراً إلى درجة بعيدة رغم تفاهته التي لا حد لها».

سأل ويل بعد لحظة من الصمت: «هل تأتي إلى هنا كثيراً؟»

ـ «كلما شعرت بالرغبة في التأمل وسط مجموعة بدلاً من التأمل بمفردي.»

---

(٣٦) لوحات، أو «بقع روشاش» لاختبارات الشخصية والتحليل النفسي، مجموعة من البقع بالحبر الأسود ذات اشكال محددة، ابتكرها عالم نفسي ألماني أعطاها اسمه وكانت تعتبر من وسائل الاختبار النفسي التقليدية، ولكنها ذات قيمة جانبية إلى جوار التحليل النفسي التقليدي والاختبارات الأخرى.

ـ «هل يحدث هذا كثيراً؟»

ـ «مرة كل أسبوع أو نحو ذلك.. ولكن يروق لبعض الناس بالطبع أن يترددوا على هذا المكان أكثر من ذلك.. وبعضهم يأتون أقل من هذا كثيراً، أو لا يأتون على الاطلاق. فهذا أمر يعتمد على مزاج المرء وحالته النفسية. انظر إلى صديقتنا سوسيلا على سبيل المثال ـ إنها تحتاج إلى جرعات كبيرة من الوحدة ولذلك فإنها نادراً ما تأتي إلى حجرة التأمل. بينما شانتا (وهذه هي زوجتي) تحب أن تأتي إلى هنا كل يوم تقريباً».

قالت مسز راو: «وكذلك أنا» ثم أضافت تقول وهي تضحك: «ولكن ينبغي أن يكون هذا متوقعاً فالسمان من الناس يحبون أن يستمتعوا بصحبة الآخرين ـ حتى حينما يتأملون.»

سألها ويل: «وهل تتأملين في هذه الصورة؟»

ـ «ليس فيها، وإنما من خلالها، إذا كنت تدرك ما أعنيه. أو بالأحرى في تطابق معها. إنني أنظر إليها، والآخرون ينظرون إليها، وهي تذكرنا جميعاً بمن نحن في الحقيقة وما لسنا عليه حقـاً، وكيف يمكن أن يتحول ما ليس نحن إلى ما نحن عليه في الحقيقة.»

سأل ويل: «هل هناك أية علاقة بين ما تتحدثان عنه الآن وبين ما رأيته هناك في معبد شيفا؟»

أجابت تقول: «بالطبع هناك علاقة بينهما. إن دواء «الموكشا» يأخذك إلى نفس المكان الذي تصل إليه من خلال التأمل.»

ـ «إذن فلماذا التأمل أصلاً؟»

ـ «يمكنك أيضاً أن تسأل، ولماذا تتحمل مشقة أن تتناول غذاءك؟»

ـ «ولكن طبقاً لما تقولينه، فإن دواء «الموكشا» هو الغذاء.»

قالت بتأكيد: «إنه مأدبة حافلة.. وهذا هو السبب بالتحديد الذي يوجب أن يكون هناك تأمل. إنك لا تستطيع أن تتناول وجبات ضخمة كل يوم.. إنها باذخة أكثر من اللازم وتستغرق وقتاً طويلاً جداً. وإلى جانب ذلك فإن الوجبات الضخمة يقدمها لك أخصائي، وليس لك أي دور في الاعداد لها. أما غذاؤك اليومي فلابد لك أن تطهوه لنفسك بنفسك. إن دواء «الموكشا» يأتي بوصفه علاجاً طارئاً.»

قال فيجايا: «إذا تحدثنا بالمصطلحات الدينية فإن دواء «الموكشا» يهيىء المرء لتلقي البركات المجانية، العطايا التي يحصل عليها دون مقابل من جهد أو مشقة ـ رؤى ما قبل

التصوف، أو التجارب الصوفية الكاملة الازدهار، والتأمل واحد من الطرق التي يتعاون من خلالها المرء مع تلك البركات والعطايا المجانية.»

ـ «كيف؟»

ـ «عن طريق غرس وتثبيت حالة العقل التي تصبح الرؤى الداخلية الغارقة في بحران النشوة ممكنة الدوام ولحظات معتادة من الاستنارة والمعرفة بالوصول بمعرفة المرء لذاته إلى النقطة التي لايصبح فيها مضطراً إلى الخضوع للأوعية خضوعاً يؤدي إلى القيام بكل الاشياء القبيحة السخيفة المسفة التي تحط من قدر الانسان، والتي كثيراً ما يجد المرء نفسه يفعلها دون شعور منه.»

ـ «أتعنين أن التأمل يعين الانسان في سبيل أن يكون أكثر ذكاء؟»

ـ «إنه لايزيد الذكاء بالنسبة إلى العلم أو المناقشة المنطقية ـ وإنما هو يزيد الذكاء على المستوى الاكثر عمقاً للتجارب المحددة والعلاقات الشخصية.»

قالت مسز راو: «إنه يجعل المرء أكثر ذكاء على «ذلك» المستوى حتى ولو كان المرء شديد الغباء في المستويات الأعلى». ربتت على رأسها ثم مضت تقول: «إنني غبية تماماً، كالصماء بالنسبة للأشياء الطيبة والنافعة التي يتفوق فيها الدكتور روبرت وفيجايا ـ علم الوراثة والكيمياء الحيوية والفلسفة وبقية المجالات التي يتفوقان فيها. وأنا لا نفع مني في مجالات الرسم أو الشعر أو التمثيل. لامواهب لي ولا أملك أي مهارات. ولذلك فقد كان لابد لي أن أشعر شعوراً مرعباً بالدونية والانقباض. ولكنني في الحق لا أشعر بشيء من ذلك والفضل في هذا إنما يعود إلى دواء «الموكشا» وإلى التأمل. لا مواهب ولا مهارات ولكن إذا وصلت إلى مجال ممارسة الحياة، إذا وصلت إلى مسألة فهم الناس ومساعدتهم، فإنني أشعر بنفسي وأنا أنمو وأنمو وتتضاعف حساسيتي ومهارتي. فإذا وصلت إلى ما أسماه فيجايا بالبركات والعطايا المجانية..» توقفت عن الكلام قليلاً ثم أضافت تقول: «قد يمكنك أن تكون أعظم العباقرة في العالم، ولكنك قد لاتكون مالكاً لشيء يزيد عما أعطيته أنا وحصلت عليه. أليس ذلك صحيحاً يا فيجايا؟»

ـ «صحيح تماماً.»

التفتت ثانية إلى ويل وقالت: «هكذا ترى يا مستر فارنابي، أن «بالا» هي المكان الملائم للاغبياء من الناس. أكبر قدر من السعادة لأكبر عدد من الناس. إننا نعترف بالتفوق من النوع الذي يتمتع به أناس مثل الدكتور روبرت وفيجايا ورانجا العزيز ونحن نعرف تماماً أن نوع الذكاء الذي يتمتعون به نوع هام أهمية كبيرة. ولكننا نعرف أيضاً أن نوع ذكائنا لايقل أهمية عن نوع ذكائهم ونحن لانحسدهم، لأننا قد أعطينا وقد حصلنا على مقدار ما حصلوا عليه تماماً. بل وقد نحصل أحياناً على أكثر مما يحصلون.»

قال فيجايا موافقاً: «بل نحصل على أكثر مما يحصلون لسبب بسيط هو أن موهبة التعامل مع الرموز تغري مالكيها بالوقوع في أسر عادة التلاعب بـالرمـوز، وأن عادة التلاعب بالرموز لعقبة في طريق ممارسة التجـارب المحددة وفي طـريق تلقي البركـات والعطايا المجانية».

قالت مسز راو: «وهكذا ترى أنك غير مضطر لأن تسرف في الاحساس بالحزن والاسف من أجلنا» نظرت إلى ساعتها وهتفت: «يا إلهي، لسوف أتأخر عن موعد غداء «ديليبي» إن لم أسرع على الفور.»

واندفعت فجأة نحو الباب.

قال ويل ساخراً: «الزمن، الزمن، الزمن. الزمن حتى في هذا المكان المخصص للتأمل الذي لايحده زمان. إن وقت الغداء يتحول دون مقدمات إلى أبدية لانهاية لها ولابداية.» وضحك ثم أضاف: «لا تكتفِ، ولاتقبل كلمة «نعم» إجابة.. فطبيعة الاشياء على الدوام هي «لا».

توقفت مسز راو للحظة ثم التفتت إليه من ورائها.

قالت وهي تبتسم: «ولكن يحدث في بعض الأحيان بما يشبه المعجزة أن تتحول الأبدية إلى زمن محدود ـ بل إلى وقت الغداء. إلى اللقاء».

ولوحت بيدها، وفي برهة كانت قد غابت عن الانظار.

قال ويل متسائلاً بصوت مرتفع بينما كان يتبع فيجايا عبر المعبد المظلم ثم إلى الخارج إلى وميض الظهيرة الساطع: «أيهما أفضل ـ أن تولد غبياً في مجتمع ذكي، أم أن تولد ذكياً في مجتمع لا عقل له؟».

الفصل الثاني عشر

«هاقد وصلنا» كذلك قال فيجايا حينما كانوا قد بلغوا نهاية شارع قصير كان يهبط منحدراً عن ساحة السوق. فتح فيجايا باباً صغيراً مثل «الخوخة» في بوابة ضخمة، وأشار إلى ضيفه لكي يتقدمه إلى حديقة صغيرة، كان ينتصب في نهايتها وعند سورها المنخفض منزل له سقف مائل.

وراء الكوخ اندفع كلب أصفر من نوع المونجريل الضخم وحياهما بكمية ضخمة من القفزات وهزات الذيل المجنونة النشوى. وبعد لحظة جاء ببغاء أخضر كبير من حيث لايعرف أحد، له صدغان أبيضان، وذيل من الريش الناعم المصقول، فحوم هابطاً حتى نزل على كتف فيجايا وهو يصدر صرخة واحدة مع ضجة من جناحيه الخافقين لحظة الهبوط.

قال ويل: «الببغاوات لك أنت، أما طيور المايناه، فهي للصغيرة ماري ساروجيني: إنكم شعب يبدو على وفاق كامل مع حيوانات بلادكم».

أومأ فيجايا وقال: «ربما كانت «بالا» هي البلد الوحيد التي لايضطر فيها مؤرخ الأديان الحيوانية أن يؤمن بوجود الشيطان، فمن الواضح أن الشيطان في كل مكان آخر بالنسبة للحيوانات هو فرد من أفراد النوع البشري».

صعدا الدرجات المؤدية إلى الشرفة وسارا عبر الباب الأمامي المفتوح المؤدي إلى غرفة المعيشة الرئيسية في الكوخ. كانت امرأة شابة ذات ملابس زرقاء ترعى طفلها الرضيع وهي تجلس على مقعد منخفض بالقرب من النافذة ورفعت وجهاً شبيهاً بالقلب، بجبهته العريضة وانسحابه الرقيق حول الخدين الناتئين حتى الذقن المدببة، ومنحتهما ابتسامة ترحيب عذبة».

ـ «لقد جئت بويل فارنابي» كذلك قال فيجايا بينما كان ينحني فوقها لكي يقبلها.

ومدت شانتا يدها المتحررة من طفلها إلى الغريب.

قالت: «أرجو ألا يكون لدى مستر فارنابي اعتراض على الطبيعة الخام». وكما لو أن الطفل أراد أن يحدد الهدف من كلمات أمه، فرفع فمه عن الحلمة البنية وتجشأ بقوة، فظهرت بين شفتيه على الفور فقاعة بيضاء من اللبن، ثم انتفخت، وانفجرت. وتجشأ الطفل مرة أخرى، ثم استأنف رضاعته. فاستأنفت أمه تقول: «حتى وهو في الشهر الثامن فإن آداب المائدة عند راما مازالت بدائية جداً».

قال ويل بأدب: «إنه طفل نموذجي جميل». لم يكن يهتم بالاطفال الرضع. وكان يشكر حظه دائماً بسبب الفشل المتكرر في الحمل الذي أحبط كل آمال مولي واشتياقها إلى طفل.. ولكنه قال: «من الذي سوف يكون شبيهاً له، أنت أم فيجايا؟»

ضحكت شانتا فاشترك فيجايا في الضحك بقهقهة ضخمة منخفضة القرار.

أجابت: بالتأكيد لن يكون شبيهاً بفيجايا.»

ـ «ولم لا؟»

قال فيجايا: «هناك سبب كافٍ لذلك. وهو أنني لست مسؤولاً من الناحية الوراثية.»

ـ «وبكلمات أخرى، فإن الطفل ليس ابن فيجايا».

راح ويل ينقل نظراته من وجه ضاحك إلى الوجه الضاحك الآخر، وأخيراً هز كتفيه وقال: «إنني أسلم».

قالت شانتا لتفسر الأمر: «منذ أربع سنوات، رزقنا بتوأمين كانا صورتين حيتين من فيجايا». وفي هذه المرة فكرنا في أنه سوف يكون من الممتع لو حققنا تغييراً كاملاً.. فقررنا أن نثري الاسرة بمدد جسدي ونفسي جديد جدة كاملة. هل سمعت أبداً عن جوبيند سينغ؟»

ـ «كان فيجايا يطلعني الآن فقط على رسمه في غرفة تأملكم».

ـ «حسناً، ذلك هو الرجل الذي اخترناه لكي يكون والداً لراما».

ـ «ولكنني فهمت أنه قد مات».

أومأت شانتا برأسها وقالت: «ولكن روحه مازالت تتجول حية في العالم».

ـ «ماذا تعنين؟»

ـ «ت. ك بالاضافة إلى ت. ص»

ـ «ت. ك بالاضافة إلى ت. ص؟»

ـ «التجميد الكامل والتلقيح الصناعي».

ـ «أوه، هذا هو الأمر».

قال فيجايا: «لقد استطعنا في الحقيقة أن نطور أساليب التلقيح الصناعي قبلكم بحوالي عشرين سنة. ولكننا لم نكن نستطيع بالطبع أن نستفيد من هذه الأساليب حتى تيسر لنا التيار الكهربائي والثلاجات التي يمكن الاعتماد عليها. وقد حصلنا على الكهرباء والثلاجات في أواخر العشرينات.. ومنذ ذلك الحين نستخدم التلقيح الصناعي على مجال واسع».

تدخلت شانتا تقول: «وهكذا يتضح لك أن طفلي قد يكبر رساماً، هذا إذا كان ذلك النوع من المواهب مما يمكن وراثته، وحتى إذا لم يكن ذلك ممكناً فإنه سوف يكون أعمق في أحاسيسه الداخلية وأبعد في بصيرته الباطنية بكثير من أخويه وحتى من والديه. الأمر الذي سوف يكون شديد الاهمية بليغ المعنى لكل من له علاقة بالامر».

سأل ويل: «وهل يتجه الكثير من الناس للقيام بمثل هذا العمل؟»

ـ «عددهم يتكاثر باستمرار.. يمكنني في الحقيقة أن أقول إن كل زوجين يقرران الحصول على طفل ثالث يتجهان الآن إلى التلقيح الصناعي.. كذلك يفعل الكثيرون الذين يقررون نهائياً أن يتوقفوا عن الانجاب عند الطفل الثاني. خذ أسرتي أنا مثالاً على ذلك. كان مرض البول السكري شائعاً في عائلة أبي، ولذلك قدر هو وأمي أنه سيكون من الأفضل لو حصلا على طفليهما جميعاً عن طريق التلقيح الصناعي. لقد جاء أخي سليلاً لثلاثة أجيال من الراقصين، أما أنا، فإنني من الناحية الوراثية ابنة أول ابناء شقيق الدكتور روبرت. مالكولم شاكرافارتي ماك فيل، الذي كان السكرتير الخاص للراجا القديم.»

وأضاف فيجايا يقول: «وهو مؤلف أفضل ما كتب في تاريخ بالا. لقد كان شاكرافارتي ماك فيل واحداً من أقدر أبناء جيله».

نظر ويل إلى شانتا، ثم نقل نظره إلى فيجايا.

وسأل: «وهل تمت وراثة تلك القدرة؟»

أجاب فيجايا: «كذلك هو الأمر إلى حد بعيد. حتى أنني أواجه أعظم المصاعب في سبيل المحافظة على تفوقي باعتباري الرجل. إن شانتا تتمتع بعقل أكبر من عقلي. ولكنها لحسن الحظ لاتستطيع أن تواجه قوتي العضلية».

رددت شانتا وراءه بسخرية: «قوتك العضليـة.. قوتـك العضلية.. يبـدو أنني سأتذكر قصة عن سيدة صغيرة كان اسمها دليلة.»

استمر فيجايا يقول: «وبهذه المناسبة فإن لشانتا اثنين وثلاثين أخاً غير شقيق وتسعاً وعشرين أختاً غير شقيقة، وأكثر من ثلثهم يتمتعون بذكاء غير عادي».

ـ «وبذلك فإنكم تحسنون جنسكم».

ـ «بالتحديد تماماً» اعطنا قرناً واحداً آخر، وسوف يكون متوسط الذكاء لدينا أكثر من مائة وخمسين».

ـ «بينما متوسط الذكاء عندنا، وبمعدل التقدم الحالي، سوف ينخفض إلى ما يقرب من خمسة وثمانين. والسبب الأساسي هو جوانب القصور الوراثية الأكثر خطورة التي يحافظ عليها وتنتقل عبر الاجيال. وهذا سوف يزيد الأمور سهولة أمام كل دكتاتور في المستقبل». ضحك بصوت مرتفع حينما طرأت له فكرة هذه النكتة الكونية.. ثم عاد يقول بعد لحظة من الصمت: «وماذا من أمر الجوانب الدينية والاخلاقية للتلقيح الصناعي؟»

قال فيجايا: «في أيامه الأولى كان هناك الكثيرون من المعارضين الاخلاقيين.. ولكن الآن ظهرت بوضوح كامل مميزات التلقيح الصناعي. وأكثر المتزوجين يشعرون بأنه من الأكثر أخلاقية أن يحصلوا على كمية من الملقح للحصول على طفل من نوعية ممتازة بدلاً من المخاطرة بالاندفاع الأحمق إلى إعادة انتاج كل أنواع القصور والشذوذ التي ربما كانت سارية ومتناقلة في اسرة الزوج. وفي نفس الوقت انشغل المفكرون الدينيون بالأمر. وتم تبرير التلقيح الصناعي من خلال فكرة إعادة التجسد والتناسخ ونظرية «كارما»[37] إن الآباء الورعين الاتقياء يشعرون الآن بالسعادة ازاء فكرة أنهم يمنحون أبناء زوجاتهم فرصة خلق مصير أفضل لأنفسهم ولسلالتهم».

ـ «مصير أفضل»؟

ـ «لأنهم يحملون جرثومة البلازما المستمدة من مصدر أفضل. وهذا المصدر أفضل لأنه تجسيد لـ«كارما» من مستوى أحسن. إن لدينا «بنكاً» مركزياً للمخزون الممتاز من الملقحات المستمدة من المصادر الأحسـن من غيرها. هناك مخزون ممتاز من أنواع مختلفة جسدياً ونفسياً. في بيئة من نوع بيئتكم لاتحصل الدوافع الوراثية لدى معظم الناس على فرصة عادلة. أما في بيئتنا فإنها تحصل على هذه الفرصة. وبهذه المناسبة إن لدينا سجلات

(٣٧) نظرية كارما، إحدى أساليب ممارسة اليوجا ونظرياتها. تقوم صياغتها الأساسية على فكرة أن ثمرات الفعل ونتائجه تتجدد باستمرار وتتناسخ، وأن التحرر الشامل لايتحقق إلا من خلال يوجا الفعل، أي الاستغراق الكامل في العمل والتفكير.

للخصائص العقلية والجسدية للناس تعود إلى عام ١٨٧٠ تقريباً. وبذلك ترى أننا لانعمل في الظلام بصورة كلية. فنحن نعرف على سبيل المثال أن جدة جويبند سنغ لأمه كانت وسيطاً روحياً موهوبة وامتد بها العمر إلى العام السادس والتسعين».

قالت شانتا: «وبذلك يمكنك أن ترى أننا قد نحصل في الاسرة على متنبيء صاحب بصيرة نافذة يمتد به العمر إلى المائة عام» تجشأ الطفل مرة ثانية، فضحكت أمه وقالت: «لقد تكلم العراف ــ كالعادة ــ بطريقة مبهمة جداً» التفتت إلى فيجايا وقالت: «إذا كنت تريد أن يكون الغداء معداً في موعده فمن الأفضل أن تذهب لتفعل فيه شيئاً. فإن راما سوف يشغلني لمدة عشر دقائق أخرى على الأقل».

نهض فيجايا. ووضع إحدى يديه على كتف زوجته، وفي رقة متناهية مسح ظهر الطفل البني العاري.. انحنت شانتا برأسها وراحت تمسح خدها على قمة رأس الطفل المفرطحة وهمست له: «إنه أبوك. أبوك الطيب، الطيب، الطيب..»

ربت فيجايا على ظهر الطفل بلمسة أخيرة، ثم شد عوده واقفاً، وقال لويل: «لقد كنت تتعجب من الكيفية التي وثقنا بها علاقاتنا إلى هذا الحد مع الحيوانات المحلية. سوف أطلعك على السر» ورفع يده وقال: «بوللي، بوللي» وبحذر شديد، خطا الطائر الكبير من كتف مولاه لكي يستقر على اصبعه السبابة الممدودة وراح فيجايا يردد منشداً: «بوللي طائر طيب، إن بوللي لطائر طيب جداً» ثم خفض يده إلى النقطة التي حدث عندها التماس بين جسد الطائر وجسد الطفل، ثم راح يحركها ببطء لكي يمسح بريش الطائر بشرة الطفل البنية إلى الأمام وإلى الخلف، إلى الأمام والخلف بينما كان يردد: «إن بوللي لطائر طيب جداً. . طائر طيب.»

أطلق الطائر عدة قهقهات متتالية منخفضة، ثم انحنى إلى الأمام من فوق منصته على أصبع فيجايا وبرقة شديدة مضى يعابث أذن الطفل الدقيقة.

همست شانتا على نفس نغمة زوجها: «هذا طائر طيب، هذا طائر طيب جداً».

قال فيجايا: «لقد التقط الدكتور آندرو هذه الفكرة بينما كان يقوم بعمله كعالم طبيعي على السفينة «ميلامبوس». وقد التقطها من قبيلة في غينيا الجديدة الشمالية. إنهم شعب يعيش في عصره الحجري الحديث ولكنه مثلكم أيها المسيحيون، ومثلنا نحن البوذيين يؤمن بالحب. ولكنهم على عكسنا وعلى عكسكم. فقد اخترعوا بعض الطرق العملية التي تكفل تحقيق ما يؤمنون به في صورة واقعية. ولقد كانت طرقهم الفنية في هذا الصدد واحدة من أجمل اكتشافاتهم. أربت على الطفل وأنت تطعمه. فإن ذلك سوف يضاعف متعته. وبينما تكون مشغولاً بإرضاعه وتدليله عرفه بالحيوان أو بالشخص الذي تريده أن يحبه.. امسح جسده بأجسادهم، اجعل تماساً جسدياً دافئاً بين الطفل وبين

موضوع الحب المرغوب. وفي نفس اللحظة ردد كلمة ما مثل «طيب». لسوف يفهم في البداية نغمة صوتك وحدها. ولكنه فيما بعد، وحينما يتعلم الكلام، سوف يدرك المعنى الكامل. إن الطعام زائد التربيت الحنون زائد التماس المباشر زائد كلمة «طيب» تساوي «الحب». . والحب يساوي المتعة، الحب يساوي الرضا والاشباع».

ــ «هذا هو فكر بافلوف خالصاً». [٣٨].

ــ «ولكنه فكر بافلوف خالصاً من أجل هدف خير. فكر بافلوف من أجل الصداقة والثقافة والتعاطف. بينما أنتم تفضلون استخدام فكر بافلوف في عمليات غسيل المخ، ومن أجل بيع السجائر والفودكا والتعصب القومي. . إنه هناك بافلوف لصالح كل دكتاتور أو جنرال أو ملك من ملوك المال».

انضم الكلب «المونجريل» الأصفر إلى المجموعة، رافضاً أن يُترك لمدة أطول في البرد خارج المنزل، وراح عامداً يلعق كل جزء من أي بشرة عارية يجدها في متناوله ــ ذراع شانتا أو يد فيجايا وقدم الببغاء وظهر الطفل. دفعت شانتا الكلب ليصبح أكثر قرباً من الطفل وراحت تمسح الطفل على صفحة ظهره ذات الفراء الكثيف.

قالت شانتا: «وهذا أيضاً كلب طيب، الكلب توبي، طيب، طيب، يا توبي».

ضحك ويل وقال: «ألا ينبغي عليّ أن أشترك في المحبة؟»

أجابت شانتا: «كنت على وشك أن أقترح ذلك، ولكنني فقط كنت خائفة من أن تظن أن هذا سيكون ماساً باحترامك ووقارك».

قال فيجايا: «يمكن أن تأخذ مكاني، إذ يجب أن أذهب لأرى ماذا سيكون من أمر غدائنا».

سار فيجايا وهو ما زال يحمل الببغاء فخرج من الباب المؤدي إلى المطبخ. . جذب ويل مقعده، وانحنى إلى الامام وشرع يربت على جسد الطفل الصغير.

همست شانتا لطفلها: «هذا رجل آخر. رجل طيب يا حبيبي، رجل طيب».

قال ويل بضحكة ملؤها الندم: «لكن أتمنى أن أكون طيباً حقاً؟»

---

(٣٨) بافلوف ــ ايفان بيتروفيتش (١٨٤٩ ــ ١٩٣٦) عالم الفيسيولوجي والطبيعة البشرية الروسي الشهير، ومؤسس علم الدراسة الموضوعية التجريبية لنشاط الجهاز العصبي ومراكزه العليا عن طريق منهج الافعال الشرطية وغير الشرطية. كان تلميذاً للعالم الروسي سيفتينوف، فطور أساليبه حول الطبيعة الانعكاسية للنشاط الذهني وعلى أساس هذا المبدأ اكتشف بافلوف قوانين عمل الذهن البشري.

ـ «أنت طيب حقاً هنا والآن».. ثم انحنت ثانية فوق الطفل ورددت: «إنه رجل طيب، رجل طيب طيب».

نظر إلى وجهها الكريم الذي تغطيه ابتسامة خفية، وشعر على اصابعه بنعومة جسد الطفل الصغير ودفئه. طيب، طيب، طيب.. وربما كان هو أيضاً قد عرف هذه الطيبة ـ ولكن لو أن حياته فقط كانت مختلفة تماماً عما كانت عليه في الحقيقة.. ولذلك لاتكتفي أبداً بكلمة «أجل» جواباً لأي شيء، حتى ولو كانت «أجل» كما هي الآن، لا تحتاج إلى برهان. نظر ثانية بعينيه وتعمد أن يشحنها بالرغبة في البحث عن مستوى آخر للتقييم، فرأى نسخة كاريكاتيرية من صورة لمذبح كنسي رسمها «ميملينج»[٣٩]. قال لنفسه: «العذراء والطفل، كلب، بافلوف، تعارف عارض لادواء له». وفجأة أصبح بوسعه تقريباً أن يدرك، من الداخل، لماذا كان السفير مستر باهي يمقت هؤلاء الناس كل المقت، ولماذا كان قد عقد عزمه على تدميرهم ـ باسم الله بالطبع ـ كما هي العادة ودون حاجة إلى التصريح بذلك.

ـ «طيب، طيب، طيب».

كانت شانتا ما تزال تهمس لطفلها: «إنهم طيبون أكثر من اللازم ـ تلك كانت جريمتهم. ببساطة، لم تكن هذه الجريمة من الأمور التي يمكن أن يسمح بها. ومع ذلك فيا لارتفاع ثمنها! وكم كانت رغبته قوية في أن يكون له نصيب فيها! هذه مشاعر صاحبة العاطفية إلى درجة كاملة! كذلك قال لنفسه، ثم صاح بصوت مسموع، يردد في سخرية: «طيب، طيب، طيب، ولكن ماذا يحدث حينما يكبر الطفل قليلاً فيكتشف أن كثيراً من الأشياء والناس شريرة، شريرة؟»

أجابته: «الود يبعث الود»

ـ «من الانسان الودود ـ أجل. ولكن ليس من الجشعين، ولا من عشاق السلطة، ولا من المُحْبَطين الفاشلين المملوئين بالمرارة. بالنسبة لهم ليس الود إلا ضعفاً، ليس سوى دعوة للاستغلال، والبلطجة، وللانتقام دون عقوبة».

ـ «ولكن على المرء أن يقبل هذه المخاطرة. عليه أن يبدأ بداية ما. ولحسن الحظ ليس هناك من يخلد إلى الأبد. إن كل من حكمت عليهم الظروف بأن يكونوا مخادعين

---

(٣٩) ميملينج ـ هانس (مات عام ١٤٩٤). رسام ومصور ألماني ـ هولندي. كان تلميذاً في مدرسة الرسام بروجرفان ديرفايدين، ومن أوائل من حددوا خصائص فن التصوير الهولندي، وعاش في مدينة «بروج» وتميزت صوره بموضوعات التقوى وبالهدوء والشفقة الخالصة التي سادت في أواخر العصور الوسطى.

مليئين بالمرارة والرغبة في الابتزاز سوف يموتون في خلال أعوام قليلة. سوف يكونون موتى لكي يحل محلهم أناس نشأوا على الطريقة الجديدة. لقد حدث هذا معنا، وهو يمكن أن يحدث معكم».

قال موافقاً: «إنه يمكن أن يحدث.. ولكن إذا كانت الامور تجري تحت تهديد القنابل الهيدروجينية، وفي سياق التعصب القومي وعلى أساس زيادة سكان العالم خمسين مليوناً من البشر كل سنة، فيكاد يكون من المؤكد أنه لن يحدث».

ــ «لايمكنك أن تصدر حكمًا قبل أن تجرب».

ــ «ونحن لن نبذل أية محاولة طالما العالم على حالته الراهنة. وهو بالطبع سوف يظل على حالته الراهنة إلى أن تبذل محاولة ما. أن نحاول، والأكثر أهمية، هو أن ننجح نجاحاً، على الأقل، بقدر نجاحكم. وهذا هو الأمر الذي يعيدني ثانية إلى سؤالي الأصلي: ما الذي يحدث حينما يكتشف الانسان الطيب الطيب، أنه حتى «بالا» مليئة بكل من هو شرير شرير شرير؟ ألا يصاب الاطفال ببعض الصدمات البالغة التعاسة؟»

ــ «إننا نحاول أن نحصنهم ضد تلك الصدمات».

ــ «كيف ؟ بأن تجعلوا الاشياء بغيضة في أعينهم وهم ما يزالون صغاراً؟»

ــ «ليست بغيضة. فلنسمها «حقيقية».. إننا نعلمهم الحب والثقة. ولكننا نطلعم على الحقيقة الحقيقة في كل جوانبها. ثم نحملهم بالمسؤوليات.. إنهم يدفعون إلى إدراك أن «بالا» ليست جنة عدن أو أرض الأحلام. إنها بالفعل وطن جيد ولطيف.. ولكنها ستظل جيدة ولطيفة فقط إذا عمل كل فرد فيها وتصرف كما ينبغي. وفي نفس الوقت فإن حقائق الحياة، هي حقائق الحياة. حتى هنا.»

ــ «وماذا عن أمر حقائق الحياة التي من نوع تلك الثعابين التي تجمد الدم في الشرايين رعباً والتي قابلتها في منتصف طريقي في صعود الهاوية؟ يمكنك أن تقولي: «طيب، طيب، طيب، بقدر ما تشائين، ولكن ستظل الثعابين، كعادتها، تلدغ لتقتل».

ــ إنك تعني أنها ستظل «قادرة» على أن تلدغ. ولكن هل هي تستفيد حقاً من قدرتها هذه؟»

ــ «ولماذا ينبغي ألاّ تستفيد؟»

قالت شانتا:«انظر إلى هناك» التفت برأسه فرأى أنها كانت تشير إلى فجوة كالمحراب داخل الحائط. وفي داخل المحراب كان هناك تمثال حجري لبوذا يقترب حجمه من نصف

الحجم الطبيعي جالساً فوق قاعدة مستديرة تحت حافتها الخارجية نحت في صورة اللولب تعلوها قطعة من شيء أشبه بالماسورة من الرصاص تتدلى من خلفه لكي يتحول إلى عمود عريض، واستمرت شانتا تقول: «هذا بديل صغير لبوذا الموجود في حديقة المحطة ـ أنت تعرفه ذلك التمثال الهائل على ضفة بحيرة اللوتس».

قال: «وهو قطعة رائعة من أعمال النحت. وابتسامته تمنح المرء الهاماً حقيقياً لكي يعرف كيف كانت «رؤيا السعادة» عند بوذا. ولكن ما علاقة هذا المثال بالثعابين؟».

ـ «انظر ثانية».

نظر. ثم قال: «لا أرى شيئاً له أي مغزى خاص».

ـ «دقق النظر».

مرت الثواني. ثم لاحظ، مع صدمة الدهشة، شيئاً غريباً بل باعثاً على القلق.إن ما ظنه قاعدة مستديرة ذات شكل لولبي قد كشفت نفسها فجأة لكي يتضح أنها ثعبان هائل لف جسده حول نفسه. وأن الماسورة الرصاصية المتدلية التي كان بوذا جالساً تحتها إنما هي رقبة حية عملاقة من نوع الكوبرا وقد انفتح رأسها وتفرطح عند مركز حافته الرصاصية.

قال: «يا الهي. إنني لم الاحظ كم يمكن أن يكون المرء ضعيف الملاحظة».

ـ «أهذه هي المرة الأولى التي ترى فيها بوذا في هذا الوضع؟»

ـ «أجل هي المرة الأولى. . أهناك اسطورة ما؟»

أومأت برأسها وقالت: «إنها إحدى أساطيري المفضلة. إنك تعرف ما هي «شجرة البودهي» .بالطبع؟»

ـ «أجل، إنني أعرف شجرة البودهي».

ـ «حسناً، لم تكن هذه هي الشجرة الوحيدة التي جلس تحتها جوتاما في مرحلة حصوله على النور والمعرفة. . فبعد شجرة البودهي، جلس لمدة سبعة أيام تحت شجرة بنيان تسمى «شجرة قطيع الماعز» وبعد ذلك تحرك لكي يجلس تحت شجرة موكاليندا»

ـ «ومن كان موكاليندا؟»

ـ «كان موكاليندا هو ملك الثعابين، ولما كان إلهاً، فقد كان يعرف ماذا سيحدث في المستقبل، وهكذا لما جلس بوذا تحت شجرته، زحف الملك الثعبان خارجاً من جحره، فمد أمتاراً بعد أمتار من جسده، لكي يصنع، «بيت الطبيعة للحكمة»، وحينئذ هبت من الغرب عاصفة عظيمة. فجاءت الكوبرا المقدسة ولفت جسدها حول جسد الرجل الأكثر من مقدس، وفردت رأسها المفرطح فوق رأسه، ولمدة الأيام السبعة التي استغرقها التأمل،

ظلت تحمي التاتاجاتا، الحكيم الأعظم، من عصف الريح والمطر.. وهكذا ظل يجلس هناك حتى هذا اليوم.. الكوبرا من تحته، وكوبرا ثانية من فوقه، وهو واع في نفس الوقت بالكوبرا وبالنور الساطع وتطابقهما الكامل».

قال ويل: «يا لها من نظرة تختلف كل الاختلاف عن نظرتنا نحن إلى الثعابين!»

ــ «ومن المفترض أن تكون نظرتكم إلى الثعابين هي نظرة الله، تذكر سفر التكوين».

قالت مقتبسة من التوراة: «وأَضَعُ عداوة بينك وبين المرأة، وبين نسلك ونسلها».

ولكن «الحكمة» لايضع عداوة في أي مكان.. يا لكل تلك المعارك التي لاهدف لها ولا معنى، الشبيهة بمعارك الديوك بين الانسان والطبيعة وبين الطبيعة والله، وبين الجسد والروح! إن «الحكمة» لايصطنع مثل تلك الانقسامات المجنونة.»

ــ «ولا العلم يصطنعها.»

ــ «إن الحكمة يأخذ العلم في تياره ويمضي خطوة أبعد منه.»

مضى ويل يقول: «وماذا من أمر الديانة التوتمية؟ وماذا عن عبادات آلهة الخصوبة، انها لاتصطنع أية تقسيمات. أكانت هي الحكمة».

ــ «بالطبع كانت كذلك ــ حكمة بدائية، حكمة في مستوى العصر الحجري الحديث. ولكن بعد مضي شيء من الزمن، بدأ الناس يحصلون على الوعي بذواتهم، وبدأت الآلهة السوداء القديمة تبدو جديرة بالزراية والاحتقار. وبذلك تغير المنظر. هكذا دخل إلى المشهد آلهة النور، ودخل الانبياء، ودخل فيثاغوراس وزوروستر، ودخل اليانيون والبوذيون الأوائل. وجذبوا معهم، وفيما بينهم بداية عصر معارك الديوك الكونية ــ أهورا مازدا ضد آهري مان، ويهوه ضد الشيطان والبعل، ونيرفانا في تعارض مع ساماسارا، والمظهر الخارجي ينتصب ضد حقيقة افلاطون المثالية. وباستثناء ما حدث في عقول قلة قليلة من أصحاب المذاهب التانترية والماهيانية والطاوية والمسيحيين الهراطقة، استمر عراك الديوك لمدة تغطي أكثر ما مضى من السنوات الألفين السابقة.»

تساءل: «فماذا بعد».

ــ «الشي الذي جاء بعده هو بدايات علم الاحياء الحديث.»

ضحك ويل وقال: «لقد قال الله: «فليكن هناك داروين» وعلى الفور ظهر نيتشه والامبريالية وأدولف هتلر.»

قالت موافقة: «لقد ظهر كل هؤلاء، ولكن هناك أيضاً إمكانية وجود نوع جديد من

الحكمة لكل انسان. لقد أخذ داروين الديانة التوتمية القديمة ورفعها إلى مستوى البيولوجيا، أي علم الاحياء.. وعادت عبادات آلهة الاخصاب القديمة إلى الظهور في صورة علم الوراثة وهافلوك اليس. والأمر الآن موكول إلينا نحن لكي تدور نصف دورة أخرى حول اللولب المتصاعد. لقد كانت النزعة الداروينية هي حكمة العصر الحجري الحديث متحولة إلى مفاهيم علمية. أما حكمة الوعي الحديثة. ذلك النوع من الحكمة الذي رأيناه في صورة عابرة في تعاليم الداروينية مرفوعة إلى مستوى التعاطف والبصيرة الروحية». ثم أضافت لتختتم كلامها «وبذلك ترى أنه ليس ثمة من سبب أرضي ـ لا ولا أي سبب سماوي ـ يمنع البوذا أو أي شخص آخر في هذا المجال من أن يتأمل النور الساطع متجسداً في ثعبان».

ـ «حتى ولو كان من المحتمل أن يقتله الثعبان؟»

ـ «حتى ولو كان من المحتمل أن يقتله.»

ـ «وحتى رغم أن الثعبان هو أقدم رموز عضو التناسل الذكري وأكثرها عالمية.»

ضحكت شانتا وقالت: «تأملوا تحت شجرة «موكاليندا» تلك هي النصيحة التي نعطيها لكل عاشقين. وفي الفترات الممتدة بين تلك التأملات الغرامية تذكروا ما تعلمتم إياه في الطفولة، الثعابين اخوتكم، الثعابين لها الحق في تعاطفكم واحترامكم، الثعابين بكلمة واحدة، طيبة، طيبة، طيبة.»

ـ «والثعابين أيضاً سامة، سامة، سامة.»

ـ «ولكنك إذا تذكرت أنها طيبة بقدر ما هي سامة، وتصرفت على هذا الأساس، فإنها لن تستخدم سمها أبداً.»

ـ «لماذا تقولين هذا؟»

ـ «إنها حقيقة قائمة على الملاحظة.. إن الناس الذين لايخشون الثعابين، الناس الذين لايقتربون منها وهم يحملون العقيدة الثابتة التي تقول بأن الثعبان الطيب الوحيد هو الثعبان الميت، هؤلاء، لاتكاد الثعابين تلدغهم. لسوف أستعير في الاسبوع القادم ثعبان البيثون الهائل المستأنس الخاص بجيراننا. ولمدة بضعة أيام سأقوم بتقديم الغداء والعشاء لطفلي راما في احضان طيات الحية العتيقة.»

من خارج المنزل سُمعت ضحكة مرتفعة ممدودة، ثم سمعت أصوات مختلطة لمجموعة من الأطفال يتناقشون ويقاطع الواحد منهم الآخر بالانجليزية وبالبالانية. وبعد لحظة دخلت إلى الغرفة، طويلة تلوح عليها ملامح الامومة بالنظر إلى مسؤولياتها، ماري ساروجيني يحيط بها من الجانبين طفلان متشابهان تشابهاً تاماً، يتبعها الطفل الملائكي

البريء القوي البنية الذي كان معها حينما فتح ويل عينيه لأول مرة فوق أرض بالا.

قالت ماري ساروجيني: «لقد أخذنا معنا تارا وارجونا من روضة الأطفال» وفي نفس الوقت القى التوأمان نفسيهما على والدتهما.

وبينما كانت إحدى ذراعي شانتا تحمل طفلها الرضيع، والذراع الأخرى تحتضن الاخوين الآخرين، ابتسمت وهي تقدم تشكراتها: «كان ذلك عطفاً شديداً منك.»

كان توم كريشنا هو الذي قال: «أهلاً بك ونحن تحت أمرك.» ثم خطا إلى الامام، ثم قال بعد لحظة من التردد: «كنت أتساءل..» ثم قطع كلامه ونظر إلى اخته باستعطاف وهزت ماري ساروجيني رأسها.

تساءلت شانتا: «عمَّ كنت تتساءل؟»

ـ حسناً ، في الحقيقة ، كنا نحن الاثنين نتساءل.. أعني، هل نستطيع أن نأتي لكي نتناول الغداء معكم؟»

نقلت شانتا عينيها من توم كريشنا إلى ماري ساروجيني وعادت إلى توم مرة ثانية وقالت: «آه، فهمت، الأفضل أن تذهب لتسأل فيجايا إن كان هناك ما يكفي للطعام. إنه هو الذي يتولى أمر المطبخ اليوم.»

قال توم كريشنا دون حماس: «اوكي». وبخطوات بطيئة مترددة عبر الغرفة وخرج من الباب المؤدي إلى المطبخ. التفتت شانتا إلى ماري ساروجيني وسألتها: «ماذا حدث؟»

ـ «حسناً، لقد أخبرته أمي لا أقل من خمسين مرة، إنها لاتحب ما يأتي به من السحالي إلى المنزل.. ولكنه فعلها ثانية هذا الصباح.. ولذلك غضبت منه غضباً شديداً.»

ـ «ولذلك قررتما المجيء لتناول طعام الغداء هنا؟»

ـ «إذا لم تكن الفرصة مناسبة يا شانتا، فبوسعنا أن نجرب منزل آل راوس أو آل راجاجينا داساس».

قالت لها شانتا بتأكيد: «أنا واثقة أن الفرصة مناسبة. إنما فكرت فقط أنه سيكون من الخير لتوم كريشنا لو تبادل الحديث قليلاً مع فيجايا.»

قالت ماري ساروجيني بوقار: «إنك على حق تماماً.» ثم أضافت بطريقة عملية جداً: «تارا، ارجوكما تعاليا معي إلى الحمام نغتسل».

ثم قالت لشانتا بينما كانت تقودهما خارجاً: «إنهما قذران جداً.»

انتظر ويل حتى أصبحوا خارج مجال السمع، ثم التفت إلى شانتا وقال: «لقد أدركت مما كنت أراه الآن أنني كنت أشاهد عمل نادي تبادل التبني في أثناء جريانه الفعلي.»

قالت شانتا: «في صورة متواضعة جداً لحسن الحظ، إن توم كريشنا وماري ساروجيني يعيشان مع أمهما بطريقة ملحوظة النجاح. ليس هناك مشكلة شخصية ـ ليس هناك سوى مشكلة المصير، المشكلة الهائلة والمرعبة لكون دوجالد قد مات».

سألها: «هل ستتزوج سوسيلا ثانية؟»

ـ «أتمنى هذا. لصالح الجميع. وفي نفس الوقت فإنه من صالح الأطفال أن يقضوا قدراً معيناً من الوقت عند الواحد أو الآخر من آبائهم بالنيابة. وهذا من الخير لتوم كريشنا بصورة خاصة. إن توم كريشنا يجتاز الآن المرحلة من عمره التي يكتشف فيها الصبيان الصغار ذكورتهم. إنه ما زال يبكي كالأطفال الصغار، ولكنه بعد لحظة واحدة يشرع في التحدي وفي التظاهر وفي الاتيان بالسحالي إلى المنزل ـ لاشيء إلا لكي يبرهن على أنه رجل بنسبة مائتين في المائة. وهذا هو السبب الذي جعلني أرسله إلى فيجايا. . إن فيجايا هو التجسيد لكل ما يتخيل توم أنه هو نفسه. ثلاث ياردات طولاً، وياردتان عرضاً، قوي قوة مرعبة، وقادر قدرة هائلة. فحينما يقول له فيجايا كيف ينبغي أن يسلك وأن يتصرف، فإنه ينصت إلى ما يقوله، ينصت إليه بالطريقة التي ما كان يصغي إليَّ أو إلى أمه إذا قلنا نفس الكلمات. وفيجايا بالفعل يقول له نفس ما كنا جديرتين بأن نقوله له. وذلك لأنه إلى جانب المائتين في المائة من الرجولة التي يتمتع بها فإنه يكاد يكون حساساً حساسية انثوية بنسبة خمسين في المائة. وبذلك ترى أن توم كريشنا مازال يلعب ألاعيبه. والآن. .» راحت تختتم كلامها وهي تنظر إلى الطفل النائم على ذراعيها: «لابد أن أضع هذا الرجل الصغير في فراشه وأن استعد للغداء.»

الفصل الثالث عشر

جلس التوأمان على مقعديهما المرتفعين بعد أن اغتسلا ومشطا شعرهما. وظلت ماري ساروجيني واقفة على رأسيهما مثل أم تفخر بأطفالها وإن كانت قلقة عليهم. وعند الموقد كان فيجايا «يغرف» الارز والخضراوات المطبوخة من قدر مصنوع من الفخار. وراح توم كريشنا يحمل كل صحن بعد ملئه إلى المائدة بحذر وقد ارتسم على وجهه تعبير ينم عن التركيز الشديد.

ـ «انتهينا!» كذلك قال فيجايا حينما كان آخر صحن ممتلىء حتى حافته في طريقه إلى المائدة. ثم مسح يديه وسار نحو المائدة واتخذ لنفسه مقعداً ثم قال لشانتا:

ـ «يحسن أن تخبري ضيفنا بأمر صلاة المائدة.»

التفتت شانتا إلى ويل وقالت: «في «بالا» نتلو صلاة قبل تناول الطعام، إننا نتلوها أثناء الوجبة نفسها. أو إننا بالأحرى لا نتلوها، إننا نمضغها».

ـ «تمضغونها؟»

ـ «صلاة المائدة هي أول قضمة من كل صنف ـ تمضغ وتمضغ حتى لايبقى منها شيء. وطول المدة التي يستغرقها المضغ تركز انتباهك على نكهة الطعام وإلى ما يتكون منه ودرجة حرارته، وإلى درجات الضغط على اسنانك وإلى ما تشعر به العضلات في فكيك».

ـ «واعتقد أنه لابد في نفس الوقت أن نقدم شكرنا للمستنير العارف أو إلى شيفا، أو إلى أي رب آخر؟»

هزت شانتا رأسها بتأكيد وقالت: «سيؤدي هذا إلى تشتيت انتباهك، والانتباه هو

الهدف الوحيد. الانتباه إلى تجربة شيء محدد. شيء لم تبتكره أنت بنفسك. إنها ليست ذكرى لصياغة ما من الكلمات موجهة إلى كائن قائم في خيالك..» نظرت إلى كل من يحيطون بالمائدة وقالت: «هل سنبدأ؟»

ــ «يا الله» هكذا صاح التوأمان في مرح موحد، والتقط كل منهما ملعقته.

طوال دقيقة ممتدة أطبق الصمت، فلم يقطعه إلا التوأمان اللذان لم يتعلما بعد كيف يأكلان دون أن يطرقعا بشافهما.

سأل أحد الصبيين الصغيرين أخيراً: «هل نبلع الطعام الآن».

اومأت شانتا برأسها. فابتلع كل من الاكلين ما في فمه. وتعالت طرقات الملاعق على الصحون، وانفجر الكلام من الافواه الممتلئة.

تساءلت شانتا: «هيه، ماذا كان طعم صلاة مائدتك؟»

قال ويل: «كان في طعمه عدة نكهات متتالية لأشياء مختلفة. أو أنه بالأحرى متتالية من التنويعات المختلفة على المائدة الرئيسية التي تضم الارز والكاري والفلفل الأحمر والقرع وشيء ليفيّ آخر لم أستطع أن أتعرف عليه. من الممتع أن يكتشف المرء أن الأشياء لاتبقى على حالها. في الحقيقية لم يسبق لي أن لاحظت ذلك.»

«وبينما كنت تركز انتباهك على تلك الاشياء، كنت مؤقتاً قد تخلصت من أحلام اليقظة ومن الذكريات ومن المطامع والأفكار البلهاء ــ من كل أعراض وجودك أنت.»

ــ «ألست أنا الذي كنت أتذوق؟»

ألقت شانتا بصرها عبر المائدة إلى زوجها وقالت: «فيجايا، ما قولك في هذا؟»

ــ «أقول إن التذوق وقوف في منتصف الطريق بين ما هو أنا وما ليس أنا. التذوق هو «ليس ــ أنا» يقوم بشيء ما لصالح الجسد كله. وفي نفس الوقت فإن التذوق هو أنا في حالة وعي بما يحدث بالفعل. وهذا هو هدف صلاة مائدتنا التي تقوم على المضغ ــ هو أن أجعل «أنا» واعياً بما يزمع ما «ليس ــ أنا» أن يقوم به.»

كان تعليق ويل: «لطيف جداً» ولكن ما هو «هدف الهدف؟».

كانت شانتا هي من تولت الاجابة. قالت: «إن هدف الهدف هو أنك حينما تتعلم كيف تولي انتباهاً أقوى لأكثر مما هو «ليس ــ أنت» مما يحيط بك، «وذلك هو طعم الطعام» ولأكثر مما هو «ليس ــ أنت» في بنائك العضوي نفسه «وهذه أحاسيس التذوق لديك» فإنك قد تجد نفسك فجأة منتبهاً لما «ليس - أنت» على الجانب الآخر، البعيد، من الوعي.» سكتت لحظة ثم مضت تقول: «وربما كان من الأفضل أن نصوغ الفكرة صياغة معاكسة فنقول إن

ما «ليس أنت» على الجانب الأكثر بعداً من الوعي سوف يجد أنه من الاسهل لكي يجعل نفسه معروفاً لما هو أنت، الذي تعلم أن يكون أكثر وعياً بأن الآخر «ليس أنت» من جانب علم وظائف الاعضاء.»

قاطعها صوت سقوط وتحطم شيء، اعقبه صرخة من أحد التوأمين، ولكنها بعد أن مسحت ما تساقط على الأرض، استمرت تقول: «الأمر، الذي يعقبه أن يصبح على المرء أن يفكر في مشكلة «أنا» وما هو «ليس ـ أنا» في علاقتها بالناس الذين يقل طولهم عن اثنين وأربعين بوصة ـ إن جائزة قيمتها ستمائة وأربعين ألفاً من ملايين الروبيات سوف تمنح لأي شخص يأتي بحل سهل يستطيع حتى أبله أن يفهمه.» مسحت عيني الطفل، وجعلته ينظف أنفه، ثم قبلته وذهبت إلى الفرن لكي تأتيه بصحن آخر من الأرز .

سأل فيجايا بعد أن انتهى الغداء: «ما هي ارتباطاتكم عصر اليوم؟»

أجاب توم كريشنا في أهمية: «علينا اليوم واجب إبعاد الطيور مثل خيال المآتة».

اضافت ماري ساروجيني: «في الحقل الذي يقع أسفل مبنى المدرسة مباشرة.»

قال فيجايا: «إذن فسوف آخذكم في السيارة.» ثم التفت إلى ويل فارنابي وقال:

ـ «أتحب أن تأتي معنا؟»

أومأ ويل وقال: «وأحب أيضاً أن أرى المدرسة إذا كان هذا مما يسمح به، حينما اكون بقربها ـ وربما أمكنني أن أجلس في أحد فصولها.»

لوحت لهم شانتا مودعة من الشرفة ، وبعد دقائق قليلة لاحت لأنظارهم سيارة الجيب الواقفة، قال فيجايا موضحاً وهو يبدأ تشغيل المحرك: «المدرسة في الجانب الآخر من القرية. سيكون علينا أن نلتزم الطريق الجانبي. إنه يهبط ثم يرتفع مرة أخرى.»

انطلقوا هابطين عبر الحقول المتدرجة المزروعة ارزاً أو ذرة وبطاطا، ثم استوى الطريق لكي يسير بمحاذاة بركة موحلة صغيرة لتربية الاسماك على يسارهم، وبستان من أشجار فاكهة الخبز عن يمينهم، ثم ارتفع الطريق أخيراً ليعبر مزيداً من الحقول، بعضها تغطيه الخضرة وبعضها ذهبي اللون ـ ثم بدا لهم مبنى المدرسة، أبيض اللون رحباً تحت أشجار الظل السامقة التي تحيط به.

قالت ماري ساروجيني: «وهناك في الأسفل، خيال المآتة التابع لنا».

نظر ويل في الاتجاه الذي كانت تشير إليه. وفي أقرب «مصطبة» من الحقول المدرجة تحتهم كان الارز الاصفر يكاد يكون جاهزاً للحصاد. كان هناك ولدان صغيران، يرتديان ثياباً قرمزية من القطن، وفتاة صغيرة ذات ثوب ازرق، يتناوبون على جذب الخيوط التي

تحرك «عروستين» كبيرتين بحجم الانسان الطبيعي فتتجهان إلى أحد أطراف الحقل في كل حركة، كانت الدميتان مصنوعتين من الخشب، نحت وجهاهما وألبستا ثياباً جميلة، ولم تكونا مجللتين بالخرق، وإنما غطتهما ـ ثياب كتانية فاخرة. نظر ويل إلى الدميتين بدهشة. قال متعجباً: «إن سليمان في مجده لم يكن متأنقاً مثل واحدة من هاتين الدميتين».

ولكنه استمر يفكر بينه وبين نفسه: «غير أن سليمان لم يكن سوى ملك من الملوك. اما خيالات «المآتة» الماثلة تلك فكانت كائنات ذات نظام من مرتبة أكثر سمواً. كانت إحدى الدميتين هي «بوذا المستقبل» أما الثانية ذات المرح البهيج، فكانت نسخة من جزر الهند الشرقية من صورة «الإله الآب» التي يراها المرء في الكنيسة السيستينية في فاتيكان روما، ينحني بعنف فوق آدم الذي خلق لتوه. مع كل جذبة للخيط، كان «بوذا المستقبل» يهز رأسه، ويباعد ما بين ساقيه فوق رمز زهرة اللوتس، كما لو كان يرقص في الهواء رقصة الفاندانجو الاسبانية، ثم يشبكهما ثانية ويجلس ساكناً للحظة حتى تقطع تأملاته جذبة أخرى جديدة من الخيط وفي نفس الوقت كان «الإله الآب» يلوح بذراعه الممدودة، ثم يهز اصبعه السبابة في تحذير مليء بالوعيد، ويفتح ثم يغلق فمه الذي يحيط به شعر كثيف، تدور في محجريهما عيناه اللتان وقد صنعتا من زجاج ـ راحتا تطلقان قذائف من شرر النيران الخاطف نحو أي طائر يجرؤ على الاقتراب من الارز، وطول الوقت، كانت ريح قوية تتلاعب بأثوابه المصنوعة من التيل الاصفر الفاقع المنقوش بجرأة بصور القردة والنمور السوداء والبنية والبيضاء بينما كانت الأثواب الفاخرة التي يرتديها «بوذا المستقبل» والمصنوعة من الحرير البرتقالي والأحمر تنتفخ بالهواء وتخفق فتدمدم عشرات الاجراس الفضية المعلقة بها دمدمة أشبه بدمدمة كاهن اغريقي قديم.

سأل ويل: «هل كل خيالات المآتة عندكم بهذا الشكل؟».

أجاب فيجايا: «كانت هذه فكرة الراجا القديم. أراد أن يجعل الاطفال يدركون أن الآلهة كلها من صنع البشر وأننا نحن الذين نجذب خيوطها فنمنحهم بذلك القوة التي تجعلهم يجذبون خيوطنا».

قال توم كريشنا: «نجعلهم يرقصون نجعلهم يجلون.» وضحك مبتهجاً.

مد فيجايا كفه الضخم وربت على شعر الطفل الاسود المجعد وقال: «تلك هي الروح!» وعاد يلتفت إلى ويل وقال بلهجة كان من الواضح أنه يقلد فيها لهجة الراجا القديم:

«إن القيمة العظيمة الوحيدة التي يتمتع بها ـ افتحوا قوسين «الآلهة» اقفلوا القوسين، إلى جانب تخويف الطيور وافتحوا قوسين «الخطاة» اقفلوا القوسين وربما أيضاً إلى جانب تعزية البؤساء «هذه القيمة العظيمة تتكون من: أن الآلهة إذ تقام فوق أعمدة

عالية، فلابد أن ترفع الابصار إلى أعلى عند النظر إليها، وحينها ينظر أي إنسان إلى أعلى، حتى ولو كان ينظر إلى أحد الآلهة، فإنه من الصعب أن يفشل في رؤية السماء وراء ما ينظر إليه. فما هي السماء؟ إنها هواء وضوء منتشر، ولكنها أيضـاً رمز لذلك الفراغ الذي لاحدود له والذي يبدو «وعذراً للتشبيه» كما لو كان «حاملاً» مثل امرأة على وشك الوضع وهو الذي يخرج منه كل شيء إلى الكون الذي نعرفه ــ أو بالأحرى ذلك الكون الذي نظن أننا نعرفه، يخرج من هذا الفراغ كل شيء: الأحياء والجمادات وصانعو الدمى وعرائسهم الالهية المقدسة».

كانت ماري ساروجيني تصغي بانتباه فأومأت برأسها وتطوعت تقول: «كان من عادة أبي أن يقول إن النظر إلى أعلى نحو الطيور أحسن بكثير. فالطيور ليست كلمات، كذلك كان يقول. الطيور حقيقية. حقيقية تماماً مثل السماء.» حينئذ أوقف فيجايا السيارة وقال للطفلين: «استمتعا بوقتكما». وفي نفس اللحظة قفز الطفلان وأضاف فيجـايا يقـول: «اجعلا العرائس ترقص وتحجل».

جرى توم كريشنا وماري ساروجيني صائحين وهما يهبطان إلى الحقل لينضما إلى الجماعة الصغيرة التي كان أفرادها يظهرون أسفل الطريق.

قال فيجايا: «والآن، إلى الجوانب الأكثر وقاراً من التعليم».. وأدار السيارة إلى الطريق المؤدي صعوداً إلى مبنى المدرسة، وهناك أوقف المحرك وناول ويل المفتاح وهو يقول: «سأترك السيارة هنا وأعود سائراً إلى المحطة. وحينها تكتفي أنت من المدرسة، أطلب من أي شخص أن يقودها لك ليعيدك إلى مسكنك».

في المدرسة، كانت «مسز نارا يان» المديرة تتحدث عبر مكتبها إلى رجل أبيض الشعر له وجه طويل ينم عن الكآبة والحزن، مثل وجه كلب من كلاب الصيد مجعد تملأه الخطوط .

قال فيجايا بعد أن قدم ويل للحاضرين: «مستر شاندرا ميثون هو السكرتير الثاني للتعليم عندنا».

قالت المديرة: «وهو يقوم الآن بواحدة من زياراته التفتيشية».

أضاف السكرتير الثاني قائلاً وهو ينحني بأدب تجاه مسز نارايان: «.. والذي يوافق تماماً على ما يراه عندكم».

قال فيجايا ليعتذر عن انصرافه: «يجب عليّ أن أعود إلى عملي.» ثم تحرك منصرفاً نحو الباب.

تساءل مستر مينون: «أأنت تهتم بالتعليم اهتماماً خاصاً؟»

أجاب ويل: «ربما كان الاقرب إلى الحقيقة أن أقول إنني أجهل التعليم جهلاً خاصاً. إنني لم اتعلم قط، ولم يحدث لي إلاّ أن نُشئت تنشئة عامة. وهذا هو السبب الذي جعلني ألقي نظرة على المادة الأصلية للموضوع».

قال له السكرتير الثاني مؤيداً: «حسناً، لقد جئت إلى المكان المناسب، إن «روث هامستيد الجديدة» واحدة من أفضل مدارسنا.»

سأل ويل: «ما هو المقياس الذي يجعل المدرسة جيدة في نظرك؟»

ـ «النجاح.»

ـ «النجاح في أي شيء؟ الحصول على منح دراسية؟ الاستعداد لتولي الوظائف؟ أم في طاعة التعاليم المحلية السائدة.»

قال مستر مينون: «في كل تلك الجوانب، بالطبع. ولكن السؤال الاساسي يبقى قائماً. إلاَم يهدف الاولاد والبنات؟».

هز ويل كتفيه وقال: «يعتمد الجواب على موطنك الذي تقيم فيه. فعلى سبيل المثال: إلاَم يهدف الاولاد والبنات في أمريكا. ولاي شيء يجري إعدادهم؟ الإجابة: للاستهلاك الواسع. أما ما يمهد للاستهلاك الواسع وما يصاحبه فهي وسائل الاعلام الجماهيرية الضخمة والإعلان المركز الواسع، والمخدرات الجماهيرية في صورة التليفزيون، والعقاقير المسكنة والمنومة، والتفكير الوضعي، والسجائر. والآن وقد شقت أوروبا طريقها نحو الانتاج الواسع فلأي شيء يسعى الأولاد والبنات هناك ولأي شيء يجري إعدادهم؟ للاستهلاك الواسع لكل ما ذكرته من قبل تماماً مثل أولاد أمريكا وبناتها. ولكن هناك إجابة مختلفة في روسيا. إن الاولاد والبنات يُعدون لتقوية الدولة القومية وتدعيمها ومن هنا نرى كل أولئك المهندسين ومدرسي العلوم، ولاداعي لذكر خمسين فرقة مستعدة للدخول في القتال فوراً مجهزة بكل شيء من الدبابات حتى القنابل الهيدروجينية والصواريخ البعيدة المدى. ويتشابه الوضع مع هذا في الصين. ولكن مع زيادة كبيرة في الارقام والاحجام. لاي شيء يُعد الاولاد والبنات هناك؟ غذاء للمدافع وغذاء للصناعة وغذاء للزراعة وغذاء لشق الطرق. هكذا يكون الشرق شرق والغرب غرب ـ في هذه اللحظة ولكنهما قد يلتقيان في هذا الطريق أو ذاك من الطريقين. فالغرب قد يبلغ به الخوف من الشرق مبلغاً كبيراً حتى يقرر الاقلاع عن التفكير الذي يجعل الاولاد والبنات يعدون للاستهلاك الواسع ويقرر بدلاً من هذا أن يجعلهم يهيأون لكي يصبحوا غذاء للمدافع ولتدعيم الدولة. وفي مقابل هذا قد يجد الشرق نفسه تحت ضغط كبير من جانب الجماعة ذات الشهية الجائعة المتعطشة التي تشتاق إلى اتباع الاساليب الغربية حتى قد يصبح عليه أن يغير رأيه فيقول إن الاولاد والبنات يوجدون حقاً من أجل الاستهلاك الواسع، ولكن هذا لن يكون إلا في

المستقبل. أما بالنسبة للحظة الراهنة، فإن الاجوبة السائدة على اسئلتك تتناقض تناقضاً كاملاً، ويقف كل جواب منها على أقصى الطرف المقابل للجواب الآخر.»

قال مستر مينون: «الجوابان كلاهما يختلفان عن جوابنا، إلامَ يهدف الأولاد والبنات في «بالا» ولأي شيء يجري إعدادهم؟ إنهم لا يُعدون لا للاستهلاك الواسع، ولا لتقوية الدولة.. لابد للدولة طبعاً أن توجد ولابد أن يكون هناك ما يكفي حاجات كل انسان. لايمكن أن يكون هناك اعتراض على ذلك. فإنه بتلك الشروط وحدها يستطيع الاولاد والبنات أن يكتشفوا هدفهم الحقيقي ولأي شيء يجري إعدادهم في الحقيقة. ونحن لانستطيع أن نفعل شيئاً في الأمر كله. إلا على أساس تلك الشروط نفسها.»

– «فلأي شيء إذن يهدفون، ويجري إعدادهم لأجله؟»

– «للتحقق» ولكي يتحولوا إلى كائنات بشرية كاملة التحقق والازدهار».

أومأ ويل برأسه وقال: «إن ملاحظات حول حقيقة الحقيقة تصبح هم ما انتم عليه حقاً.»

قال مستر مينون: «كان الراجا القديم مهتمًا بصورة أساسية بحقيقة الناس في المستوى الذي يقع خلف المستوى الفردي. ونحن بالطبع نماثله في نوع هذا الاهتمام وفي درجته. ولكن عملنا الاول هو التعليم الابتدائي في الشكل والحجم والمزاج والمواهب والتعليم الابتدائي ينبغي أن يتعامل مع الافراد في كل صور تنوعهم واختلافهم في الشكل والحجم والمزاج والمواهب وجوانب العجز أو القصور. أما الافراد في حالة توحدهم العلوية الكاملة فهي من شؤون التعليم في المستوى الأعلى من التعليم الابتدائي. وهذا المستوى يبدأ في فترة المراهقة ويتزامن مع التعليم الابتدائي المتقدم.»

قال ويل: «أفهم من هذا أنه يبدأ مع التجربة الأولى لتناول دواء الموكشا».

– «إذن فقد سمعت عن دواء الموكشا؟»

– «بل إنني رأيته أثناء تناوله».

قالت المديرة لتوضح الأمر: «لقد صحبه الدكتور روبرت بالامس لمشاهدة الاحتفال».

وأضاف ويل قائلاً: «ولقد أثر فيّ هذا الاحتفال تأثيراً عميقاً. إنني حين أفكر فيما تلقيته من تدريب ديني..»

وترك الجملة ناقصة نقصاً فصيحاً معبراً عما أراد أن يقول.

استطرد مستر مينون قائلاً: «إذن فالمراهقون، كما كنت أقول، يتلقون كلا من النوعين من التعليم في وقت واحد إنهم يتلقون العون على ممارسة وحدتهم العلوية..

وتوحدهم مع كل الكائنات الحية، وفي نفس الوقت يتعلمون في دروس علم النفس وعلم وظائف الاعضاء أن كل واحد منا يتمتع بتفرده الاساسي والجوهري، وأن كل انسان يختلف عن كل انسان آخر..»

قال ويل: «حينما كنت في المدرسة كان علماء التربية يبذلون كل ما في وسعهم من أجل أن يجمدوا وأن يثبتوا تلك الخلافات، أو على الأقل لكي يلصقوا أجزاءها بنفس المثل الأعلى الفيكتوري المندثر ـ المثل الذي يتجسد في صورة السيد المهذب المتعلم، ولكنه لاعب الكرة ذو النزعة الانجليكانية. ولكن حدثنا الآن بما تفعلونه أنتم بما هو معروف عن اختلاف كل شخص عن كل شخص آخر.»

قال مستر مينون: «إننا نبدأ بأن نحدد مدى الاختلافات. إننا نبحث بالتحديد: من أو ماذا هو ذلك الطفل من النواحي التشريحية، والكيميائية العضوية والسيكولوجية؟ نبحث من ناحية الوراثة العضوية ـ وهي الناحية التي تحتل مكان الصدارة ـ نبحث كل ما يتعلق بامعائه، وعضلاته وجهازه العصبي؟ نسأل عن مدى اقترابه من الاطراف الثلاثية الاقطاب. وإلى أي مدى ينسجم أو لا ينسجم المزيج الذي تصنعه عناصره المكونة الاساسية جسمانياً وعقلياً؟ إلى أي مدى تصل رغبته الفطرية في السيطرة أو في أن يكون اجتماعياً أو في التراجع والتقوقع في عالمه الداخلي؟ وكيف تتحقق عنده عمليات التفكير والادراك والتذكر. أهو ممن يقدرون على التصور أم لا؟ هل يعمل عقله من خلال الصور أم من خلال الكلمات؟ أم من خلالهما معاً، أم أنه لايعمل من خلال أي منهما. كم تقترب من السطح ملكة سرد الحكايات عنده؟ أهو يرى العالم مثلما رآه وردزورث[٤٠] أو تراهيرن[٤١] حينما كانا طفلين؟ فاذا كان يراه على تلك الصورة، فما الذي يمكن عمله لكي تمنع البريق والطزاجة من أن يتلاشيا ويخبو نورهما في ضوء الأيام العادية؟ أو بتعبير أكثر تعميمًا كيف نستطيع أن نعلم الاطفال على مستوى إدراك المفاهيم العامة المجردة دون أن نقضي على قدرتهم على خوض التجارب غير الكلامية بعمق؟ كيف يمكننا أن نمزج بين التحليل والرؤيا؟ هناك عشرات أخرى من الاسئلة التي يجب أن نطرحها وأن نجيب عليها على سبيل المثال:

---

(٤٠) وردزورث ـ ويليام (١٧٧٠ ـ ١٨٥٠) من أشهر شعراء الرومانتيكية الانجليزية عرف بعشقه للطبيعة ونزعته الانسانية، وتمجيده المبكر لليبرالية الديموقراطية واهتمامه بنماذج الحياة الفريدة، والهموم اليومية، واستخدامه لمفردات الحديث العادي، ونزعته الدينية والافلاطونية.

(٤١) تراهيرن ـ توماس (١٦٣٦ ـ ١٦٧٤) شاعر انجليزي وواحد من أواخر الشعراء الميتافيزيقيين عرف بتأكيده على كفاءة الاطفال على ادراك الحقيقة المجردة ودون اعتبار للمنفعة وبشكل مباشر. تميز شعره بالصياغة المتدفقة الحية وتجسيد الأشياء العادية باعتبارها محملة بأنواع الكشف والمعاني الخفية. ولم يكتشف شعره في مخطوطاته إلا في أوائل القرن العشرين، واكتشفها هنري فوجان.

«هل يمتص هذا الطفل كل الفيتامينات الموجودة في طعامه، أم أنه يعاني من عجز مزمن، إذا لم يشخص ويعالج فإن الطفل سوف يفقد حيويته، وتتلون نفسيته بالسواد، فلا يرى إلا القبح ولايشعر إلا بالضجر ولايفكر إلا في التفاهة أو الشر؟ وماذا من أمر نسبة السكر في دمه، وتنفسه. وماذا عن أمر وضعه الجسمي، وكيف يستخدم أعضاءه في العمل أو اللعب أو الدروس.وهنالك أيضاً كل الاسئلة التي تنصبّ على المواهب الخاصة. هل تبدو عليه علامات موهبة موسيقية، أم رياضية في استخدام الكلمات، أم في الملاحظة الدقيقة للاشياء، والتفكير بطريقة منطقية ومحلقة الخيال فيما لاحظه؟ وأخيراً إلى أي مدى سيكون مفيداً للآخرين، مشعاً بطاقته الخاصة، حينما يكبر.ان كل الاطفال يصلحون تماماً للتنويم المغناطيسي ــ يصلحون لهذا الغرض: إن اربعة بين كل خمسة منهم يمكن أن يدفعوا إلى السير أثناء النوم، أما في الكبار فإن النسبة تنقلب، فإن أربعة بين كل خمسة من الكبار لايمكن أن يدفعوا إلى المشي أثناء نومهم. وعلى ذلك لابد أن نسأل بحثاً عن العشرين ــ بين أي مائة طفل ــ الذين سيكون من السهل دفعهم إلى المشي أثناء النوم حينما يكبرون؟».

سأل ويل: «أيمكنكم أن تحددوا هؤلاء العشرين مقدماً. فإذا كان ذلك بوسعكم فما الغرض من معرفتكم لهم؟».

أجاب مستر مينون: «إننا نستطيع أن نحددهم. إن تحديدنا لهم لأمر بالغ الأهمية. وهو أمر هام بشكل خاص في الجزء الذي تعيشون أنتم فيه من العالم. إن نسبة العشرين في المائة من الأطفال الذين يظلون قابلين للتنويم بسهولة وإلى حدود واسعة بعد أن يكبروا، هم، من الناحية، السياسية أكثر العناصر خطورة في مجتمعاتكم».

ــ «خطورة».

ــ «لأن هؤلاء الناس هم الذين قدر عليهم أن يكونوا ضحايا كل الدعاة. ففي بلد يسوده نظام ديمقراطي من الطراز القديم غير العملي، يستطيع أي خطيب مفوه يقف وراءه تنظيم جيد أن يحول هؤلاء الذين يكوّنون العشرين في المائة من القابلين للمشي في أثناء النوم إلى جيش من المتعصبين المنظمين في تنظيم عسكري، الذين يكرسون أنفسهم من أجل مضاعفة مجد وقوة من استطاع أن ينومهم وأن يستولى على عقولهم.وفي ظل بلد تحكمه قوة ديكتاتورية فإن نفس تلك النسبة من القابلين للمشي أثناء النوم يمكن أن يدفعوا إلى الايمان بعقيدة مطلقة وجامدة ثم يتم تحريكهم باعتبارهم القاعدة الصلبة للحزب المسيطر. وهكذا ترى أنه من الأمور البالغة الأهمية بالنسبة لأي بلد يقدر الحرية أن يكون قادراً على تحديد من سيكونون في المستقبل قابلين للتنويم والتحريك اللاإرادي في صغرهم.حينما يتم تحديدهم فسوف يمكن السيطرة عليهم ثم يدربون بانتظام في اتجاه يجعلهم غير قابلين للخضوع لسيطرة أعداء الحرية. ومن الطبيعي أن تكون جديراً في نفس الوقت بأن تعيد

تنظيم ترتيباتك الاجتماعية على النحو الذي يجعل من الصعب أو من المستحيل على أعداء الحرية أن يظهروا أو أن يكون لهم أي نفوذ».

ـ «وهذا هو الوضع الذي تسير عليه الامور في بالا؟»

قال مستر مينون: «بالتحديد وهذا هو ما يمنع القابلين لدينا للخضوع اللاإرادي والتوجيه اللاواعي من أن يشكلوا أي خطر...»

ـ «إذن فلماذا تحملون أنفسكم مشقة تحديدهم مقدماً؟»

ـ «لأن موهبتهم الخاصة هذه موهبة ثمينة جداً إذا استخدمت بصورة صحيحة».

تساءل ويل: «بهدف السيطرة على المصير؟» وكان يتذكر تلك البجعات الخيالية التي تساعد على شفاء الجراح، وكل ما كانت سوسيلا قد قالته حول ضغط الانسان على أزراره الخاصة.

هز السكرتير الثاني رأسه نافياً وقال: «السيطرة على المصير لاتحتاج إلى أكثر من غيبوبة خفيفة. وكل انسان قادر على القيام بذلك بنفسه بشكل عملي. أما من يتمتعون بالقدرة على المشي في أثناء النوم ـ وهم أفراد نسبة العشرين في المائة ـ فأولئك هم القادرون على أن يغرقوا في غيبوبة عميقة جداً. ولايمكن لأي شخص أن يتعلم كيف يختزل الزمن إلا في حالة الغيبوبة العميقة وحدها.»

تساءل ويل: «أيمكنك أنت أن تختزل الزمن؟»

هز مستر مينون رأسه وقال: «لم يمكنّي أبداً لسوء الحظ أن أغرق في غيبوبة عميقة عمقاً كافياً. وقد كان عليّ أن أتعلم كل ما أعرفه بالطريقة الطويلة البطيئة. أما مسز مارايان فقد كانت أسعد حظاً. فإنها إذ كانت من بين العشرين في المائة المحظوظين المتميزين، فقد كان في وسعها أن تحصل على كل الطرق التعليمية المختصرة التي كانت مغلقة تماماً في وجوه الباقين هنا منا».

سأل ويل وهو يلتفت إلى المديرة: «أي نوع من الطرق المختصرة؟»

أجابت تقول: «الطرق المختصرة التي تؤدي إلى التذكر، وإلى الاحصاء والتفكير وحل المشاكل. يبدأ المرء بأن يتعلم كيف يعيش عشرين ثانية باعتبارها عشر دقائق، وكيف يعيش لمدة دقيقة باعتبارها نصف ساعة. وفي حالة الغيبوبة العميقة يصبح هذا الأمر سهلاً جداً في الحقيقة. إنك تصغي إلى ما يوحي إليك به المدرِّس، وتجلس في مكانك بهدوء لمدة طويلة، طويلة، يمكنك أن تقسم بأنك جلست لمدة ساعتين كاملتين.. وحينها مرة ثانية تنظر إلى ساعتك لكي تكتشف أن الساعتين اللتين عشتهما بالفعل قد تضاءلتا وأصبحتا بالضبط أربع دقائق بزمن الساعة الدوارة.»

ــ «كيف؟»

قال مستر مينون: «لا أحد يعرف كيف. ولكن من المؤكد أن كل تلك الحكايات على الرجال الذين يوشكون على الغرق فيرون شريط حياتهم كله أمام أعينهم في ثوان معدودات هي حكايات صادقة وحقيقية تماماً. إن العقل والجهاز العصبي ــ أو فلنقل إن بعض العقول وبعض الاجهزة العصبية يتصادف أن تكون ذات مقدرة وخصائص عجيبة. وهذا هو كل ما يعرفه أي شخص عن هذه المسألة. وقد اكتشفنا نحن هذه الحقيقة منذ ما يقرب من خمسين سنة، ونحن نستغلها لخدمة أهداف تعليمية بين أهداف أخرى.»

استأنفت مسز نارايان كلامها فقالت: «هناك على سبيل المثال مسألة حسابية . . وقد يتطلب منك حلها وأنت في حالتك العادية نصف ساعة كاملة أو نحوها. لكنك ستشرع في اختزال الزمن إلى النقطة التي تصبح فيها دقيقة واحدة مساوية لثلاثين دقيقة، ثم تشرع في حل مسألتك الحسابية. ويتم حلها في غضون ثلاثين دقيقة بالحساب الذاتي. ولكن هذه الثلاثين دقيقة، الذاتية، هي في الحقيقة دقيقة واحدة بحساب الساعة، إنك دون أدنى إحساس بالعجلة أو التوتر كنت تعمل بمثل سرعة أولئك الأولاد الذين يحسبون الارقام بسرعة غير عادية والذين يظهرون من حين إلى حين. هناك من سيصبحون عباقرة في المستقبل مثل امبيروجوس، وهناك من سيصبحون في مستقبلهم بلهاء أمثال داسي ولكنهم جيعاً، عن طريق بنيان داخلي ما يؤدي إلى الاحتيال على اختزال الزمن، قادرين على تحقيق عمل شاق يتطلب ساعة كاملة في دقائق قليلة ــ وفي بعض الاحيان لايحتاجون لأكثر من بضع ثوان. أما أنا فلست سوى تلميذة متوسطة، ولكن كان بوسعي أن أغرق في غيبوبة عميقة، الأمر الذي كان يعني أنه بوسعي أن أتعلم كيف اختزل زمني إلى ثلث الزمن الطبيعي.

والنتيجة: كنت قادرة على أن أقطع من الأرض الثقافية والذهنية مساحة أكثر بكثير مما كان بوسعي أن أقطعه لو كان عليّ أن أتعلم كل شيء بالطريقة العادية. ويمكن أن تتخيل ما يحدث لو أن شخصاً يتمتع بقدر عبقري من حاصل الذكاء كان يستطيع أيضاً أن يختزل الزمن. إن النتائج لتكون خيالية حقاً.»

قال مستر مينون: «إنهم غير شائعين جداً لسوء الحظ. إننا لم نحظَ في الجيلين السابقين بغير اثنين فحسب من القادرين على اختزال الزمن ممن يتمتعون بعبقرية حقيقية، وخمسة أو ستة من أصحاب السرعات غير العادية. ولكن ما تدين به «بالا» لهذه القلة من أبنائها لما نعجز عن تقديره. ولذلك فلا عجب أننا نظل نبحث بانتباه كامل عن أصحاب موهبة التوجيه اللاإرادي.»

قال ويل بلهجة استنتاجية بعد برهة صمت: «حسناً، من المؤكد أنكم تطرحون عدداً كبيراً من الاسئلة الاستقصائية للتثبت من حقيقة تلاميذكم الصغار، فماذا تفعلون حين تعثرون على الأجوبة؟»

قال مستر مينون: «إننا نشرع في تعليمهم طبقاً لما عثرنا عليه من أجوبة.. إننا على سبيل المثال نطرح أسئلة تتعلق بالتكوين الجسدي والنفسي لكل طفل، وحينما نعثر على الاجوبة، نفرز جانباً أكثر الأطفال انغلاقاً على أنفسهم، وأكثرهم توتراً وخجلاً فنجمعهم جميعاً في مجموعة واحدة. ثم تتضاعف المجموعة، وتتوسع بالتدريب، قليلاً قليلاً. في البداية لينضم إلى المجموعة الأطفال الاجتماعيون الذين لايميزون اختيارهم لاصدقائهم. وبعد ذلك ينضم إلى المجموعة صبي أو صبيان من أصحاب العضلات وفتاة أو اثنتان من نفس النوع ـ أي بعض الاطفال من ذوي الميول العدوانية المحبين للسلطة والقوة. لقد اكتشفنا أن هذه هي أحسن الطرق لدفع الأولاد والبنات الصغار ممن يقفون في تكوينهم النفسي عند أقصى هذه الأطراف الثلاثة نحو أن يفهم أحدهم الآخر وأن يتسامح معه. وبعد شهور قليلة من الاختلاط الذي نسيطر عليه بعناية شديدة يكونون على استعداد لان يعترفوا بأن من يتمتع من الناس بتكوين وراثي من نوع مختلف عن تكوينهم الشخصي يمتلكون الحق في الوجود بنفس القدر الذي يمتلكونه هم».

قالت مسز نارايان: «إننا نعلم هذا المبدأ بوضوح كامل بقدر ما نطبقه بصورة تقدمية. ففي المستويات الدنيا نقوم بالتعليم عن طريق التناظر أو التشابه مع الحيوانات المألوفة. فالقطط تحب أن تتجمع سوياً.. والأغنام تحب أن يجمعها مكان واحد. أما حيوانات الدلق فهي قاسية ولايمكن ترويضها، ولكن خنازير غينيا رقيقة طيبة. فهل أنت صاحب شخصية مثل القط، أم مثل العنزة.. هل تشبه شخصيتك شخصية الخنزير الغيني أم شخصية حيوان الدلق الشرس؟ تحدث عن هذا الموضوع مستخدماً أمثلة ونماذج حيوانية وأضرب أمثالاً من الحيوانات، وستجد أن كل طفل صغير سيكون قادراً على أن يفهم حقيقة الاختلاف والتنوع الانساني وحقيقة الاحتياج إلى أن يتحمل الواحد منهم الآخر والحاجة إلى أن يتبادلوا المغفرة والصفح».

قال مستر مينون: «وفيما بعد حينما يصبحون قادرين على قراءة كتاب «الجيتا» فإننا نحدثهم عن الرابطة التي تربط بين الدستور والدين. إن الناس من أصحاب الشخصيات الشبيهة بشخصيات الأغنام وخنازير غينيا يحبون الطقوس والشعائر الجماعية والاحتفالات الشعبية والعواطف الحيوية الحارة، ويمكن أن توجههم هذه الاشياء التي يفضلها مزاجهم إلى «طريق التكريس» والاخلاص للآخرين وخدمتهم. أما أصحاب الشخصيات الشبيهة بشخصيات القطط فإنهم يحبون أن يظلوا منفردين، ويمكن أن تتحول أهواؤهم الخاصة إلى «طريق معرفة الذات» أما أصحاب الشخصيات الشبيهة بحيوان الدلق فيريدون أن «يفعلوا

أشياء بعينها» والمشكلة هي كيفية تحويل ميولهم العدوانية القوية إلى «طريق العمل غير النفعي».

قال ويل: «وقد كـان الطريق المؤدي إلى «طريق العمل غير النفعي»هو ما كنت، أنظر إليه بالأمس. إنه الطريق الذي يمر عبر تقطيع أخشاب الغابة وتسلق صخور الجبل ـ. أليس كذلك؟»

قال مستر مينون: «إن من يقومون بتقطيع أخشاب الغابة أو تسلق صخور الجبل هؤلاء هم حالات خاصة. اسمح لي بأن أطلق حكمًا عاماً فأقول إن الطريق المؤدي إلى «كل» الطرق إنما يمر عبر عملية إعادة توجيه الطاقة والقوة».

ـ «وما ذلك الطريق؟»

ـ «المبدأ بسيط جداً، إنك تأخذ الطاقة التي ولدها الخوف أو الحسد أو الافراز الغزير جداً من مادة «نورادرينـالين» في الدم، أو تلك التي ولدهـا نوع من الـدوافع الداخلية التي يتصادف ـ في تلك اللحظة ـ أن تنحرف عن مسارها الطبيعي ـ إنك تأخذ هذه الطاقة، وبدلاً من أن تأخذها لكي تفعل بها شيئاً محزناً أو متعباً لشخص آخر وبدلاً من أن تكبتها فتتنزل بنفسك أنت شيئاً محزناً أو متعباً، فإنك بصورة واعية تواجهها عبر قناة الى حيث تستطيع أن تنتج شيئاً نافعاً، أو على الأقل، إن لم يكن نافعاً، فهو غير ضار».

قالت المديرة: «هاك مثالاً بسيطاً. إن طفلاً غاضباً أو محبطاً قد تراكمت داخله طاقة كافية لأن تجعله ينفجر باكياً، أو شاتماً، أو متعاركاً مع أقرانه،» فإذا كانت الطاقة المولدة كافية للقيام بأي عمل من هذه الأعمال فإنها تكون كافية إذن لأن تدفعه إلى القيام ببعض رياضة الجري، أو الرقص، وقد تكون أكثر من كافية لكي تجعله يتنفس بعمق خمس مرات. . لسوف أريك بعض الرقص فيـها بعد. أمـا الآن، فلنتمسك بمثـال التنفس. إن أي شخص منزعج أو قلق إلى درجة التوتر يتنفس بعمق خمس مرات، فإنه ينفّس بذلك قدراً كبيراً من التوتر وبذلك يسهل لنفسه أن يكون أكثر تعقلاً.

ولذلك فإننا نلقن أطفالنا كل أنواع العاب التنفس، لكي يلعبوها متى شعروا بالغضب أو الحزن. وبعض تلك الألعاب تتضمن شيئاً من المنافسة وذلك بأن نسأل: من من المتنافسين المتخاصمين يستطيع أن يأخذ شهيقاً عميقاً، ثم يحبس نفسه، ويقول مثلاً «أوم» عند خروج الزفير بعد أطول مدة ممكنة؟ إنها مبارزة تنتهي دائمًا، دون استثناء تقريباً، بالصلح ولكن بالطبع هناك حالات كثيرة لايكون التنفس الذي يتضمن شيئاً من التنافس في موضعه الصحيح. ولذلك هاك لعبة أخرى صغيرة يستطيع الطفل الغضبان الساخط أن يلعبها بمفرده، وهي لعبة تقوم على الفنون الشعبية المحلية، لقد نشأ كل طفل في «بالا»

وتلقى تربيته على أساس الأساطير البوذية. وفي معظم حكايات الجنيات الورعات المؤمنات تلك، يحدث أن تتراءى لشخص ما رؤيا يتجلى فيها كائن إلهي. وربما كان هذا الكائن هو «بودهيساتفا» متجلياً وسط أضواء غامرة، مجللاً بالحلي والجواهر وأقواس قزح. وتصحب هذه الرؤيا الرائعة دائمًا رائحة مثلها، فأضواء المشاعل الساطعة تصاحبها رائحة أريج العطور الفواحة الجميلة.

ارأيت..؟ إننا نأخذ تلك الخيالات القديمة الموروثة ــ وأنا في غنى عن القول بأنها كلها قائمة على تجارب لرؤى فعلية من ذلك النوع الذي تخلقه فترات الصوم الطويلة والحرمان الحسي من كل ما هو جميل والاكتفاء في التغذية بثمار عش الغراب ــ إننا نأخذها ونشرع في العمل. إننا نقول للأطفال إن الأحاسيس العنيفة تشبه الزلازل. إنها تهزنا لدرجة أن الشقوق تظهر في الجدار الذي يفصل ذواتنا وأنفسنا الخاصة عن «طبيعة البوذا» الكونية التي تشيع في كل مكان. إنك تغضب وتسخط وتنفعل، فيتشقق شيء ما في داخلك، ومن خلال الشق أو الشرخ، تخرج لفحة من رائحة النور السماوية الكامنة في جوفك. رائحة مثل رائحة زهرة الشنبق، أو الايلنغ أو الجاردينيا العطرة الزكية ــ ولكنها أكثر روعة دون حد لتخيل روعتها. ولذلك، فلا يجدر بك أن تفوتك تلك النفحة السماوية التي تصاعدت من داخلك بالصدفة. إنها تفوح وتعطر الجو من حولك كلما غضبت واستبد بك الانفعال. املأ بها صدرك. تنفسها.. املأ بها رئتيك على سعتهما. مرة بعد مرة..»

ــ «وهل يفعلون ذلك حقاً؟»

ــ «بعد أسابيع قليلة من بداية التعليم يقوم أكثرهم بذلك كنوع من التدريب.. ولكن ما هو أكثر أهمية، هو أن عدداً كبيراً منهم يشم رائحة عطر بالفعل. إن أمر النهي القديم: «إنك لن..» قد تحول إلى كلمة وعد إيجابية معبرة: «إنك سوف..» والطاقة القوية القادرة على إنزال الضرر، قد أعيد تحويلها إلى قنوات، لم تعد فيها مجرد خالية من الضرر، وإنما هي بالفعل، قد تؤدي بعض الخير. وفي نفس الوقت بالطبع، نقوم بتدريب الأطفال تدريباً منهجياً ومتدرجاً بشكل حريص على الادراك وعلى الاستخدام السليم للغة. إنهم يعلمون كيف يتنبهون إلى ما يرون وما يسمعون، وفي نفس الوقت، يطلب منهم أن يلاحظوا كيف تتأثر رغباتهم ومشاعرهم بما يحتكون به من العالم الخارجي، وأن يلاحظوا كيف يحدث باستمرار أن تؤثر لغتهم، ليس فقط في رغباتهم ومشاعرهم، وإنما كيف تؤثر حتى في حواسهم. إن ما تسجله عيني وأذني شيء، أما ما تعنيه أو تؤثر فيه الكلمات التي استخدمها والحالة النفسية التي أمر بها والأهداف التي أسعى وراءها.. واما ما يسمح لي كل ذلك بأن أدركه، فهو شيء مختلف كل الاختلاف.. وبذلك ترى أن كل شيء يتناسق ويتوحد لكي يصبح عملية تعليمية واحدة مطردة.

إن ما تمنحه للطفل هو في آن واحد تدريب على الادراك والتخيل، وتدريب في علم

وظائف الأعضاء وعلم النفس التطبيقيين، وتدريب في الاخلاق العملية والدين العملي، وتدريب في الاستخدام الصحيح للغة، وتدريب في معرفة الذات. وبكلمة واحدة، إنه تدريب في مجموع «العقل ـ الجسد»، هذا الكيان الواحد، بكل جوانبه».

سأل ويل: «ما هي العلاقة بين كل هذا التدريب الدقيق لما تسميه «العقل ـ الجسد» وبين التعليم الرسمي؟ هل يساعد هذا التدريب الطفل على أن يقوم بعمليات الجمع، أو أن يكتب كتابة صحيحة من الناحية النحوية، أو أن يفهم أوليات العلوم الطبيعية؟»

قال مستر مينون: «إنه يساعده كثيراً. إن «العقل ـ الجسد» المدرب يتعلم بسرعة أكبر بكثير وأكثر عمقاً من العقل ـ الجسد غير المدرب. وهو أيضاً أكثر قدرة على أن يربط الحقائق بالأفكار وعلى أن يربطها معا بالحياة الجارية». ثم فجأة وبطريقة مدهشة انفجر في ضحكة طويلة مجلجلة ـ وكان ما يدهش فيه هو أن هذا الوجه الطويل الحزين كان يعطي المرء انطباعاً بأنه غير قابل للامتزاج بأي تعبير عن المرح وبأنه لايستطيع ـ بالتأكيد ـ أن يبدي أكثر من ابتسامة شاحبة مجهدة.

سأل ويل: «ماذا يضحكك؟»

ـ «كنت أفكر في شخصين قابلتهما في انجلترا حينما كنت هناك لآخر مرة، في كامبريدج. كان أحدهما متخصصاً في الطبيعة الذرية، وكان الآخر فيلسوفاً. وكانا كلاهما بارزين في مجاليهما إلى درجة كبيرة. ولكن أولهما كان عمره العقلي ـ خارج المكتبة ـ لايزيد عن العمر العقلي لصبي في الحادية عشرة. وكان الآخر أكولاً نهماً تزعجه مشكلة وزنه المتضخم التي يرفض أن يواجهها. . إنهما مثالان، يقع كل منهما على أقصى الطرف المواجه للآخر، لما يحدث حينما تأخذ ولداً ذكياً ماهراً، وتمنحه خمسة عشر عاماً من أكثر أنواع التعليم الرسمي عمقاً، وتهمل إهمالاً كاملاً أن تفعل أي شيء للعقل ـ الجسد الذي تقع عليه مسؤولية القيام بالتعليم وممارسة الحياة».

ـ «أفهم من هذا أن نظامكم لاينتج هذا النوع من الوحوش الاكاديمية؟»

هز السكريتر الثاني رأسه وقال: «لم أكن قد رأيت شيئاً من هذا القبيل أبداً حتى ذهبت إلى أوروبا. . إنهم فكاهيون مضحكون إلى درجة تشوبها مبالغة كبيرة. .» وأضاف يقول: «ولكن بحق السماء، لكم هم مرضى! ويا لما تتمتع به هذه الكائنات المسكينة من صفات بغيضة مثيرة للاشمئزاز بشكل عجيب!»

ـ «هذا هو الثمن الذي ندفعه في سبيل التخصص ـ أن نكون مرضى مثيرين للاشمئزاز بشكل عجيب».

قال مستر مينون موافقاً: «في سبيل التخصص. أجل. ولكن ليس بالمعنى الذي تستخدمونه أنتم في العادة لهذه الكلمة، إن التخصص بهذا المعنى ضروري وحتمي: لاتخصص إذن، فلا حضارة. فإذا قام المرء بتعليم مجموع العقل ـ الجسد جنباً إلى جنب الذهن الذي تتركز وظيفته في استخدام الرموز، فإن هذا النوع من التخصص الضروري لن يؤدي إلى كبير ضرر. ولكنكم أنتم لاتعلمون ولاتدربون العقل ـ الجسد. أما ما تستخدمونه من علاج للإسراف في التخصص العلمي فلا يعدو أن يكون بضعة مناهج قليلة في العلوم الانسانية. ممتاز! إن كل تعليم ينبغي أن يتضمن بعض المناهج في العلوم الانسانية. ولكن إياك أن تخدعك مثل هـذه الأسماء. إن العلوم الانسـانية، في حـد ذاتها، لاتجعل المتعلم انساناً. إنها ببساطة ليست سوى شكل آخر للتخصص على المستوى الرمزي. إن قراءة أفلاطون أو الاستماع إلى محاضرة عن ت. س. اليوت لاتربي الكائن الانساني في مجموعه، مثلها في ذلك مثل مناهج العلوم الطبيعية أو الكيمياء، فهي لاتفعل أكثر من أن تربي الجانب القادر على اللعب بالرموز من الانسان. . . ثم تترك ما تبقى من العقل ـ الجسد الحي في حالته البدائية من الجهل والعجز. ومن هنا تظهر كل تلك المخلوقات المريضة الكريهة المثيرة للاشمئزاز التي أدهشتني إلى هذا الحد في رحلتي الأولى إلى الخارج».

سأل ويل: «وماذا من أمر التعليم الرسمي؟ ماذا عن تلقين المعلومات التي لاغنى عنها والمهارات الذهنية الضرورية؟ هل تقومون بالتعليم في هذا المجال بطريقتنا؟»

ـ «إننا نقوم بالتعليم في هذا المجال بالطريقة التي من المحتمل أن تتبعوها بعد عشر أو خمس عشرة سنة. خذ علم الرياضة على سبيل المثال. إن علوم الرياضيات تبدأ تاريخياً بعملية تحسين بعض الحيل المفيدة، التي يتم تصعيدها إلى مستوى الميتافيزيقيا، وفي النهاية تتضح ذاتياً في صور البناء والتحولات المنطقية. ونحن في مدارسنا نقلب هذه العملية التاريخية. إننا نبدأ بالبناء والمنطق، ثم نحذف الميتافيزيقيا وننطلق مباشرة من المبادىء العامة إلى التطبيقات الخاصة».

ـ «وهل يفهم الأطفال بذلك؟»

ـ «يفهمون بقدر أكبر وأحسن بكثير مما يحدث حينما يبدأ المرء بالحيل النفعية. فمن سن الخامسة فصاعداً بصورة عملية يستطيع أي طفل ذكي أن يتعلم عملياً أي شيء على أساس دائم هو أنك تقدم إليه ما يتعلمه بالطريقة الصحيحة. المنطق والبناء في شكل الألعاب والالغاز. يلعب الاطفال، ثم يصلون إلى الهدف المقصود بسرعة لاتصدق، يمكنك بعد هذا أن تمضي إلى التطبيقات العملية. ويستطيع أكثر الاطفال الذين يتعلمون بهذه الطريقة أن يتعلموا في نصف الوقت الذي يستغرقه الطفل بطريقتكم ثلاثة أضعاف من الناحية الكمية، وأربعة أضعاف من ناحية الفهم، ما يتعلمه ويفهمه أطفالكم. أو

فانظر إلى مجال آخر حيث يستطيع المرء أن يستخدم الألعاب لغرس شيء من الفهم لبعض المبادىء العامة. يقدم كل التفكير العلمي على أساس الاحتمال. فليست كل التأكيدات اليقينية القاطعة القديمة سوى صورة من صور الترجيحات الذاتية المبالغ فيها إلى درجة كبيرة، أما القوانين الثابتة للطبيعة فليست إلا متوسطات حسابية. فكيف يستطيع المرء أن يدخل تلك الأفكار التي تفتقر إلى الوضوح إلى هذا الحد في رؤوس الأطفال؟ الطريقة هي أن نلعب معهم الروليت ولعبة «صورة أم كتابة» بقطع النقد ورسم ألاعيب القرعة والحظ. والطريقة هي تعليمهم كل أنواع اللعب بالورق واللوحات المرسومة والزهر».

قالت مسز نارايان: «إن لعبة السلم والثعبان التطورية هي أكثر تلك الألعاب انتشاراً بين الصغار وهناك لعبة أخرى هي «العائلات السعيدة» على طريقة ميندل عالم الوراثة».

أضاف مستر مينون يقول: «وبعد ذلك بوقت قصير، نعرفهم بلعبة أخرى أكثر تعقيداً يلعبها أربعة أشخاص بمجموعة من الورق عددها ستون ورقة رسمت بأشكال خاصة وتقسم إلى ثلاثة أقسام متساوية ومتشابهة. إننا نسميها لعبة «البريدج السيكلوجي». الصدفة فيها هي التي تتحكم فيك وفيما تحصل عليه من ورق. أما الطريقة التي تلعب بها فهي تقوم على المهارة والخداع والتعاون بينك وبين شريكك في اللعب».

قال ويل: «سيكلوجي، وميندل والتطور ــ يبدو أن تعليمكم تعليم بيولوجي ثقيل».

قال مستر مينون موافقاً: «أجل، إنه كذلك. إننا نوجه اهتمامنا الرئيسي إلى علوم الحياة، لا إلى علوم الطبيعة والاحياء».

ــ «أهذه مسألة مبدأ؟»

ــ «ليس بصورة كاملة. إنها أيضاً مسألة التلازم مع احتياجاتنا والضرورة الاقتصادية. إننا لانملك المال اللازم للقيام بالابحاث الواسعة في مجالات علوم الطبيعة والكيمياء، نحن في الحقيقة لا نحتاج أي احتياج إلى مثل هذا النوع من الأبحاث ــ إذ ليس لدينا أي صناعات ثقيلة يجب عليها أن تكون أقدر على المنافسة، ولا صناعة تسلح يجب أن تكون شيطانية.. وليست لدينا أدنى رغبة في الهبوط على الوجه البعيد للقمر. ليس لدينا طموح سوى الرغبة في الحياة بوصفنا كائنات انسانية متكاملة، منسجمة مع بقية مظاهر الحياة في هذه الجزيرة في هذه المنطقة على هذا الكوكب. إننا نستطيع أن نحصل على ما تحققونه من نتائج في علوم الطبيعة والكيمياء وان نطبقها لخدمة اهدافنا ــ إن كان بوسعنا أو إن شئنا أن نفعل ذلك. وفي نفس الوقت فإننا سنركز على الابحاث التي تعود علينا بأفضل النتائج لصالحنا ــ في علوم الحياة والعقل.» وأضاف يقول: «وإذا كان لدى السياسيين في الدول الحديثة الاستقلال أي عقل لفعلوا نفس الشيء. ولكنهم يريدون أن

يتخففوا من أثقالهم وأن يلقوها على أكتاف الآخرين، إنهم يريدون الحصول على جيوش، يريدون اللحاق بالمدمنين الآليين على التليفزيون في امريكا واوروبا. . أما أنتم فلا خيار لكم. إنكم مرتبطون ـ دون فرصة للافلات ـ بتطبيقات علوم الطبيعة والكيمياء، وبكل ما لها من نتائج كريهة، حربية وسياسية واجتماعية. ولكن البلدان المتخلفة ليست مرتبطة بها هذا الارتباط. إنهم ليسوا مضطرين إلى اتباع طريقكم واتخاذكم مثالاً لهم. إنهم ما يزالون أحراراً قادرين على أن يسيروا في الطريق الذي سرنا نحن عليه ـ طريق علوم الحياة التطبيقية، وطريق السيطرة على النسل والانتاج المحدد والتصنيع الانتقائي الذي يجعل السيطرة على النسل في حيز الامكان، إنه الطريق الذي يؤدي إلى السعادة من الداخل إلى الخارج مروراً بالصحة والوعي وتغيير موقف المرء ازاء العالم، وليس نحو سراب السعادة من الخارج إلى الداخل عبر دمى الاطفال والحبوب المنومة والمنبهة وأقراص الدواء والتمزقات التي لا تتوقف ولا حصر لها. . ما زال بإمكانهم ان يختاروا طريقنا، ولكنهم لايريدون ذلك، إنهم يريدون أن يكونوا مثلكم تماماً، ليكن الله في عونهم. ولما لم يكن في وسعهم أن يحققوا ما حققتموه ـ بأي معدل في اطار الزمن والوقت الذي يشرعون فيه في العمل ـ فإن من المقدر لهم مسبقاً أن يقعوا فريسة الاحباط والحزن وخيبة الامل، وقد قدر عليهم البؤس والانهيار الاجتماعي والفوضى. . ثم أن يقعوا بعد البؤس فريسة لاستعباد الطغاة. إنها مأساة كاملة يمكن التنبؤ بها، وهم يسيرون نحوها بعيون مفتوحة».

أضافت المديرة تقول: «نحن نستطيع أن نفعل شيئاً بشأنها».

قال مستر مينون: «لانستطيع أن نفعل شيئاً إلا أن نستمر في فعل ما نفعله الآن، وإلا أن نرجو أملاً ضد كل رجاء بأن يقلد الناس أمة وجدت طريقاً يجعلها سعيدة سعادة انسانية. ليس هناك سوى فرصة ضئيلة جداً لحدوث ذلك، ولكنها قد تتحقق».

ـ «إلا إذا تحققت «ريندانج العظمى» أولا. . »

قال مستر مينون مؤيداً بوقار حزين: «إلا إذا تحققت «ريندانج العظمى» أولاً، وفي نفس الوقت علينا أن نمضي في القيام بعملنا الذي هو التعليم. أهناك شيء آخر تحب أن تسمع عنه، يا مستر فارنابي؟»

قال ويل: «هناك أشياء كثيرة جداً. مثلاً، في أي سن تبدأون تعليمكم العلمي؟».

ـ «إننا نبدأه في نفس الوقت الذي نبدأ فيه تعليم الجمع والقسمة. وأول الدروس تكون في علم تكيف الاحياء مع بيئاتها، أو علم التبيُّؤ».

ـ «التبيؤ؟ أليس هذا علمًا على قدر كبير من التعقيد؟»

ـ «هذا هو السبب بالتحديد الذي يجعلنا نبدأ به. لايصح أبداً أن تعطي الأطفال

فرصة لتخيل أن أي شيء يمكن أن يوجد بمعزل عما يحيط به.. ولنوضح منذ أول البداية أن كل الاحياء، كل ما هو حي، يحيا في علاقة بما حوله من صور الحياة. اطلعهم على العلاقات القائمة في الغابات، في الحقول، في البرك الصغيرة وفي مجاري المياه، في القرية وفي الريف المحيط بها. ادفع بهذه الفكرة إلى داخل عقولهم.»

قالت المديرة: «واسمح لي بأن أضيف إننا ندرس علم العلاقة هذا في ارتباط باخلاقيات العلاقة. التوازن، العطاء والأخذ، دون اسراف ولا مبالغة هذه هي القاعدة في الطبيعة، فإذا ما انتقلت الحقيقة إلى مجال الاخلاق، فينبغي أن تكون هذه القاعدة هي «القاعدة» التي تسود بين الناس. وكما قلت من قبل، فإن الأطفال يجدون أنه من السهل جداً أن يفهموا فكرة ما حينما تمثل لهم في صورة مثال من الحيوانات. إننا نعطيهم نسخة منقحة تنقيحاً عصرياً من «حكايات أيوب». إن نسختنا ليست هي تلك الخرافات التي يتجسد فيها كل شيء في صورة بشر، وإنما هي حكايات تقوم على فكرة تكيف الاحياء مع بيئتها متضمنة الاخلاقيات الكونية. إن قصة اجتثاث مظاهر الطبيعة، قصة عمليات التعرية والتآكل التي يفعلها البشر لا الرياح والمطر، هي مثال آخر رائع يمكن أن يضرب للأطفال. ليست لدينا هنا نماذج صالحة من عمليات التآكل والتعرية هذه، ولذلك فإننا نطلعهم على صور لما حدث في ريندانج، وفي الهند والصين وفي اليونان وفي المشرق وفي افريقيا وأمريكا ـ في كل الأمكنة التي حاول فيها الجشعون الاغبياء من الناس أن يأخذوا دون أن يعطوا، أن يستغلوا دون حس أو فهم. عامل الطبيعة بطريقة حسنة، وسوف تعاملك الطبيعة بطريقة حسنة، انزل بالطبيعة الضرر أو دمرها وسرعان ما تدمرك الطبيعة. إن المثل الذي يقول: «عامل الناس بما تحب أن يعاملوك به» يكون غنياً عن الشرح في منطقة جرداء، لا أنس فيها ولا جان، حيث يحتاج الناس بعضهم بعضاً، فيكون من الأسهل جداً أن يفهمه الطفل وأن يعترف به مما لو كان هذا الطفل وسط أسرة كثيفة العدد أو قرية مزدحمة. إن الجراح النفسية لاتظهر على اصحابها ـ وعلى أي حال فإن الأطفال لايعرفون إلا القليل جداً عمن يكبرونهم،ولما لم يكن لديهم أية مقاييس للمقارنة، فإنهم يميلون إلى أن يأخذوا حتى أسوأ المواقف أخذ البديهيات المسلم بها، كما لو كانت جزءاً من طبيعة الاشياء. هذا بينما يكون الاختلاف واضحاً كل الوضوح بين عشرة أفدنة من المروج وعشرة أفدنة من الأحراش أو الصخور والرمال الثائرة. وليست الرمال والصخور سوى أمثال، فإذا واجهها فسوف يكون من السهل عليه أن يرى الحاجة إلى المحافظة على الاحياء والكائنات الحية، ثم ينطلق من صيانة الحياة إلى الاخلاق والقيم الاخلاقية ـ من السهل عليه أن ينطلق من فهم «القاعدة الذهبية» التي تحكم النباتات والحيوانات والأرض التي تدعمها في سبيل الحياة لكي يصل إلى «القاعدة الذهبية» التي تحكم البشر. وهنا تبرز نقطة هامة أخرى. إن القيمة الاخلاقية التي يصل إليها الطفل انطلاقاً من حقائق التبيؤ وأمثال ظواهر التآكل والتعرية إنما هي قيمة أخلاقية كونية. ليس

هناك في الطبيعة «شعب مختار» ولا «أراضٍ مقدسة» ولا «رسالات تاريخية متميزة». إن أخلاقيات المحافظة على الحياة لاتمنح أحداً سبباً لكي يشعر بالتفوق على الآخرين أو لكي يزعم لنفسه امتيازات خاصة. إن المثل الذي يقول: «عامل الناس بما تحب أن يعاملوك به» ينطبق على كل معاملاتنا مع كل أنواع الحياة في كل أرجاء العالم. إننا لن يُسمح لنا بالحياة على هذا الكوكب إلا بمقدار.. وطوال ما نعامل الطبيعة كلها بتعاطف وذكاء حساس. إن المبادىء الأولية لعلم تكيف الاحياء مع بيئاتها تؤدي مباشرة إلى المبادىء الأولية للبوذية.»

قال ويل بعد لحظة صمت: «منذ بضعة أسابيع كنت أقرأ بالصدفة في كتاب المؤرخ «ثوروولد» عما حدث في المانيا الشرقية فيها بين يناير ومايو عام ١٩٤٥. هل قرأ أحدكم هذا الكتاب؟»

هز كل منهما رأسه نافياً.

قال ويل ناصحاً: «إذن فلا تقرأه.. لقد كنت في مدينة دريسدن بعد خمسة شهور من ضربها بقنابل الطائرات في فبراير. لقد أُحرق خمسون أو ستون ألفاً أحياء في ليلة واحدة، وكان أكثرهم من اللاجئين المدنيين الهاربين أمام زحف الروس. وكان كل هذا لأن أدولف الصغير لم يكن قد تعلم علم تكيف الاحياء مع بيئاتها».. ابتسم حينئذ واحدة من ابتساماته المتخابثة ثم أضاف يقول: «لم يكن قد تعلم أبداً المبادىء الأولية للمحافظة على الكائنات الحية».. إن المرء ليضطر إلى أن يتفكه بهذه الواقعة، إلى أن يحولها إلى نكتة، لأنها مليئة بالرعب والفزع إلى درجة يصعب معها الحديث عنها بجدية.»

نهض مستر مينون وتناول حقيبته الصغيرة. وقال:

«لابد لي الآن أن أرحل». وصافح ويل وهو يقول إنه سعد بلقائه، وإنه يأمل أن يستمتع مستر فارنابي بوجوده في بالا. وفي نفس الوقت، فإنه إذا شاء أن يعرف المزيد عن التعليم البالاني فليس عليه إلا أن يسأل مسز نارايان، إذ لايوجد من يفضلها في الاستعداد للعمل كمرشدة وموجهة.

حينما رحل السكرتير الثاني سألت مسز نارايان: «هل تحب أن تزور بعض الفصول؟»

نهض ويل وتبعها خارجاً من الحجرة ثم على طول أحد الممرات.

قالت المديرة وهي تفتح أحد الفصول: «فصل الرياضيات. وهذه هي السنة الخامسة العليا. تحت اشراف مسز اناند».

انحنى ويل بينما كانت المديرة تقدمه للمدرسة. منحته المدرسة ذات الشعر الابيض ابتسامة مرحبة وهمست تقول: «إننا كما ترى غارقون في مسألة.»

نظر أمامه ، فرأى اثني عشر صبياً وفتاة أمام مكاتبهم المشتركة، مقطبين في صمت مليء بالتركيز وقضم أطراف أقلام الرصاص، منحنين فوق كراساتهم. . كانت الرؤوس المنحنية سوداء مصقولة. فوق البنطلونات القصيرة البيضاء أو الخاكية، وفوق الجونيلات الطويلة ذات الالوان المرحة، كانت الاجساد الذهبية تلمع في الجوّ الحار. . وكانت أجساد الاولاد التي تظهر منها أقفاص الاضلاع تحت الجلد، وأجساد الفتيات الأكثر امتلاء ونعومة ذات انتفاخات النهود الصغيرة، كانت هذه الاجساد وتلك ثابتة، طويلة رشيقة، كما لو كانت من مبتكرات مثال ملكي ينحت تماثيل عرائس البحر وحورياته. ولقد تلقى الجميع الشخصين اللذين دخلا الفصل بهدوء، كما لو كان من الطبيعي أن يدخل عليهم غرباء. فكر بينه وبين نفسه: يا لها من راحة عظيمة، أن يكون الانسان في مكان حيث «السقوط» قانون مندثر».

في نفس الوقت كانت مسز اناند تشرح ــ هامسة حتى لاتصرف انتباه من يحلون المسألة عن مهمتهم ــ انها اتبعت دائمًا طريقة تقسيم فصلها إلى مجموعتين: مجموعة المتصورين الذين يفكرون بطريقة هندسية، مثل اليونانيين القدامى، ومجموعة غير المتصورين الذين يفضلون علم الجبر والتجريدات التي ليس لها صور محسوسة. بطريقة قريبة من الاجفال المرتعد، سحب ويل انتباهه من العالم الجميل الذي لاسقوط فيه والذي تملأه الاجساد الشابة، ووجه اهتمامه إلى العناية الذهنية بالتنوع الانساني وأساليب تعليم الرياضيات.

وأخيراً خرج ويل مع المديرة. . ودخلا الباب التالي، وفي حجرة دراسية ملونة بالأزرق الباهت مزينة برسوم لحيوانات استوائية، وصور «بودهيساتفا» وأغصان وروده المتفتحة البراعم، في تلك الحجرة كان صف السنة الخامسة الادنى يتلقى درسه نصف الاسبوعي في الفلسفة التطبيقية الأولية. كانت النهود هنا أصغر حجمًا وأذرعة أكثر نحافة وعضلاتها أقل نمواً، فإن تلامذة هذا الصف لم يكونوا قد ابتعدوا عن الطفولة إلا بمقدار سنة واحدة.

كان الرجل الشاب الواقف عند السبورة يقول، حينما دخل ويل مع مسز نارايان إلى الحجرة: «الرموز شيء عام». ثم رسم على السبورة عدداً من الدوائر الصغيرة ورقمها: «١، ٢، ٣ ، ٤، ٥» ثم شرح ما رسمه قائلاً: «هؤلاء هم الناس». . ثم رسم من كل دائرة خطاً يربطها بمربع على يسار السبورة. ثم كتب في مركز المربع: «س هي نسق الرموز الذي يستخدمه الناس حينما يريد أحدهم أن يتبادل الحديث مع الآخرين. إنهم جميعاً يتحدثون اللغة نفسها ــ الانجليزية، البالانية، الاسكيموية، وهذا يعتمد على البلد الذي يعيشون فيه، أما الكلمات فهي عامة ومشتركة، إنها ملك لكل من يتحدثون بلغة معينة: فالكلمات مسجلة في القواميس. والآن فلننظر إلى ما يحدث هناك.» وأشار عبر

النافذة المفتوحة. في شكل منسق منتظم أمام سحابة بيضاء، جاءت ستة ببغاءات سابحة حتى دخلت في حيز الرؤية ثم عبرت خلف قمة إحدى الاشجار حتى اختفت. ورسم المدرس مربعاً ثانياً على الجانب الآخر من السبورة، وأشار إليه بحرف الالف دلالة على كلمة «الاحداث» ثم ربطه بالدوائر ببعض الخطوط. قال مبيناً ما يقصده: «إن ما يحدث هناك شيء عام ــ أو هو على الأقل شيء عام إلى درجة معقولة. وما يحدث أيضاً حينما يتحدث شخص ما أو يكتب بعض الكلمات، هو أيضاً شيء عام. ولكن الأشياء التي تتحرك داخل تلك الدوائر الصغيرة أشياء خاصة. خاصة».. ووضع يده على صدره. «خاصة» ثم حك جبهته. «خاصة» ولمس جفنيه وقمة أنفه بطرف اصبعه البني اللون.. ثم أضاف يقول: «والآن فلنجرِ تجربة بسيطة. قولوا كلمة: «يقرص».

«يقرص» هكذا صاح أفراد الصف في صوت واحد مبعثر، ثم عادوا يرددون: «يقرص».

ــ «ي.. ق.. ر.. ص. هذا شيء عام، هذا شيء تستطيعون النظر إلى معناه في القاموس. ولكن اقرصوا أنفسكم الآن. بقوة! أقوى من ذلك».

راح الاطفال يقرصون أنفسهم، ومع هذه العملية ترددت القهقهات وصيحات الألم «آه، ايه..» الضاحكة.

سأل المدرس: «هل يستطيع أي واحد منكم أن يشعر بما يشعر به الشخص الجالس إلى جواره».

في صيحة جماعة واحدة انطلقت كلمة: «لا».

قال الرجل الشاب: «هكذا يبدو الأمر ــ كما لو كان هناك ــ كم يبلغ عددنا؟» وجرى بعينيه على المكاتب الصغيرة القائمة أمامه ثم عاد يقول: «كما لو كان هناك ثلاثة وعشرون ألماً منفصلة متميزة. ثلاثة وعشرون في هذه الحجرة. ما يقرب من ثلاثة آلاف مليون من هذا الألم في العالم كله، بالإضافة إلى آلام كل الحيوانات.. وكل ألم من هذه الآلام خاص إلى درجة صارمة. ليست هناك طريقة لتحويل تجربة مركز معين للألم إلى مركز آخر للألم.

ليس هناك اتصال بينهما إلا بطريقة مباشرة من خلال حرف «أ» وأشار إلى المربع المرسوم على يسار السبورة، ثم عاد فأشار إلى الدوائر في منتصفها وقال: «الأخبار العامة هنا في ١، ٢، ٣، ٤، في حرف الخاء هي الاخبار المنقولة عن الآلام الموجودة هنا في «أ» حيث تستطيعون أن تقولوا «يقرص» وهي الكلمة العامة المسجلة في القاموس. ولاحظوا هذا: ليست هناك سوى كلمة عامة واحدة: «الألم» وهذه الكلمة العامة الواحدة تعبر عن ثلاثة آلاف مليون تجربة، كل منها تكاد تكون مختلفة عن التجارب الأخرى بقدر ما يختلف أنفي

عن أنوفكم وبقدر ما يختلف أنف كل منكم عن أنوف الآخرين. إن الكلمة لا تعبر إلاّ عن صورة التشابه التي تجمع بين الاشياء والاحداث التي تنتمي إلى نوع عام واحد. هذا هو السبب الذي يجعل الكلمة عامة. ولما كانت عامة، فليس من الممكن أن تعبر عن صور الاختلاف بين الاشياء والاحداث التي تنتمي إلى نوع عام واحد».

ساد الصمت، ثم رفع المدرس رأسه ونظر إلى تلامذته وألقى عليهم سؤالاً:

ــ «هل يعرف أحدكم هنا شيئاً عن ماها كاسا يابا؟»

ارتفعت أيدي متعددة فأشار المدرس باصبعه إلى فتاة صغيرة ذات جونلة زرقاء وعقد من الصدف، كانت تجلس في الصف الأول.

ــ «حدثينا عنه أنت يا اميا».

بدأت أميا حديثها متقطعة الانفاس وفي نطقها لثغة. قالت:

«ماها كاثايابا (كاسايابا)، كان الوحيد من بين تلامذة بوثا التي أدرك ما كان بوثا يتحدث عنه».

ــ «وعمّ كان بوذا يتحدث؟»

ــ «إنه لم يكن يتحدث وهاثا هو الثبب (السبب) الذي جعلهم لا يفهمون».

ــ «ولكن ماها كاسا يابا أدرك ما كان بوذا يتحدث عنه رغم أنه لم يكن يتحدث، أليس هذا هو الأمر؟»

وأومأت الفتاة الصغيرة برأسها.كان هذا هو ما حدث بالتحديد.

وقالت:

«لقد ثنوا (ظنوا) إنه كان ينوي أن يلقي عليهم موعثة (موعظة). ولكن لم يفعل، إنه لم يفعل إلا أن اقتطف ثهرة (زهرة) ورفعها أمام كل الناس لكي يروها».

ــ «كانت هذه هي الموعظة» كذلك صاح صبي صغير يرتدي بنطلوناً قصيراً من نسيج القطن الاصفر، كان قبل أن يطلق عبارته يتقافز قلقاً على مقعده، عاجزاً عن كبح جماح نفسه ومنع رغبته في أن يقول ما يعرفه.

ــ «ولكن لم يكن في وثع (وسع) أحد أن يفهم تلك الموعثة (الموعظة). لا أحد إلا ماها كاثايابا (كاسايابا)».

ــ «إذن فماذا قال ماها كاسا يابا حينما رفع بوذا تلك الزهرة؟»

صاح الطفل ذو البنطلون القطني الاصفر بانتصار: «لم يقل شيئاً!»

وضحت اميا هذا الكلام: «لقد ابتثم (ابتسم) فقط. وقد أدرك بوثا من هاثا أنه

أدرك الحكاية كلها. ولهاذا فقد ابتسم هو أيضاً، ووقفا هكذا، يبتسمان، فقط».

قال المدرس: «جميل جداً. والآن» ثم التفت إلى صاحب البنطلون القطني الاصفر: «فلنسمع فكرتك عما ادركه ماها كاسا يابا».

أطبق الصمت. ولما شعر الصبي بورطته خفض رأسه وتمتم يقول: «لا أعرف».

ــ «هل يعرف أحدكم؟»

كانت هناك عدة اقتراحات وتخمينات.. ربما كان قد أدرك أن الناس قد ملوا المواعظ ـ حتى المواعظ التي يلقيها بوذا. وربما كان يحب الزهور بقدر ما يحبها شخص عطوف مثله يمتلىء شفقة وحناناً. وربما كانت الزهرة بيضاء اللون، وأن هذا جعله يفكر في «الضوء الساطع».. وربما كانت الزهرة زرقاء، وهذا هو اللون الذي يرمز إلى شيفا.

قال المدرس: «هذه إجابات جيدة.. وخصوصاً الاجابة الأولى. إن المواعظ مضجرة حقاً إلى حد بعيد.. وهي مضجرة بصورة خاصة بالنسبة للواعظ نفسه. ولكن يبرز هنا سؤال.. إذا كان أحد أجوبتكم هو الذي يدل على ما أدركه ماها كا سا يابا حقاً حينما رفع بوذا الزهرة، فلماذا لم يعبر عما أدركه بكلمات كثيرة؟»

ــ «ربما لم يكن متكلّماً فثيحاً (فصيحاً)..».

ــ «ربما كان حلقه ملتهباً فمنعه من الكلام».

ــ «لو أن حلقه كان ملتهباً، لما ابتسم مثل هذه الابتسامة السعيدة».

ــ «قل لنا أنت» كذلك قال صوت صارخ من آخر الحجرة. «ــ «أجل ، قل لنا أنت» كذلك أيضاً صاح اثنا عشر صوتاً مرة واحدة.

هز المدرس رأسه وقال: «إذا لم يكن «الرجل العطوف» ولا ماها كاسا يابا قد استطاعا أن يعبرا عنه بالكلمات فكيف أستطيع أنا؟ ولكن فلننظر في نفس الوقت نظرة أخرى إلى هذه الاشكال المرسومة على السبورة. هناك كلمات عامة، ثم أحداث تزيد عموميتها أو تقل، ثم هناك مراكز الألم واللذة الخاصة بشكل كامل. الخاصة بشكل كامل؟» هكذا تساءل ثم استطرد يقول: «ولكن من المحتمل ألّا يكون ذلك صحيحاً، ربما رغم كل شيء، كان هناك اتصال من نوع ما بين الدوائر، اتصال ليس بالطريقة التي أتصل أنا بكل منكم من خلالها الآن، أي من خلال الكلمات، وإنما أقصد أنه ربما كان بينهما اتصال يتم بشكل مباشر. وربما كان ذلك هو ما كان بوذا يتحدث عنه حينما انتهت موعظة الزهرة غير الناطقة بالكلمات، لقد قال بوذا لتلامذته: «أنا أملك كنز التعاليم التي لاتخطىء. عقل النيرفانا الرائع العجيب، الشكل الحق الذي لاشكل له، الذي لاتطاله الكلمات جيمعاً، التعاليم التي ينبغي أن تُعطى للناس، وأن يتلقاها الناس خارج كل

القواعد والقوانين وبصرف النظر عنها. هذه التعاليم قد سلمتها أنا الآن إلى ماهاكاسايابا».

والتقط المدرس الشاب قطعة الطباشير مرة ثانية، ورسم شكلاً غير محدد تضمن داخل محيطه كل الأشكال الأخرى التي كانت مرسومة على السبورة ـ الدوائر الصغيرة التي تمثل البشر، والمربع الذي عبّر عن الأحداث، والمربع الآخر الذي عبّر عن الكلمات والرموز: «كل منها منفصل عن الآخرين ومع ذلك فالكل شيء واحد الناس والأحداث والكلمات ـ كلها اعراض تجسد «العقل» تجسد «الجوهر» تجسد «المطلق».

إن ما كان يشير إليه بوذا، وما أدركه ماهاكاسايابا كان هو أن المرء لايستطيع أن يفصح عن تلك التعاليم بالكلمات، وأن المرء لايستطيع إلا أن يكونها، أن يكون هو نفسه تلك التعاليم ذاتها، إنها الشيء الذي سوف تكتشفونه جميعاً حينما تحين لحظة تعميدكم».

همست المديرة قائلة: «حان وقت أن نتحرك» وحينما أغلق الباب وراءهما، ووقفا ثانية في الممر الطويل، قالت لويل: «إننا نستخدم نفس هذه الطريقة في الشرح في تدريسنا للعلوم ، بدءاً من علم النبات.»

ـ «لماذا تبدأ من علم النبات؟»

ـ «لأنه علم يمكن أن يربط بسهولة بالغة بما كان يتال الآن ـ قصة ماهاكاسايابا».

ـ «هل هذه هي نقطة انطلاقكم التي تبدأون منها؟»

ـ «كلا إننا نبدأ بشكل عام من الكتاب الاصلي، الكتاب الذي يعتبر مرجع هذا العلم. يحصل الأطفال على الحقائق الأولية الواضحة، منظمة بعناية ودقة على شلك فتحات برج الحمام الهرمي المتصاعد. عنوان الصفحة الأولى ـ علم النبات الكثيف.. إنهم يدرسون هذا الموضوع لمدة ستة أسابيع أو سبعة. وبعد ذلك يقضون صباحاً بأكمله في دراسة ما ندعوه ببناء الجسور. إنه درس يمتد طوال ساعتين ونصف ساعة نحاول خلالها أن نجعلهم يربطون بين كل شيء كانوا قد تعلموا في الدروس السابقة في الفن واللغة والدين ومعرفة الذات.»

ـ «علم النبات ومعرفة الذات ـ كيف تشيدون مثل هذا الجسر بين هذين العلمين؟»

قالت مسز نارايان مؤكدة له: «هذا أمر سهل جداً في الحقيقة، يُعطى كل طفل زهرة عادية ـ زهرة نبات «الخبيزة» على سبيل المثال، أو زهرة أحسن قليلاً «لأن زهرة الخبيزة ليست لها رائحة» زهرة الجاردينيا مثلاً. من الناحية العلمية. ما هي زهرة الجاردينيا مثلاً؟ ممّ تتكون؟ البتلات.. عضو التذكير، وعضو التأنيث، والمبيض، إلى آخر ما هناك».

ثم يطلب من الأطفال أن يكتبوا وصفاً تحليلياً كاملاً للزهرة، مصوراً برسم دقيق. وبعد أن يتم ذلك، ينالون لحظة قصيرة من الراحة، وفي نهايتها تقرأ عليهم قصة ماهاكاسايابا ويطلب منهم أن يفكروا فيها. هل كان بوذا يلقي درساً في علم النبات؟ أم أنه كان يعلم تلامذته شيئاً آخر؟ فإذا كان هذا حقاً، فما هو ذلك الشيء؟»

ــ «ما هو حقاً؟»

ــ «وكما تطلعنا القصة، فليس ثمة جواب بالطبع، يمكن أن نعبر عنه بالكلمات. وهكذا تقول للأولاد والبنات أن يكفوا عن التفكير وأن يكتفوا بالنظر وتقول لهم: «ولكن لاتنظروا بطريقة تحليلية، لاتنظروا كعلماء، ولا حتى كبستانيين، حرروا أنفسكم من كل ما تعرفونه وانظروا ببراءة كاملة إلى هذا الشيء اللامحدد بصورة نهائية أمامكم، انظروا إليه كما لو كنتم لم تروا شيئاً من هذا النوع من قبل ابداً، وكما لو كان لا اسم له ولاينتمي إلى فصيلة أو جنس معروف. انظروا إليه بانتباه ولكن في سلبية وتفتح للتلقي وحده، دون محاولة لتسميته او لتحديده أو الحكم عليه أو مقارنته بشيء آخر، بينما تنظرون إليه، عبوا سره الغامض وارتشفوه، تنفسوه بالروح والحواس، رائحة حكمة الشاطىء الآخر».

قال ويل معلقاً: «يتشابه كل هذا مع ما كان الدكتور روبرت يقوله في احتفال التعميد».

قالت مسز نارايان: «بالطبع إنه يتشابه معه، أن تعلم كيفية النظر إلى الاشياء بطريقة ماهاكاسايابا هو أفضل إعداد لتجربة تناول دواء الموكشا. إن كل طفل يأتي إلى حفل التعميد يأتي إليه بعد تدريب طويل في فن كيفية التلقي والتفتح السلبي في البداية، هناك زهرة الجاردينيا كنموذج نباتي. ثم الجاردينيا نفسها في تميزها وتفردها، زهرة الجاردينيا كما يراها الفنان، زهرة الجاردينيا الأكثر اعجازاً التي رآها بوذا وماهاكاسايابا.» ثم أضافت المديرة تقول: «ولايجب أن أنسى أن أقول لك إننا لانلزم أنفسنا بالزهور وحدها. إن مادة من مواد الدراسة يتلقاها الاطفال، تحدد لها علامات ودرجات دورية في بناء الجسور. كل شيء، من الضفادع المشرحة حتى غمامة قرنية عين العنكبوت، ينظر إليها جميعاً بطريقة التلقي السلبي، وبطريقة الادراك التصوري الكلي، بوصفها حقيقة من حقائق الجمال أو من حقائق التجربة الروحية، بالاضافة إلى النظر إليها على أساس العلم أو التاريخ أو الاقتصاد. إن التدريب على التلقي السلبي هو التتمة المكملة للتدريب على التحليل واستخدام الرموز وهو الترياق المضاد له في نفس الوقت. ولايمكن الاستغناء عن النوعين كليهما من التدريب ولايمكن أن يحل أحدهما محل الآخر. فإذا أهملت أحدهما فإنك لن تنمو لكي تصبح كائناً انسانياً مكتملاً أبداً».

ساد الصمت ثم سأل ويل في النهاية: «وكيف ينبغي للمرء أن ينظر إلى الآخرين؟ أينبغي عليه ان يتبنى نظرة فرويد ام نظرة سيزان؟[٤٢]. نظرة بروست[٤٣] أم نظرة بوذا؟.

ضحكت مسز نارايان وسألته: «بأي واحدة من هذه النظرات تنظر إليّ؟»

أجابها: «أعتقد انني أنظر إليك أولاً بنظرة عالم الاجتماع. إنني أنظر إليك باعتبارك ممثلة لثقافة غير مألوفة، ولكنني أعيك أيضاً وعياً سلبياً، متلقياً إياك في تفتح كامل. وإذا سمحت لي بهذا القول، فإنني أفكر في انك لابد متقدمة تماماً في السن. إنك في حالة جيدة من الناحية الجمالية، جيدة من الناحية الذهنية والنفسية. وفي حالة جيدة من الناحية الروحية ــ أياً كان معنى هذه الكلمة ــ فإذا جعلت نفسي متفتحاً للتلقي السلبي فإن هذا يعني شيئاً هاماً. بينما استطيع أن أتصور كل هذا الكلام، إذا اخترت أن استعرضه بدلاً من أن أسمح له بالتسلل إلى نفسي، أستطيع أن أتصوره أو أن أحوله إلى صورة للهـراء الخالص». ثم أطلق ضحكة شبيهة بعواء الضبع.

قالت مسز نارايان: «إذا كان للمرء أن يختار فإن بوسعه دائمًا أن يستبدل فكرة جاهزة سيئة بأفضل الاستبصارات الداخلية التي يخلقها التفتح للتلقي. والسؤال هو، لماذا يجب على المرء أن يريد هذا النوع من الاختيار؟ لماذا لايختار المرء أن يصغي إلى كل من الجانبين وأن يوفق بين نظرتيهما؟ إن الذهن التحليلي الميال بطبيعته إلى صنع التصورات والعقل السلبي اليقظ المتلقي لما تكشفه البصيرة ــ هذان العقلان ليس فيهما ما هو معصوم من الخطأ، ولكنهما إذا اجتمعا سوياً يستطيعان القيام بالعمل بصورة جيدة».

سأل ويل: «ولكن اخبريني فقط بمدى كفاءة تدريبكم في فن أن يكون الانسان متفتحاً للتلقي؟».

---

(٤٢) سيزان ــ بول (١٨٣٩ ــ ١٩٠٦) يصفه النقاد بأنه كان أعظم فنان رسام في القرن التاسع عشر كله. قاد حركة ما قبل التأثرية، وعرف بتأكيده على ما في الطبيعة من أشكال هندسية. كانت أهم موضوعاته من المناظر الخلوية ومن الطبيعة الصامتة، فاعتبرها معاصرون أشياء قبيحة وأساؤوا فهمها. وظل مغموراً طوال معظم حياته، ولكنه أثر تأثيراً كبيراً فيما بعد على التأثريين والتكعيبيين. كان همّ سيزان الأكبر هو استخدام اللون كوسيلة لتمييز الاشياء وتثبيتها، وكان يحاول الكشف عن معنى الشكل باظهار تكوينه فحسب دون أن يغمره بمشاعر من عنده كما فعل التأثريون.

(٤٣) بروست ــ مارسيل (١٨٧١ ــ ١٩٢٢) روائي فرنسي، وواحد من أشهر كتاب جيله. عرف برواية «البحث عن الزمن المفقود» التي كتبها بين عامي ١٩١٣ ــ ١٩٢٨ في سبعة أجزاء. تميز عمله الروائي بالتفسير السيكولوجي للانفعال، والحذق الشديد في تصوير الشخصية، والتحليلات الكثيفة للعالم الداخلي لكل شخصية، والاعتماد على انبعاث الذكريات من خلال توافقها مع حدث خارجي عارض، واستخدام اسلوب دقيق النسيج كثيف الايحاءات. وكان أقوى من تأثر بهم هو هنري برجسون وفلسفته عن الذاكرة والزمن.

أجابته: «هناك درجات من القدرة على التلقي. ففي درس علمي على سبيل المثال، لايتكون هناك سوى كمية قليلة جداً مـن هذه القدرة.. فالعلم يبدأ من الملاحظة، ولكن الملاحظة تلقائية دائماً. وعليك دائماً في هذه الحالة أن تنظر إلى العالم من خلال شبكة من المدركات المعروضة عليك. ثم يحدث أن تتناول دواء الموكشا وفجأة لايكاد يكون ثمة أي مدركات. إنك لاتختار ولاتقوم على الفور بتصنيف ما تمارسه من تجارب. إنك تتلقاها وتستوعبها فقط. إنها حالة شبيهة بتلك القصيدة التي كتبها وردزوورث: «آتني معك بقلب يرقب ويتلقى». وفي تلك المراحل من عملية بناء الجسور التي كنت أصفها لك، ما تزال هناك كمية كبيرة تماماً من عمليات الاختيار والعرض المحمومة الملهوفة، ولكنها لاتماثل في ضخامتها العمليات المماثلة في دروس العلم. إن الاطفال لايتحولون فجأة إلى حكماء عارفين عظماء من طراز تاثاجاتا، فهم لايستطيعون الوصول إلى حالة التلقي المتفتح الخالص التي تتحقق مع دواء الموكشا.. بل إنها حالة تبعد الكثير عن الحالة التي يحققها دواء الموكشا ــ كل ما يستطيع المرء أن يقوله إنهم يتعلمون أن يتعاملوا بسهولة مع الاسماء والأفكار. إنهم لبرهة قليلة من الزمن يستوعبون ويتلقون أكثر بكثير مما يلفظون».

ــ «فماذا تجعلونهم يفعلون بما يستوعبونه ويتلقونه؟»

أجابت مسز نارايان بابتسامة: «إننا لانفعل أكثر من أن نطلب منهم أن يحاولوا اتيان المستحيل. إننا نطلب من الأطفال أن يترجموا تجربتهم إلى كلمات. ما هي هذه الزهرة، هذه الضفدعة المشرحة أو هذا الكوكب الظاهر عند الطرف الآخر من التليسكوب، ما كنه هذا الشيء أو ذلك بوصفه نموذجاً للهبة أو المنحة الخالصة النقاء التي لايمكن إدراكها في صورة مجسدة؟ أو تصور عقلي؟ ما معناها؟ بأي شيء تجعلك تفكر وتشعر وتتخيل أو تتذكر؟ حاول أن تسجل ذلك على الورق. إنك لن تنجح في ذلك بـالطبع، ولكن فلتحاول على أي حال. فإن هذا سوف يساعدك على أن تفهم الفرق بـين الكلمات والاحداث، بين معرفة بعض المعلومات عن الأشياء وبين التعرف عليها. ثم نقول لهم: «وحينما تنتهون من الكتابة، انظروا إلى الزهرة ثانية، وبعد أن تنظروا اغمضوا عيونكم دقيقة أو دقيقتين. ثم ارسموا ما قد طرأ على أذهانكم حينما كانت عيونكم مغمضة. ارسموا أياً كان الشكل الذي رأيتموه ــ سواء كان شيئاً غامضاً أو حيوياً، شيئاً مثل الزهرة نفسها أو شيئاً مختلفاً كل الاختلاف. ارسموا ما رأيتموه أو حتى لم تروه على الاطلاق، ارسموه ولونوه بما معكم من ألوان أو أقلام. ثم خذوا فترة أخرى من الراحة، وبعد ذلك، قارنوا رسمكم الأول برسمكم الثاني، قارنوا الوصف العلمي للزهرة بما كتبتموه عنها حينما لم تكونوا تحللون ما رأيتموه، حينما تصرفتم كما لو لم تكونوا تعرفون شيئاً عن الزهرة ولم تسمحوا إلا لسر وجودها بأن يتسلل إلى داخلكم قادماً من السماء الزرقاء في مثل لمح البصر.. ثم قارنوا رسومكم وكتابتكم برسوم وكتابة الفتيات والفتيان الآخرين في

الصف. سوف تلاحظون أن الرسوم والأوصاف التحليلية متشابهة جداً، بينما الرسوم والكتابات من النوع الآخر مختلفة جداً أحدها عن الآخر. فكيف يرتبط هذا بما تعلمتموه في المدرسة وفي البيت وفي الأدغال وفي المعبد؟» سوف تكون هناك عشرات من الاسئلة، وكلها مترابطة متماسكة تهدف إلى شيء واحد. فلابد أن تشيد الجسور في كافة الاتجاهات. يبدأ المرء بعلم النبات ـ أو بأية مادة أخرى من المواد المقررة في منهج المدرسة ـ ثم يجدد المرء نفسه، في نهاية سلسلة الجسور المشيدة وهو يفكر في طبيعة اللغة، او في الاختلاف بين انواع التجارب، أو في الميتافيزيقا وطريقة جريان الحياة واحكامها، أو في المعرفة التحليلية وحكمة الشاطىء الآخر.»

سأل ويل: «وكيف بحق السماء استطعتم أن تعلموا المدرسين الذين يدرسون الآن للأطفال أن يشيدوا تلك الجسور؟»

قالت مسز نارايان: «لقد بدأنا ندرّس المدرسين منذ سَبْعٍ ومائة سنة. وقد بدأ ذلك في فصول من الشابات والشبان الذين كانوا قد تعلموا بالطريقة البالائية التقليدية القديمة. إنك تعرف ما تتضمنه هذه الطريقة ـ أسس السلوك الحميد، والزراعة الجيدة، والفنون والحرف الجيدة، يخلط هذا بالطب الشعبي، وما كانت تعرفه النسوة والزوجات العجائز من علوم عن الطبيعة والحياة واعتقاد في قدرة السحر وفي حقيقة حكايات الجان والعفاريت. لم يكن هناك علم، ولا تاريخ، ولا معرفة بأي شيء يدور في العالم الخارجي، خارج «بالا». ولكن هؤلاء الذين أصبحوا مدرسي المستقبل كانوا بوذيين اتقياء، كان أكثرهم قد مارس التأمل وكانوا جميعاً قد قرأوا أو استمعوا إلى قراءات كثيرة جداً من فلسفة الماهيانا. وكان معنى هذا أنهم في مجالات الميتافيزيقيا التطبيقية وعلم النفس، كانوا قد حصلوا على درجة من التعليم أعمق وأكثر واقعية بكثير من اية مجموعة ممن يهيأون في المستقبل لمهنة التدريس في عالمكم. كان الدكتور آندرو مدرباً تدريباً علمياً، وانسانياً لايتصف إيمانه بأي جمود، وكان قد اكتشف قيمة فلسفة الماهيانا البحتة والتطبيقية.. وكان صديقه، الراجا، بوذياً من مذهب تانترا، واكتشف قيمة العلم والبحث التطبيقي. وبالتالي فقد رأى كل منهما بوضوح كامل أن المدرس ينبغي أن يدرس أولاً ما يكفيه استخلاص أفضل مافي العالمين لكي يكون قادراً على تعليم الاطفال كيف يصبحون بشراً أسوياء مكتملين في مجتمع يصلح لأن يعيش فيه البشر الاسوياء المكتملون».

ـ «وكيف كان احساس هؤلاء المدرسين الأوائل بالتجْربة؟ ألم تكن هناك أية مقاومة ضدها؟»

هزت مسز نارايان رأسها وقالت: «إنهم لم يقاوموا لسبب وجيه جداً، وهو أنه لم يوجه أي هجوم ضد أي شيء ثمين. لقد احترمت بوذيتهم. وكان كل ما طلب إليهم أن يتخلوا عنه هو العلوم القديمة عند العجائز من نسائهم وحكايات الجان والعفاريت. وفي

مقابل هذه العلوم وتلك الحكايات حصلوا على ما هو أكثر منها جداً من كل أنواع الحقائق الهامة والأكثر جداً من النظريات المفيدة. وكان من الضروري أن يتم مزج تلك الاشياء المثيرة المجلوبة من عالمكم الغربي عن المعرفة والطاقة والتقدم، كان من الضروري أن تمزج وبمعنى من المعاني أن يتم اخضاعها لنظريـات البوذيـة وللحقائق السيكـولوجيـة للعلوم الميتافيزيقية التطبيقية. لم يكن ثمة حقاً أي شيء في برنامج «أفضل ما في العالمين» يمكن أن يثير احتمالات الشك عند أكثر الوطنيين إيماناً وتديناً وأشدهم حساسية.»

قال ويل بعد برهة صمت: «إنني في عجب من أمر من سيكونون مدرسين «عندنا» في المستقبل.. أمن الممكن ـ في هذه المرحلة المتأخرة ـ أن يكونوا قابلين للتعليم؟ أمن الممكن أن يتعلموا أن يستخلصوا ما في العالمين؟».

ـ «لم لا، إنهم لن يطلب منهم أن يتخلوا عن أي من الاشياء ذات الأهمية الحقيقية بالنسبة لهم. سوف يكون بوسع غير المسيحيين أن يستمـروا في التفكير في الانسـان، وسيكون في وسع المسيحيين أن يستمروا في عبادة الرب. لن يكون هناك أي تغيير، باستثناء أنهم سوف يفكرون في الله على أنه حالّ في كل وجود، وسوف يفكرون في الانسان على أنه قد تطور ذاتياً بقدرته وحدها».

ضحك ويل وقال: «وهل تظنين أنهم سوف يسلمون بتلك التغييرات دون صخب أو ضجيج. إنك متفائلة».

قالت مسز نارايان: «إنني متفائلة لسبب بسيط، هو أن المرء إذا عالج أو أثار مشكلة بشكل ذكي وواقعي، فإن النتائج جديرة بأن تكون جيدة إلى درجة معقولة جداً وهذه الجزيرة تقدم مبرراً مؤكداً للتفاؤ ل إلى درجة ما. والآن، فلنذهب لكي نلقي نظرة على فصل الرقص».

عبرا فناء تظلله الاشجار، ثم دخلا من باب متأرجح على لوالب متحركة، فعبرا منطقة الصمت لكي يلجا المنطقة التي يسودها صوت الضرب المنتظم الايقاع على الطبول، وراء صرخات المجموعات الحماسية التي كانت تردد وتردد نغمة قصيرة خفيضة حماسية بدت لأذن ويل بصورة غامضة كما لو كانت نغمة اسكتلندية.

سأل: «أهو عزف مباشر حي، أم هي موسيقى مسجلة؟»

أجابت مسز نارايان باقتضاب: «إنه شريط تسجيل ياباني». فتحت باباً ثانياً أوصلهما إلى صالة واسعة مغطاة، حيث كان شابان ملتحيان وسيدة عجوز ضئيلة الحجم رقيقة المنظر ترتدي جوربين طويلين من الساتان الاسود يقومون ثلاثتهم بتدريب مجموعة من عشرين أو ثلاثين فتى وفتاة على خطوات رقصة سريعة جميلة.

سأل ويل: «ما هذا؟ لهو أم تعليم؟»

قالت المديرة: «كلاهما. وهو أيضاً درس في الأخلاق التطبيقية. إنه يشبه تلك التمارين على التنفس التي كنا نتحدث عنها منذ قليل ـ ولكنه أكثر فعالية من تلك التمارين لأنه كما يبدو لك أكثر عنفاً بكثير.»

كان الأطفال يصدحون في نفس واحد: «إذن اطفىء تلك الشعلة.»

قال ويل موافقاً: «حسن جداً!»

ثم يضربون أقدامهم الصغيرة بصنادلها الانيقة بكل قوتهم على الأرض. «إذن اطفىء تلك الشعلة.» ثم خبطة نهائية قاسية تليها دورة خلفية ويدورون وينحنون، لكي يصلوا إلى حركة أخرى من حركات الرقصة»

قالت مسز نارايان: «هذه الرقصة تدعى: «مدخنة راكشازي».

سأل ويل: «راكشازي، ما هذا ؟»

ـ «إن راكشازي واحد من فصيلة الشياطين. ضخم جداً، ومخيف إلى أقصى حد. إنه تجسيد لكل المشاعر القبيحة. أما مدخنة راكشازي فهي حيلة تسمح لتلك الأبخرة الخطرة التي يولدها الغضب والاحباط بالخروج إلى السماء.»

ـ «إذن اطفىء تلك الشعلة!» كانت الموسيقى قد اكملت دورة كاملة وعادت ثانية إلى «اللازمة» التي تطلقها المجموعة: «إذن، اطفىء تلك الشعلة».

ـ «اخبطوا ثانية» هكذا صاحت السيدة العجوز الضئيلة الحجم وهي تضرب لهم مثلاً غاضباً، ثم صاحت.. «أقوى من ذلك! أقوى!».

قال ويل متأملاً: «أيهما يفيد الاخلاق والسلوك العقلي أكثر احتفالات الباخيات، كاهنات إله الخمر واللذة المعربدة أم كتاب «الجمهورية» لافلاطون؟ اخلاقيات النيكوميديين الحسية الصارمة أم رقصات تقديم القرابين للربة الفاضلة سيبيل أم الالهة؟»

قالت مسز نارايان: «لقد كان اليونانيون القدماء أكثر حكمة من أن يفكروا بطريقة إما ـ أو. كانت الامور بالنسبة لهم على الدوام تبدو في صيغة: ليس هذا فقط، وإنما أيضاً.. «ليس أفلاطون وأرسطو وحدهما فقط، وإنما عرائس الميانيدات الراقصات أيضاً. فإنه دون تلك المداخن المخففة للتوتر، لكانت الفلسفة الاخلاقية قد أصبحت فلسفة عقيمة لا تأثير لها، كما أنه دون الفلسفة الاخلاقية لأصبحت المداخن عاجزة عن معرفة أيان تتجه. كان كل ما فعلناه هو أننا أخذنا ورقة واحدة من كتاب الاغريق القديم.»

.. ولكنه عاد فتذكر أنه ليس بالرجل الذي يكتفي بكلمة «نعم» جواباً لأي

سؤال، والذي لايوافق على أي شيء دون تحفظ، والذي لايسلم بأي شيء دون أن يثبت وجوده الخاص «ذلك أنه آجلاً أم عاجلاً، ومهما كانت روعة متعته أو أصالة حماسه فإنه كان يتذكر ذلك دائماً.» وحينما تذكر ذلك انفجر ضاحكاً وقال: «ولكن هذا لا يـؤدي أي اختلاف في المدى الطويل. إن نزعة القربانيين من عباد سيبيل الفاضلة لم تمنع الاغريق من أن يتبادلوا قطع رقاب بعضهم البعض، وحينما يقرر الكولونيل ديبا أن يتحرك فماذا ستفعل لكم «مداخن راكشازي»؟ ربما ساعدتكم على أن تكيفوا أنفسكم مع مصيركم وتستسلموا له. وهذا كل ما ستقدمه لكم.» بهدوء ـ وهذا كل شيء.»

قالت مسز نارايان: «أجل» هذا كل شيء. ولكن مجرد الاستسلام للمصير بهدوء عمل كبير.»

ـ «إنكم تبدون كما لو كنتم قادرين على ابتلاع كل شيء بهدوء كامل.»

ـ «ماذا سيكون الهدف من ابتلاع كل شيء بطريقة هستيرية؟ إن هذا ما كان ليحسن موقفنا السياسي بأي شكل، وهو لن يؤدي إلا إلى أن يكون موقفنا الشخصي أسوأ بكثير».

ـ «إذن، اطفىء هذه الشعلة.» هكذا صاح الاطفال ثانية في صوت واحد واهتزت ألواح الخشب تحت أقدامهم القوية. «إذن ، اطفىء تلك الشعلة».

واستأنفت مسز نارايان قائلة: «إياك أن تتخيل أن هذا هو النوع الوحيد من الرقص الذي نعلمه. إن إعادة توجيه الطاقة التي تولدها الأحاسيس السيئة شيء هام. ولكن مساوية في الاهمية أن نوجه الاحاسيس الجيدة والمعروفة الصحيحة إلى أن تعبر عن نفسها. في هذه الحالة تكون هناك حركات معبرة وإشارات معبرة. لو أنك جئتنا بالأمس، حينما كان الاستاذ الزائر هنا، لكان في وسعي أن أطلعك على كيفية تدريسنا لهذا النوع من الرقص. ولكن هذا غير ممكن اليوم لسوء الحظ. فإنه لن يعود إلى هنا قبل يوم الثلاثاء.»

ـ «وأي نوع من الرقص يدرسه؟»

حاولت مسز نارايان أن تصفه له.. ليست هناك قفزات، ولا حركات مرتفعة بالسيقان، ولا إسراع في الجري. الاقدام ثابتة دائماً بقوة على الأرض. ليس هناك سوى انحناءات والتواءات حركية تقوم بها الركبتان والأرداف. والتعبيرات كلها من وظيفة الذراعين والساعدين واليدين، ومن وظائف الرقبة والرأس، والوجه، وقبلها جميعاً، العينان. تبدأ الحركة من الكتفين ثم تصعد متجهة إلى الخارج. إنها حركة جميلة بشكل بارز لايضاهى وهي في نفس الوقت مشحونة بالمعنى الرمزي. إنها الفكر متخذاً شكلاً خاصاً في الإشارة الشعائرية ذات الاسلوب الخاص المتزن الايقاع. إنها الجسد كله متحولاً إلى صورة رمزية مثل صور اللغة الهيروغليفية، أو سلسلة من الصور الرمزية، ومن المواقف

المتنقلة من مغزى إلى مغزى مثل القصيدة أو المقطوعة الموسيقية.. حركات العضلات تمثل حركات الوعي، فقرة الجوهر والواحد تتحول إلى الكثرة المتعددة، والفقرة المكونة من الكثرة المتعددة تتحول إلى الواحد الأبدي الحضور، الذي يحل في كل شيء.

اختتمت كلامها تقول: «إنه رقص هو التأمل في حالة فعل. إنه ميتافيزيقيا الماهيانا وقد تم التعبير عنها، لا في شكل كلمات، وإنما في شكل حركات واشارت رمزية.»

غادرا الصالة من باب غير الباب الذي دخلا منه واستدارا إلى اليسار عبر ممر قصير.

سأل ويل: «ما الفقرة التالية؟»

أجابته مسز نارايان بقولها: «السنة الرابعة من المستوى الادنى، وهم يعملون الآن في مادة علم النفس العملي الأولي.»

فتحت باباً أخضر اللون.

سمع ويل صوتاً مألوفاً يقول: «حسناً، إنكم تعرفون الآن أنه لا «ينبغي» لأحد أن يشعر بالألم.. إنكم تقولون لأنفسكم إن الدبوس إذ يخز لايؤلم ــ فلاتؤلم وخزة الدبوس.»

دخلا الحجرة، وهناك وقفت سوسيلا ماك فيل، وقد بدت طويلة جداً وسط اثني عشر جسداً صغيراً بني اللون، ابتسمت لهما، وأشارت إلى مقعدين في أحد أركان الحجرة، ثم عادت تلتفت إلى الاطفال وعادت تردد: «لاينبغي» لأحد أن يشعر بالألم ولكن إياكم أن تنسوا: الألم معناه دائمًا أن هناك خطأ ما. لقد تعلمتم أن تكبتوا الألم، ولكن إياكم أن تفعلوا ذلك دون تفكير، إياكم أن تفعلوا ذلك دون أن تسألوا أنفسكم هذا السؤال: ما هو سبب هذا الألم؟ فإذا كان الألم سيئاً شديداً، أو إذا لم يكن هناك سبب واضح له، اخبروا امكم بأمره، أو مدرّسكم، أو أي شخص كبير في نادي تبادل التبني الذي تتبعونه. «ثم» اكبتوا الألم.. اكبتوه وانتم تعرفون أنه إذا كانت هناك حاجة لفعل أي شيء، فسوف يتحقق هذا المطلوب فعله. هل تفهمون؟» وبعد أن طرحت كل الاسئلة وتمت الاجابة عليها استمرت تقول: «والآن، فلنلعب بعض العاب التمثيل والتظاهر. اغمضوا عيونكم وتظاهروا بأنكم تنظرون إلى طائر المايناه العجوز المسكين ذي الساق الواحدة والذي يأتي إلى المدرسة كل يوم لكي يأخذ طعامه. هل تستطيعون رؤيته؟»

كان بوسعهم أن يروه بالطبع. كان من الواضح أن طائر المايناه العجوز صديق قديم للجميع.

ــ «إنكم ترونه بنفس الوضوح الذي رأيتموه به اليوم ساعة الغداء. لاتحدقوا فيه، لاتبذلوا أي مجهود. فلتروا فقط ما يتبدى لكم، ولتنتقل عيونكم من منقاره إلى ذيله من عينه الصغيرة المستديرة اللامعة، حتى ساقه البرتقالية اللون.»

قالت فتاة صغيرة فجأة: «أستطيع أيضاً أن اسمعه. إنه يقول: كارونا، كارونا».

قال طفل آخر في غضب: «ليس هذا صحيحاً. إنه يقول: انتباه!».

قالت لهم سوسيلا مؤكدة: «إنه يقول الكلمتين معاً. وربما كان يقول أيضاً عدداً كبيراً آخر من الكلمات ولكننا سنقوم الآن ببعض التظاهر الحقيقي. تظاهروا بأن هناك طائرين من طيور المايناه لكل منهما ساق واحدة. ثلاثة من طيور المايناه لكل منها ساق واحدة. أربعة من طيور المايناه لكل منها ساق واحدة.
هل تستطيعون أن تروا الطيور الأربعة؟»

«وهناك أربعة من طيور المايناه لكل منها ساق واحدة وكل منها يقف في ركن من أركان ميدان واسع، وطائر خامس يشبهها في وسط الميدان والآن فلنجعلها تغير الوانها. إنها الآن بيضاء اللون. هناك خمسة طيور من طيور المايناه بيضاء اللون لكل منها رأس أصفر وساق واحدة برتقالية. أما الآن فقد أصبحت رؤ وسها زرقاء لامعة ـ وباقي جسم كل طائر قرمزي اللون. هناك خمسة طيور قرمزية ذات رؤ وس زرقاء. وهي ما زالت تتغير. إنها الآن وردية اللون. خمسة طيور وردية برؤ وس بيضاء ولكل منها ساق خضراء شاحبة. يا للرحمة! ماذا يحدث! ليس هناك خمسة طيور، وإنما هناك عشرة. كلا. هناك عشرون، خمسون، مائة. مئات ومئات. هل تستطيعون رؤ يتها جميعاً. . ؟».

كان بوسع البعض أن يروها كلها، دون أية صعوبة، أما بالنسبة لأولئك الذين لم يستطيعوا مواصلة المسيرة كلها، فقد اقترحت لهم سوسيلا أهدافاً أكثر قرباً وتواضعاً.

قالت: «تظاهروا برؤ ية اثنتي عشرة منها فقط، فإذا كانت الاثنتا عشرة كثيرة جداً، فاجعلوها عشرة، أعملوها ثمانية. فهذا العدد ما يزال عدداً كبيراً جداً من طيور المايناه». وبعد أن كان كل الاطفال قد استحضر كل الطيور الوردية التي يستطيع كل منهم أن يخلقها راحت تقول: «أما الآن فقد ذهبت جميعها.» وصفقت بيديها ثم قالت: «ذهبت! كلها جميعاً واحدة فواحدة. لم يعد هناك شيء. ولن تروا الآن شيئاً من طيور المايناه، إنكم سوف ترونني «أنا» واحدة «مني» ترتدي ثياباً صفراء. اثنين مني في ثياب خضراء. ثلاثة مني في ثياب زرقاء ذات نقاط ارجوانية. اربعة مني في ثياب لونها هو أكثر ما رأيتموه من الألوان الحمراء بريقاً في حياتكم. وصفقت بيديها ثانية ثم قالت: «كلهن ذهبن. وفي هذه المرة سوف نرى مسز نارايان وذلك الرجل المضحك الشكل ذا الساق المتخشبة الذي دخل معها. سوف نرى أربعة من كل منهما. يقفون وسط دائرة كبيرة في الصالة. وهم الآن يرقصون رقصة مدخنة راكشازي. «إذن، اطفىء تلك الشعلة. إذن، اطفىء هذه الشعلة.»

تصاعدت قهقهة عامة. فلابد أن أشباه ويل وشبيهات المديرة الراقصين والراقصات كان منظرهم مضحكاً إلى حد كبير.

فرقعت سوسيلا بأصابعها.

«ليذهبوا جميعاً! اختفوا! والآن يرى كل منكم ثلاثة من والده وثلاثاً من والدته يجرون حول أرض الملعب. أسرع، أسرع، أسرع! وفجأة يختفون جميعاً فلا يبقى منهم أحد. وفجأة يظهرون ثانية. ولكنهم لايظهرون في اللحظة التالية.»

تحولت القهقهات إلى انفجارات ممتدة من الضحك، وفي ذروة الضحك دق الجرس. كان درس علم النفس العملي الأولي قد انتهى.

حينما انصرف الاطفال مهرعين إلى اللعب وعادت مسز نارايان إلى مكتبها، سأل ويل: «ما الهدف من كل هذا؟».

أجابت سوسيلا: «الهدف هو أن يدرك الناس أننا لسنا بصورة «كاملة» تحت رحمة ذاكرتنا وخيالاتنا. فلو أننا أصابنا القلق والانزعاج بسبب ما يدور داخل رؤوسنا، أصبح بوسعنا أن نفعل شيئاً ازاء هذا الذي يدور داخلنا. الأمر كله هو مسألة اطلاع التلاميذ على ماينبغي أن يفعلوه ثم تمرينهم على فعله ـ إنها الطريقة التي يتعلم بها المرء كيفية الكتابة أو العزف على الفلوت. إن ما كان هؤلاء الاطفال الذين رأيتهم يلقنونه هو أسلوب فني بالغ البساطة ـ أسلوب فني سوف نطوره فيما بعد لكي يكون وسيلة للتحرر. لا التحرر الكامل، بالطبع ولكن تعرف أن نصف رغيف هو شيء أفضل بكثير من ألا يكون هناك خبز على الاطلاق. إن هذا التكنيك لن يقودك إلى اكتشاف طبيعة البوذا الكامنة فيك: ولكنه قد يعاونك على التهيؤ لذلك الاكتشاف ـ يساعدك على التحرر من مطاردات ذكرياتك المؤلمة، ولحظات ندمك، ومن اضطراباتك وأحزانك التي لاسبب لها حول المستقبل.»

قال ويل موافقاً: المطاردات.. هذه هي الكلمة.»

ـ «ولكن لا «ينبغي» للمرء أن يكون مطارداً. بعض الاشباح يمكن أن تطرد بسهولة بالغة. فحينما يظهر أي واحد منها فاعطه علاج الخيال فحسب. تعامل معه مثلما تعاملنا نحن مع طيور المايناه تلك، ومثلما تعاملنا معك ومع مسز نارايان. غير ملابسه أعطه أنفاً آخر، ضاعفه، قل له أن ينصرف، استدعه مرة أخرى وأمره أن يفعل شيئاً يبعث على السخرية. وحينئذ ازله من الوجود. فكر فقط فيما كان يمكن أن تفعله في مسألة والدك، إذا كان شخص ما قد علمك شيئاً قليلاً من هذه الحيل الصغيرة البسيطة حينما كنت طفلاً! إنك تفكر فيه كما لو كان غولاً مفزعاً. ولكن هذا لم يكن ضرورياً. كان في وسعك أن تحول الغول في خيالك إلى شيء هزلي ومضحك. بل إلى جماعة كاملة من المهرجين

المضحكين. تخيل عشرين منهم وهم يرقصون تلك الرقصة المسجلة على الشريط وهم يغنون اغنية: «حلمت أني سكنت في ثقوب المرمر». لو أنك حصلت على دراسة قصيرة في علم النفس العملي الأولي فربما تغيرت حياتك كلها».

كيف كان يمكنه أن يتعامل مع موت مولي؟ كذلك فكر ويل متسائلاً بينما كانا يسيران خارجين نحو سيارة الجيب الواقفة، أي دعوات ورقى من تعاويذ الخيال كان بوسعه أن يتلوها لكي يصرف تلك الجنية المجللة بالبياض، التي تضاجع الرجال في سباتهم، والتي كانت هي صورة تجسيد رغباته البغيضة المحمومة؟

ولكن كانت هذه هي سيارة الجيب. ناول ويل المفاتيح لسوسيلا ورفع نفسه بمشقة حتى جلس في مقعده. وفي ضجة صاخبة، جاءت سيارة صغيرة قديمة. فاقتربت من اتجاه القرية وهي تصخب ويعلو صوتها كما لو كانت تعاني من تقلصات عصبية بسبب الاسراف في الشعور بحجمها الضئيل، ثم تحولت الى الطريق الجانبي، ثم توقفت إلى جوار السيارة الجيب وهي ما تزال تصطخب وترتجف.

التفتا. وهناك، كان موروجان يطل من نافذة سيارة «البيبي أوستين» الملكية، ومن ورائه غارقة فـي حرير الموسلين الابيض، منتفخة مثل سحابة عملاقة، جلست الراني. انحنى ويل في اتجاهها فاستثار بذلك أكثر الابتسامات رقة، وهي الابتسامة التي انطفأت حالما حولت الراني وجهها نحو سوسيلا، التي اجيبت تحياتها بـأكثر الايمـاءات تباعـداً فحسب.

سأل ويل بأدب: «هل تذهبان برحلة في السيارة؟»

قالت الراني: «حتى نبلغ شيفا بورام فقط.»

أضاف موروجان بمرارة: «إذا تماسكت هذه المركبة اللعينة وحافظت على أعضائها تلك المسافة.» ثم أدار مفتاح المحرك. وصدرت عن المحرك آخر صرخاته القبيحة ثم توقف كالموتى.

استمرت الراني تقول: «هناك بعض الناس يجب أن نقابلهم» ثم أضافت بلهجة محملة بشحنة تآمرية: «او بالأحرى شخص واحد. ثم ابتسمت لويل وكادت تغمز له بعينيها».

وتظاهر ويل بأنه لايفهم أنها كانت تتحدث عن السفير باهي فنطق كلمة «حسناً» دون أن يوحي بالاهتمام ثم انشغل معها حول كل ما تستلزمه استعدادات حفلة بلوغ موروجان سنه القانونية في الاسبوع التالي من عمل وتعب.»

قاطعه موروجان فسأله: «ماذا تفعل هنا؟»

ـ «لقد أمضيت فترة بعد الظهر في بعض الاهتمامات الثقافية بالتعليم البالاني».

رددت الراني وراءه: «التعليم البالاني» ثم عادت تردد بحزن وأسى: «التعليم» ثم وقفة قصيرة: «البالاني» وأخذت تهز رأسها.

قال ويل: «بشكل شخصي، أستطيع القول بانني أعجبت بكل ما رأيته وسمعته عنه ـ من مستر مينون، ومن المديرة، ومن مادة علم النفس العملي الأولي بالصورة التي تدرسه بها مسز ماك فيل» وقال عبارته الأخيرة لكي يجر سوسيلا إلى الحديث الدائر.

واستمرت الراني على تجاهلها لسوسيلا، فأشارت باصبع سمين إشارة اتهام نحو «خيالات المآتة» القائمة في الحقل أسفل الطريق وقالت:

«هل رأيت «هؤلاء» يا مستر فارنابي؟»

كان قد رآهم بالفعل و. . «في أي مكان غير «بالا» يستطيع أن يجد فزاعات للطير، هي في نفس الوقت، بهذا الجمال والكفاءة وذات مغزى ميتافيزيقي؟»

قالت الراني بصوت ترتعش فيه نغمة احتقار كئيب: «وهي أيضاً لاتخيف الطيور فقط وتبعدها عن الارز، وإنما هي أيضاً تخيف الاطفال الصغار وتبعدهم عن نفس فكرة الإله وعن ملائكته» ثم رفعت يدها وقالت: «اسمع!»

كان قد انضم إلى ماري ساروجيني وتوم كريشنا خمسة أو ستة زملاء صغار واشتركوا جميعاً في لعبة شد الحبال التي تحرك العرائس غير الطبيعية. وجاء من جماعة الاطفال صوت رفيع يصرخ في وحدة واحدة. وعندما رددوا كلامهم للمرة الثانية، استطاع ويل ان يستخلص كلمات الأغنية:

«شدوا، يا الله، شدوا بعزم
الآلهة ، تحجل، تحجل،
والسماء تبقى كما هي»

قال ويل وهو يضحك: «برافو!»

قالت الراني: «أخشى أنني لا أستطيع أن استمتع بهذا. إنه ليس شيئاً مضحكاً إنه شيء محزن. محزن!».

قرر ويل أن يتمسك باسلحته، فقال: «لقد فهمت أن فزاعات الطير الساحرة هذه كانت من ابتكار الجد الأكبر لموروجان. .»

قالت الراني: «لقد كان الجد الاكبر لموروجان رجلاً ممتازاً جداً. كان ذكياً ذكاء ملحوظاً. ولكنه كان منحرفاً انحرافاً ملحوظاً أيضاً. مواهب عظيمة ولكن، يا للخسارة

كم كانت تستخدم في العبث وكم كانت تهدر دون فائدة! أما السبب الذي أنزل بمواهبه كل هذا الشر فهو أنه كان مليئاً بالروحانية الزائفة!»

ـ «الروحانية الزائفة؟» كذلك ردد ويل مدهوشاً وهو يحملق في التجسيد الهائل الحجم للروحانية الحقيقية، وعبر بخار المنتجات البترولية الساخنة، تنفس تلك الرائحة الشبيهة برائحة البخور، رائحة خشب الصندل العطري الدنيوية قليلاً. وعاد يردد: «روحانية زائفة؟» وفجأة وجد نفسه يتعجب متسائلاً ـ يتعجب متسائلاً ثم يتخيل مرتجفاً ـ ما يمكن أن تكون صورة الراني لو أنها حرمت فجأة من زيها الرسمي التصوفي وكشفت، كاملة ودون شيء يغطي عجيزتها الدهنية المثقلة بالشحم لتتعرى تحت الضوء. ثم راح الآن يضاعفها إلى ثالوث من الكائنات السمينة العارية، ثالوثين من العراة الغلاظ، عشرة في ثلاثة ـ هذه هي السيكولوجيا العملية التطبيقية ـ تخالطها مشاعر الانتقام!

كانت الراني ما تزال تقول: «أجل، روحانية زائفة. كان يتحدث عن التحرر، ولكنه دائماً، بسبب رفضه العنيد للسير في الطريق الحق، دائماً كان يعمل من أجل المزيد من القيود والاثقال. كان يتظاهر بالتواضع، يمثل دور الرجل المتواضع. ولكنه في قرارة نفسه، كان مليئاً بالزهو والكبرياء يا مستر فارنابي، حتى أنه رفض أن يعترف بوجود أية سلطة روحية أعلى وأسمى من سلطته هو. إن «الاسياد» و«الملائكة والجان» لم تكن تعني شيئاً بالنسبة له. و«الطريق التقليدي العظيم» لاشيء على الاطلاق. ومن هنا جاءت فزاعات الطير المرعبة هذه ومن هناك جاءت هذه الترنيمة الكافرة المجدفة التي لقن الاطفال كلماتها لكي يغنوها. إنني حينما أفكر في هؤلاء الصغار الابرياء المساكين وفي أنهم قد دفعوا عمداً إلى الكفر، فإنني أجد أن من الصعب أن أسيطر على نفسي، يا مستر فارنابي، أجد أنه..»

فجأة قال موروجان الذي كان ينظر إلى ساعته نافد الصبر من حين إلى حين وبطريقة متزايدة الوضوح: «اسمعي يا أمي، إذا كنا نريد أن نعود في وقت الغداء فمن الافضل أن نبدأ السير الآن..» وكانت في صوته رنة تسلطية وقحة.. إن جلوسه أمام عجلة القيادة في سيارة ما ـ حتى ولو كانت سيارة حقيرة مثل هذه البيبي اوستين ـ كان يجعله يشعر بوضوح بأنه أضخم من الحياة ذاتها. ودون أن ينتظر اجابة الراني، أدار المحرك، ونقل البدالة إلى المرحلة الثانية ولوح بيده للآخرين، وتحرك إلى الأمام.

قالت سوسيلا: «هذا خلاص جميل!»

ـ «الا تحبين ملكتك العزيزة؟»

ـ «إنها تجعل دمي يغلي ويفور»

أجابها ويل مغنياً لكي يغيظها:

ـ «إذن، اطفىء تلك الشعلة، دوسي عليها بقدمك..»

اجابته موافقة وهي تضحك: «إنك محق تماماً. لكن لسوء الحظ، كانت هذه فرصة مناسبة لم يكن من السهل فيها أن يرقص المرء رقصة مدخنة راكشازي».فجأة سطع على وجهها وميض احساس بالغضب، ودون تحذير قرصته بقوة مدهشة في ضلوعه ووكزته فيها وقالت: «خذ! اشعر الآن بأنني أحسن حالاً، بكثير».

الفصل الرابع عشر

أدارت سوسيلا المحرك فتحركت السيارة ــ هبطت إلى الطريق الفرعي ثم صعدت ثانية إلى الشارع الرئيسي وراء الطرف الآخر للقرية، ومضت إلى ساحة المحطة التجريبية.

توقفت سوسيلا أمام كوخ صغير مسقوف بالقش مثل بقية الأكواخ. . وصعد الاثنان الدرجات الست التي تؤدي إلى الشرفة ثم دخلا إلى حجرة بيضاء اللون للجلوس والاستقبال.

إلى اليسار كانت هناك نافذة عريضة علقت عليها أرجوحة شبكية على هيئة فراش معلق وقد رُبط كل من طرفي الشبكة في إحدى العارضتين الخشبيتين على جانبي النافذة. . قالت سوسيلا وهي تشير إلى الفراش المعلق: «هذه لك. يمكن أن ترفع ساقك.» وبعد أن استلقى ويل في الشبكة قالت: «ما الموضوع الذي ستتحدث عنه؟» كذلك سألته وهي تجذب كرسياً مصنوعاً من الأغصان الرفيعة ثم تجلس إلى جواره وتحته بقليل.

قال مبتسمًا: «ماذا لو تكلمنا عن الخير والحق والجميل، أو ربما عن القبيح والشرير والأقل حقيقة وأكثر افتقاراً إلى الحق من افتقاره للجمال والخير؟».

قالت متجاهلة محاولته للعثور على مدخل ذكي للكلام: «ظننت أننا قد ينبغي أن نبدأ من حيث توقفنا في المرة الأخيرة ــ أي أن نبدأ بالكلام عنك.»

ــ «هذا هو بالتحديد الموضوع الذي كنت أقترحه ــ القبيح والشرير والحقيقي رغم كل هذا.»

سألته : «أهذا مجرد استعراض لاسلوبك في الحديث، أم أنك تريد حقاً أن تتحدث عن نفسك؟»

قال مؤكداً: «أريد حقاً. أريد باستماتة.. إنني مستميت في سبيل هذا الحديث بقدر لايقل عن استماتتي في سبيل «عدم» الحديث عن نفسي. ومن هنا، وكما قد تكونين لاحظت، ينشأ اهتمامي الثابت بالفن والعلم والفلسفة والسياسة والأدب ــ بأي شيء لعين باستثناء الشيء الوحيد الذي يتمتع بالأهمية المطلقة.»

ساد صمت طويل. ثم بدأت سوسيلا بلهجة من تسرد بعض الذكريات بصورة عرضية، بدأت تتحدث عن كاتدرائية ويلز، وعن صيحات غربان الماء ، وعن البجعات البيضاء الطافية وسط انعكاسات السحابات على سطح المياه. وفي بضع دقائق، كان هو الآخر يطفو.

قالت: «لقد كنت سعيدة جداً طوال الوقت الذي عشته في ويلز ــ سعيدة سعادة رائعة. وكذلك أنت. . أليس هذا صحيحاً؟»

لم يجب ويل على سؤالها. كان يتذكر الأيام التي قضاها في الوادي الأخضر، منذ سنوات عديدة، قبل أن يتزوج موللي، وقبل أن يكونا عاشقين. يا له من هدوء وسلام! يا له من عالم ثابت حي خال من الديدان، عالم من الزهور والحشائش النامية! وفيما بينها كان قد طفا ذلك الاحساس الطبيعي غير المشوه الذي لم يحس به منذ تلك الأيام النائية البعيدة حينما كانت العمة ماري ما تزال حية. إنها الشخص الوحيد الذي كان قد أحبه حقاً ــ ثم حدث أن وجد هنا، في موللي خليفتها الحقيقية. يا للسعادة المقدسة! إنه الحب متحولاً إلى مقام موسيقي آخر، ولكن اللحن، الهارموني الثري الثابت كان هو هو. . وحينئذ، في الليلة الرابعة من إقامتها هناك، طرقت موللي على الجدار الذي يفصل بين حجرتيهما، ووجد هو بابها موارباً، وتحسس طريقه في الظلام، إلى الفراش، حيث كانت «راهبة الرحمة» عارية كما ولدتها امها، تبذل ما في وسعها لكي تلعب دور «الزوجة العاشقة». . كانت تبذل أقصى ما في وسعها وتفشل (وياله من فشل مدمر؟)».

فجأة، وكما يحدث تقريباً في عصر كل يوم، هبت الريح هبة عاصفة مزمجرة، تبعها زئير المطر الساقط على السطوح العارية الذي احتوته وبعثرته عليها ــ زئير كان يتزايد ارتفاعاً كلما اقتربت السحابات الممطرة. مرت عدة ثوان، ثم بدأت قطرات المطر تطرق باصرار مستمر على ضلف النافذة وزجاجها. كانت تطرق مثلما طرقت على النوافذ في حجرة مكتبه في ذلك اليوم الذي التقيا فيه لآخر مرة «أتقصد هذا حقاً، يا ويل؟»

جعله ألم هذه الذكرى وعارها يرغب في البكاء بصوت مرتفع. عض على شفته.

سألته سوسيلا: «فيم تفكر؟»

لم تكن المسألة مسألة تفكير. كان بالفعل يراها، وكان بالفعل يسمع صوتها: «اتقصد هذا حقاً يا ويل؟» ومن خلال صوت المطر سمع نفسه يجيبها: «أجل، إنني أقصده حقاً.»

على ضلفة النافذة. هل كانت هناك حقاً؟ أم أنها كانت هناك، وكانت حينئذ؟ ـ تلاشى الزئير بينما كان الفحيح يتخافت متحولاً إلى همس ناعم.

سألت سوسيلا باصرار: «فيم تفكر؟»

ـ «إنني أفكر بما فعلت بموللي».

ـ «ما ذاك الذي فعلته بمولي؟»

لم يكن يريد أن يجيب. ولكن سوسيلا كانت مصممة ولا يمكن زحزحتها.

ـ «خبرني بما كان منك مع مولي.»

هبت هبة عاصفة أخرى فجعلت النوافذ تصطك. كان المطر الآن أكثر غزارة. بدا لويل فارنابي أن المطر كان يهطل لهدف محدد. كانت تمطر بتلك الطريقة التي لابد له معها أن يستمر في تذكر ما لم يكن يود أن يتذكره، ولابد له معها من أن يضطر إلى أن يبوح صائحاً بالأشياء المخجلة التي يجب عليه أن يحتفظ بها لنفسه بأي ثمن.

ـ «اخبرني».

في تردد على الرغم منه، حكى لها الحكاية.

ـ «هل تقصد هذا حقاً يا ويل» ولأن بابز كانت موجودة ـ بابز، ليكن الله في عونه! بسبب بابز، صدقي أو لا تصدقي! ـ فإنه حقاً كان يقصد ذلك، وقد خرجت مولي بعد ذلك تحت المطر.»

ـ «وفي المرة التالية، رأيتها في المستشفى.»

سألت سوسيلا: «أكان المطر ما يزال يهطل؟»

ـ «كان ما يزال».

ـ «بنفس شدة هطوله الآن؟»

ـ «إلى درجة قريبة جداً» ولم يكن ما يسمعه ويل هو صوت امطار عصر ذلك اليوم عند خط الاستواء، وإنما كان يسمع الضربات المنتظمة على نافذة الحجرة الصغيرة، حيث كانت مولي راقدة، تحتضر.

«هذا أنا» كذلك كان يقول من خلال صوت المطر. «أنا ويل.» ولم يحدث شيء. وفجأة شعر بأدنى حركة يمكن الشعور بها من يد موللي الساكنة داخل يده. الضغطة التلقائية، التي تلاها بعد ثوان قليلة، الارتخاء الاضطراري، الموات الكلي.

ــ «اخبرني ثانية، يا ويل.»

هز رأسه رافضاً. كان هذا مؤلماً شديد الايلام، مهيناً ممعناً في الاهانة.

أصرت تقول: «احكِ لي ثانية. هذه هي الطريقة الوحيدة.»

شرع يحكي القصة المخجلة مرة أخرى، باذلاً مجهوداً هائلاً. هل قصد ذلك حقاً، أجل، لقد قصده حقاً ــ كان قصده أن يجرح وأن يؤذي. كان قصده، ربما أن يقتل (وهل يعرف المرء أبداً ما هي نيته الحقيقية؟») كل شيء من أجل بابز، وإلا ضاع العالم مني. ليس عالمه هو بالطبع ــ عالم موللي، وفي مركز ذلك العالم.. كانت الحياة التي خلقتها. لقد تشمم بقوة الرائحة اللذيذة التي كانت تشيع في الظلمة، وبسبب تلك الانعكاسات العضلية، وتلك الكتلة من المتعة، وتلك المهارات غير المخجلة والسامة والمهلكة.

«إلى اللقاء يا ويل.» كذلك قالت، ثم أغلق الباب وراءها بصفقة واهنة جافة.

لقد أراد أن يناديها لكي تعود.. ولكن عاشق بابز تذكر المهارات والانعكاسات، وتذكر جسداً سابحاً في سحابة من عبق المسك المعطر، يتألم في أقصى قمم اللذة. تذكر تلك الأشياء، وإذ وقف عند النافذة، ظل ينظر إلى السيارة وهي تتحرك خلال المطر. ظل ينظر إليها وكان ممتلئاً ــ وهي تدور حول المنعطف ــ ببهجة مخجلة. حراً أخيراً! بل أكثر حرية، كما اكتشف ذلك بعد ثلاث ساعات في المستشفى مما كان يتوقع. ذلك انه كان يشعر بآخر وأضعف ضغط من أصابعها.. كان يشعر بآخر رسالة من رسائل حبها حينئذ قاطع الرسالة شيء ما. لقد ضعفت اليد وترنحت، ثم فجأة وبشكل مخيف، لم يعد يسمع صوت التنفس. همس لنفسه: «ميتة». وشعر بنفسه ينتحب «ميتة».

قالت سوسيلا لتقطع الصمت الذي أطبق بعد آخر كلماته: «لنفترض أنها لم تكن غلطتك. افترض أنها قد ماتت فجأة دون أن يكون لك يد في موتها أو ما تفعله ازاءه. ألم يكن ذلك بنفس القدر من السوء؟»

سألها: «ماذا تعنين؟»

ــ «أعني أن هناك ما هو أكثر من مجرد الاحساس بالذنب إزاء موت موللي. إنه الموت نفسه، الموت بما هو كذلك، ذلك هو ما تجده مرعباً كل هذا الرعب «كانت تفكر الآن في دوجالد». ذلك هو ما تجده شراً دون معنى ولا هدف.»

ردد يقول وراءها: «شر دون معنى ولا هدف. أجل. ربما كان هذا هو السبب الذي جعل من المقدر عليّ أن أكون متفرجاً منفذاً محترفاً. لاشيء إلا لأن المسألة كلها، ولأن كل شيء كان دون معنى ولا هدف، إى هذه الدرجة من البهيمية المتوحشة، مقتفياً آثار رائحة الموت من أقصى الأرض إلى أقصاها، مثل ضبع آكل للجثث. إن الناس الودعاء المستريحين لايملكون أية فكرة عن حقيقة العالم. ليس في حالات استثنائية، كما كان الحال في اثناء الحرب، وإنما طوال الوقت. طوال الوقت. «وكان يرى بينها يتحدث في رؤ يا قصيرة وواضحة ومكتملة العمق كرؤ يا من يوشك على الغرق، كل المشاهد الكريهة التي كان قد شاهدها على مدار رحلات حجه تلك التي تلقى ازاءها مرتبات مجزية والتي زار فيها كل حفرة من حفر جهنم وكل مجزر يمور بالدماء والعذاب يصلح لأن يكون خبراً من الاخبار. الزنوج في جنوب افريقيا، الانسان في غرفة الاعدام بالغاز في سجن سان كوينتين، الأجساد المعجونة في مزرعة جزائرية، وغوغاء كل مكان وشرطة ورجال مظلات كل مكان، أطفال كل مكان من ذوي البشرة الداكنة والسيقان الشبيهة بالعصي والبطون الشبيهة بالقدور الفارغة، والذباب يتطاير على أجفانهم، الرائحة المزعجة في كل مكان، الفواحة بروائح الجوع والمرض، ورائحة عفن الموت المغثية. وفجأة، ومن خلال رائحة الموت المغثية الممتزجة والمحملة برائحة الموت التي تبعث على المزيد من الغثيان أصبح يتنفس عطر المسك الذي يتضوع من جسد بابز. يتنفس عطر بابز ويتذكر فكاهته الصغيرة من كيمياء المطهر والفردوس. المطهر مزيج من «ديامين التيتراثـلين» وسلفات الهيدروجين؟ أما الفردوس فهو بالتحديد مزيج من السائل المنوي والمواد المتفجرة الحمضية مع جرعة قوية من المواد العضوية النجسة ــ ها، ها، ها (أوه، يالمباهج الحياة الاجتماعية). ثم، فجأة تماماً، تتخلى عطور الحب والموت عن مكانها لرائحة حيوانية مميزة ــ رائحة كلب.

اشتد عصف الريح ثانية وازداد عنفاً، تصاعدت قطرات المطر تقودها الريح لتصفع النافذة.

سألته سوسيلا: «أما تزال تفكر في مولي؟».

أجابها: «كنت أفكر في شيء نسيته. ولايمكن أن يكون عمري أكثر من أربع سنوات حينما حدث. . ثم عادت ذكراه الآن كاملة إلي. . مسكين تايجر.»

سألته: «من كان تايجر المسكين؟»

تايجر، كلب صيده الأحمر الجميل. تايجر، المصـدر الوحيد للضوء في ذلك المنزل الكئيب الذي أنفق فيه طفولته. تايجر، العزيز، العزيز تايجر. في قلب كل ذلك الخوف والبؤس، بين قطب كراهية والده اللاذعة لكل شيء ولكل انسان وقطب تضحية أمه التي تشعر بتضحيتها دائمًا، يا له من إرادة خيرة دون مشقة في بذلها، ويا له من فرحة كاسحة،

نابحة، لاتقاوم! كانت أمه تأخذه على ركبتها فتحدثه عن الله وعن يسوع. ولكن كانت هناك ألوهية في «تايجر» أكثر من كل قصصها الإنجيلية. كان تايجر هو تجسد الإله في كل جانب من جوانبه. . وذات يوم اصطدم تجسيد الإله بسوء الطوية وفساد النفس.»

سألته سوسيلا: «فماذا حدث حينئذ؟»

ـ «كانت السلة التي ينام فيها في المطبخ، وكنت أنا هناك، راكعاً إلى جوارها. كنت أنا أربت عليه. ولكنني أحس بأن فراءه ليس كما كان يبدو لي في مرات مرضه السابقة. كان شعره متصلباً. . وهناك رائحة خبيثة. لو أنني لم أكن أحبه إلى هذا الحد، لكنت قد جريت هارباً، ولما كنت قد تحملت أن أركع بقربه. وبينما أربت عليه، أظل أقول له إنه سرعان ما سيكون بخير مرة ثانية. حالاً، صباح الغد. ثم فجأة تماماً يبدأ في الابتعاد، وأحاول أنا أن أوقف رعدته بأن أمسك رأسه بين يدي ولكن هذا لايجدي نفعاً. تتحول الرجفة إلى تقلص مرعب. اشعر بالغثيان حينما أنظر إليه، وينتابني الخوف. إنني خائف خوفاً مفزعاً ثم تتلاشى الرعشة والتقلصات، وبعد برهة قصيرة يصبح ساكناً سكوناً مطبقاً. وحينما أرفع رأسه وادعها تفلت من بين يدي، تسقط الرأس بصوت كصوت سقوط قطعة لحم تلتف حول كتلة العظام.»

تقطع صوت ويل، وكانت الدموع تجري على خديه، فقد صدمته نهنهات الطفل ذي الأعوام الأربعة الحزين على كلبه، وواجهته حقيقة الموت المرعبة التي لايمكن تفسيرها. . وكما لو كان لدى العقل مقابلاً لفرقعة الاصبع السريعة مصحوبة برعشة الإفاقة من غيبوبة قصيرة، كذلك بدا أن وعيه قد غير من سرعته وإيقاع حركته. لقد عاد شخصاً بالغاً كبيراً مرة أخرى، وكف عن الطفو السائب دون رباط.

ـ «آسف.» كذلك قال وهو يمسح عينيه وينظف أنفه وقال: «حسناً، كانت هذه هي أول مرة أتعرف فيها على الفزع الأكبر. كان «تايجر» صديقي، وكان «تايجر» هو عزائي الوحيد. وكان من الواضح أن ذلك كان شيئاً لايمكن أن يتسامح الفزع الاكبر في أمر وجوده. وكان الشيء نفسه مع العمة ماري. إنها الشخص الوحيد الذي أحببته حقاً واعجبت به ووثقت فيه ثقة كاملة، ويحق المسيح، يا لبشاعة ما فعله بها الفزع الاكبر!»

قالت سوسيلا: «احكِ لي.»

تردد ويل قليلاً ثم هز كتفيه وقال: «ولم لا؟ ماري فرانسيز فارنابي، تلك هي شقيقة ابي الصغرى. تزوجت في الثامنة عشرة، قبل عام واحد من انفجار الحرب العالمية الأولى، وكان زوجها جندياً محترفاً. . فرانك وماري، ماري وفرانك ــ ياله من تناغم، ويالها من سعادة؟» وضحك ثم استأنف يقول: «يستطيع المرء أن يجد ــ حتى خارج «بالا» جزراً متناثية من الرقة والحب،! جزراً مرجانية صغيرة مزدهرة، أو حتى، بين حين وحين

جزيرة كبيرة كاملة الازدهار مثل تاهيتي، ولكن «الفزع الاكبر» دائماً يحدق بها ويضرب حولها الحصار الشامل الحديدي. كانا شابين صغيرين في «بالا» الخاصة بهما. ثم حدث ذات صباح جميل، وكان ذلك في الرابع من شهر اغسطس عام ١٩١٤، أن عبر فرانك البحر مع الحملة المسلحة إلى اوروبا، وفي صباح عيد الميلاد التالي، وضعت ماري طفلاً مشوهاً، عاش زمناً كافياً لكي ترى ماري بنفسها ما يمكن أن يفعله الفزع الاكبر حينما يحاول محاولة فعلية. لايستطيع أحد إلا الله وحده أن يصنع أبْلهاً بسبب مرض الزهري. ولست في حاجة إلى القول بأنه بعد ثلاثة شهور، أصيب فرانك بشظية من شظايا قنابل الشرابنل ومات بعد فترة من الوقت بسبب تسمم الغرغرينا.» واستمر ويل يتحدث بعد برهة من الصمت: «حدث كل ذلك قبل أن أولد أنا. وحينما عرفتها لأول مرة، في العشرينات كانت العمة ماري تكرس نفسها لخدمة العجائز. العجائز المقيمين في الملاجيء، والعجائز المقيدين في منازلهم عاجزين عن الحركة، والعجائز المستمرين في الحياة كعبء ثقيل على كواهل ابنائهم وأحفادهم. خالدين، يحملون وصمة الخلود مثل جماعة «سترلدبراج»(٤٤) أو جماعة «تيثونيوز»(٤٥). وكلما كان العجز أبعد عن الأمل في الشفاء، كلما زاد خبل الشخصية وميلها إلى الشجار، وكلما كان ذلك أفضل. لكم كرهت في طفولتي عجائز العمة ماري هؤلاء! كانت تفوح منهم روائح كريهة، وكان قبحهم مخيفاً، كانوا دائماً ملولين يبعثون على الضجر وغالباً يثيرون السخط والغضب. ولكن العمة ماري أحبتهم حباً حقيقياً، أحبتهم رغم كل شيء. كان من عادة أمي أن تتحدث كثيراً عن المحبة المسيحية والقدرة على البذل، ولكن بشكل ما لم يصدق أي شخص أبداً ما كانت تقوله، تماماً كما لم يشعر أي شخص أبداً بأي حب في كل ما كانت ترغم نفسها دائماً على أن تبذله من تضحية بنفسها ـ لم يكن في تضحيتها حب، لم يكن فيها غير الواجب. بينما لم يكن المرء ليشعر بأقل شك مع العمة ماري، فقد كانت محبتها شيئاً شبيهاً بالاشعاع الجسدي، شيئاً كان بوسع المرء أن يشعر به تقريباً، مثل الحرارة أو الضوء. وحينما اخذتني لكي أقيم معها في الريف، أو حينما جاءت هي لكي تقيم في المدينة واعتدت أنا أن أذهب لرؤيتها يومياً تقريباً، كنت أشعر بما يشعر به من هرب من ثلاجة لكي يستمتع بأشعة الشمس. كان بوسعي أن أشعر بانني أبعث حياً تحت هذا الضوء، وهذا الدفء

---

(٤٤) جماعة سترلدبراج، هم سكان بلاد «لاجانج» في كتاب «رحلات جالليفر» لسويفت، وهم المعمرون اللذين يعيشون طويلاً دون حيوية ولا قوة جسد، ولا ذكاء ذهني.

(٤٥) تيثونيوس ـ ابن البطل ليموديون الطروادي في الاساطير اليونانية. كان جميلاً وعشقته «اوروورا» ربة الفجر، وسألت له الخلود من أبيها زيوس رب الارباب. ونسيت أن تسأل له الشباب مع الخلود. فامتنع على الموت ولكنه فقد جماله وقوته وصار حطاماً. وتوسل إلى الربة أن تقتله فلم تستطع، فحولته إلى نبات أخضر كالحشائش. كتب عنه الشاعر تنيسون واحدة من اجل قصائده.

المشع الصادر عنها. ثم بدأ الفزع الاكبر في عمله مرة ثانية. وفي البداية حولت هي الأمر إلى نكتة. فقد قالت بعد العملية الجراحية الأولى:

«هاقد أصبحت واحدة من شعب الامازون.»

سألت سوسيلا: «لماذا من الأمازون؟»

ـ «لأن الامازونات كن يقطعن ثديهن الأيمن. لقد كن محاربات وكان الثدي يعوق حركتهن حين يطلقن السهام من القِسِيّ الطويلة. كانت تقول: «هاقد أصبحت واحدة من الامازونات». وكان بوسعه أن يرى بعين عقله الابتسامة تنتشر على ذلك الوجه الهادىء المستطيل، وكان بوسعه أن يسمع، باذن عقله نغمة الفكاهة في ذلك الصوت الواضح الرنان. ثم استأنف يقول: «ولكن بعد عدة شهور أصبح من الضروري أن يستأصل الثدي الآخر وبعد ذلك جاءت جلسات أشعة إكس، ثم الغثيان الذي يسببه العلاج بالاشعة، ثم الاضمحلال والانهيار شيئاً بعد شيء بالتدريج.» اتخذ وجه ويل تعبيراً غاضباً غضباً جنونياً وقال: «إذا لم يكن الامر مرعباً إلى هذه الدرجة التي يعجز المرء عن التحدث فيه، فلابد أن يكون أمراً مضحكاً حقاً. فيالها من مسرحية ساخرة تبلغ حد الروعة! كانت هناك روح تشع الخير والمحبة والعطاء البطولي. ثم وقع خطأ ما لسبب مجهول ولا يمكن أن يعرف. وبدلاً من أن يقاوم جسدها هذا الخطأ، شرع جزء صغير من جسدها في الخضوع للقانون الثاني من قوانين الديناميكا الحرارية. وحينما بدأ الجسد في الانهيار، بدأت الروح تفقد فضيلتها، جوهرها وحيويتها الحقيقية. تبددت البطولة وذهبت شعاعاً وتبخرت المحبة والخير. وفي الشهور الاخيرة من حياتها، لم تكن هي نفسها العمة ماري التي أحببتها وأعجبت بها، كانت شخصاً آخر، كانت شخصاً «وهذه هي آخر اللمسات وأكثرها سخرية وأشدها شذوذاً» لايكاد يمكن تمييزها عن أسوأ واضعف العجائز التي كانت تمدهم بالصداقة وتدعم فيهم العزم وروح المقاومة.. كان لابدّ أن تحتقر وأن تشعر بالإهانة والهوان؟ وحينما اكتمل الاضمحلال وبلغ غايته، ماتت وحيدة، ببطء وهي تتحمل آلاماً هائلة» ثم ردد باصرار: «وحيدة. لأن أحداً بالطبع لايستطيع أن يمد يد العون لايستطيع أحد أن يكون حاضراً على الدوام. ربما يقف الناس إلى جوارك على أهبة الاستعداد بينما أنت تتعذب وتحتضر، ولكنهم يقفون على أهبة الاستعداد في عالم آخر. أما في عالمك «الخاص» فأنت وحيد وحدة مطلقة. وحيد في عذابك واحتضارك، تماماً مثلما أنت وحيد في الحب، وحيد حتى في اكثر أنواع اللذة جماعية ومدعاة للمشاركة.»

كانت تلك هي الخلاصات الجوهرية لبابز وتايجر. وحينما احتفر السرطان حفرة في الكبد، وصار جسدها الهالك محملاً برائحة الدم المتخثر الغريبة الفواحة، كانت الخلاصة الجوهرية للعمة ماري التي تموت. وفي وسط تلك الخلاصات كلها، كان هناك وهي منعزل لطفل، ثم لصبي، ثم لرجل مدركاً تلك الخلاصات إدراكاً مسمّاً أو باعثاً على

الغثيان، لأنه سيظل منعزلاً إلى الأبد، وحيداً وحدة لاشفاء لها. واستمر يقول: «وعلى رأس كل شيء آخر، لم تكن هذه المرأة قد تعدت الثانية والأربعين من العمر. لم تكن تريد أن تموت. رفضت أن تقبل ما كانت تلقاه من عذاب وما كان الموت ينزله بها. كان على الفزع الأكبر أن يجرها عنوة وأن يغتصبها اقتداراً.

لقد كنت هناك، وقد رأيت ما كان يحدث بينهما بعيني.»

ــ «وهذا هو السبب الذي يجعلك الرجل الذي لايكتفي بكلمة «نعم» إجابة على أي سؤال، الرجل الذي لايقبل تصديق شيء ولايؤمن بشيء؟».

«أجابها معترضاً: كيف يمكن لأي انسان أن يكتفي بكلمة «نعم» جواباً على أي سؤال؟ ليست «نعم» سوى نوع من الادعاء، ليست إلا تفكيراً ايجابياً قانعاً عاجزاً. اما الحقائق، الحقائق الاساسية والنهائية، فهي «لا» على الدوام. الروح؟ لا!. الحب؟ لا!. العقل، والمعنى، والتحقق؟ لا!»

كان تايجر مترعاً بالحياة فياضاً بالفرح ممتلئاً بالله. ثم تحول تايجر على يد الفزع الاكبر إلى كومة من القمامة القذرة التي لابد أن يأتي إليها «الزبال» فيحملها مقابل مبلغ من النقود. وبعد تايجر، العمة ماري. شوهت وعذبت، سحلت في الوحل اهينت وحقرت، وفي النهاية مثلها مثل تايجر، تحولت إلى كومة من القمامة القذرة ــ ولكن في هذه المرة، جاء «الحانوتي» بدلاً من الزبال لكي يحملها بعيداً، واستؤجر القسيس لكي يجعل الناس يصدقون أن كل شيء كان على ما يرام، بمعنى ما من المعاني الجليلة ولكنها الساخرة على طريقة «بيكويك». وبعد عشرين عاماً كاملة استؤجر قسيس آخر لكي يكرر نفس الثرثرة الغريبة أمام نعش موللي. «لو أنني على عادة البشر، قد اشتركت في قتال الوحوش في افسوس فما الذي يميزني عن الآخرين إن لم يبعث الموتى من القبور؟ فلنأكل اذن ولنجرع الشراب لأننا غداً سوف نموت.»

أطلق ويل ضحكة أخرى من ضحكاته الشبيهة بعواء الذئاب وقال: «يا له من منطق حديدي لايأتيه خطأ من قدامه ولا من خلفه، ويا لها من حساسية وسمو أخلاقي!»

ــ «ولكن لست الرجل الذي يكتفي بكلمة «نعم» إجابة على أي سؤال.. فلماذا تعترض أي اعتراض؟»

قال موافقاً: «ما كان يجب علي ذلك. ولكن المرء يظل صاحب نزعة جمالية، فالانسان يحب أن تقال «لا» باسلوب جميل: «فلنأكل ولنجرع الشراب، لأننا غداً سوف نموت.» كذلك قال ثم قلب سحنته لكي تعطي تعبيراً عن الاشمئزاز والقرف.

قالت سوسيلا: «ومع هذا، فهذه النصيحة نصيحة ممتازة بمعنى معين. الأكل والشرب والموت ــ ثلاثة مظاهر أساسية من مظاهر الحياة الكونية وغير الشخصية.

الحيوانات تعيش هذه الحياة الكونية غير الشخصية دون أن تعرف طبيعتها. والعاديون من الناس يعرفون طبيعتها ولكنهم لايعيشون فيها، فإذا حدث أن فكروا فيها بجدية، فإنهم يرفضون أن يقبلوها. إنه يأكل، ويشرب، ثم يموت في الوقت الملائم ــ ولكنه يأكل باهتمام، ويشرب باهتمام، ويموت باهتمام.»

سألها ساخراً: «ثم يبعث حياً مرة اخرى من قبره؟»

ــ «هذه إحدى المسائل التي رفض بوذا على الدوام أن يناقشها. إن الايمان بالحياة الابدية لم يساعد أحداً على الاطلاق على أن يعيش إلى الأبد، كلا، ولا عدم الايمان بالطبع.. إذن، فكف عن كل موافقاتك واعتراضاتك (وهذه هي نصيحة بوذا) وامض إلى العمل الذي يشغلك؟»

ــ «أي عمل؟»

ــ «عمل كل انسان ــ الاستنارة. التي تعني: هنا والآن، العمل الأولي والاساسي الذي تمارس من خلاله كل أنواع اليوجا التي تؤدي إلى زيادة الوعي والادراك.»

قال ويل: «ولكنني لا أريد أن أكون أكثر ادراكاً ووعياً. أريد أن أكون أقل وعياً وادراكاً. أقل وعياً وادراكاً بأنواع الرعب التي تشبه موت العمة ماري واحياء ريندانج ــ لوبو القذرة. أقل وعياً وادراكاً بالمناظر المفزعة والروائح الكريهة ــ بل وحتى ببعض الروائح الكريهة ــ بل وحتى ببعض الروائح اللذيذة». كذلك قال وهو يشعر فجأة عبر ما تذكره من خلاصات روائح الكلب وسرطان الكبد، بما يشبه اللفحة العابرة من رائحة المخدع القرمزي. ثم أضاف يقول: «أقل وعياً وادراكاً بدخلي السمين وبفقر الآخرين غير الانساني، أقل ادراكاً ووعياً بصحتي الممتازة وسط محيط من الملاريا وديدان الانكلستوما، وأقل وعياً وادراكاً بما أمارسه من لهو جنسي معقم مأمون العاقبة وسط محيط من الأطفال الذين يموتون من الجوع. «أغفر لهم، لأنهم لايعرفون ما يفعلون.» يا له من تنظيم مبارك لشؤون البشر! ولكنني لسوء الحظ أعرف بالفعل ما أفعله، أعرفه معرفة جيدة للغاية. وها أنت ذي، تسألينني أن أكون أكثر وعياً وادراكاً مما أنا عليه بالفعل.»

قالت: «إنني لا أسألك شيئاً. وإنما أنا أشير إلى النصيحة التي أطلقتها أجيال متتالية من عجائز الطير الشاردة، بدأت من «جوتاما» وانتهت بالراجا القديم. تبدأ بأن تكون واعياً وعياً كاملاً بما تظن أنك عليه وسوف يساعدك هذا على أن تدرك وتعي ما أنت عليه في الحقيقة.»

هز كتفيه وقال: «إن المرء ليظن نفسه شيئاً متميزاً، فريداً، رائعاً قائماً في مركز الكون.. ولكنه في الحقيقة ليس أكثر من لحظة منسية في زمان الكون الشاسع غير المحدود المستمر في الجريان».

ــ «هذا بالتحديد النصف الاول من رسالة بوذا. الزوال والتحول، ليست هناك روح دائمة، ولا حزن حتمي لايمكن تجنبه. ولكن بوذا لم يتوقف هنا، فللرسالة نصف آخر. فإن هذا الزوال التدريجي المؤقت لزمان الكون الجاري، هو أيضاً جوهر ثابت غير متحول ولازائل. إن هذا الغياب والافتقار للروح الدائمة هو أيضاً طبيعة بوذا.»

ــ «غياب الروح وافتقادها ــ هذا شيء من السهل التلاؤم معه. ولكن ماذا من أمر حضور السرطان، وحضور الانهيار البطيء والاضمحلال؟ ماذا من أمر الجوع والتخمة والكولونيل ديبا؟ أهي جوهر خالص هي الأخرى؟».

ــ «بالطبع. ولكن لا حاجة إلى القول بأنه من الصعب صعوبة كاملة بالنسبة للناس المنغمسين بعمق في أي من هذه الشرور أن يكتشفوا طبيعة بوذا الكامنة فيهم. إن الصحة العامة والاصلاح الاجتماعي هي الشروط المسبقة التي لاغناء عنها لأي نوع من الاستنارة العامة.»

ــ «ولكن على الرغم من الصحة العامة والاصلاح الاجتماعي، ما يزال الناس يموتون. حتى في بالا.» كذلك أضاف يقول في سخرية.

ــ «وهذا هو السبب الذي يحتم أن تكون نتيجة الرخاء الملازمة له هي «الداهيانا»: كل من أنواع يوجا الحياة والموت، حتى يمكن أن تصبح واعياً ومدركاً، حتى في ظل العذاب الأخير وعلى الرغم من كل شيء، بمن أنت في الحقيقة.»

سمع صوت خطوات لقدمين تسيران على أرضية الشرفة، ثم صوت طفولي ينادي: «امي»

اجابت سوسيلا: «أنا هنا يا حبيبتي.»

فُتح الباب الامامي بقوة ودخلت ماري ساروجيني مسرعة إلى الحجرة.

قالت ماري متقطعة الانفاس: «أمي، يريدونك أن تأتي فوراً. إنها جدتي لاكشمي. إنها.» وإذ وقع بصرها لأول مرة على الشخص الراقد في الفراش المعلق جفلت وقطعت كلامها ثم قالت: «أوه! لم أكن أعرف أنك هنا.»

لوح ويل لها بيده دون أن يتكلم.. فابتسمت له ابتسامة ميكانيكية ثم تحولت إلى أمها وقالت: «لقد زادت حالة جدتي لاكشمي سوءاً فجأة.. وجدي روبرت ما يزال هناك في محطة المناطق المرتفعة، وهم لايستطيعون الاتصال به بالتليفون.»

ــ «هل جريت طوال الطريق؟»

ــ «أجل، إلا في المناطق الغارقة في الماء جداً.»

أحاطت سوسيلا طفلتها بذراعها وقبلتها، ثم نهضت واقفة بصورة فجائية وبطريقة عملية تماماً.

قالت: «إنها أم دوجالد».

ـ «هل هي..؟» ثم نظر إلى ماري ساروجيني ثم إلى سوسيلا. وفكر بينه وبين نفسه: هل الموت من المحرمات؟ أيستطيع المرء أن يذكره أمام الأطفال؟

ـ «هل تعني إن كانت تحتضر؟»

أومأ برأسه.

مضت سوسيلا تقول: «كنا نتوقع هذا بالطبع. ولكننا لم نتوقعه اليوم. كانت تبدو اليوم في حالة أحسن قليلاً.» وهزت رأسها ثم أستأنفت تقول: «اسمع، علي أن أذهب لكي أقف إلى جوارها على أهبة الاستعداد ـ حتى ولو كنت أقف في عالم آخر.» ثم أضافت تقول: «ولكنه في الحقيقة ليس عالماً مختلفاً كل الاختلاف، ولا هو عالم آخر بصورة كلية كما تظن أنت.. آسفة لاضطرارنا إلى أن نترك عملنا المشترك دون أن ننتهي منه؟ ولكن سوف تكون هناك فرص أخرى.. وفي نفس الوقت ماذا تريد الآن أن نفعل؟ يمكن أن تبقى هنا. او يمكنني أن آخذك معي فاتركك في منزل الدكتور روبرت. أو يمكنك أن تأتي معي أنا وماري ساروجيني».

ـ «باعتباري متفرجاً منفذاً محترفاً؟»

أجابته بتأكيد: «ليس بوصفك متفرجاً منفذاً محترفاً، وإنما بوصفك انساناً، باعتبارك شخصاً يحتاج إلى أن يعرف كيف يعيش فيعرف حينذاك كيف يموت. تحتاج إلى ذلك بقدر ما نحتاج إلى ذلك جميعاً».

قال: «أحتاج إليه أكثر بكثير من أغلبكم. ولكن ألن أكون عقبة في الطريق؟»

ـ «إذا استطعت ألا تكون عقبة في طريق نفسك، فلن تكون عقبة في طريق أي انسان آخر.»

أخذت يده فعاونته على النهوض من الفراش المعلق، وبعد دقيقتين كانا منطلقين بالسيارة إلى جوار بحيرة اللوتس وتمثال بوذا الهائل الجالس تحت رأس الكوبرا المنتفخ كالمظلة، وإلى جوار الثور الأبيض.. خارجين عبر البوابة الرئيسية للمبنى المزدوج . كان المطر قد توقف، وعبر سماء خضراء شاسعة كانت سحابات ضخمة تتألق مثل أجنحة الملائكة.. إلى الغرب، كانت الشمس المنخفضة الوشيكة الغروب تسطع ببريق بدا في صورة بريق إلهي غير طبيعي.

غروب الشمس والموت، موت وقبلات بسببه، قبلات وبالتالي يحدث ميلاد ثم موت يلحق جيلاً آخر من المتفرجين على غروب الشمس.

سألها: «ماذا تقولون لمن يحتضرون من الناس. هل تقولون لهم ألاّ تشغلوا رؤوسكم بمسألة الخلود وانطلقوا إلى ما عليكم من عمل؟»

ــ «أجل ــ إذا كان يروق لك أن تطرح المسألة بهذا الشكل. هذا بالتحديد ما نفعله. استمرار المرء في أن يعي ما هو فيه ــ هذا هو كل فن الموت.»

ــ «وأنتِ، هل تعلمين هذا الفن؟»

ــ «إنني أطرح المسألة بشكل آخر. إننا نساعدهم على الاستمرار في ممارسة فن الحياة حتى لحظة احتضارهم. إن معرفة المرء لمن هو في الحقيقة، وأن يكون المرء واعياً بالحياة الكونية وغير الشخصية التي تحيا وتحيي نفسها عبر كل واحد منا ــ ذلك هو فن العيش، وهذا هو ما يساعد المرء الانسان المحتضر على الاستمرار في ممارسته. حتى النهاية الأخيرة. وربما إلى ما بعد النهاية وفيما وراءها.»

تساءل: «وراءها؟ ولكنك قلت إن ذلك شيء لايفترض في من يحتضر أنه يفكر فيه!»

ــ «إنهم لايطلب منهم أن يفكروا فيه. إننا نساعدهم على أن يمارسوه.. إذا كان هناك شيء منه.» ثم كررت عبارتها الاخيرة: «إذا كان هناك شيء منه، إذا كانت الحياة الكونية تستمر، حينما تكون حياتي أنا المستقلة قد انتهت.»

ــ «وهل تظنين، أنت شخصياً، أنها تستمر؟».

ابتسمت سوسيلا وقالت: «إن ما أظنه أنا شخصياً خارج عن الموضوع. كل ما يهم هو ما قد أمارسه بصورة غير شخصية ــ في اثناء حياتي، وحينما أكون في لحظة الاحتضار، وربما بعد موتي.»

استدارت بالسيارة إلى مكان الانتظار واوقفت المحرك. دخلا القرية على الاقدام. كان وقت العمل قد انتهى وكان الشارع الرئيسي مزدحماً لدرجة انهم واجهوا شيئاً من الصعوبة في المرور وسط الزحام.

أعلنت سوسيلا: «سأذهب رأساً بنفسي». ثم أضافت لماري ساروجيني قائلة: كوني في المستشفى بعد حوالي ساعة، وليس قبل ذلك».ثم استدارت، وسرعان ما اختفت عن الانظار بعد أن شقت طريقها بين الجماعات المحتشدة التي كانت تتحرك ببطء.

قال ويل، وهو يبتسم منحنياً للطفلة الواقفة إلى جواره: «إنك الآن في حالة تأهب لحمل المسؤولية».

أومأت ماري ساروجيني برأسها في خطورة ثم أخذت يده وقالت: «فلنذهب لنرى ما يحدث في الميدان».

ـ «كم عمر جدتك لاكشمي؟» كذلك سألها ويل حينما شرعا يسيران على طول الشارع المزدحم.

أجابته ماري ساروجيني: «لا أعرف عمرها بالضبط. إنها تبدو عجوزاً بشكل مرعب. ولكن ربما كان السبب هو أنها أُصيبت بالسرطان.»

سألها: «هل تعرفين ما هو السرطان؟»

كانت ماري ساروجيني تعرفه معرفة جيدة تماماً: «إنه ما يحدث حينما ينسى جزء من جسمك كل ما يجري ويهم بقية الجسم فيتصرف بالطريقة التي يتصرف بها الناس حينما يصابون بلوثة ـ فيمضي ينفخ نفسه وينفخ نفسه كما لو لم يكن هناك أي شخص آخر في العالم سواه. وفي بعض الاحيان يمكن أن تعالجه. ولكنه بوجه عام يستمر في نفخ نفسه حتى يموت الشخص المصاب به.»

ـ «على هذا فإن ذلك هو ما حدث لجدتك لاكشمي».

ـ «وهي الآن بحاجة إلى من يساعدها في احتضارها.»

ـ «هل تساعد امك الناس دائما في احتضارهم؟»

أومأت الطفلة برأسها وقالت: «إنها خبيرة بذلك جداً.»

ـ «هل رأيت في حياتك أبداً شخصاً يحتضر؟»

أجابت ماري ساروجيني: «بالطبع». وكان من الواضح أنها دهشت لأنه وجه إليها مثل هذا السؤال. ثم قالت: «اتركني لكي احصيهم لك.» وأجرت بسرعة إحصاء عقلياً صامتاً ثم قالت: «لقد رأيت خمسة اشخاص يحتضرون، ستة إذا أحصيت الاطفال.»

ـ «إنني لم أر أي شخص يحتضر حينما كنت في سنك.»

ـ «ألم يحدث لك هذا؟»

ـ «لم أر سوى كلب.»

ـ «الكلاب يموتون بطريقة أسهل من طريقة موت البشر. إنهم لايتحدثون عن المسألة قبل وقوعها.»

ـ «ما شعورك ازاء.. ازاء الناس الذين يحتضرون؟»

ـ «اسمع، إنها حالة ليست أسوأ من عملية وضع الاطفال. وهذه عملية مزعجة ـ أو على الأقل إنها تبدو مزعجة. ولكن تعود فتذكر نفسك بأنها مسألة غير مؤذية على الاطلاق. فقد استطاعوا أن يقلبوا الألم إلى لذة.»

قال ويل: «صدقي أو لاتصدقي إنني لم أر أبداً طفلاً وهو يولد.»

دهشت ماري ساروجيني وقالت: «أبداً؟ حتى ولا حينما كنت في المدرسة؟»

تراءى لويل منظر لناظر مدرسته في كامل زيه الرسمي الكهنوتي وهو يقود ثلاثمائة من الصبيان ذوي الياقات السوداء في رحلة إلى مستشفى الولادة، ثم قال بصوت مرتفع:
ـ «ولا وأنا في المدرسة».

ـ «إنك لم تر أبداً أي شخص وهو يحتضر، ولم تر أبداً أية امرأة وهي تضع طفلاً. فكيف يمكن إذن أن تعرف الاشياء على حقيقتها؟»

قال: «في المدرسة التي كنت أذهب إليها، لم يحدث أبداً أن كان علينا أن نعرف حقائق الاشياء، لم يكن علينا إلا أن نعرف الكلمات.»

رفعت الطفلة رأسها لكي تنظر إليه. وهزت الرأس المرفوع، ورفعت يداً بنية صغيرة، وطرقت رأسها طرقة خفيفة ذات مغزى وقالت: أكان مدرسوك مجانين أم كانوا أغبياء فقط!»

ضحك ويل وقال: «لقد كانوا معلمين ومربين ذوي عقول رفيعة كرسوا أنفسهم من أجل العقل السليم في الجسم السليم» ـ قالها باللاتينية ـ» ومن أجل الحفاظ على تقاليدنا الغربية الجليلة. ولكن بدلاً من هذا، خبريني، ألم يحدث أبداً أن شعرت بالخوف؟»

ـ «الخوف من الناس حينما يلدون؟»

ـ «كلا، من الناس حينما يموتون. ألم يبعث هذا الخوف في قلبك؟»

قالت بعد لحظة صمت: «أجل، حسناً، لقد أخافني.»

ـ «إذن فماذا فعلت في هذا الأمر؟»

ـ «فعلت ما يعلمونك أن تفعله ـ حاولت أن أكتشف مَنْ من النفسين داخلي هي التي خافت، ولماذا كان خوفها؟»

ـ «وأي النفسين كانت الخائفة؟»

أشارت ماري ساروجيني باصبعها السبابة إلى فمها المفتوح وقالت: «هذه. النفس التي تقول كل الكلام. «ميس جيبر» الصغيرة، كما يسميها فيجايا. إنها تتكلم دائمًا عن

كل ما أذكره من أشياء رديئة، وكل الاشياء الصحمة الرائعة والمستحيلة التي اتخيل أنني قادرة على القيام بها. إنها النفس التي يتملكها الخوف».

ــ «ولماذا تخاف إلى هذا الحد؟»

ــ «اعتقد أنها تخاف لأنها تتكلم كثيراً عن كل الاشياء المخيفة التي قد تحدث لها. إنها إما تتحدث بصوت مرتفع وإما أن تتحدث في السر، لنفسها. ولكن هناك نفس أخرى لاتخاف.»

ــ «وما هذه النفس؟»

ــ «إنها النفس التي لاتتحدث ــ إنها لاتفعل إلا أن تنظر وتصغي وتشعر بما يدور في الداخل.»

وأضافت ماري ساروجيني تقول: «وهي ترى في بعض الاحيان كم يبلغ جمال كل شيء. كلا، هذا خطأ. إنها ترى طوال الوقت، أما أنا فلا أرى. لا أرى إلا حينما تجعلني هي الاحظ ما تراه. ولايحدث هذا إلا فجأة. جميل، جميل، جميل! حتى براز الكلاب.» وأشارت إلى عينة ضخمة إلى جوار جدار في الطريق.

دخلا ساحة السوق خارجين من الشارع الضيق. كانت آخر أشعة الشمس ما تزال تلامس برج المعبد المستدق المتطاول، والوجه المنحوت المحدق بالعينين الجاحظتين على سقف بهو المدينة. ولكن هنا في الميدان كانت تنتشر بوادر الغسق، وكانت ظلمة الليل قد انتشرت بالفعل تحت شجرة البنيـان. وعلى الأغصان المتدلية بين أعمدتها وحبالها الممدودة أضاءت بائعات السوق مصابيحهن. وتخللت الظلمة الخفيفة جزر من الألوان والاشكال وكان أشخاص ظهر لون بشرتهم البني، يظهرون من الزوايا التي يصعب رؤ يتها لكي يسيروا بضع خطوات في المساحات المضيئة، ثم يتلاشون مرة أخرى في العدم. وترددت في المساحات الممتدة بين الابنية المرتفعة فوضى من الطابع الانجليزي والبالاني.. من الكلام والضحك، من صيحات الطريق والاصوات المنغمـة من الكلاب النـابحة والببغـاوات الصارخة.. وقام زوج من طيور المايناه فوق شاهد بارز منحوت فوق أحد الجدران وراحا يناديان بالانتباه والحنان.ومن مطبخ مفتوح للهواء الطلق في مركز الميدان تصاعدت رائحة شهية لطعام وضع فوق النار. رائحة امتزجت فيها روائح البصل والفلفل الاسود والفلفل الاحمر، وشواء السمك وخبيز الكعك والارز الذي يغلي على النـار. وفي خلال تلك الروائح الشهية الطيبة، ومثل مذكر يستثير الذاكرة من الشاطىء الآخر انسابت رائحة العطر خفيفة وحلوة ونقية كالاثير، عطر زهور الجارلاند المتعددة الالوان المعروضة للبيع إلى جوار الينبوع.

تقدم الغسق وازداد دكنة، وفجأة سطعت مصابيح الشارع القوية من أعلى أعمدتها

فوق الرؤوس. لمعت عقود النساء وخواتمهن وأساورهن براقة خاطفة فوق النحاس الوردي للجلود المدعوكة بالزيت والدهون، وبدت للعيون كما لو كانت قد بعثت إلى الحياة بانعكاساتها اللامعة. أصبح كل خط خارجي لكل الاشياء أكثر درامية إذ يرى تحت الضوء المركز الهابط من أعلى إلى أسفل، وبدا كل شكل كما لو كان أكثر جوهرية ورسوخاً، وأمتن ثباتاً في مكانه. وازدادت الظلال عمقاً في محاجر العيون، وتحت الانوف والاصداغ. وإذ تنازعت الاضواء والظلمة الصدور، بدت النهود أكثر امتلاء، وظهرت وجوه العجائز كما لو كانت خطوطها وتجاعيدها قد ازدادت قوة وتأكيداً. .

سارا فشقا طريقهما يداً في يد. حيّت امرأة متوسطة العمر ماري ساروجيني ثم التفتت إلى ويل وسألته: «أأنت «ذلك» الرجل القادم من الخارج؟»

أجابها مؤكداً: «أنا من الخارج بشكل حاسم تقريباً.»

نظرت إليه للحظة في صمت، ثم ابتسمت في تشجيع وربتت على خده وقالت:

ـ «إننا جميعاً نشعر بالحزن لأجلك.»

تقدما إلى الامام، ثم وقفا عند الحافة الخارجية لجماعة احتشدت أمام درجات المعبد لكي تصغي إلى رجل شاب كان يعزف على آلة «عود» علقت في رقبته بحزام جلدي ويغني باللغة البالانية. كان النواح السريع في الاغنية يستبدل بصيحة تكاد تشبه صيحة طائر ما طويلة ممتدة من درجة صوتية واحدة، ومن بعدها نغمة للحن قوي القرار مرح الرنين انتهى بصيحة قوية. انطلق زئير الضحك من حناجر الجمهور. عزف المغني بضعة ألحان قليلة أخرى، وأنشد بيتاً أو بيتين من الشعر ثم أطلق لحنه الختامي. وانطلق التصفيق والمزيد من الضحك وتعليقات غير مفهومة.

سألها ويل: «ماذا هناك؟ ما موضوع الاغاني؟»

أجابت ماري ساروجيني: «إنها تدور حول الاولاد والبنات الذين ينامون سوياً.»

ـ «أوه ـ هكذا.» وشعر بوخزة تأنيب محرجة، ولكنه إذ هبط بعينيه إلى وجه الطفلة غير المرتبك، كان بوسعه أن يرى أن انزعاجه لم يكن له ما يبرره. كان من الواضح أن نوم الاولاد والبنات سوياً هو أمر لابد من النظر إليه كأمر طبيعي، مثل الذهاب إلى المدرسة أو تناول الطعام ثلاث مرات في اليوم.

واستمرت ماري ساروجيني تقول: «أما الجزء الذي جعلهم يضحكون فهو قوله إن «بوذا المستقبل» لن يكون عليه أن يترك البيت لكي يجلس تحت شجرة بوده ـ ..ـ سوف يحقق استنارته بينما هو في الفراش مع الاميرة.»

سأل ويل: «وهل تظنين أن هذه فكرة حسنة؟»

وأومأت ماري برأسها وقالت: «إنها تعني أن الاميرة سوف تستنير هي الأخرى.»

قال ويل: «إنك على حق تماماً.. فإنني كرجل، ما كنت أفكر في مستقبل الاميرة.»

عزف عازف آلة العود مجموعة من النغمات المتتالية المتصاعدة الغريبة، تبعتها موجة من نغمات أخرى رتيبة سريعة، ثم شرع يغني، بالانجليزية هذه المرة:

«كل الناس يتحدثون عن الجنس، فلا تأخذ أحدهم على محمل الجد..
لا البغي ولا المخنث، ولا سانت بول ولا فرويد.
اعشق ـ وستتحول شفتاك ويتحول نهداها بطريقة غامضة
إلى حقيقتهما، إلى الجوهر واللانهاية.»

فتح باب المعبد بعنف. امتزجت رائحة البخور برائحة البصل المتبل والسمك المقلي. برزت امرأة عجوز من الباب وراحت بحذر شديد تهبط بوزنها المقلقل درجة فدرجة.

سألت ماري ساروجيني وهما يبتعدان: «من كان يقصد بسانت بول وفرويد؟».

وبدأ ويل إجابته بخلاصة مركزة عن فكرة الخطيئة الأولى وحكاية الفداء.

وراحت الطفلة تصغي إليه بانتباه مركز.

وأخيراً قالت: «لاعجب إذن إن قال المغني ألا تأخذ أحدهما على محمل الجد.»

قال ويل: «وبعد هذا نصل إلى الدكتور فرويد وعقدة أوديب.»

رددت ماري ساروجيني بلهجة استفهامية: «أوديب؟ ولكن هذا هو اسم عرض مسرحي للعرائس.. لقد رأيته في الاسبوع الماضي، وهم يعرضونه الليلة مرة أخرى. اتحب أن تراه؟ إنه لطيف.»

ردد وراءها متسائلاً: «لطيف؟ لطيف؟ حتى حينما يتضح أن السيدة العجوز هي امه وتشنق نفسها؟ وحتى حينما يفقأ أوديب عينيه؟»

قالت ماري ساروجيني: «ولكنه لا يفقأ عينيه»

ـ «إنه يفعل ذلك في البلد الذي جئت منه.»

ـ «ولكن ليس هنا. إنه ينوي أن يفقأ عينيه وتحاول هي فحسب ان تشنق نفسها. ولكن بعض الناس يقنعونهما بتغيير رأيهما.»

ـ «من الذي يقنعهما؟»

ـ «الصبي والفتاة القادمان من بالا..»

سأل ويل: «وكيف يدخلان في الاحداث؟»

ـ «لا أعرف. إنهما هناك فحسب.. واسم المسرحية «أوديب في بالا». إذن فلماذا لايمكن أن يشتركا في الاحداث؟»

ـ «أتقولين انهما يقنعان جوكاستا بعدم الانتحار ويقنعان أوديب بألّا يفقأ عينيه؟»

ـ «في الوقت المناسب تماماً. كانت هي قد لفت الحبل حول عنقها وكان هو قد امسك بدبوسين كبيرين من دبابيس الشعر. ولكن الصبي والفتاة البالانيين يقولان لهما ألّا يكونا أبلهين. فالمسألة، على كل حال، كانت مجرد حادثة وقعت بالصدفة. وأوديب لم يكن يعرف أن الرجل العجوز كان أباه.. والرجل العجوز ـ على أي حال ـ هو الذي بدأ المشكلة عندما ضرب أوديب على رأسه، ففقد أوديب صوابه بسبب هذا ـ علاوة على أن أحداً لم يكن قد علمه رقصة مدخنة راكشازي. وحينما جعلوه ملكاً أصبح من الضروري أن يتزوج الملكة القديمة. لقد كانت أمه حقاً، ولكنهما لم يعرفا هذه الحقيقة.. وإن كل ما كان عليهما أن يفعلاه حين يكتشفان الحقيقة هو أن ينفصلا فلا يعودا زوجين بعد هذا. أما عن تلك الحكاية التي تقول إن زواجه من أمه كان هو السبب في أن يموت كل الناس بسبب فيروس أو جرثومة معدية ـ فليس هذا إلا هراء مأفون، اصطنعه عدد كبير من الناس الفقراء الاغبياء الذين لم يكونوا يعرفون أكثر من هذا.»

ـ «لقد ظن الدكتور فرويد أن كل الصبيان الصغار يريدون في الحقيقة ان يقتلوا آباءهم وأن يتزوجوا امهاتهم.. والأمر بالعكس بالنسبة للفتيات الصغيرات ـ إنهن يردن أن يتزوجن آباءهن».

سألت ماري ساروجيني: «أي الآباء وأي الامهات؟ إن لدينا عدداً كبيراً من كل منهما؟»

ـ «أتقصدين في نادي تبادل التبني الذي تتبعين له؟»

ـ «هناك اثنان وعشرون من كل منهم في نادينا لتبادل التبني.»

ـ «الأمان في الكثرة!»

ـ «ولكن أوديب المسكين العجوز لم يكن له أبداً نادٍ لتبادل التبني. إلى جانب أنهم كانوا قد علموه كل تلك الحكايات المفزعة عن اشتعال غضب الله من الناس كلما ارتكبوا خطأ من الاخطاء.»

كانا قد شقا طريقهما وسط الجموع حين وجدا نفسيهما عند مدخل دائرة مغلقة

بحبل مشدود، حيث كان مائة أو أكثر من المتفرجين قد اتخذوا مجالسهم بالفعل وعند الطرف الآخر من الدائرة المغلقة كانت مقدمة مسرح العرائس البهيجة الألوان تلمع تحت الاضواء الحمراء والذهبية الغامرة الصادرة من المصابيح المركزة القوية. دفع ويل قيمة التذكرتين من حفنة العملات الصغيرة التي كان الدكتور روبرت قد زوده بها. ثم دخلا وجلسا على إحدى الدكك.

دق جرس مثل «الجونج» وارتفعت ستارة مقدمة المسرح الصغيرة دون صوت، فبدت وراءها أعمدة بيضاء على أرضية خضراء فاتحة تمثل الواجهة ذات الاعمدة للقصر الملكي في مدينة «طيبة». وكان هناك إله كثيف اللحية جالساً وسط سحابة فوق قوصرة القصر المثلثة بأعلى الواجهة.. وكان هناك كاهن يشبه الإله تماماً باستثناء أنه كان أقل حجمًا وملابسه أقل فخامة، فدخل من الجهة اليمنى وانحنى للمتفرجين، ثم التفت إلى القصر وصاح قائلاً: «أوديب» في نغمات مزمارية بدت مضحكة بالمقارنة إلى لحيته التي تشبه لحية نبي من الانبياء. تصاعدت أصوات الطبول المزهوة وفتح باب القصر وظهر الملك متخذاً مظهر بطل من الابطال وعلى رأسه التاج. وقدم الكاهن احتراماته، فسمح له الملك الذي تمثل دوره دمية صغيرة ـ بالكلام.

قال الرجل العجوز بصوت كالمزمار: «اعط توجعاتنا واناتنا آذاناً صاغية.»

أحنى الملك رأسه .أصغى ثم قال: «إنني أسمع أنين المحتضرين أسمع صرخات الأرامل ونحيب الثكالى وهمهمات المصلين الخاشعين وابتهالاتهم».

قال الإله الجالس وسط السحب: «ابتهالات، هذا هو الروح والا فلا». وراح يربت على صدره في ارتياح.

همست ماري ساروجيني تفسر الموقف لويل: «لقد اصابهم نوع ما من الفيروسات. مثل الأنفلونزا الآسيوية، ولكنه أسوأ بكثير».

نفخ الكاهن العجوز في مزماره متكلمًا نافد الصبر. «اننا نردد الصلوات والابتهالات المناسبة. اننا نقدم أغلى الأضاحي، وقد جعلنا كل السكان يعيشون في أقصى حالات الطهر والنقاء ويجلدون أنفسهم كل يوم اثنين واربعاء وجمعة.

ولكن طوفان الموت ينتشر في اتساع متزايد، ويرتفع أعلى فأعلى. ولذلك ساعدنا يا أوديب، اغثنا.»

«لا يستطيع الا أحد الالهة أن يغيثكم».

صاح الاله السعيد: «اسمعوا، ولكن ما الطريقة؟»

«لا يستطيع إلا اله أن يقول لنا»

«صح». كذلك قال الاله في صوته «الباس العميق» وعاد يقول: «صح تماماً».

«لقد ذهب كريون، شقيق زوجتي لكي يستشير العراف. وحينما يعود ــ لانه يجب أن يعود حالا ــ سوف يعرف ما تنصح به السماء».

وأمن الصوت «الباسّ» العميق على هذا الكلام قائلاً: «ما سوف تأمر به السماء من شر كبيرا»

سألت ماري ساروجيني حينما ارتفع ضحك النظارة: «اكان الناس حقا بكل هذه البلاهة؟».

بدأ الفونوغراف يعزف «مارش الموتى» الجنائزي في مقام صول.

ومن اليسار إلى اليمين تقدم موكب مجلل بالسواد من المشيعين يحملون نعوشاً مغطاة بالقماش فعبروا مقدمة المسرح ببطء حتى اختفى، دمية بعد دمية. وحالما كانت الجماعة تختفي في الجانب الايمن كانت تعود إلى الظهور مرة ثانية من اليسار. وبدأ الموكب بلا نهاية، والجثث بلا عدد.

قال أوديب وهو يراقبهم في قبورهم: «هذا ميت. وهذا ميت اخر. وميت آخر، واخر».

انفجر الصوت «الباس العميق» قائلاً: سيلقنهم هذا درساً! سوف أعلمك أن تكون جلفاً قاسياً لا يرحم؟»

واستمر أوديب يقول:

«تابوت الجندي، والبغيّ؟ والطفل بارد كالحجر.

مضموم إلى الم الثدي الذي لم يرضعه أحد، والشاب مفزوعا يشيح عن الوجه المتورم الذي رفع رأسه إليه ذات ليلة عن وسادته التي يضيئها القمر. متلهفاً إلى القبل. موتى، الكل موتى!

يحزن عليهم من سيموتون سريعاً، ومن قدر عليهم.
منذ المولد أن يزحفوا في تردد إلى حديقة شجرات السرو البغيضة حيث يتثاءب.
قبر هائل، فاتحاً فمه لكي يتلقفهم محتجين إلى القمر».

وبينما كان يتكلم، دخلت دميتان جديدتان، تمثلان صبياً وفتاة، يرتديان أجمل الملابس البالانية، دخلتا من اليمين، واذ سارتا في الاتجاه المعاكس لحركة المشيعين المجللين بالسواد، وقفت الدميتان ذراعا في ذراع في مقدمة المسرح على مسافة قليلة إلى اليسار من المركز.

قال الصبي حينما انتهى أوديب من كلامه:

«ولكننا في نفس الوقت، نعيش من أجل الحدائق الوردية.

أما الشعائر السخيفة، المنذرة بالويل، التي تعشش في العقل، فتدعو اللانهاية الابدية، تستخرجها وتبرزها من الجلد الممسوس ومن اللحم المصهور».

غمغم الصوت «الباس العميق» في انزعاج قائلاً من شرفته السحابية:
«وماذا من أمري أنا؟ يبدو أنك نسيت أنني كائن مقدس».

كانت مواكب المشيعين اللانهائية ما تزال تتدفق في طريقها إلى المقابر... ولكن «المارش الجنائزي» قوطع فجأة في منتصف لحنه. وتركت الموسيقى ما خلفته من صمت لكي تحتله نغمة وحيدة عميقة ـ عزفها بوق التوبا مع اثنين من الالات الباس متطاولة في امتداد عريض. ورفع الصبي الواقف في المقدمة يده وقال: «اسمعوا، اللحن الرتيب. هو الحمل الثقيل الأبدي».

في صوت واحد موحد مع أصوات الالات الموسيقية غير البادية للعيان بدأ المشيعون ينشدون: «الموت، الموت، الموت، الموت...»

قال الصبي: «ولكن الحياة تعرف أكثر من لحن واحد».
تدخلت الفتاة بصوت رفيع: «تستطيع الحياة أن تغني بالصوت العالي والصوت الخفي، كليهما». وان لحنكم الرتيب الذي لا يتوقف والذي تنشدونه للموت لا يؤدي إلى وجود موسيقى أكثر ثراء».

رددت الفتاة وراءه: «موسيقى أكثر ثراء».

وبذلك الصوت الذي يبدو كما لو كان يجمع بين طبقة التينور وطبقة السوبرانو بدأوا في انشاد مجموعة متداخلة كالارابيسك من الأصوات التي كانت تتحلق حول محور صوت القرار من طبقة الباس.

تلاشى اللحن الرتيب مع الغناء تدريجياً حتى أطبق الصمت واختفى اخر المشيعين، وانسحب الصبي والفتاة إلى أحد الأركان، حيث كان بوسعهما أن يستمرا في تبادل القبلات دون ازعاج.

تعالت دقات الطبول مرة ثانية، ودخل كريون، سميناً مغلفاً في ثياب حمراء، وقد وصل لتوه من معبد «دلفي» محملاً بالنبوءات. وطوال الدقائق التالية دار الحوار باللغة البالانية، وعملت ماري ساروجيني كمترجمة.

«أوديب يسأله عما قال الاله؟ والآخر يقول له أن الاله قال ان كل المصائب نزلت بسبب رجل قتل الملك القديم الذي كان يحكم قبل أوديب. أن أحداً لم يقبض عليه أبداً... والرجل ما يزال يعيش في طيبة.. وهذا «الفيروس» الذي يقتل كل انسان قد أرسله الله ـ هذا ما قاله كريون على لسان الإله ـ وان الاله ارسل هذا الفيروس كعقاب.

إنني لا أعرف السبب الذي يدفع إلى انزال العقاب بكل أولئك الناس الذين لم تكن لهم في الأمر يدان، ولكن هذا ما يقول ان الاله قد قاله. وهو يقول ان الفيروس لن يكف عن قتل الناس حتى يقبض على الرجل الذي قتل الملك القديم فيبعد من طيبة. وبالطبع يقول اوديب انه سيفعل كل ما ينبغي فعله لكي يعثر على الرجل ويتخلص منه».

ومن ركنه الفضي القريب من الجمهور بدأ الصبي في الصياح بالانجليزية هذه المرة:

«يكون الاله على حقيقته حينما يتحدث، بغموض جليل. وحين يتحدث حديثاً واضحاً، فكلامه هو الهراء الفارغ غير الإلهي.

إنه يزأر فيكم: توبوا، فالخطيئة سبب الوباء. ولكننا نقول: القذارة هي السبب ــ فاغتسلوا، وبينما كان المتفرجون ما يزالون في ضحكهم، برزت جماعة أخرى من المشيعين من اجنحة المسرح وراحت تعبر المنصة.

قالت الفتاة الواقفة في مقدمة المنصة مع الصبي: «كارونا. المحبة والتعاطف. ان عذاب الاغبياء ليتشابه مع أي عذاب آخر».

شعر ويل بلمسة على ذراعه، فالتفت ليجد نفسه في مواجهة وجه موروجان الشاب الجميل النحيف.

قال موروجان بغضب (كنت ابحث عنك في كل مكان) كما لو كان ويل قد أخفى نفسه عامداً، للاشيء إلا لكي يضايقه. وكان يتحدث بصوت مرتفع حتى لقد تلفتت نحوهم عدة رؤوس وتعالت صيحات تطلب الهدوء.

مضى الصبي يبكته: «لم تكن في منزل الدكتور روبرت، ولا في منزل سوسيلا». غير عابىء بالاحتجاجات «الهدوء، الهدوء».

صدرت صيحة هائلة من الصوت «الباس العميق» للجالس فوق السحب: «هدوءاً» ثم أضاف الصوت يقول في غيظ شديد: «لقد وصلت الأمور إلى معبر ضيق وذلك إذا لم يستطع الله ببساطة أن يسمع نفسه وهو يتكلم».

قال ويل وهو يشترك في موجة الضحك العامة: «اسمع. اسمع» ولكنه نهض واقفاً، وتبعه موروجان وماري ساروجيني متسللين إلى باب الخروج. سألته ماري ساروجيني: «ألا تريد أن ترى الخاتمة؟» ثم التفتت إلى موروجان وقالت في لهجة تنم عن الضيق والرفض: «كان عليك حقا أن تنتظر».

اجابها موروجان بخشونة: «اهتمي بشؤونك ولا دخل لك في شؤون غيرك».

وضع ويل يده على كتف الطفلة وقال: «لحسن الحظ، كان تلخيصك للخاتمة حيا

للدرجة انني غير مضطر إلى أن أشاهدها بعيني» ثم اضاف بسخرية «ولا بد بالطبع، من أن يكون سموه محل اهتمامنا الأول».

جذب موروجان مظروفاً أبيض اللون من جيب السترة الحريرية البيضاء التي دوخت رأس الممرضة الصغيرة ذات مرة وناوله إلى ويل وهو يقول «من أمي. . إنه عاجل».

قالت ماري ساروجيني: «يا لـطيب رائحته، وهي تتشمم العبير الثقيل لخشب الصندل الذي كان يحيط برسالة الراني».

وبسط ويل ثلاث صفحات من ورق المذكرة الأزرق بلون السماء والذي كانت تعلو كل صفحة منه علامة تتكون من خمس زهرات لوتس ذهبية تحت تاج ملكي. ويا لكثرة ما رأى من خطوط تحت السطور ومن الحروف الكبيرة المتناثرة في بداية بعض الكلمات، وبدأ يقرأ.

«إن لعصفوري الصغير ـ يا عزيزي فارنابي ـ كل الحق ـ كما هي العادة، لقد خبرني المرة بعد المرة بما كان من المقدر لصديقنا المشترك أن يفعله من أجل «بالا الصغيرة» من خلال العون المالي الذي سوف تسمح له «بالا» بالمشاركة به في حملة الروح الصليبية في سبيل العالم أجمع. وهكذا، فحينما قرأت برقيته التي وصلت منذ بضع دقائق، عن طريق المخلص باهي وزملائه الدبلوماسيين في لندن لم يكن من قبيل المفاجأة لي أن أعرف أن اللورد (أ) قد أعطاك «كل الصلاحيات» ولا داعي للقول بأنها صلاحيات تصلح لكل مكان بما انها كـلية لكي تتفاوض باسمه ـ وباسمنا ذلك أن انتصاره هو انتصارك ايضاً، وانتصاري «وطالما أننا جميعاً صليبيون بطرق مختلفة» فهو انتصار الروح!!

ولكن وصول برقية اللورد (أ) ليس هو الخبر الوحيد الذي ينبغي أن أنبئك به. فالاحداث «كما علمنا بعد الظهر اليوم من باهي» تندفع نحو نقطة التحول العظمى في التاريخ البالاني ـ وتندفع بسرعة أكبر بكثير مما ظننت من قبل انها من الممكن أن تندفع بها. فهناك اسباب. . سياسية من جانب «وهي الاحتياج إلى ايقاف الانهيار الحديث في شعبية الكولونيل (د) واقتصادية من جانب» فان اعباء الدفاع أكثر جداً من أن تتحملها ريندانج وحدها. وفلكية من جانب «فالخبراء يقولون أن هذه الايام مفضلة بصورة لا مثيل لها من أجل قيام الـ «رام» وهم أنا وموروجان ـ بمغامرة فريدة، ومن أجل هذا المولود النموذجي. لبرج العقرب ـ كولونيل (د) لكل هذه الأسباب تقرر البدء في اعداد عمل خطط له اصلا ان يتم في ليلة المحاق وزوال القمر في نوفمبر القادم. . ولما كان الأمر كذلك، فمن المهم ان يجتمع ثلاثتنا «دون تأخير» لكي نقرر مـا يجب عمله في تلك الظروف الجديدة والقابلة للتغير، لكي ندفع إلى الامام بمصالحنا الخاصة، المادية والروحانية. أن ما يسمى (حادثة) دفعتك إلى شواطئنا في هذه اللحظة الحرجة الى أقصى حد، كانت،

كما يجب عليك أن تلاحظ، حادثة ظهرت فيها قوة العناية الالهية بجلاء. ويبقى علينا أن نتعاون، كما يجب أن يتعاون محاربون صليبيون مخلصون، بتلك القوة المقدسة التي نفثت الروح في قضيتنا بمثل ذلك العزم الشديد. . . ولذلك (تعال على الفور) أن موروجان معه السيارة وسوف يأتي بك إلى كوخنا المتواضع، حيث أؤكد لك يا عزيزي فارنابي انك سوف تلقى استقبالا «بالغ» الدفء من المخلصة لك تماما، فاتيماد».

طوى ويل الأوراق الزرقاء المعطرة الثلاث واعادها إلى مظروفها. لم يكن على وجهه أي تعبير. ولكنه كان شديد الغضب من وراء ذلك القناع من اللامبالاة. كان غاضباً من هذا الصبي السيىء السلوك الواقف أمامه والذي كان يتأود في سترته الحريرية البيضاء، بغيضاً وكريهاً في بلاهته المدللة. وكان غاضباً بينما كان يشم نفحة أخرى من عطر الخطاب من هذا النموذج الوحشي الساخر لامرأة. . بدأت بتدمير ولدها باسم حب الام والطهارة، وكانت تخزه وتدفعه باسم الله وبمعونة الاسياد الملائكة المنزلين، لكي يصبح قاذف قنابل محارب صليبي روحي تحت اللواء البترولي للمليونير جوألدهايد. . وقبل كل شيء، كان غاضباً من نفسه لانه قد أصبح منغمساً دون دافع وعن عمد مع هذين الرفيقين الشريرين المضحكين، ولا أحد يعلم إلا في السماء وحدها أي نوع من المؤامرات الدنيئة ضد كل القيم الانسانية الرفيعة لم يمنعه رفضه لقول كلمة (نعم) جواباً لأي سؤال من أن يؤمن في السر بهذه القيم وان يشتاق إليها «ويا له من اشتياق حار». قال موروجان «هيه هل تذهب؟» بلهجة من الثقة المطلقة. كان من الواضح انه يفترض انه من البديهي انه حينما تصدر «فاتيماد» امراً ما، فمن الضروري ان تكون الطاعة كاملة وفورية دون تردد.

كان يشعر بالحاجة إلى بعض الوقت لكي يهدأ، فلم يرد على موروجان من فوره وبدلاً من أن يجيب عليه التفت بعيداً لكي ينظر إلى العرائس التي كانت الآن قد اصبحت بعيدة عن مكان وقوفهم.

كان جوكاستا وأوديب وكريون جالسين على درجات القصر، وينتظرون ما كان من المفروض انه وصول الكاهن تيريزياس. وفوق رؤوسهم كان صاحب الصوت «الباس العميق» يخزهم بكلماته من حين إلى حين. وكانت جماعة من مشيعي الجنازات المجللين بالسواد تعبر منصة المسرح. وبالقرب من المصابيح الأرضية كان الصبي البالاني قد بدأ يصدح بالشعر المرسل.كان يغني:

«النور والمحبة ــ هذا هو جوهرنا الذي يعجز الكلام عن وصف بساطته ولكن البسطاء، عصراً بعد عصر، انتظروا حدوث التعقيدات التي تكفيهم لكي يعرفوا في الروايات وحدتهم في الكثرة وما يمتلكونه.

من كل شيء، وهنا، الان، ولكي يعرفوا حقيقتهم: انتظروا وما زالوا ينتظرون

تحقق العبث: اتفاق الأشياء، التي يستحيل اتفاقها، والتي لا تبدو، قابلة للتداخل: النزوة مع المحبة، أو الحقيقة مع وظيفة الكبد أو الجمال، مع عصارة المعدة، أو الصفراء، أو المني، أو الله مع طعام الغداء، أو الله مع غياب طعام الغداء، أو صوت الاجراس، اذ يدق فجأة: واحد، اثنين، ثلاثة، في اذن المحروم من النوم».

تصاعدت موجة نغمات من الأوتار الرنانة، تبعتها النغمات الممتدة لآلة الفلوت.

ردد موروجان السؤال: «هل نذهب؟».

ولكن ويل رفع يده طلباً للصمت. كانت الدمية التي تمثل الفتاة قد تحركت إلى مركز منصة المسرح وكانت قد بدأت تغني:

«الفكر هو خروج مليارات خلايا الدماغ».

الثلاثة في الداخل إلى الخارج. بلايين حركات كرات البلياردو تتخذ شكل الايمان والشك. ايماني ليس الا تصادماتها، منطقي هو انزيماتها، افرازها القرمزي من المادة الحيوية، هو ما يتراءى لي من الرؤى، افرازها الابيض هو جرائمي.

ولما كنت أنا، هي الترتيب الواضح لنسبة التسعة والتسعة من عشرة فان كل ذرة في مدارها يجب أن تكون نبوءة بمجيئي!»

فقد موروجان كل صبره فأمسك بذراع ويل وقرصة قرصة وحشية وصاح:«هل انت قادم»؟

التفت ويل إليه بغضب وصاح: «ماذا تظن نفسك فاعل بحق الجحيم ايها الأبله الصغير؟» ثم جذب ذراعه بقوة من قبضة الصبي.

غير موروجان لهجته مرتعباً وقال: «إنما أردت أن أعرف ان كنت مستعداً لكي تأتي إلى منزل أمي».

أجابه ويل: «لست مستعداً، لأنني لن أذهب».

صرخ موروجان في لهجة المندهش العاجز عن التصديق: «لن تذهب». «قل لامك» إنني آسف جداً لانني مرتبط بموعد سابق». ثم أضاف يقول: «موعد مع شخص يحتضر» «ولكن هذا أمر هام إلى درجة مخيفة». «والاحتضار أيضاً هام إلى درجة مخيفة».

خفض موروجان من صوته وهمس قائلاً: «هناك شيء ما يحدث».

صاح ويل وسط الضجيج المشوش الصادر من الزحام: «لا يمكنني أن أسمعك».

تلفت موروجان حوله بطريقة توحي بالفهم ثم غامر برفع صوته قليلاً: «هناك شيء ما يحدث ــ شيء هائل وخطير».

«وهناك شيء أكثر خطورة يحدث في المستشفى».

بدأ موروجان يجيب: «لقد سمعنا منذ برهة..» ثم عاد ينظر حوله مرة ثانية، ثم

هز رأسه وقال «كلا، لا أستطيع أن أخبرك ــ ليس هنا. هذا هو السبب الذي «يحتم» عليك أن تأتي إلى الكوخ. «الآن». ليس هناك وقت نضيعه».

نظر ويل بسرعة إلى ساعته وردد وراءه: «ليس هناك وقت نضيعه» ثم قال وهو يلتفت إلى ماري ساروجيني: «يجب أن نشرع في العودة. من أي طريق؟».

قالت: «سوف أريك الطريق». ثم انطلقا يداً في يد.

صاح موروجان متوسلاً: «انتظر. . انتظر» ثم لما رأى ويل وماري ساروجيني ماضيين في سيرهما جاء يركض وسط الزحام من ورائهما وصرخ نائحاً: «ماذا سأقول لها؟».

كان رعب الصبي يائساً بشكل مضحك. حلت الرغبة في التفكه محل الغضب في عقل ويل. ضحك بصوت مرتفع، ثم توقف عن السير وسأل ماري: «ماذا كنت ستقولين لها أنت يا ماري ساروجيني؟».

قالت الطفلة: «كنت أقول لها ما حدث بالضبط. اعني لو كانت الراني هي أمي». ثم أضافت تقول بعد برهة تفكير قصيرة: «ولكن الراني ليست أمي». رفعت عينيها إلى موروجان وسألته: «ألا تنتمي إلى أحد نوادي تبادل التبني؟».

لم يكن مشتركا في مثل هذا النادي بالطبع. فقد كانت مجرد فكرة «نادي تبادل التبني» عند الراني كفرا صريحا. فالله وحده هو الذي يستطيع أن يصنع اما من الامهات. . وكانت محاربة الروح الصليبية تريد أن تنفرد بضحيتها التي منحها لها الله.

هزت ماري ساروجيني رأسها وقالت: «لا نادي لتبادل التبني. هذا مريع، كان بوسعك أن تذهب فتقيم عدة أيام عند واحدة من امهاتك الاخريات».

ولما كان موروجان ما يزال مرتعباً من مسؤولية أن يكون عليه أن يحكي لأمه الوحيدة التي يملكها أخبار فشله في مهمته فقد بدأ يتمسك في هستيرية بتنوية جديدة في الموضوع القديم قائلا، مردداً: «أنا لا أعرف ماذا ستقول، أنا لا أعرف ماذا ستقول».

قال له ويل: «هناك طريقة واحدة لاكتشاف ماذا ستقول: «أذهب واسمع ما ستقوله».

توسل إليه موروجان: «تعال معي. أرجوك» وقبض على ذراع ويل. . .

«قلت لك ألا تلمسني». وانسحبت اليد الممسكة بذراعه بسرعة. ابتسم ويل مرة ثانية وقال: «هذا أفضل، ورفع عصاه مودعا وقال بالفرنسية ساخراً: «ليلة سعيدة، يا آلتيس». ثم قال لماري ساروجيني رائق المزاج: «هيا بنا أمامي أنا كفيل».

سألته ماري ساروجيني: «هل كنت تمثل عليه، أم كنت غاضباً بحق؟»

أجابها مؤكداً: «بحق وصدق». ثم تذكر ما كان قد رآه في صالة الألعاب بالمدرسة.

فترنم بالألحان الأولى من رقصة «مدخنة الشيطان» وطرق الرصيف بطرف عصاه الحديدي وقال:

«أكان من واجبي أن أدوس على تلك الشعلة؟».

«ربما كان هذا الأفضل».

«أتظنين هذا؟»

«انه سوف يكرهك حالما يتخلص من خوفه».

هز ويل كتفيه في لامبالاة. ليس هناك شيء أقل من ذلك إثارةً للاهتمام ولكن، مع تراجع اللحظة الماضية إلى الوراء، ومع تقدم اللحظة المقبلة وبينما كانا يخلفان وراءهما مصابيح النيون القوية التي تضيء ساحة السوق ويمضيان قدما في الشارع المتصاعد الذي ينحني فوق التل إلى المستشفى بدأت حالته النفسية تتغير. هيا بنا يا ماك فيل هيا نحو ماذا، وبعيداً عن أي شيء؟ نحو صورة أخرى من صور الفزع الأكبر وبعيداً عن أي أمل في ذلك العام المبارك من الحرية الكاملة الذي وعده به جو الدهايد، وهو أن يربح تكاليفه «وطالما أن بالا كانت قد حكم عليها بالفناء على أي حال» فان هذا الربح لا يخلو من الاخلاقية ولا يدفع بالخيانة بل انه لا يبتعد فقط عن الحلم بالحرية، بل انه يبتعد ـــ إذا ما توجهت الراني بالشكوى إلى جو وإذا استبد الغضب بجو إلى درجة كافية ـــ انه يبتعد عن أي احتمالات أخرى للبقاء في عبوديته ذات الأجر المرتفع باعتباره متفرجاً منفذاً محترفاً. . . اينبغي عليه اذن أن يعود أدراجه، أينبغي عليه أن يعثر على موروجان وأن يقدم اعتذاراته وأن يقوم بكل ما تأمره به تلك المرأة المرعبة ـ لقد بقي من الطريق مائة ياردة، واصبح من الممكن أن يرى أضواء المستشفى تلمع بين الأشجار.

قال: «لنسترح هنا قليلاً». سألته ماري ساروجيني بجزع «هل تشعر بتعب؟».

«قليلاً».

استدار إلى الخلف، واتكأ على عصاه، ونظر إلى أسفل نحو ساحة السوق. وتحت أضواء المصابيح القوية، تألق بهو المدينة بلونه القرمزي مثل شراب التوت البري المثلج الذي يقدم في المأتم وذكرى العزاء.

وعلى برج المعبد، كان بوسعه أن يرى، افريزاً فوق افريز من الفوضى الباذخة من تماثيل النحت الهندي، تماثيل النهود والمؤخرات الضخمة وتماثيل شيفا التي تطفر مرحة في رقصها، وصفوفاً من تماثيل بوذا الماضي، وبوذا المستقبل جالسة في نشوة هادئة. وإلى الأسفل، في المساحة الممتدة بين شراب التوت والأساطير، انهمر الزحام، وفي مكان ما وسط ذلك الزحام كان هناك وجه نحيف وسروال من الساتان الحريري الأبيض. أينبغي عليه أن يعود أدراجه. إن هذا ليكون التصرف المعقول والمأمون والحصيف الفطن. ولكن صوتاً داخلياً ـــ ليس عصفوراً صغيراً مثل صوت الراني وانما صارخاً قوياً ـــ صاح به «حقير، حقير»،

أهو الضمير؟ كلا الحس الأخلاقي؟ انه محرم بقرار سماوي، ولكن الحقارة الزائدة عن الحسد والقبح والابتذال الذي يفوق ما يتطلبه نداء الواجب ــ كانت تلك أشياء لا يستطيع المرء ببساطة ــ باعتباره رجلاً ذواقة ــ أن يتحالف معها.

قال لماري ساروجيني: «هيه... هل نمضي؟»

دخلا مكتب استقبال المستشفى. كانت هناك رسالة لهما من سوسيلا عند الممرضة الجالسة امام المكتب. كان على ماري ساروجيني أن تذهب مباشرة إلى منزل مسز راو، حيث كانت هي وتوم كريشنا سيقضيان الليلة. أما مستر فارنابي فكان يجب ان يطلب منه أن يذهب على الفور إلى الغرفة رقم ٣٤.

قالت الممرضة: «من هنا». وفتحت بابا لولبياً.

خطا ويل إلى الامام. وبصورة أوتوماتيكية بدأ عمل الانعكاس الشرطي للتهذيب فقال: «أشكرك» وابتسم.. ولكنه مضى يتطلع نحو الأمر المقبل المتوقع المفهوم باحساس كئيب بالغثيان في قمة المعدة.

قالت الممرضة: «الباب الأخير على اليسار..» ولكنها الان يجب أن تعود إلى مكتبها في مركز الاستقبال.. «ولذلك فسوف اتركك لكي تذهب وحيداً». كذلك قالت بينما أغلق الباب من خلفها.

ردد يقول لنفسه، وحيداً، وحيدا ــ وكان الأمر المقبل المتوقع المفهوم متطابقاً مع الماضي الذي يسعى وراءه ويطارده، كان الفزع الأكبر خارجاً عن حدود الزمان، حاضراً حضوراً أبدياً دون نهاية. كان هذا الدهليز الطويل ذو الجدران الخضراء هو نفس الدهليز الطويل الذي سار فيه، منذ عام مضى، إلى الغرفة الصغيرة حيث كانت موللي موشكة على الموت. كان الكابوس يعوده مرة أخرى. تحرك واعياً كالمحكوم عليه نحو رؤية الكابوس المهلكة المخيفة. إنه الموت. مجرد رؤية الموت.

اثنان وثلاثون، ثلاثة وثلاثون، اربعة وثلاثون.. طرق الباب وانتظر مصغياً لضربات قلبه. فتح الباب فوجد نفسه امام الممرضة الصغيرة «راها» وجهاً لوجه.

همست له: «كانت سوسيلا تنتظر مقدمك».

تبعها ويل إلى داخل الحجرة. دار ببصره من حوله، فأبصر جانب وجه سوسيلا كالصورة الظلية أمام مصباح وفراشاً، ووجها داكناً معلولاً على الوسادة، وذراعين لم يكونا أكثر من عظمتين مكسوتين بالجلد المدبوغ ويدين كالمخلبين. الفزع الأكبر مرة أخرى، التفت بعيداً وهو يرتجف.. حركته زادها نحو مقعد بالقرب من نافذة مفتوحة. جلس وأغمض عينيه أغلقهما بصورة عفوية في مواجهة الحاضر، ولكنه بنفس الحركة فتحهما

على سعتهما ليطلا على ذلك الماضي الكريه الذي ذكره به هذا الحاضر القاتم. كان هناك في تلك الغرفة الأخرى، مع العمة ماري. أو بالأحرى مع الشخص الذي كان هو العمة ماري ذات يوم، ولكنها كانت الآن شخصاً آخر يصعب أن يتعرف عليه.. شخصاً لم يكن قد سمع من قبل ابداً عن المحبة والشجاعة اللتين كانتا هما جوهر كيان العمة ماري ووجودها. شخصاً ممتلئاً بكراهية هائلة لا تميز بين انسان وانسان، كراهية لكل من يقترب منها، تبغضهم، أيا كانوا ببساطة لأن السرطان لم يصبهم لأنهم لم يكونوا يتلوون من الالم، ولم يحكم عليهم بالموت قبل أن يحين حينهم وجنباً إلى جنب هذا الحسد السيىء الطوية لصحة الآخرين وسعادتهم نما احساس مرير شكس، من الاشفاق على النفس، واليأس القانط.

ولماذا لي أنا؟ لماذا حدث هذا الأمر لي أنا؟

كان بوسعه أن يسمع الصوت الصارخ الشاكي، وكان بوسعه أن يرى هذا الوجه الكالح المبلل بالدموع انها الشخص الوحيد الذي أحبه حقاً واعجب به اعجاباً خالصاً من كل قلبه ومع هذا، فها هو يشعر بنفسه وقد رآها في انهيار، وهو يمقتها — يمقتها، في كراهية ايجابية.

فتح عينيه ثانية لكي يهرب من الماضي. رأى رادها جالسة على الأرض وقد صالبت ساقيها ونصبت ظهرها، في وضع التأمل. اما سوسيلا فكانت ما تزال على مقعدها إلى جوار الفراش وقد بدت مستمرة على وضعها الساكن الممتلىء بالتركيز. نظر إلى الوجه المستلقي على الوسادة. كان ذلك الوجه أيضاً ما يزال ساكناً، ساكناً في هدوء لا بد أن يكون قريباً من جمود الموت الهادىء. فجأة صاح في الخارج، وسط الظلمة المشعشة ببغاء صارخ، بعد الصرخة شعر ويل بأن الصمت قد ازداد رسوخاً وعمقاً، واصبح محملاً بالمعاني الغامضة الغريبة.

قالت سوسيلا: «لاكشمي» ثم وضعت يدها على ذراع المرأة العجوز المتلاشي. ثم عادت تناديها مرة أخرى بصوت أكثر ارتفاعاً «لاكشمي» ولكن الوجه المجلل بهدوء الموت ظل على سلبيته، فقالت سوسيلا: «يجب ألا تنامي».

يجب ألا تنام؟ ولكن النوم بالنسبة للعمة ماري — النوم الصناعي الذي كان يأتي بعد الحقن بالمنومات — كان هو الراحة الوحيدة والمهرب الوحيد من التعذيب الذاتي الناشىء عن الاشفاق على الذات واحتضان الخوف.

«لاكشمي!»

عاد الوجه إلى الحياة.

همست المرأة العجوز: «لم أكن نائمة في الحقيقة. إنما كياني هو البالغ الضعف.

يبدو لي انني أطفو بعيداً».

قالت سوسيلا: «ولكن ينبغي عليك أن تكوني هنا. ينبغي عليك أن تعرفي أنك هنا. طول الوقت». ثم وضعت وسادة أخرى تحت كتفي المرأة المريضة، ومدت يدها فتناولت زجاجة من أقراص الاملاح ذات الرائحة الطيبة المنعشة كانت موضوعة على المائدة المجاورة للسرير.

استنشقت لاكشمي الرائحة المنعشة، وفتحت عينيها ورفعت بصرها إلى وجه سوسيلا وقالت: «لقد نسيت كم انت جميلة. ولكن دوجالد كان صاحب ذوق جيد دائماً». للحظة واحدة كان شبح الابتسامة المرورة على الوجه الخالي من اللحم. اضافت تقول بلهجة أخرى بعد لحظة: «ما رأيك يا سوسيلا؟ هل سنراه ثانية؟ أعني هناك، فوق؟».

ربتت سوسيلا في صمت على يد المرأة العجوز ثم قالت فجأة وهي تبتسم: «كيف كان يمكن للراجا القديم أن يطرح هذا السؤال؟ ثم قالت: «كان سيقول: هل من رأيك «اننا» (ضعي «اننا» بين قوسين) سوف نراه «هو» (ضعي «هو» بين قوسين) «فوق هناك» (ضعي الكلمتين بين قوسين)؟».

«ولكن ما رأيك أنت؟»

«رأيي أننا جئنا جميعاً من نفس النور، واننا سنعود ثانية إلى النور نفسه».

فكر ويل بينه وبين نفسه: «كلمات كلمات، كلمات، وبجهد واضح رفعت لاكشمي يدها واشارت بابهام إلى المصباح المضيىء الموضوع على المائدة.

همست: «انه يسطع في عيني. حلت سوسيلا المنديل الحريري الأحمر الذي يحيط برقبتها ولفته على حاجز الظل المعلق في المصباح. تحول الضوء من اللون الأبيض الذي يكشف كل شيء دون رحمة، لكي يصبح معتماً وردياً، دافئاً مثل الومضة التي كانت تغمر فراش بابز كذلك وجد ويل نفسه يفكر ويتذكر ــ والتي كانت تصدر من اعلان النيون عن مشروب «جين بورتر» القرمزي الفاقع.

قالت لاكشمي: «هذا أحسن بكثير» واغمضت عينيها. وبعد صمت طويل قالت على حين فجأة: «النور، النور، انه هنا مرة أخرى. وصمتت ثانية ثم عادت تقول هامسة: «أوه، يا للروعة، يا للروعة»، وفجأة ارتجف وجهها.

أخذت سوسيلا كفي العجوز بين كفيها وسألتها: «اشتد الألم أهو ألم سيىء؟».

قالت لاكشمي: «كان المفروض ان يكون سيئاً، لو كان حقاً هو ألمي انا ولكنه ليس ألمي بشكل ما. إنه شيء يشبه ما تكتشفينه مع دواء الموكشاه لا شيء ينتمي إليك انتماء حقيقياً. حتى ولا ألمك».

«أما يزال الضوء هنا؟»

«هزت لاكشمى رأسها وقالت: وإذ استرجع ما مضى منذ قليل استطيع أن أقول لك متى تلاشى النور بالتحديد.لقد تلاشى وابتعد حينما بدأت اتكلم عن كون الألم ليس ألمي».

«ومع هذا فقد كان ما قلته جميلاً».

«أعرف هذا ــ ولكنني كنت أقوله».لاح أمام عيني ويل من جديد شبح عادة قديمة من سوء الطوية الذي يظهر في غير مناسبة، لاح طافياً عبر وجه لاكشمى.

سألتها سوسيلا: «فيم تفكرين؟»

«في سقراط».

«سقراط؟»

«ظل يثرثر، يثرثر، يثرثر ــ حتى بعد أن كان قد ابتلع السم بالفعل. لا تدعيني اتكلم يا سوسيلا. ساعديني على أن انسلخ عن نوري وعلى أن أخلعه عني».

بعد لحظة من الصمت، بدأت سوسيلا تتكلم: «أتذكرين تلك المرة في العام الماضي، حينما ذهبنا جميعاً إلى معبد شيفا القديم فوق محطة المناطق المرتفعة؟ أنت وروبرت ودوجالد وانا والطفلان ــ أتذكرين؟».

وابتسمت لاكشمى باستمتاع حين هفت عليها الذكرى.

«إنني أفكر خاصة في ذلك المنظر الذي يبدو من الناحية الغربية للمعبد ــ المنظر المترامي حتى البحر الأزرق. فالأخضر فالارجواني وظلال تلك السحب التي تشبه في لونها الحبر. والسحابات نفسها ــ التي تشبه الجليد، ثم الرصاص، فالطباشير، وحرير الساتان، وبينما كنا ننعم النظر، سألت أنت سؤالاً. هل تذكرين، يا لاكشمى؟».

«أتقصدين سؤالي عن النور الساطع؟»

قالت سوسيلا مؤمنة على كلامها: «أجل، كان النور الساطع لماذا يتحدث الناس عن العقل مثلما يتحدثون عن النور؟ أيكون ذلك لأنهم رأوا الشمس الساطعة ووجدوها جميلة، حتى ليبدو أنه من الطبيعي تماما أن يطابقوا بين بوذا الطبيعة وبين أسطع كل ما يمكن من الأنوار الساطعة؟ أم انهم وجدوا ان الشمس الساطعة جميلة لأنهم، بوعي أو دون وعي، كانوا يحققون كشوفاً من كشوف العقل في شكل النور منذ ولادتهم وقد كنت أنا أول من أجاب على أسئلتك». هكذا قالت سوسيلا لنفسها وهي تبتسم ثم أضافت تقول: «ولما كنت أقرأ في ذلك الوقت شيئاً ما من تأليف أحد علماء النفس السلوكيين، فإنني لم أكف عن التفكير حينئذ، لم أفعل أكثر من أن أعطيك «بين قوسين»: «وجهة النظر العلمية» في الموضوع. إن الناس يساوون العقل «أياً كان معنى كلمة العقل» بهلوسات

النور، لأنهم رأوا الشمس وهي تغرب كثيراً جداً من المرات، فوجدوا منظرها مقبضاً محزناً كثيباً.. ولكن روبرت ودوجالد لم يكونا من هذا الرأي أبداً. لقد أصرا على ان النور الساطع هو ما يأتي أولاً. وقالوا إن منظر الغروب يعجبنا إلى درجة الجنون لأن الغروب يذكرنا بما يجري على الدوام داخل جماجمنا، وخارج الزمان والمكان سواء عرفنا بجريانه الدائم أو لم نعرف عنه شيئاً.. وقد وافقت أنت على رأيهما يا لاكشمى ـ أتذكرين؟ وقلت: «كنت أحب أن أكون من رأيك إلى جانبك يا سوسيلا، لا لشيء إلا لأنه ليس من الخير أن يكون رجالنا هؤلاء على حق طول الوقت. ولكنهم في هذا الموضوع ـ وهذا واضح بتأكيد شديد ـ انهم في هذا الموضوع على حق تماماً، وقد كانا بالطبع على حق، وكنت أنا بالطبع على خطأ إلى درجة يائسة. ولست بحاجة إلى أن أقول انك كنت تعرفين الاجابة قبل أن تطرحي ذلك السؤال».

همست لاكشمى تقول: «انني لم اعرف ابداً أي شيء. لم يكن بوسعي إلا أن أرى».

قالت سوسيلا: «اذكر ما قلته لي عن رؤية النور الساطع. اتحبين أن اذكرك به».

أومأت المرأة المريضة برأسها.

قالت سوسيلا: «كانت المرة الأولى حينما كنت انت في الثامنة من عمرك. كانت هناك فراشة برتقالية اللون تقف على ورقة من أوراق الشجر تبسط جناحيها ثم تضمهما في نور الشمس. وفجأة ظهرّ أمامك النور الساطع، نور الجوهر الخالص ساطعاً يلمع عبر تلك الفراشة، كما لو كان شمساً اخرى».

همست لاكشمى: «أكثر بريقاً من الشمس بكثير».

«ولكنه أكثر رقة. إن بوسعك أن تنظري إلى النور الساطع دون أن تغشى عيناك. وانت الان تتذكرين ذلك. فراشة على وريقة خضراء تبسط الجناحين ثم تضمهما ـ وهذا هو بوذا الطبيعة حاضراً حضوراً كليا، انه النور الساطع يكسف نور الشمس. ولم تكوني قد تجاوزت الثامنة من العمر».

«ماذا كنت قد فعلت لكي استحق هذا؟».

وجد ويل نفسه يتذكر ذلك المساء، قبل موت العمة ماري بأسبوع أو ما يقرب من الأسبوع، حينما كانت العمة ماري قد تكلمت عن الأوقات الرائعة التي كانا قد عاشاها سوياً في منزلها الصغير في بلدة «ريجنسي» بالقرب من مدينة «ارونديل» حيث كان قد أمضى أجمل ايام عطلاته.كان ينفق الأيام في اللعب، يطرد الزنانير البرية من أعشاشها بدخان النار والكبريت، ويتنزه في المنحدرات الخضراء أو تحت الشواطىء القصيرة المتعرجة ثم تناول الطعام في كرات السجق في بلدة «بوجنور» والعرافة الغجرية التي تنبأت له

ـ حين قرأت له حظه في المستقبل ـ بأنه سوف ينتهي إلى أن يكون «مستشاراً لخزانة الدولة» والقسيس ذو العباءة السوداء والأنف الأحمر الذي طاردهم حتى طردهم من كاتدرائية تشيشستر لأنهم كانوا قد ضحكوا أكثر من اللازم.. وراحت العمة ماري تردد في مرارة «ضحكنا أكثر من اللازم.. ضحكنا أكثر من اللازم».

كانت سوسيلا تقول: «والآن فكري في هذا المنظر الذي يبدو من معبد شيفا. فكري في تلك الأضواء والظلال الممتدة على سطح البحر وتلك المساحات الزرقاء بين كتل السحب. فكري فيها، ثم ابتعدي عن تفكيرك وتخلي عنه. تخلي عنه.. حتى يأتي اليك البال الرائق الذي لا فكر يشوبه. الأشياء تدخل في الفراغ، والفراغ يدخل في الجوهر والجوهر يدخل في الأشياء مرة أخرى، والأشياء تعود إلى عقلك. تذكري ما قيل في كتاب سوترا: «وعيك أنت إذ يسطع، يسمو في اللانهاية يصبح جزءاً لا ينفصم عن كتلة الاشعاع العظيمة، يصبح حراً، غير خاضع ـ للميلاد ولا للموت.. وإنما يصبح شبيهاً بالنور الذي لا يفنى، بوذا امتيابها بوذا الامتزاج الشامل والمحبة الخالصة».

رددت لاكشمي تقول: «شبيها بالنور. ومع هذا فالظلام يكلل كل شيء مرة ثانية».

قالت سوسيلا: «الظلمة قائمة لأنك تحاولين باستماته. الظلمة قائمة لأنك تريدين أن يسطع النور. تذكري ما كنت تقولينه لي حينما كنت فتاة صغيرة: برفق يا طفلتي.. برفق، عليك أن تتعلمي كيف تفعلين كل شيء برفق.

أجل أحسي واشعري برفق، حتى لو كان احساسك عميقاً. دعي الاشياء برفق تحدث، برفق كوني على مستواها .. لقد كنت في تلك الأيام جادة جدية منافية للطبيعة والعقل، كنت متزمتة صغيرة عديمة الاحساس بالفكاهة. برفق، برفق ـ كانت هذه هي أحسن نصيحة وجهت لي في حياتي. حسناً انني أريد الآن أن أقول لك نفس الشيء يا لاكشمي، برفق يا حبيبتي، برفق حتى لو كان الأمر احتضار وموت. لا شيء مؤكد إلى درجة مجافاة العقل والطبيعة. لا شيء منمق طنان أجوف، ولا شيء رتيب أبدي بلا نهاية وليست هناك شخصية متورمة واعية بذاتها إلى درجة أن تفرض علينا تصنعها وتقليدها للمسيح أو جوته أو «نيل الصغير» الذي أصبح موته كارثة في إحدى الروايات.. وليس هناك بالطبع أي أساطير دينية سوى حقيقة الموت وحقيقة النور الساطع. إذن فالق عنك كل متاعك وتقدمي إلى الأمام. في كل مكان حولك تنتشر فخاخ الرمال المتحركة، تتلمظ لابتلاع قدميك وتغور إلى الأعماق، تحاول أن تبتلعك وأن تمتصك إلى قيعان الخوف والاشفاق على الذات واليأس. وهذا هو السبب الذي يجعل من الواجب عليك أن تسيري برفق شديد. برفق يا حبيبتي. على أطراف أصابعك، ولا تحملي أي متاع، حتى ولا حقيبة اليد... لا يثقلك شيء على الاطلاق».

لا يثقلك شيء على الاطلاق.. فكر ويل في العمة ماري المسكينة وهي تغرق في كل خطوة في قيعان أعمق وأعمق من الرمال المتحركة.

مضت وظلت تناضل وتحتج حتى النهاية في القيعان الأكثر والأكثر عمقاً، حتى اختفت في القاع، كلياً وإلى الأبد، غارقة في الفزع الأكبر.. ونظر ثانية إلى الوجه الخالي من اللحم المستلقي على الوسادة فرآه يبتسم.

جاء الهمس الخشن يقول: «النور. النور. النور الساطع. إنه هنا. جنباً إلى جنب الألم على الرغم من الألم».

سألت سوسيلا: «وأين أنت؟».

قالت لاكشمي: «هناك، في الركن..» وحاولت أن تشير إلى الركن الذي تقصده، ولكن اليد المرفوعة تهاوت وسقطت في مكانها، دون حركة، فوق الغطاء، وعادت تقول: «يمكنني أن أرى نفسي هناك ويمكنها هي أن ترى جسدي على الفراش».

«أيمكنها هي أن ترى النور؟».

«كلا. النور هنا. حيث يوجد جسدي».

فتح باب غرفة المريضة بهدوء. أدار ويل رأسه فرأى جسم الدكتور روبرت ـ في الوقت المناسب ـ وهو يبرز من وراء الستارة في ضوء الغسق الوردي.

نهضت سوسيلا وجاءت به إلى مكانها بجوار الفراش. جلس الدكتور روبرت وانحنى إلى الأمام وأخذ احدى يدي زوجته في احدى يديه ووضع يده الأخرى على جبهتها.

همس قائلاً: «هذا أنا...»

«أخيراً»

قال لها أن شجرة قد سقطت على الخط التليفوني فقطعته. ولم يكن هناك أي اتصال بمحطة المناطق المرتفعة إلا الطريق البري. وكانوا قد أرسلوا رسولاً في سيارة، ولكن السيارة تعطلت. وهكذا ضاع ما يزيد على الساعتين، واختتم الدكتور روبرت كلامه قائلاً: «ولكن شكراً لله فها قد وصلت أخيراً».

تنهدت المرأة المحتضرة بعمق، وفتحت عينيها للحظة فنظرت إليه بابتسامة ثم أغمضتها ثانية وقالت.. «كنت أعرف أنك سوف تأتي».

قال بلهجة شديدة الرقة: «لاكشمي. لاكشمي». ومر بأطراف أصابعه على الجبهة المجعدة مرة بعد مرة. وقال: «يا حبيبتي الصغيرة». نزلت دموع على خديه.. ولكن صوته

كان ثابتاً وكان يتحدث برقة، ليس ضعفاً وإنما امتلاء بالقوة.

همست لاكشمي تقول: «لم أعد هناك في الركن».

قالت سوسيلا تفسر لحماها: «لقد كانت هناك في الركن، تنظر إلى جسدها هنا فوق الفراش».

«ولكنني عدت الآن. انا والألم، أنا والنور، انا وانت، كلنا معاً». . عاد الببغاء الى الصراخ ثانية، وعبر ضوضاء الحشرات التي تساوي الصمت في هذا الليل الاستوائي، جاء صوت بعيد ولكنه واضح لموسيقى مرحة، موسيقى آلات الفلوت والأوتار المشدودة وضربات الطبول الصماء الثابتة.

قال الدكتور روبرت: «اسمعي. . أيمكنك سماعها؟ إنهم يرقصون».

رددت لاكشمي وراءه: «يرقصون. . . يرقصون. . .»

همست سوسيلا: «يرقصون برفق شديد. كما لو كانت لهم أجنحة».

أصبحت الموسيقى أكثر ارتفاعاً حتى صارت مسموعة مرة أخرى.

مضت سوسيلا تقول: «إنها رقصة الغزل».

«رقصة الغزل يا روبرت. هل تذكر؟»

«هل يمكنني أبداً أن أنسى؟»

أجل، كذلك قال ويل لنفسه، أيمكن للمرء أبداً أن ينسى، أيمكن للمرء أبداً أن ينسى تلك الموسيقى الأخرى البعيدة، ولكن بالقرب، تتصاعد في سرعة وضحالة غير عاديين أصوات انفاس الاحتضار في أذن صبي صغير؟ في المنزل الواقع عبر الشارع، كان شخص ما يتدرب على عزف إحدى رقصات الفالس التي ألفها برامز والتي كانت العمة ماري تحب أن تعزفها. واحداً ــ اثنان ثم ثلاثة وواحداً ــ اثنان ثم ثلاثة وواحد اثنان ثلاثة وواحد ثم خرجت الانسانة الكريهة البغيضة الغريبة التي كانت هي العمة ماري ذات يوم خرجت من غيبوبتها الاصطناعية وفتحت عينيها. وظهر على الوجه الناحل الأصفر تعبير يدل على أعمق مشاعر البغض، وكان الصوت الخشن الذي لا يمكن التعرف منه على صاحبته فيما يكاد يشبه الصراخ.

«اذهب وقل لهم ان يكفوا عن العزف». ثم تحولت خطوط الكراهية البادية على وجهها فأصبحت خطوطاً دالة على اليأس، ثم بدأت هذه المرأة الغريبة، هذه الغريبة البغيضة الجديرة بالرثاء، بدأت في الانتحاب دون أن تستطيع السيطرة على نفسها وكانت رقصات الفالس هذه التي الفها برامز هي المقطوعات التي أحبها فرانك أكثر من كل ما تعرفه من المؤلفات الموسيقية.

جاءت هبة أخرى من الهواء البارد فجاءت معها بنغمة أخرى أكثر ارتفاعا من الموسيقى المرحة المشرقة.

قال الدكتور روبرت: «كل هؤلاء الشبان يرقصون سوياً. كل هذا الضحك وهذه الرغبة، وكل هذه السعادة التي لا تعقيد فيها».

وهم جميعاً هنا، مثل الجو المحيط بنا، كمجال للطاقة نحن في نطاقه. فرحهم وحبنا ـ حسب سوسيلا وحبي ـ يعملان سوياً، وكل منهما يقوي الآخر ويدعمه. الحب والفرح يغمرانك يا حبيبتي، الحب والفرح يحملانك ويصعدان بك إلى سلام النور الساطع وسكينته الهادئة.

«اصغي إلى الموسيقى. أما زال يمكنك سماعها يا لاكشمي؟»
قالت سوسيلا: «لقد انجرفت بذهنها بعيداً مرة أخرى. حاول أن تعيدها إلى هنا».
دس الدكتور ذراعه تحت الجسد المنحول فرفعه حتى أصبح الجسد في وضع الجلوس. وانثنت الرأس جانباً حتى استقرت على كتفه.

وظل يهمس في أذنها: «حبيبتي الصغيرة. يا حبيبتي الصغيرة».
رفرفت أجفانها حتى تفتحت عيناها للحظة ثم جاء الهمس الذي لا يكاد يسمع: «أكثر اشراقاً، اكثر اشراقاً». واتسعت ابتسامة السعادة حتى كادت تصبح ابتسامة ابتهاج طاغ تضيء كل وجهها.

ومن خلال دموعه ابتسم الدكتور روبرت وقال: «إذن يمكنك الآن أن تنطلقي يا حبيبتي». وربت على شعرها الرمادي وقال: «يمكنك الآن أن تنطلقي. انطلقي.». واضاف باصرار: «انطلقي من هذا الجسد المسكين العجوز. لم تعودي بحاجة إليه من بعد. دعيه ليسقط عنك. . اتركيه راقداً هنا مثل كومة من الملابس الممزقة».

في الوجه الناحل المتجلد انفغر الفم وظل مفتوحاً، وفجأة أصبح التنفس خشناً مرتفع الصوت.

ضمها الدكتور روبرت إلى صدره بمزيد من القوة وقال: «يا حبيبتي حبيبتي الصغيرة. . انطلقي الآن. انطلقي. اتركيه هنا، جسدك العجوز الممزق، وانطلقي. اذهبي يا حبيبتي الصغيرة، اذهبي إلى النور الساطع، وإلى السلام، إلى السلام الحي الذي هو النور الساطع».

رفعت سوسيلا إحدى اليدين الناحلتين وقبلتها، ثم التفتت إلى رادها.
همست وهي تلمس كتف الفتاة الصغيرة: «آن وقت الذهاب».
فتحت رادها عينيها حين قوطعت في وسط تأملاتها، وأومأت برأسها ثم نهضت على قدميها وسارت بصمت على أطراف اصابعها نحو الباب.

واشارت سوسيلا إلى ويل فتبعا الممرضة الصغيرة سويا. وفي صمت ساروا جميعاً

على طول الدهليز. وعند الباب المتأرجح انصرفت رادها.

همست لسوسيلا: «أشكرك لسماحك لي بأن أكون معك».

قبلتها سوسيلا وقالت: «أشكرك على معاونتك في تسهيل الأمر على لاكشمي».

تبع ويل سوسيلا عبر بوابة المدخل ثم إلى الخارج وسط الظلمة المحملة بعبير الأشجار. في صمت سارا ليهبطا التل نحو ساحة السوق.

وأخيراً بدأ يتحدث تحت ضغط غريب يدفعه إلى انكار انفعاله والظهور بأرخص أنواع النزعة المتشككة الساخرة، قال: «والآن اعتقد انها تجري مسرعة لكي تقوم ببعض «الميثونا» مع صديقها الصغير».

قالت سوسيلا بهدوء: «انها في الحقيقة تقوم بالخدمة الليلة. ولكن إذا لم تكن، فماذا يكون الاعتراض على خروجها من يوجا الموت لكي تمارس يوجا الحب؟»

لم يجب ويل على الفور. كان يفكر فيما حدث بينه وبين بابز ليلة جنازة مولل. وكان ذلك هو يوجا نقيض الحب. يوجا الادمان الكريه للشهوة ولبغض النفس الذي يقوي النفس ويزيدها قسوة ويجعلها أكثر امتلاء بالبغض والكراهية.

قال أخيراً: «آسف لانني حاولت ان أكون كريهاً».

«انه شبح ابيك. سوف نرى ان كان بوسعنا أن نتخلص منه».

كانا قد عبرا ساحة السوق، وحينما وصلا إلى نهاية الشارع القصير الذي يؤدي إلى خارج القرية.. وصلا إلى الساحة المفتوحة التي كانت سيارة الجيب متوقفة بها.

وحينما استدارت سوسيلا بالسيارة إلى الطريق الرئيسي، انساب شعاع المصابيح الكبيرة في سيارتها فاضاء صورة سيارة خضراء صغيرة كانت تستدير هابطة من التل إلى الطريق الفرعي.

«أو لم تكن ما رأيته إلا هي «البيبي اوستين» الملكية؟»

قالت سوسيلا: «هي كذلك وتعجبت اين تكون الراني وموروجان ذاهبين في مثل هذا الوقت من الليل.

قال ويل مخمناً: «ليسا من الساعين إلى الخير».وفجأة وتحت وطأة دافع مباغت راح يسرد على سوسيلا قصة مهمته المتنقلة التي كلفه بها جوألدهايد، ومعاملاته مع الملكة الأم ومع مستر باهي.

قال مختتما كلامه: «سيكون لديكم المبررات الكافية اذ قررتم ترحيلي منذ الغد».

قالت مؤكدة: «ليس الان بعد أن غيرت رأيك. وعلى أي حال فان شيئاً مما فعلته

لا يؤثر في القضية الرئيسية. إن عدونا هو البترول بوجه عام. وسواء كنا أصبحنا مستغلين لصالح شركة بترول جنوب شرق آسيا أو ستاندارد كاليفورنيا، فليس بينهما أي اختلاف».

هل تعرفين أن مورروجان والراني كانا يتآمران ضدكم؟»

«انهما لا يخفيان ذلك».

«اذن فلماذا لا تتخلصون منهما؟»

«لانهما سوف يعادان على الفور بقوة الكولونيل ديبا. إن الراني أميرة من أميرات ريندانج. فإذا نحن طردناها لكان ذلك نوعا من مبررات شن الحرب».

«إذن فماذا في وسعكم الآن؟».

«محاولة أن نجعلها جزءاً من نظام حياتنا، ومحاولة تغيير عقليتهما. الأمل في نهاية سعيدة مع الاستعداد لما هو أسوأ». ثم أضافت بعد لحظة صمت: «هل قال الدكتور روبرت أن بوسعك أن تتناول دواء الموكشا؟»وحينما أومأ برأسه سألت: «أتحب أن تجربه؟»

«الآن»؟

«الآن. إلا إذا كان مما يزعجك أن تظل ساهراً طوال الليل بسببه».

«لا أحب ما هو أفضل من هذا».

قالت له سوسيلا محذرة: «قد تكتشف انك لم تبغض شيئاً أكثر من هذا. ان دواء الموكشا يستطيع أن يأخذك إلى الفردوس ولكنه يستطيع أن يأخذك إلى الجحيم. واما ان يأخذك إلى الاثنين معا، في وقت واحد أو بالتناوب واما ان يأخذك إلى ما ورائهما معا «وهذا إذا كنت محظوظاً أو إذا كنت قد احسنت الاستعداد». ثم يأخذك بعد هذا إلى ما وراء الوراء، عائداً إلى حيث بدأت ـ عائداً إلى هنا، عائداً إلى محطة «روث هامستيد» الجديدة عائداً إلى العمل كالمعتاد. ولكن بالطبع يصبح العمل المعتاد، الان فحسب مختلفا كل الاختلاف».

الفصل الخامس عشر

واحد، اثنان، ثلاثة، أربعة.. دقت الساعة في المطبخ اثنتي عشرة دقة. لم يكن لدقاتها أي معنى.. طالما أن الزمن لم يعد له وجود! لقد تردد صوت الجرس المزعج السخيف في قلب «حدث» حاضر لا زمن له، في قلب «لحظة قائمة» تغيرت تغيراً متواصلا في مسافة بعد، لا تقاس بالثواني والدقائق، وانما مقياسها الجمال، والمغزى والكثافة، والسر الذي يزداد غموضاً وعمقاً!.

«نعيم منير». برزت الكلمتان من أعماق عقله كالفقاقيع، ظهرت إلى السطح ثم تلاشت في المساحات اللانهائية من النور الحي التي كانت تنبض الآن وتتنفس وراء أجفانه المطبقة. «نعيم منير». كان ذلك النعيم أقرب ما يمكن أن يقترب المرء منه. ولكن هذا «الحدث» الذي كان «حدثاً» لا زمن له وكان مع هذا دائب التغير والتحول، كان شيئاً لا تستطيع الكلمات ألا أن تمسخه وان تقلص حجمه وأبعاده، لا أن تنقله أو أن تعبر عن حقيقته. «انه» لم يكن مجرد نعيم، «انه» كان ايضاً نوعاً من الادراك والفهم. إدراك كل شيء، ولكن دون معرفة بأي شيء. المعرفة تتضمن عارفاً كما تتضمن كل الأنواع المختلفة واللانهائية من الأشياء المعروفة والقابلة لأن تعرف.. اما هنا، وراء أجفانه المطبقة، فلم يكن ثمة ناظر ولا منظور. لم تكن هناك سوى تلك الحقيقة المحسوسة، حقيقة كونه واحداً منعمًا ومباركاً مع الوحدانية.

في عدة كشوف ورؤى متتالية، أصبح النور أكثر اشراقاً، وازداد الادراك عمقاً، وأصبح النعيم أكثر حدة إلى درجة تفوق التصور وتتجاوز الاحتمال. قال لنفسه: «إلهي العزيز! أوه، يا إلهي العزيز!» ثم سمع صوت سوسيلا كما لو كان يأتيه من عالم آخر.. كانت تقول: «هل تشعر بالرغبة في أن تحكي لي ما يحدث لك؟».

مر وقت طويل قبل أن يجيبها. كان الكلام مهمة صعبة. ولم يكن السبب في ذلك وجود أي عائق جسدي. وإنما لمحض أن الكلام كان على نحو كامل فضولاً لا جدوى منه على الاطلاق. واخيراً همس قائلاً: «النور؟».

أجاب بعد لحظة طويلة من التأمل: «ليس النظر إليه». ثم راح يردد بتأكيد: «انا هو. انا أكونه.. أنا أكونه».

حضوره «هو» غياب له.. ويليام اسكويث فارنابي.. غاية الأمر وجوهره هو انه لم يكن هناك سوى النعيم المنير، ليس هناك سوى إدراك دون معرفة، ليس هناك سوى اتحاد مع الوحدة في الادراك غير المحدود وغير المتحول أو المتغير. كان من الواضح وضوحاً بديهياً أن هذه كانت هي حالة العقل الطبيعية. ولكن، وبتأكيد لا يقل قوة، كان هناك أيضاً ذلك المتفرج التنفيذي المحترف، هذا المدمن لجسد بابز الذي يبغض نفسه، وكان هناك أيضاً ثلاثة الآف مليون وغيٌ كل منها منعزل عن الآخر، كل منها يقف في مركز عالم كابوسي مفزع، حيث كان من المستحيل بالنسبة لكل من يملك عينين مبصرتين في رأسه وذرة من الأمانة أن يكتفي بكلمة «نعم» جواباً لأي سؤال.. فبأي معجزة شريرة خبيثة تبدلت حالة العقل الطبيعية إلى تلك الجزر الشيطانية من اللعنة والانحراف؟ .

وفي وسط غليان النعيم والادراك وتفاعلها وتخبطها مثلما تتخبط الخفافيش لحظة الغروب، كانت هناك شبكة متقاطعة متوحشة من الأفكار العائدة الى الذكرى ومن تحويمات المشاعر القديمة. افكار كالخفافيش عن أفلوطين[٤٦]، وعن الفلاسفة الذين آمنوا بأن المعرفة لا الايمان المجرد هي سبيل الايمان[٤٧]، وعن «الواحد» وكل ما يصدر عنه ويتجلى من خلاله ثم ينحدر، وينحدر.. نحو الفزع المكثف المتشابك. ثم تمور مشاعر كالخفافيش، مشاعر الغضب والاشمئزاز حينما تحولت المخاوف وصور الفزع المكثفة إلى — ذكريات خصوصية ومتميزة عما كان ويليام اسكويث فارنابي، الذي لا وجود له بصورة أساسية قد رآه أو فعله؛ أو عانى منه أو تعذب بسببه.

ولكن من وراء تلك الذكريات المتذبذبة ومن حولها بل وبصورة ما في داخلها كان هناك غليان وتفاعل النعيم والسكينة والفهم. لا بد ان تكون هناك بضعة خفافيش قليلة في سماء الغروب، ولكن تظل الحقيقة الواقعة هي أن معجزة الخلق المرعبة قد تم الحفاظ عليها. لقد تحول — أو انحل — من ذات منحرفة وملونة لعنة شاذة — لكي يصبح عقلاً

---

(٤٦) أفلوطين (٢٠٥ — ٢٧٠) مجدد فلسفة أفلاطون في القرن الثاني الميلادي في روما على أساس توسيع القاعدة التصوفية فيها والانطلاق من فكرة بداية العالم كانعكاس غامض ولا يمكن ادراكه عن عقل كلي أولي مقاس، هو العقل الكوني، والعلة الأولى، والمصدر الأبدي لكل الكائنات.

(٤٧) المقصود هنا: هم الفلاسفة الغنوصيون.

خالصاً،العقل في حالته الطبيعية، دون حدود، ثابت لا يتبدل، منعم في النور، مدرك دون معرفة.

النور هنا، النور الآن. ولانه كان هنا بصورة قاطعة، والان خارج الزمن، فانه لم يكن ثمة شخص خارج النور كي ينظر إلى النور. كانت الحقيقة هي الادراك، والادراك هو الحقيقة.

من العالم الآخر، من مكان ما هناك على اليمين، جاء مرة أخرى ذلك الصوت الذي تتحدث به سوسيلا.

سألته: «هل تشعر بالسعادة؟» جاءت دفعة جديدة من الاشعاع الأكثر اشراقاً فاكتسحت كل تلك الأفكار والذكريات المتذبذبة. لم يكن هناك الان سوى حالة من النعيم الشفاف المتبلور.

دون أن يتكلم، ودون أن يفتح عينيه، ابتسم وأومأ برأسه. مضت هي تقول: «لقد اطلق «ايكهارت» على هذه الحالة اسم «الرب» انها الهناءة العظمى، التي لا يمكن تصور كثافتها حتى ليعجز أي انسان عن وصفها. وفي وسطها يتألق «الرب» ويتوهج على الدوام».

«الرب يتألق ويتوهج». كانت هذه العبارة مفاجأة كاملة، وفكاهية لدرجة أن ويل وجد نفسه وهو يضحك ضحكاً صاخباً، وصرخ: «الرب مثل منزل مشتعل الرب – الرابع – عشر – من يوليو». ثم انفجر مرة أخرى في ضحك متواصل كالرعد.

من وراء أجفانه المطبقة تدفق محيط غامر من النعيم المضيء صاعداً مثل شلال معكوس الاتجاه، وانتهى برجفة أخيرة هي رجفة التعرف والادراك تدفق صاعداً من اتحاد إلى اتحاد أكثر اكتمالا، من وجود لا شخصي إلى احساس متنزل بالذات أكثر تجرداً واطلاقاً.

سألت سوسيلا: «وماذا من أمر الخامس عشر من يوليو؟ وماذا من أمر صباح اليوم – التالي؟». «ليس هناك أي صباح لأي يوم بعده».هزت رأسها وقالت: «هذا الكلام يشك في انه يشبه النيرفانا». «وما الخطأ في ذلك؟» «روح خالص، برهان قاطع لا شك فيه – ذلك شراب لا يستطيع سوى أصلب المدمنين على التأمل الغارقين في انهاره أن يرشفوا منه... أن البودهيسافيتيين، العارفين معرفة مطلقة هم من يمزجون في حالة «النيرفانا» بين الحب والعمل».

قال ويل باصرار: «حالتي انا أفضل».«انك تعني انها لذيذة أكثر.. وهذا هو السبب الذي يجعل منها اغراء هائلاً».

إنه ثمرة الجهل بالخير والشر فيا له من حلاوة سماوية، ويا له من ثمار الفردوس! لقد ظل الرب يغذي نفسه به طوال بلايين من السنين ثم على حين فجأة برز إلى الوجود «الجنس البشري»، وبرزت معه المعرفة بالخير والشر. وأصبح على الرب أن يكتفي بكمية من الفاكهة السائغة الحلوة أقل بكثير. وقد أكلت انت الآن شريحة من هذه الثمار السماوية الأصلية، ولذلك يمكنك أن تتعاطف معه.

سمع صرير المقعد يتحرك، وحفيفاً لبعض الثياب، ثم سلسلة من الأصوات المتلاحقة لم يكن قادراً على تفسيرها. ماذا كانت تفعل؟ كان بوسعه أن يجيب على هذا السؤال ببساطة بأن يفتح عينيه. ولكن من الذي يهتم ـ على أي حال، بما كانت تفعله؟ لم يكن هناك شيء له اية اهمية باستثناء هذه النافورة المتوهجة من النعيم والفهم.

قالت: «الثمار الالهية تؤدي إلى المعرفة ـ انني أنوي أن أفطمك عن هذه الثمار على مراحل بسيطة».

سمع صوتاً طناناً. ومن الاعماق الضحلة، وصلت فقاعة التعرف إلى سطع الوعي. كانت سوسيلا تضع اسطوانة موسيقية على الجراموفون.. وكانت الالة تتحرك الان.

سمعها تقول: «انه جوهان سباستيان باخ. هـذه هي الموسيقى الأقـرب إلـى الصمت، ورغم انها منظمة مرتبة تنظيمًا وترتيباً بالغ الدقة، فانها الموسيقى الأقرب إلى أن تكون روحاً خالصة بنسبة مائة في المائة».

تحول الطنين إلى أصوات موسيقية.. قفزت إلى السطح فقاعة أخرى مـن فقاعـات الاكتشاف. كان يستمع إلى كونشيرتو براندنبرج الرابع لباخ.

بالطبع، كان هو نفس كونشيرتو برانـدنبرج الذي استمع إليه كثيراً في المـاضي، كان هو نفسه، ومع ذلك كان مختلفاً كل الاختلاف. هذا اللحن السريع «الليجرو» أنه يحفظه عن ظهر قلب. الأمر الذي كان معناه انه في أفضل وضع ممكن لكي يتبين انه لم يستمع حقاً إليه من قبل. أولاً، لم يكن هو نفسه.

ويليام اسكويث فارنابي، من يستمع إليه. كان اللحن السريع يكشف عن نفسه، بوصفه عنصراً من عناصر «الحدث» الحالي العظيم مظهراً من مظاهر النعيم المنير يتجلى دانياً على بعد درجة واحدة وربما كان هذا التصوير طريقة للتعبير عما شعر به تعبيراً شديد التواضع. كان هذا «الليجرو» هو النعيم المنير متجلياً في حال آخر من أحوال وجوده، كان الادراك الخالي من المعرفة لكل شيء. كان قد ادركه من قبل على اساس جزئية معينة من المعرفة، كان وعياً لم يتمايز وان انقسم إلى أنغام وجمل وظلت له مع ذلك شمولية ذاته ولم يكن ذلك كله ـ بالطبع ـ ينتمي إلى أي انسان. كان في لحظة واحدة، هنا، بالداخل وهناك، بالخارج وفي لا مكان. إن الموسيقى التي استمع إليها من قبل بوصفه ويليام

اسكويث فارنابي مائة مرة، قد ولدت من جديد كما لو كانت ادراكاً لا يمتلكه أحد. وهذا هو السبب الذي كان يجعله يستمع إلى هذه الموسيقى للمرة الأولى. ان كونشيرتو براندنبرج الرابع، إذ لا يمتلكه أحد، فقد أصبح لجماله حدة، ولمعناه الداخلي عمقاً، أعظم ـ بما لا يقارن ـ من أي شيء كان قد عثر عليه أبداً في نفس هذه الموسيقى حينما كانت ملكاً خاصاً له.

«العبيط المسكين»، كذلك قال وعيه الباطني لنفسه، قولةً في شكل فقاعة تعليق ساخر تهكمي أن العبيط المسكين لم يشأ أبداً أن يكتفي بكلمة «نعم» جواباً في أي مجال إلا في مجال الجماليات. وكان طول عمره ينكر، بما انه هو ذاته، كل الجمال والمعنى اللذين طالما اشتاق لأن يتقبلهما وان يقول: «نعم» لهما. لم يكن ويليام اسكويث فارنابي شيئاً سوى جهاز ترشيح ملاه الوحل، على كل من جانبيه تكوم البشر والطبيعة وتكوم حتى فمه المحبوب. وقد برزوا ملوثين بالوحل لا تظهر ملامحهم في صورة هي مع ذلك أقل شأناً من ذواتهم مغايرين لانفسهم وأكثر قبحاً. أما لليلة، فلأول مرة كان ادراكه لمقطوعة من الموسيقى يتم دون عائق على الاطلاق ما بين العقل والصوت، وما بين العقل والقلب، وما بين العقل والمعنى. لم تعد هناك أية عقبات من المعلومات الحرفية التي لا علاقة لها بما يسمعه تحاول أن تغرق الموسيقى أو أن تصطنع نشازاً خالياً من المعنى. ان كونشرتو براندنبرج الرابع لهذه الليلة كان بديهية، مسلمة عقلية خالصة ـ كلا انما كان «هبة سماوية» مباركة، لا يشوبها التاريخ الشخصي، ولا الأفكار المستهلكة، ولا الغباوات الموروثة التي ما كان العبيط المسكين جديراً بأن يكتفي معها بكلمة «نعم» أو بالموافقة عليها دون تحفظ مثله في ذلك مثل كل شخص آخر «بل انه ما كان يستطيع ذلك» وهو الذي قد اعتاد أن يكتم بها انفاس عطايا التجربة المباشرة وهباتها النفسية.

وان كونشيرتو براندنبرج الرابع لهذه الليلة لم يكن أيضاً مجرد شيء لا يمتلكه أحد في حد ذاته، وإنما كان أيضاً، بطريقة مستحيلة ما «حدثاً حاضراً» له ديمومة غير ذات نهاية. أو انه بالأحرى كان بغير ديمومة على الاطلاق «وما يزال هذا بطريقة أكثر استحالة، طالما أنه كان يتكون من ثلاثة حركات وكان يعزف بسرعته المعتادة». كان بندول الايقاع الذي يضبط للموسيقى اطوال انغامها، يسيطر على كل جملة من جمل الكونشيرتو، ولكن كتلة هذه الجمل لم تكن امتداداً من الثواني والدقائق. كان هناك، «ايقاع» ولكن لم يكن هناك زمن. اذن فماذا كان؟ «الأبدية» كذلك كان ويل مرغماً على أن يجيب نفسه. كانت هذه الكلمة واحدة من تلك الكلمات الميتافيزيقية القذرة التي ما كان لرجل مهذب العقل ان يحلم بان ينطقها، حتى لنفسه، ناهيك عن ان يلفظها أمام الناس. قال بصوت مرتفع: «ايتها الأبدية، يا شقيقي.. ايتها الأبدية يا سخفاً في سخف». سقطت هذه السخرية سقوطاً مزرياً فتسطحت دون ملامح، كما لا بد وانه قد عرف. الليلة، لم تكن

تلك المقاطع الخمسة التي تتكون منها كلمة «الأبدية» لتقل في معناها المحدد ومغزاها عن الحروف الأربعة التي تتكون منها كلمة أخرى من طبقة الكلمات الأخرى التي حرم نطقها.

سألته: «ماذا يضحكك إلى هذا الحد؟».. أجابها: «صدقي أو لا تصدقي، ان الأبدية لا تقل واقعية ولا حقيقية عن البراز»... قالت موافقة: «ممتاز!». جلس في مكانه ساكناً بانتباه، متابعاً بأذنه وعينه الداخلية تيارات الصوت، المتداخلة المشتبكة، وتيارات النور المتساوية المتناغمة، التي كانت تنساب انسياباً خارج الزمن، متنقلة من حلقة إلى حلقة.

وكانت كل جملة موسيقية من هذه الموسيقى المألوفة الجيدة التقسيم.. كانت كشفاً بكراً لم يسبقه اليه أحد، كشفاً من الجمال كان ما يزال يتدفق صعداً، مثل سلسلة متتابعة من الينابيع الفوارة، كشفاً يؤدي إلى كشف آخر لا يشبهه شيء ـ في غرابته وجدته ـ مثل نفسه. تيار داخل تيار ـ تيار الكمان المنفرد.. وتيار الزوج من الفلوت الثماني الثقوب، والتيارات الممتدة من الة «الهاربسيكورد» والمجموعة الصغيرة المتلاحقة من الوتريات الممتزجة منفصلة، متمايزة، مستقلة. برغم هذا فقد كان كل تيار أساسياً لكل التيارات الأخرى، كان كل منها هو ذاته بفضل علاقته بالكل الذي هو جزء منه مشارك في صنعه.

سمع نفسه يهمس: «الهي العزيز!» في لحظة التغير الخارجة من نطاق الزمن، كانت الآت الفلوت الثمانية الثقوب متمسكة بنغمة وحيدة متطاولة. كانت نغمة مفرغة فراغاً مقدساً، نقية، واضحة، لا تشوبها أية ترددات جزئية صارخة. انها نغمة من التأمل الخالص «كذلك قفزت الكلمة كالفقاعة المتصاعدة إلى السطح». ها هي ذي قطعة أخرى من الغباء الملهم وقد حصلت على معنى محدد كان من الممكن أن يلفظه دون أدنى احساس بالخجل. تأمل خالص، غير مرتبط بشيء. منطلق إلى ما وراء العلاقات والروابط والأسباب، خارج سياق الأحكام الأخلاقية، وعبر اشعاعات النور المتصاعدة السريعة، لمح صورة تبعث في ذاكرته لوجه «رادها» المتألق وهي تتحدث عن الحب باعتباره نوعاً من التأمل، ثم صورة «رادها» مرة أخرى، وقد شبكت ساقيها في جلوسها على الأرض ساكنة صامتة صمتاً كثيف التركيز، امام السرير الذي رقدت لاكشمى فوقه تحتضر. ولكن، كان هناك على الدوام صوت الكمان، طافياً على امتداد ـ وفي خلال ـ الفراغ السماوي الذي خلقته اصوات «الفلوت» الغارقة في تأملها، صوت الكمان الخصب الثري، المتذبذب داخل الارتعاش المترع بانفعال. وتحيط بهما معاً ـ بصوت الفلوت وصوت الكمان ـ نغمات الانفصال المدفوع بالرغبة في التأمل.. ونغمات الامتزاج الممتلىء بالانفعال.. كانت هذه الشبكة من النغمات الحادة الجافة قد بزغت من أوتار الة «الهاربسيكورد». الروح والغريزة، الفعل والرؤية ـ يحيط بهما، من حولهما.. رحم العقل يحملهما كالجنين الحي. لقد تم ادراكهما جميعاً بواسطة الفكر المنطقي الواضح، ولكن كان من الواضح

ايضاً، أنها لم يتم إدراكها إلا من الخارج فقط، على صورة نظام محدد لتجربة، تختلف اختلافاً جذرياً عن تلك التجربة التي يهدف الفكر المنطقي الاستدلالي إلى توضيحها وتفسيرها.

قال: «انه يشبه فيلسوفاً منطقياً وضعياً».

«من هو؟»

«هذا الهاربسيكورد».

إنه يشبه أحد الوضعيين المناطقة، كذلك كان يفكر في ثنايا عقله، بينما هو ما يزال غامضاً متكوماً على سره خارج اطار الزمن في أعماق «حدث» النور والصوت العظيم. انه يشبه احد الوضعيين المناطقة يثرثر عن أفلوطين وجولي لسبيناس[٤٨].

تحولت الموسيقى مرة ثانية، وأصبحت الكمان الآن هي التي تحافظ «بدفء وشاعرية لا مثيل لها!» على نغمة التأمل المتطاولة الممتدة، بينما تحولت الفلوت الثمانية الثقوب إلى موضوع المشاركة والانغماس النشيط وراحتا تترددانه في وضع التباعد والانفصال وبذلك يفرض نفس الشكل على مادة مختلفة. وهنا، برز «الوضعي المنطقي»، متراقصاً إلى الداخل ثم إلى الخارج بين آلتي الفلوت، عابثاً ولكن لا غناء عنه ولا بديل محاولاً أن يشرح الهدف من هذا كله، بلغة لا يمكن أن تتطابق مع الحقائق.

وفي قلب الأبدية التي لم تكن تقل واقعية ولا حقيقية عن البراز، مضى يصغي إلى تلك التيارات المتداخلة المشتبكة من الأصوات، ومضى يتملى محدقاً في تلك التيارات المتداخلة المشتبكة من الأضواء، ومضى يحقق عملية تحوله «هنا في الداخل، وهناك في الخارج وفي لا مكان» حتى يصبح هو بالفعل كل ما رآه وما أصغى إليه.. ثم، وعلى حين فجأة تبدلت طبيعة النور وشخصيته. فإن تلك التيارات المتداخلة التي كانت هي المكونات المنسابة الجارية الأولى لنوع من الادراك يقع على الجانب الآخر من كل معرفة خاصة أو محددة، قد كفت عن أن تكون استمراراً لا ينقطع، وبدلاً من هذا الاستمرار المنساب الجاري، ظهرت تلك السلسلة اللانهائية من الأشكال المنفصلة ـ الأشكال التي ما زالت مشحونة شحنة هائلة بالنعيم المنير من الوجود الثابت، وان قد اصبح الآن محدوداً، منعزلاً، متباعدالأجزاء المتفردة. هناك الفضي والوردي، والأصفر، والأخضر الشاحب والأزرق الأرجواني، وسلسلة لا نهائية لها من الأجواء المضيئة المشعة بالنور جاءت تسبح صاعدة من قلب مصدر خفي للأشكال ــ وللموسيقى في تلك اللحظة ــ التي راحت

(٤٨) لسبيناس، جولي جان اليانوردي (١٧٣٢ ــ ١٧٧٦) كانت واحدة من سيدات الصالونات الكاتبات الشهيرات في باريس قبل الثورة الكبرى، وكانت صديقة للعلماء والفلاسفة وخاصة دالامبير، ودي مورا، وجوبيرت.

لغرض ما تتجمع وتنتظم على شكل صفوف متطاولة من الجمال والتعقيد الذي لا يصدق. انه ينبوع لا ينضب أخذ يتدفق وينفق مادته لكي تتحول إلى أشكال واعية، وإلى شبكات من النجوم الحية الفياضة بالضوء. وبينما كان يتملى فيها محدقاً إليها، بينما كان يعيش حياتها، وحياة هذه الموسيقى التي كانت هي شبيهتها المساوية لها، مضت تلك الأشكال في النمو والتحول إلى شبكات اخرى ملأت الأبعاد الثلاثة لفراغ داخلي ما، ومضت تتحول دون توقف في قلب بعد آخر لا زمن له من الجوهر والمغزى.

سألت سوسيلا: «ماذا تسمع؟»
أجابها: «اسمع ما أرى، وأرى ما أسمع».
«وبماذا تصفه؟»

أجاب ويل بعد صمت طويل: «إن ما يبدو شبيهاً به، وما يشبه صوته صوته، هو الخلق ولكنه ليس مسألة طلقة واحدة وينتهي الأمر. انه خلق مستمر لا يتوقف».

«إنه خلق مستمر يبرز من لا شيء في لا مكان ليصبح شيئاً ما في مكان ما ـ أليس كذلك؟».
«انه كذلك».
«انك تتقدم».

لو ان الكلمات كانت تلفظ بسهولة أكبر، ولو انها كانت ـ حين تلفظ ـ أكثر افتقادا إلى المعنى، لكان في وسع ويل ان يشرح لها ان الادراك الخالي من المعرفة والنعيم المنير كانا رؤية أفضل بكثير حتى من يوهان سباستيان باخ.

رددت سوسيلا تقول: «انك تتقدم، ولكن ما زال عليك أن تقطع طريقاً طويلاً. ماذا لو فتحت عينيك؟»
هز ويل رأسه رافضاً باصرار. لقد حان الوقت لكي تمنح نفسك فرصة اكتشاف حقيقة الحقيقة».
غمغم قائلاً: «حقيقة الحقيقة هي هذه».
قالت بتأكيد: «كلا، ليست هذه، إن كل ما تراه الان وتسمعه وتكونه ليس سوى الحقيقة الأولى وعليك الآن ان تنظر إلى الحقيقة الثانية. انظر، ثم أدمجهما معا في «حقيقة الحقيقة» الواحدة الشاملة الكلية. فافتح عينيك اذن يا ويل. افتحهما على سعتهما».

«وهو كذلك» هكذا قال أخيراً وعلى مضض، وقد ملاه احساس غمر بسوء الحظ الغلاب ثم فتح عينيه. تلاشت الاستنارة الداخلية في داخل نوع آخر من النور. ان ينبوع الأشكال والأجرام الملونة في مداراتها الواعية وشبكاتها المتغيرة النظام عن قصد قد تخلت كلها عن مكانها لتكوين ثابت من المعرجات المتصاعدة واشباه المنحرفات ومن السطوح

المنبسطة، والأسطوانات الملتفة، كلها نحتت بارزة من مادة ما بدت كما لو كانت عقيقاً حياً، وكلها تبرز من قلب رحم لصدفة لؤلؤة حية نابضة. ومثل أعمى حديث الشفاء، يواجه لغز النور واللون للمرة الأولى، حدق فيها أمامه في دهشة خالية من الفهم. وبعد عشرين فاصلة موسيقية أخرى، لا زمن لها من كونشيرتو براندنبرج الرابع.. برزت إلى الوعي فقاعة التفسير. لقد أدرك ويل على حين فجأة، انه كان ينظر إلى مائدة صغيرة مربعة، ثم إلى كرسي هزاز من وراء المائدة، ثم إلى جدار ناصع البياض لا شِيَة فيه من وراء الكرسي الهزاز. كان التفسير باعثاً على الثقة، ذلك أن الأبدية التي شعر بها وعبرها بين فتح عينيه وبعد بروز المعرفة بما كان ينظر إليه، كان اللغز الذي يواجهه قد تحول متعمقاً من نوع من الجمال لا تفسير له، إلى اكتمال متحقق لنوع من الغربة ملأته، وهو ينظر، بنوع من الرعب الميتافيزيقي. إذن فإن هذا اللغز المرعب لم يكن يتكون إلا من قطعتين من الاثاث وامتداد من الجدار. هَذَا الخوف، ولكن الدهشة زادت. كيف يمكن أن تكون الأشياء المألوفة إلى هذا الحد والعادية هي «هذه»؟ ومن الواضح أن هذا لم يكن ممكناً ومع ذلك، فها هو الرعب، ها هو الرعب.

انتقل انتباهه من التكوينات الهندسية ذات اللون البني البراق الى الخلفية البيضاء اللؤلؤية التي يصنعها الجدار. كان يعرف اسمه، انه «الجدار»، ولكن الجدار في الحقيقة التي يشعر بها كان عملية حية، سلسلة متتالية من التحولات تتكون من الجص والبياض الناصع متحولة إلى مادة لجسم يسمو على الطبيعة، أي إلى لحم الهي ظل يتحول ويتشكل مغيراً جوهر وجوده ــ بينما كان ينظر إليه ــ من مجد إلى مجد. ومن خلال ما حاولت الكلمة الفقاعة أن تفسره على انه مجرد طلاء ابيض، كانت روح متحولة ما تستثير سلسلة لا متناهية من أكثر الأشكال المتلونة المتشابهة رقة، كثيفة وواهنة في وقت واحد، برزت من الخفاء وراحت تنشر على امتداد بشرة جسد الاله المشعة المقدسة! رائع، رائع! ولا بد أن تكون هناك معجزات أخرى، وعوالم جديدة لا بد ان يتم اكتشافها وغزوها... التفت برأسه ناحية اليسار، وهناك «لقد قفزت الكلمات المناسبة الصحيحة فجأة تقريباً» كانت المائدة الكبيرة التي صنع قرصها العلوي من المرمر والتي كانا قد تناولا عليها طعام العشاء ثم راح المزيد من الفقاعات في الظهور أكثر كثافة وبسرعة أكبر. كان سفر الرؤيا المتنفس هذا، الذي يدعى باسم «المائدة» من الممكن أن يظنه المرء لوحة رسمها رسام تكعيبي متصوف، رسام ملهم من نوع «جوان جريس» مزود بروح «تراهيرن» وموهبة في رسم المعجزات مع الاحجار الكريمة الواعية الحية، ذات الألوان المتغيرة الدائمة التحول التي تشبه ألوان زنابق المياه الزاهية.

حينها ازداد برأسه ميلاً نحو اليسار جفل من رؤية بريق صادر من بعض الحلي المرصعة ويا لها من حلى مرصعة غريبة، شرائح ضيقة من الزمرد والتوباز، من الياقوت

والسافير ــ واللازورد، تومض بالبريق صفا فوق صف، مثل قوالب الطوب الكثيرة في جدار قائم في بيت المقدس الجديد. وهناك، في النهاية وليس في البداية، ظهرت الكلمة. في البداية كانت الاحجار الكريمة، والنوافذ ذات الزجاج الملون، وجدران الفردوس، ان كلمة «خزانة الكتب» لم تظهر إلا الآن، متأخرة جداً، لكي تضع نفسها في اعتبار العقل.

رفع ويل عينيه من على مجوهرات الكتب فوجد نفسه في قلب منطقة خلاوية استوائية لماذا؟ أين؟ ثم تذكر انه حينها «في حياة أخرى» قد دخل الحجرة للمرة الأولى كان قد لاحظ فوق خزانة الكتب، لوحة كبيرة رديئة رسمت بالالوان المائية. بين كثبان الرمل وادغال النخيل كان مصب متزايد الاتساع لأحد الانهار يهبط منحدراً نحو البحر المفتوح، وفوق الأفق كانت جبال هائلة من السحب تتصاعد في سماء شاحبة. جاءت كلمة «ضعيف» متصاعدة كالفقاعة من الأعماق. كان من الواضح تماماً انها من عمل رسام هاوٍ ليس عظيم الموهبة.. ولكن هذا كان بعيداً عن الهدف المقصود الان، ذلك ان المنظر الخلاوي لم يعد رسما مصوراً، وكان الان قد أصبح هو موضع اللوحة ذاته ــ نهرا حقيقياً، وبحراً حقيقياً، ورمالاً حقيقية تلتمع تحت وهج الشمس، واشجاراً حقيقية تنتصب تحت سماء حقيقية. حقيقية إلى أقصى حد، حقيقية إلى درجة الاطلاق الكامل. وكان هذا النهر الحقيقي اذ يمتزج ببحر حقيقي هو وجوده الخاص مغموراً في «الله» غائراً في داخله. «الله» بين أقواس التنصيص! هكذا اشارت فقاعة تهكمية أم الله ! بأسلوب حديث، شبيه بأسلوب مستر بيكويك؟» هز ويل رأسه. كان الجواب مجرد «الله» واضحة وبسيطة ــ الله الذي قد لا يستطيع المرء أن يؤمن به، ولكنه الله الذي كان هو الحقيقة التي توضح ذاتها بذاتها وتوجهه. ومع ذلك فقد كان هذا النهر ما يزال نهراً، وهذا البحر ما يزال هو المحيط الهندي، وليس شيئاً آخر يتبدى في ثياب خياله. كل منهما هو نفسه دون لبس ولا تحريف. ولكنه في نفس الوقت هو الله دون لبس ولا تحريف.

سألت سوسيلا: «أين أنت الان؟»
أجابها ويل دون ان يدير رأسه نحوها: «في السماء، كما اعتقد».
وأشار إلى المنظر الخلاوي.
«أفي السماء ــ ما تزال؟ متى تنوي أن تهبط إلى الأرض هنا؟»

صعدت فقاعة أخرى من فقاعات الذاكرة آتية من الأعماق الساكنة. وقال: «شيء ما مختلط متشابك في أعماقه البعيدة. أما ساكن هذه الأعماق فهو النور الصادر عن شيء ما، أو عن شيء آخر.»

«ولكن الشاعر وردزورث قد تحدث أيضاً عن الموسيقى الساكنة الحزينة للانسانية».
قال ويل: «ليس هناك آدميون في هذا المنظر الخلاوي لحسن الحظ».
أضافت تقول بضحكة صغيرة: «لا ولا حتى أي حيوان. ليس فيها سوى السحب

والخضروات التي هي أكثر ما تكون خداعاً بمظهرها البريء.. ربما كان هذا هو ـ السبب الذي يجعل من الأفضل لك أن تنظر إلى الأرض».

هبط ويل بعينيه. كانت الحبيبات المنتشرة على سطح الواح الأرضية الخشبية نهرا بني اللون، وكان النهر البني، رسما بيانيا ممتدا، لولبيا كالدوامة، لكل حياة العالم المقدسة. وعند مركز هذا الرسم البياني، كانت قدمه هو اليمنى، عارية تحت أشرطة الصندل الذي ترتديه، وقد بدت ثلاثية الابعاد بشكل مزعج كما لو كانت قدما مرمرية لتمثال هائل لاحد الأبطال كشف عنه مصباح كشاف.

«ألواح خشبية»، «حبيبات»، «قدم» ـ من خلال هذه الكلمات التفسيرية التي جاءت تلقائية دون تمهيد، اخذ اللغز يحدق فيه رداً على تحديقه هو، غير قابل للتفسير.. ولكنه ـ بصورة مناقضة، مفهوم وواضح مفهوم ذلك الفهم الخالي من المعرفة الذي كان ما يزال متهيئاً لاستقباله رغم ما يحس به من أشياء وما يتذكره من أسماء.

وعلى حين فجأة، ومن جانب عينه، رأى لمحة من حركة مباغتة سريعة. لقد تحقق الان من أن الانفتاح على النعيم والفهم كان في نفس الوقت انفتاحا على الرعب، وعلى عدم الادراك بصوة كاملة.. ومثل مخلوق وحيد أبعد عن موطنه وحبس في داخل صدره وراح يناضل في ألم ملهوف، بدأ قلبه يضرب بعنف جعله يرتعد. وفي ظل اليقين المرعب من أنه كان على وشك أن يقابل «الفزع الأكبر»، ادار ويل رأسه ونظر أمامه..

قالت سوسيلا بتأكيد: «انها واحدة من السحالى التي يستأنسها توم كريشنا». كان النور ساطعاً كعهده دائما. ولكن السطوع كان قد غير علامته. لقد شع بريق من البشر الخالص من كل دائرة رمادية مخضرة على ظهر هذا المخلوق ومن عينيه الزجاجيتين ومن نبضات حلقه القرمزي، ومن الأطراف المدرعة لمنخريه الواسعين، ومن فمه المشقوق كالهوة الواسعة. التفت برأسه مبتعداً ولكن عبثاً. لقد التمع بريق الفزع الأكبر خارجاً من كل شيء نظر إليه. ان تلك التكوينات التي رسمها الرسام التكعيبي المتصوف ـ قد تحولت إلى الات دقيقة متشابكة معقدة لا تفعل شيئاً دون حقد أو ضغينة. هذا المنظر الخلاوي الاستوائي، الذي كان قد مارس من خلاله تجربة اتحاد وجوده مع الله قد أصبحت الآن بالتحديد، صورة طبق الأصل من أكثر الصور الزيتية المزورة في العصر الفيكتوري تسبباً في الضيق والقرف، واصبحت هي الجحيم الفعلي الحاضر أمامه.

وعلى رفوفها، تحولت صفوف أحجار الكتب الكريمة الى مصدر يشع الاف الخيوط من الظلمة المرئية، ويا لرخص ما صارت إليه جواهر الظلام المعتمة هذه ويا لابتذالها البعيد عن التصديق! فحيثما كان هناك الذهب واللؤلؤ والاحجار الكريمة لم يعد في موضعها سوى شجرة عيد الميلاد المزينة باللعب الرخيصة الملونة.. لم يعد هناك سوى

الوميض الباهت الخافت الصادر من البلاستيك والصفيح المدهون. كل شيء ما زال ينبض بالحياة ولكنها حياة بدروم من بدرومات الصفقات الرخيصة، مزبلة سوق لا نهائية الخبث والشر. أما الموسيقى فكانت تؤكد الان ان ذلك هو ما تخلقه «القوة المهيمنة الأبدية» على الدوام ــ هباء كوني لا قيمة له، عُبّىء بأنواع الفزع التي يتم انتاجها على نطاق واسع. أنواع الفزع والابتذال، وأنواع الفزع على صورة الألم والقسوة وافتقاد كل شيء إلى أي مذاق والبلاهة والخبث الشرير المتعمد.

سمع سوسيلا تقول: «انه ليس من النوع السام، ولا هو أحد سحالينا المنزلية الصغيرة اللطيفة. انه غريب ثقيل قادم من الخلاء، من فصيلة مصاصي الدماء. انهم لا يمتصون الدماء بالطبع. وانما فقط يمتلكون حلوقاً حمراء وتحمر وجوههم حينما يستثارون. ومن هنا جاء هذا الاسم الغبي. انظر! ها هو يتحرك!».

نظر ويل إلى أسفل مرة ثانية. ها هو، حقيقي إلى درجة غير طبيعية.. الفزع المدرع بالحراشف بعينيه السوداوين الواضحتين، وفمه الذي يشبه فم القاتل الدموي، وحلقه الأحمر بلون الدم ينتفض كالمضخة بينما رقد بقية جسمه ممتداً على الأرض ساكناً سكون الموت وكان الان على بعد ست بوصات من قدمه.

قالت سوسيلا: «لقد أراه أحدهم طعام عشائه. انظر هناك إلى يسارك، على حافة البساط».

التفت برأسه:

مضت سوسيلا تقول: «جونجيلوس جونجيلويدز. ألا تذكرها؟»

أجل، انه يتذكر. حشرة «فرس النبي» التي استقرت على فراشه.

ولكن هذا كان قد حدث في وجود آخر. ان ما كان قد رآه حينئذ لم يكن أكثر من حشرة غريبة الشكل. اما ما راه الآن فقد كان زوجاً من الوحوش ذات الأجنحة التي يبلغ طولها بوصة واحدة، مروعين إلى درجة رهيبة، وفي حالة جماع. كان شحوبهما المزرقّ مخططا ومشبعا بلون قرمزي، أما الأجنحة التي كانت تخفق باستمرار، مثل وريقات زهرة في مهب النسيم، فقد كانت حوافيها مظللة بلون بنفسجي يزداد دُكنةً كلما اقترب من حافة الجناح. انها تقليد ساخر للزهور. ولكن اشكال الحشرات لم تكن مما يمكن اخفاؤه أما الان فحتى الالوان الشبيهة بالوان الزهور أخذت تتغير ببطء. كانت تلك الاجنحة المرتعشة هي الأعضاء الثانوية الملحقة بماكينتين مزخرفتين بما يشبه مادة المينا قائمتين في قاع مزبلة السوق كنموذجين متحركين صغيرين لكابوس مفزع. ماكينتين صغيرتين لعملية الجماع الحيوانية. والان ادارت احدى الماكينتين الكابوسيتين ــ الأنثى ــ رأسها الصغير المسطح، بفمها الكبير وعينيها الجاحظتين عند طرف عنقها الطويل ــ أدارت رأسها قم «يا لهنا العزيزة» بدأت في التهام رأس الماكينة الذكرية. مضغت في البداية عينا قرمزية، ثم التهمت نصف الوجه المزرق. أما ما تبقى من الرأس فقد سقط على الأرض. وتأرجح العنق المقطوع بوحشية

حينها لم يستطع أن يصمد لما فقده من وزن العينين والفكين. انقضت الالة الأنثوية على العضو المقطوع النازف، وأطبقت عليه بفكها، بينها استمر الذكر المقطوع الرأس في حالة زهو اله الجنس «اريس» بين ذراعي ربة الحب «افروديت» وظلت تمضع بانتظام.

من جانب عينه المفتوحة لمح ويل بادرة من حركة أخرى، فالتفت برأسه في حدة، وكان ذلك في الوقت المناسب لكي يرى السحلية وهي تزحف نحو قدمه. أقرب، أكثر قرباً.. حول عينيه عنها في رعب. لمس شيء ما أطراف أصابعه وأخذ يتحرك بخفة عبر باطن قدمه. توقفت الحركة.. ولكنه كان يستطيع أن يشعر بوجود ثقل خفيف على قدمه بملمس جاف للحراشف الخارجية على ظهر الحيوان. أراد أن يصرخ، ولكن صوته كان قد ضاع، وحينها حاول أن يتحرك، رفضت عضلاته أن تنصاع له.

بدأت الموسيقى –خارج اطار الزمن– في التحول إلى المقطع السريع النهائي (البرستو). الفزع يندفع إلى الأمام، الفزع مرتدياً ثياباً ثقيلة الزخرف يقود الرقص.

ظل الفزع المجلل بالحراشف راقداً فوق باطن قدمه، ساكناً سكوناً باستثناء نبضات حلقة الأحمر محدقاً بعينيه الخاليتين من التعبير في فريسته التي تقرر مصيرها.

متماسكين مثل جزئي المزلاج المغلق، ارتعش النموذجان الصغيران المتحركان للكابوس ارتعاشة وريقات زهرة لفحتها الريح، واهتزا اهتزازة متشنجة بفعل ما يشعران به من الام متزامنة للموت والجماع. انقضى وقت طويل كأنه قرن، نغمة بعد نغمة مضت رقصة الموت الصغيرة المرحة في طريقها. وفجأة شعر بخربشة مخالب دقيقة في جلد قدمه.. كان مصاص الدماء قد زحف هابطاً باطن قدمه إلى الأرض.

ولمدة بدت طويلة كأنها الحياة كلها رقد في مكانه ساكناً سكوناً أبدياً.. ثم، وبسرعة لا تصدق، اندفع عبر ألواح الأرضية الخشبية وعبر البساط. انفتح الفم الشبيه بالهوة ثم انغلق مرة أخرى. ومن بين الفكين المطبقين، برزت أطراف جناح مصبوغ بلون بنفسجي وهي ما تزال تخفق مثل وريقة لزهرة أوركيد في مهب النسيم، لوح زوج من السيقان بوحشية لبرهة قصيرة ثمّ اختفيا عن الأنظار.

ارتجف ويل وأغلق عينيه. ولكنه عبر الحدود الفاصلة بين الأشياء التي يحس بها وتلك التي يتذكرها والأشياء التي يتخيلها، ظل الفزع يطارده. وتحت الوميض الابيض للنور الداخلي راح طابور لا نهائي من الحشرات اللامعة الدقيقة والزواحف البراقة الداكنة يسير مترنحاً في خط لولبي من اليسار إلى اليمين، خارجاً من مصدر كابوسي خفي لا يعرفه، سائراً إلى حتفه المهلك المجهول والوحشي. ملايين من حشرة «فرس النبي» وفي وسطها ما لا حصر له من مصاصي الدماء. تأكل وتأكل إلى الأبد.

وطوال ذلك – وآلات الكمان والفلوت والهارب سيكورد– ظل المقطع السريع

الأخير «البريستو» من كونشيرتو براندنبرج الرابع يقفز دونما زمن إلى الأمام. يا له من مارش للموت صغير ثقيل الزخرفة! شمال، يمين. شمال يمين. ولكن ماذا كانت كلمة الأمر التي توجه إلى الحشرات سداسية السيقان؟ وفجأة لم تعد حشرات سداسية السيقان من بعد، لقد أصبحت حيوانات من ذوات الساقين فحسب.لقد تحول طابور الحشرات اللانهائي فجأة إلى طابور لا نهائي من الجنود. يسيرون مثلما كان قد رأى «ذوي القمصان البنية» النازيين يسيرون في برلين قبل عام واحد من اشتعال الحرب.

آلاف منهم فوق آلاف، أعلامهم تخفق وأزياؤهم تلمع في وميض اللهب مثل كتل البراز إذ يغمرها الضوء. لا عدد لهم مثل الحشرات، وكل منهم يتحرك بدقة الآلة، بسهولة الانقياد الكاملة التي يتمتع بها كلب يلعب في أحد الاستعراضات. والوجوه! لقد رأى الصور القريبة للوجه في النشرات السينمائية الألمانية، وها هم أولاء ثانية حقيقيين إلى درجة غير طبيعية ذوي ابعاد ثلاثية واحياء. وجه هتلر الوحشي بفمه المفتوح، يصرخ. ثم تأتي وجوه المستمعين المتشابهين. وجوه بلهاء ضخمة، تكتفي بالتلقي السلبي المفضوح، وجوه مصابين بالمشي أثناء النوم بعيونهم المفتوحة على اتساعها. وجوه ملائكة نوردية شابة سابحة منتشية في «رؤيا البهجة» المسكرة.. وجوه ملائكة قديسين من عصر الزخرفة الداخلية الثقيلة الغليظة «الباروك» وهم يغرقون في نشوتهم. وجوه عشاق على وشك بلوغ لحظة الذروة:شعب واحد، وطن واحد، زعيم واحد. الاتحاد في وحدة اشبه بوحدة جماعة النحل في خلية واحدة. فهم خال من المعرفة لهراء وأحابيل شيطانية. ثم قطعت كاميرا النشرة السينمائية تسلسلها عائدة إلى الصفوف المتتالية، والصلبان المعقوفة، والبنود النحاسية، وجموع المنومين مغناطيسياً فوق ساحة العرض. ولكن كان هنا مرة ثانية، وتحت وميض نوره الداخلي، طابور أشباه الحشرات البني، سائراً دون نهاية على نغمات تلك الموسيقى الثقيلة الزخرفة المعبرة عن الرعب. إلى الأمام يا جنود النازي، إلى الامام يا جنود المسيحية، إلى الامام أيها الماركسيون والمسلمون، إلى الامام يا كل شعب مختار، ويا كل محارب صليبي وكل مشعل لحرب مقدسة،إلى الامام نحو البؤس ونحو كل الشرور، ونحو الموت.وفجأة وجد ويل نفسه ينظر إلى ما ستصير إليه الطوابير الزاحفة حينما تبلغ هدفها ــ الوف الجثث في الأوحال الكورية.. هياكل عظمية وأكياس من الأشلاء لا حصر لها تجفف في الصحراء الأفريقية. وهنا «وذلك لان المنظر ظل يتغير بسرعة وفجائية مخيفة» هنا كانت الأجساد الخمسة المنسوقة التي كان قد رآها منذ بضعة شهور فقط في فناء مزرعة جزائرية وجوههم إلى السماء وحلوقهم مذبوحة وهنا برزت من ماض ربما كان قد بلغ من العمر عشرين عاما، برزت تلك المرأة العجوز، ميتة وعارية تماما وسط أنقاض منزل ضرب بالقنابل في «سانت جونزوود». وهنا دون أي تغيير، كانت حجرة نومه الصفراء والرمادية، وعلى مرآة باب صوان الملابس انعكاس لصورة جسدين شاحبين، جسده وجسد بابز، يتجامعان بجنون بصحبة ذكرياته عن جنازة مولي وبصحبة نغمات أوبرا «بارسيفال»

في يوم «الجمعة الحزينة» الصادر من اذاعة شتوتجارت. .

تغير المنظر مرة أخرى، وظهر وجه العمة ماري، مزيناً بأشرطة من المصابيح والنجوم مبتسمًا له بمرح. . ثم تحول الوجه أمام عينيه لكي يصبح وجه تلك المرأة الغريبة المكتئبة المحزونة التي حلت محلها في خلال تلك الأسابيع الأخيرة المرعبة قبل التحول الأخير إلى نفاية لا غناء فيها. . اشعاع من المحبة والطيبة، ثم تسحب ستارة ثقيلة، وتغلق نافذة خشبية، ويدار مفتاح في القفل، وإذا هم هناك ـ هي في مقبرتها، أما هو ففي داخل سجنه الخاص، محكوماً عليه بالحبس الانفرادي، بالوحدة، ثم بالموت ذات صباح بعينه مشرق وبهيج. العذاب في مزبلة السوق. عملية الصلب بين زخارف شجرة عيد الميلاد بالخارج أو بالداخل، بعيون مفتوحة أو مغمضة. . لم يكن ثمة مهرب أو مفر. همس قائلاً: «لا مفر». وأكدت الكلمات الحقيقـة، وحولتها إلى يقين مرعب خبيث، ظل يتفتح إلى الخارج، ويتفتح هابطاً، عمقاً تحت عمق من الابتذال الشرير، وجحيمًا وراء جحيم من العذاب الذي لا معنى له ولا هدف على الاطلاق.

طرأ له بقوة الاكتشاف ان هذا العذاب لم يكن مجرد عذاب خال من المعنى أو لا هدف له، كان ايضاً عذاباً تـراكمياً، وكان أيضاً يمتد امتداداً ذاتياً ويتضاعف من المؤكد بما فيه الكفاية، ومن المخيف بما فيه الكفاية، مثلما تراءى لمولـلى ءللعمة مـاري ولكل الآخرين، لا بد أن يأتيه الموت هو الآخر. لا بد أن يأتيه. . ولكنه أبداً لن يأتيه بهذا الخوف. . ولا بهذا الاشمئزاز الباعث على الغثيان، ولا تلك العذابات من الندم وكراهية الذات. ان الخلود بخلوه من المعنى وافتقاره إلى الهدف، عذاب يمكن أن يستمر إلى الأبد. وان المرء من كل الجوانب الأخرى انسان له نهاية بصورة ساخرة مخادعة ولكن ليس من ناحية العذاب. ان هذه الكتلة المكثفة المضغوطة الصغيرة المعتمة التـي يـدعوها المرء «انا» كانت قادرة على تحمل العذاب إلى حد معين، وعلى الرغم من الموت، فان العذاب جدير بأن يستمر إلى الأبد. آلام العيش وآلام الاحتضار، وروتين العذابات المتتالية في مزبلة الصفقات القذرة والمقايضات النتنة ثم عملية الصلب النهائية التي تتم وسط بريق الابتذال المصنوع من البلاستيك والصفيح ـ هذه السلسلة الأبدية من الأدوار المتلاحقة لا بد أن تحدث دائمًا رائحة عادية، متزايدة القوة والاندفاع باستمرار. أما الالام فلا سبيل إلى التعبيـر عنهـا أو نقلها إلى الاخرين، فالوحدة والعزلة، كاملتان. ان وعي المرء بأنه موجود كان هو الوعي بان الانسان وحيد على الدوام. كان وحيداً في مخدع يستمر إلى الأبد. وان المرء من كل الجوانب الأخرى انسان له نهاية بصورة ساخرة مخادعة ولكن ليس من ناحية العذاب. ان هذه الكتلة المكثفة المضغوطة المعتمة التـي يدعوها المرء «أنا» كانت قادرة على تحمل العذاب إلى حد معين، وعلى الرغم من الموت، فان العذاب جدير بأن يستمر إلى الأبد. آلام العيش وآلام الاحتضار، وروتين العذابات المتتالية في مزبلة الصفقات

القذرة والمقايضات النتنة ثم عملية الصلب النهائية التي تتم وسط بريق الابتذال المصنوع من البلاستيك والصفيح ـ هذه السلسلة الأبدية من الأدوار المتلاحقة لا بد أن تحدث دائماً رائحة عادية، متزايدة القوة والاندفاع باستمرار. أما الالام فلا سبيل إلى التعبير عنها أو نقلها إلى الاخرين، فالوحدة والعزلة، كاملتان. ان وعي المرء بانه موجود كان هو الوعي بأن الانسان وحيد على الدوام. كان وحيداً في مخدع المعطر بمطر المسك تماماً مثلما كان وحيداً مع آلام اذنيه أو مع ألم ذراه المكسور.. ومثلما يمكن أن يكون وحيداً مع اصابته الأخيرة بالسرطان، وحيداً.. كما يكتشف المرء حينما يفكر في الحكاية كلها، مع خلود العذاب وأبديته.

على حين فجأة، أدرك ان شيئاً ما كان يحدث للموسيقى. كان الايقاع قد تغير.انه يتباطأ بالتدريج. «راللينتاندو». كانت هذه هي النهاية. نهاية كل شيء لكل مخلوق.. ان رقصة الموت القصيرة الانيقة الطروب قد دفعت السائرين على نغماتها باستمرار حتى أوصلتهم إلى حافة الهاوية. وها هي الان تبلغ نهايتها، وهؤلاء المشاة يهرولون فوق الحافة نفسها. يتباطأ الايقاع بالتدريج. يتباطأ بالتدريخ «راللينتاندو راللينتاندو».. الموت يسقط، انه السقوط في هوة الموت. وها هما الوتران المتوقعان البارزان في موعدهما بدقة، الختميان، وترا النهاية والاكتمال، المصير المسيطر المتوقع، ثم النهاية، النغمة المرتفعة الفجائية. سمعت خربشة كالأزيز، وطرقة حادة رفيعة، ثم أطبق الصمت.. كان بوسعه أن يسمع، عبر النافذة المفتوحة، أصوات الضفادع البعيدة.. والصرير الرتيب الصارخ لأصوات الحشرات. ومع هذا فقد ظل الصمت مطبقاً دون شدخ بطريقة غامضة ما.

كانت الأصوات، مثل ذبابات حبست في كتلة من الزجاج، مكتومة مطمورة في جو شفاف لا يعبره صوت عاجزة عن تدميره أو حتى تغييره، ومع هذا فهي أصوات لا علاقة لها بهذا الجو أبداً. ازداد الصمت عمقاً. خارج اطار الزمن، من غور إلى غور. صمت كامن خفي، صمت تآمري متربص، أكثر شراً إلى درجة لا تقارن مع مارش الموت الصغير الثقيل الزخرفة الذي سبقه منذ قليل. كانت هذه هي الهوة المظلمة التي دفعته الموسيقى إلى حافتها.. إلى الحافة، وهو الآن يسير فوق الحافة مندفعاً صوب هذا الصمت الأبدي.

همس قائلاً: «عذاب لا نهاية له... وليس بوسعك أن تتكلمي، لا يمكنك حتى البكاء»

صر مقعد، وهفهف ثوب حريري وشعر بهبة هواء على وجهه صادرة من حركة ما، وأحس بقرب حضور انساني لشخص ما. من خلف اجفانه المطبقة أدرك بشكل ما أن سوسيلا كانت جاثية على ركبتيها أمامه. بعد برهة قصيرة شعر بيديها تلمسان وجهه ـ الكفان على خديه، والأصابع على فوديه تحت الاذنين.

صدرت عن الساعة في المطبخ ضجة صغيرة كالازيز، ثم بدأت تعلن عن الوقت بدقاتها واحد اثنان، ثلاثة، أربعة، وفي الحديقة بالخارج، هفهفت نسمة قوية متقطعة بين أوراق الشجر. صاح ديك، وبعد لحظة، جاءت صيحة الاجابة من مكان بعيد، ثم جاءت صيحة أخرى، ثم ثالثة في نفس الوقت تقريباً. ثم جاءت الاجابة على الاجابات السابقة، ومزيد من الاجابات رداً عليها بدورها. نغمات مضادة برزت تشتجر ملبية دورة النزال، تقبل تحدي التحديات. ثم اشترك نوع آخر من الأصوات لكي ينضم إلى ــ الكورس. فصيح مبين، ولكنه غير بشري. «انتباه» كذلك صاح يقول عبر صياح الديكة وصخب الحشرات «انتباه، انتباه، انتباه».

رددت سوسيلا تقول: «انتباه» وبينما كانت تتكلم شعر بأصابعها تتحرك فوق جبهته. برفق، برفق من الحاجبين صعوداً إلى الشعر، ومن كل الفودين حتى منتصف ما بين العينين. صعوداً ونزولاً، إلى الوراء وإلى الأمام، مزيحة بعيداً تقلصات العقل، مزيلة تجاعيد الذهول وغضون الألم.

«انتباه إلى هذا»، وزادت من ضغط كفها على عظام صدغيه، وضغط أنامل اصابعها فوق اذنيه، ورددت تقول: «إلى هنا». إلى «الان». إن وجهك بين يدي.. وتراخى الضغط، وبدأت الأصابع تتحرك ثانية عبر جبهته.

«انتباه». جاءت الكلمة متخللة تلك النغمات المضادة المتقطعة من صياح الديكة ثم استمر التنبيه مثل النغمة التي تربط الحانا متناثرة، في ترديد مليء بالاصرار.

«انتباه، انتباه، انتباه».
وانقطع الصوت غير البشري في منتصف تكلمه.

اينتبه إلى يديها فوق وجهه؟ أم ينتبه إلى هذا الوميض المرعب للنور الداخلي ولتلك النافورة من نجوم البلاستيك والصفيح، المندفعة خلال متاريس الابتذال، صوت هذه الحزمة من النفايات التي كانت ذات مرة هي «مولي»، وصوت مرآة منزل الدعارة وصوت كل تلك الجثث التي لا حصر لها والملقاة في الوحل والتراب والقذارة. وها هي مرة أخرى تلك السحالى، وحشرات «فرس النبي» بالملايين ها هي الطوابير الزاحفة ووجوه الملائكة النوردية المصغية في افتتان ونشوة.

«انتباه» كذلك شرع طائر المايناه في النداء ثانية من الجانب الآخر للمنزل:
«انتباه».
هز ويل رأسه وقال: «انتباه إلى ماذا؟»

«إلى هذا» ثم غرست ظفرها في جلد جبهته وقالت: «هذا، هنا والآن. وهو ليس الشيء البالغ الرومانتيكية مثل العذاب، ولا حتى مثل الألم. إنه ليس سوى ــ الاحساس

بظفر الاصبع. وحتى إذا ما كان أسوء بكثير، فليس من المحتمل أن يستمر إلى الأبد أو دونما نهاية. لا شيء يستمر إلى الأبد، ولا شيء يمضي دونما نهاية. ربما باستثناء بوذا الطبيعة».

حركت يديها، ولم يعد الاحتكاك الآن بالأظافر، وإنما بالبشـرة. انزلقت أنـامل الأصابع فوق حاجبيه ثم جاءت برفق شديد، لكي تستقر فوق أجفانه المطبقة. في اللحظة الخاطفة القصيرة الأولى اجتاحه خوف مميت. هل كانت تتهيأ لأقتلاع عينيه؟ جلس في مكانه، مستعداً لدى أول حركة منها لكي ينتفض إلى الخلف ولكي يقفز على قدميه. ولكن لم يحدث شيء. تلاشت مخاوفه قليلاً قليلاً، أما الوعي بهذا الاحتكاك الخطر القهار غير المتوقع، الحميم، فقد ظل كما هو. انه وعي بالغ الحدة والدقة، ولان عينيه كانتا بالغتي الشفافية، فانه كان وعياً غامراً أخاذا لدرجة انه لم يعد لديه مزيد يكرسه للنـور. الـداخلي أو لصور الفزع والابتذال التي كشفها هذا النور.

همست تقول: «انتبه».

ولكن كان من المستحيل «ألا» ينتبه. ومع ذلك، فان أصابعها، رقيقة لطيفة كانت قد غاصت إلى نخاع وعيه نفسه. ولاحظ الآن كم كانت تلك الأصابع دافقة بالحياة ويا له من دفء مدغدغ غريب كان يفيض منها!

قال متعجباً: «انه يشبه التيار الكهربائي».

قالت: «ولكن الأسلاك لحسن الحظ لا تنقل اية رسالة. إن المرء يلمس، وفي اثناء الملامسة، يلمس هو أيضاً. اتصال كامل، ولكن لا شيء يمكن توصيله. ليس سوى تبادل للحياة هذا كل ما في الأمر». ثم أضافت تقول بعد سكتة قصيرة: «هلا تعرف يا ويل تلك الساعات التي جلسناها هنا، طوال تلك القرون، الأبديات كما شعرت انت بها، لم تنظر إلي مرة واحدة؟ ولا مرة. أأنت خائف مما قد تراه؟».

فكر في السؤال وفي النهاية أومأ برأسه وقال: «ربما كان هذا هو الأمر. خائف من رؤية شيء لا بد لي من الانغماس فيه، شيء لا بد لي من أن أفعل إزاءه أي شيء»

«وهكذا تمسكت بموسيقى باخ ولوحات المناظر الخلوية ونور الفراغ الساطع».

قال شاكياً: «وهذه هي الأشياء التي لم تسمحي لي بأن أستمر في النظر إليها».

«ذلك لأن» الفراغ اللانهائي لن يفيدك بشيء أبداً إلّا إذا استطعت أن ترى نوره في حشرات «فرس النبي» ثم أضافت تقول: «وفي الناس أيضاً، الأمر الذي قد يكون أحياناً أكثر صعوبة بكثير».

«أكثر صعوبة؟» وفكر في الطوابير الزاحفة، وفي الجسدين المنعكسين في المرآة وفي

كل تلك الاجساد الأخرى المغروسة وجوها في الوحل ثم هز رأسه وقال: «إنما هو مستحيل».

قالت باصرار: «كلا ليس ـ مستحيلاً. النور يتضمن الشفقة الفاهمة. الفراغ اللانهائي هو النور ولكنه أيضاً هو التعاطف الشفوق. أما الناس الطيبون فحسب فيكتفون بمحاولة التعاطف ويرفضون أن يهتموا بالنور. انما ـ كالمعتاد ـ مسألة الحصول على أفضل ما في العالمين ومزجهما سوياً». ثم أضافت تقول: «والآن، لقد حان الوقت المناسب لك، لكي تفتح عينيك فترى كيف يبدو الكائن الانساني حقاً».

تحركت أطراف الأصابع من فوق أجفانه إلى جبهته، ثم ابتعدت إلى الفَوْدَيْن، وهبطت إلى الخدين إلى أركان الفك. وبعد لحظة قصيرة شعر بلمس أصابعها فوق أصابعه، وكانت تمسك بيديه بين كلتي يديها.. فتح ويل عينيه، ولأول مرة منذ أن تناول دواء «الموكشا» وجد نفسه ينظر إلى وجهها نظرة مباشرة.

أخيراً همس قائلاً: «إلهي العزيز».

سألته: «أهو وجه رديء مثل وجه مصاص الدماء؟»

ولكن لم تكن هذه مادة للفكاهة أو للسخرية. هز ويل رأسه نافد الصبر واستمر ينظر إلى وجهها. جلل الغموض أركان العين بالظل، وكذلك كان الجانب الأيمن من الوجه باستثناء ومضة النور الصغيرة فوق قمة الخد. أما الجانب الأيسر فكان يلمع باشعاع ذهبي حي ـ ساطعاً سطوعاً غير طبيعي، ولكنه لم يكن ذلك السطوع الذي كان للظلمة المرئية الخبيثة المبتذلة، كلا ولا هو يشبه ما كشف عنه ذلك الاشعاع الداخلي المبارك في قلب الفجر المشرق البعيد لابديته خلف أجفانه المطبقة، أو في أحجار الكتب الكريمة بعد أن فتح عينيه، أو في تراكيب الرسام التكعيبي المتصوف ولا في لوحة المنظر الخلاوي الشفافة المجسمة. كان ما يراه الان هو تناقض الأضواء ممتزجة امتزاجاً لا فكاك له ولا انفصام، امتزاج النور بازغاً من قلب الظلمة، وامتزاج الظلمة القائمة في قلب النور.

قال أخيراً: «ليست هذه الشمس، وهي ليست كاتدرائية «تشارتر»، ولا هي بحمد الله، مزبلة السوق، بدروم الصفقات الرخيصة. انها كلها ممتزجة جميعاً. وانت هي أنت كما أعرفك، وانا هو انا كما تعرفينني ـ ورغم هذا، فلست بحاجة إلى أن أقول باننا كلينا، مختلفين اختلافاً كلياً. انت وانا، رسمان بريشة رمبراندت، ولكنه رسم لرمبراندت مضروب في خمسة الاف». سكت للحظة، ثم أومأ برأسه في تأكيد لما كان يقول ثم استطرد: «أجل، هذه هي الحقيقة، الشمس تتحول إلى كاتدرائية تشارتر، وحينئذ تتحول نوافذ الزجاج الملون إلى مزبلة السوق وبدروم الصفقات الرخيصة.. وبدروم الصفقات الرخيصة هو أيضاً غرفة التعذيب. وهو معسكر الاعتقال، وهو المشرحة أو ثلاجة الموتى

المزينة بزخارف شجرة عيد الميلاد. والان ينقلب بدروم الصفقات الرخيصة، مزبلة السوق، إلى عكسه، يلتقط كاتدرائية تشارتر وشريحة من الشمس، فيعود ثانية لكي يصير هذا، لكي يصير اليك أنت وأنا المرسومين بريشة رمبراندت. أيعني هذا شيئاً بالنسبة لك؟».

قالت بتأكيد: «يعني كل ما في العالم من معنى».

ولكن ويل كان أكثر انشغالاً بالنظر إليها من أن يكون قادراً على أن ينتبه إلى ما كانت تقول. ثم قال أخيراً: «أنت جميلة جمالاً لا يصدق. ولكن ما كان يهم في شيء لو انك كنت قبيحة قبحاً لا يصدق. إذن لظللت رسما بريشة رمبراندت مضروباً في خمسة الاف». أخذ يردد «جميلة، جميلة، ومع هذا فلست أريد أن أنام معك. كلا ليس هذا صحيحا. انني أحب أن أنام معك. أحب ذلك جداً بالتأكيد. ولكنني اذا لم أفعل، فما كان ذلك يؤدي إلى أي فرق أو اختلاف. سوف استمر في حبي لك ــ حبي لك بالطريقة التي يفترض في الناس أن يحبوا بها ان كانوا مسيحيين صادقين. الحب..» ثم ردد الكلمة وأخذ يقول: «الحب.. انها واحدة أخرى من تلك الكلمات القذرة..«احب»، «امارس الحب» ــ تلك كلمات لا غبار عليها. أما «الحب» المجرد ــ فتلك سخافة بلهاء لا أستطيع أن ألفظها. ولكن الآن، الآن.. ابتسم وهز رأسه ثم قال: «صدقي هذا أو لا تصدقيه، الآن أستطيع أن أدرك معنى ما يقولونه من أن «الله محبة».

يا له من هراء لا نظير له! ومع هذا فقد تصادف انها كلمة صائبة. وفي نفس الوقت ها هو وجهك هذا غير العادي». انحنى إلى الأمام لكي ينظر إليه عن قرب أكثر وقال: «هناك شيء جديد على الدوام. لا يمكنك أن تتخيلي».

ولكن كان في وسعها «حقاً» أن تتخيل. وقالت: «لا تنسَ لقد ذهبت إلى هناك بنفسي».

«وهل نظرت إلى وجوه الناس؟»

أومأت برأسها وقالت: «إلى وجهي في المرآة. وبالطبع، إلى وجه دوجال. يا لرحمة السماء، حينما تناولنا دواء «الموكشا» سوياً للمرة الأخيرة! لقد شرع منظره يتحول لكي يصبح شبيهاً ببطل خارج من بعض الأساطير المستحيلة ــ أساطير الهنود في ايسلندا مثلا، أو أساطير الفيكينج في جبال التبت. ثم فجأة، ودون سابق انذار اصبح هو بوذا الكبير، بوضوح، دون حاجة إلى برهان. يا لما كان يشعه من نور! ما زال يمكنني أن أرى».

قطعت كلامها، وبفتنة وجد ويل نفسه ينظر إلى نموذج مجسد للثكل، لمرأة ثاكلة وسبعة اسياف مغروسة في قلبها. إذ كان يقرأ علامات الألم في العينين القاتمتين، وحول ركني الفم ذي الشفاه الممتلئة، عرف أن الجرح كاد ان يكون قاتلا، وغصة عالقة بقلبه

وانه كان ما يزال مفتوحا ينزف دما. ضغط على يديها. لم يكن هناك بالطبع ما يمكن أن يقوله، لا كلمات، ولا تعزيات يستمدها من الفلسفة ــ ليس سوى لغز اللمسة المشترك هذا، ليس سوى ذلك الاتصال الذي يتم من جلد الى جلد ناقلا تلك الأبدية اللانهائية الفياضة.

أخيراً قالت: «ينزلق المرء إلى الماضي بسهولة بالغة. بسهولة شديدة، وكثيراً جداً ما يحدث هذا». جذبت نفساً عميقاً، ثم بسطت كتفها.

أمام عينيه، مضى الوجه، الجسد كله، يتغير مرة أخرى. كان بوسعه أن يرى ان هناك ما يكفي من القوة في ذلك الكيان الصغير لكي يقف في وجه أي عذاب، وارادة يمكن أن تكون أكثر بكثير مما يلزمها لمواجهة كل السيوف التي يمكن أن يطعنها بها القدر. كادت ان تكون موحية بالخطورة والتهديد في سكونها المليء بالتصميم. لقد حلت به أشبه بالربة الساحرة «سيرسيه»(٤٩)

محل الربة الأم «دولوروسا»(٥٠) العذبة. تصاعدت إلى ذهنه ذكريات عن نفس ذلك الصوت الهادىء وهو يتحدث بطريقة لا يمكن مقاومتها عن البجعات السابحة وعن الكاتدرائية، وعن السحب وعن الماء الناعم الرقيق.. وبينما تذكر ذلك، بدا له ان الوجه القابع امامه قد التمع بشعوره بالانتصار. القوة، القوة الغلابة القاهرة ــ لقد رأى التعبير عنها، واحس بحضورها القوي وجفل منها خائفاً.

همس قائلاً: «من انت»؟

نظرت اليه للحظة دون أن تتكلم، ثم ابتسمت بمرح وقالت: «لا تخف إلى هذا الحد. فلست أنا «فرس النبي» التي تأكل ذكرها».

ابتسم هو الآخر رداً على ابتسامتها ــ ابتسم لفتاة ضاحكة فيها ضعف ازاء القبل وعندها الصراحة التي تجعلها تدعو إلى القبل.

قال: «الحمد لله!» وعاد الحب الذي كان قد جفل بعيداً من الخوف، عاد فياضا في دفقة من السعادة.

«الحمد له على أي شيء»؟

---

(٤٩) سيرسيه ــ الساحرة الفاتنة صاحبة جزيرة «ايايا» التي حبس البطل أوديسيوس تسع سنوات في جزيرتها لما عشقته بعد أن تحطمت سفينته وغرق رفاقه اثناء عودتهم من طروادة. القصة الكاملة في ملحمة «الأوديسة».

(٥٠) دولوروسا ــ الام في الحكايات الشعبية الفرنجية والجرمانية. تعبير لرقتها وعذوبتها.. شخصية شاذة في الحكايات الشعبية الجرمانية.

«لانه منحك نعمة الاحساس».

ابتسمت ثانية وقالت: «اذن، فهذه القطة، تخرج من هذا الكيس!»

قال: «كل تلك القوة، وكل تلك الارادة الرهيبة الجديرة بالاعجاب.. كان من الممكن أن تكوني شيطانة مثل «لوسيفر». ولكنك لحسن الحظ، وبفضل العناية الالهية»... حل يده اليمنى، ثم مس شفتيها بطرف اصابعه الممدودة. وقال: «منحة الحساسية المباركة ـ تلك ما كانت خلاصك». نصف «خلاصك» كذلك حدد ما يعنيه وهو يتذكر نوبات الحمى الشاكية الخالية من الحب في المخدع القرمزي، ثم أضاف يقول: «أحد انواع خلاصك.. ذلك لأن هناك بالطبع، هذا الشيء الآخر، تلك المعرفة بمن أنت في الحقيقة». سكت لحظة ثم استمر يقول: «مريم العذراء والسيوف مغروسة في قلبها، وسيرسيه الساحرة ثم «نينون دي لانكلو»[٥١]، والآن من؟ انسانة ما تشبه جوليانا النرويجية أو كاترين الجنوبية. هل انت حقاً كل هؤلاء الناس؟»

قالت بتأكيد: «أجل، زائد امرأة بلهاء، زائد أم كثيرة الانزعاج غير ناجحة تماما بالاضافة إلى جزء صغير من المتزمتة الصغيرة الحالمة في يقظتها التي كنتها في طفولتي. بالاضافة إلى قدر كبير من المرأة العجوز المحتضرة التي أطلت عليّ من المرآة ـ حينما تناولنا دواء «الموكشا» لآخر مرة سوياً. ثم نظر دوجالد فرأى ما سوف يكون هو عليه بعد اربعين عاما». سكتت لحظة ثم قالت: «وبعد أقل من شهر، كان قد مات».

ينزلق المرء إلى الماضي بسهولة بالغة، ينزلق المرء إلى الماضي كثيراً جداً.. كان نصف وجهها غارقاً في ظلمة غامضة، والنصف الآخر يلتمع بغموض تحت ضوء ذهبي، فتحول وجهها مرة أخرى إلى قناع من أقنعة العذاب. كان بوسعه أن يرى ان العينين كانتا مغلقتين داخل الفلكين المعتمين بالظلال اللذين احاطا بالمحجرين. كانت قد انسحبت متراجعة صوب زمن آخر، وكانت وحيدة هناك، في مكان آخر ما، حاملة تلك السيوف والجرح المفتوح.. وفي الخارج كانت الديكة تتصايح مرة أخرى، وشرع طائر آخر من طيور المايناه في النداء، بصوت مرتفع أكثر من صوت الطائر الأول بمقدار نصف درجة، داعياً إلى التعاطف، والحنان.

«كارونا».

«انتباه. انتباه».

«كارونا».

رفع ويل يده مرة أخرى ولمس شفتيها.

«هل تسمعين ما يقولان».

---

(٥١) نينون دي لانكلو ـ واحدة من سيدات الصالونات الذكيات المثقفات قبل واثناء الثورة الفرنسية.

مر وقت طويل قبل أن تجيب سؤاله. ثم رفعت يدها، وامسكت باصبعه الممدودة وضغطته بقوة على شفتها السفلى. قالت: «اشكرك». ثم أغمضت عينيها مرة أخرى.

«لماذا تشكرينني؟ أنت علمتني ما يجب أن أفعل».

ومثل زوج من الشيوخ المعلمين المقدسين، يحاول كل منهما أن يبلغ الذروة من طريق روحانيته، صاح طائرا المايناه بالتبادل: «كارونا، انتباه». فلما أمعنا في المنافسة اغرق كل منهما حكمة صاحبه في صياحه، وتحول الصياح إلى صوت مثل: «روناباه كانتوا نتكاه رد». ثم راح ديك صغير في الحديقة المجاورة يعلن عن شخصه المقدس، معلنا انه قاهر كل الاناث من الدجاج الذي لا يتعب، وقاهر كل الدخلاء المتطفلين من عالم أشباهه الذكور.

انفجرت ابتسامة في قلب قناع العذاب، عادت سوسيلا إلى الحاضر من قلب عالمها الخاص المليء بالسيوف المتقاطعة والذكريات. قالت: «كوكو كادول.. دو..، لكم أحبه تماما مثل توم كرشنا حينما يدور على كل الناس طالبا منهم ان يتحسسوا عضلاته. وهذان الطائران المنافيان للعقل من طيور المايناه، يرددان بكل هذا الاخص تلك النصيحة التي ليس بوسعهما ادراك معناها. إن حبي لهما لا يقل عن حبي لمعبودي، ديكي الصغير المزهو بنفسه».

سألها: «وماذا من أمر النوع الآخر من الحيوانات ذات القدمين؟ النوع الذي تعبدينه أقل من الأول».

انحنت إلى الأمام، دون أي اجابة، وامسكت به من ناصية شعره، ودفعت رأسه إلى أسفل، فقبلته على ارنبة انفه. ثم قالت: «ان لك ان تحرك ساقيك». ثم نهضت واقفة على قدميها، ومدت اليه يديها.. اخذ كفيها في يديه فجذبته من فوق مقعده.

قالت: «صياح ديكة سلبي، وصياح ببغاءات مناف للحكمة.. ذلك هو ما يمضي اليه النوع الآخر من الحيوانات ذات القدمين».

سألها: «فماذا إذا ضمنت لك انني لن أعود إلى غثياني؟»

قالت بمرح في تأكيد: «من المحتمل انك سوف تعود، ولكن من المحتمل ايضاً ان تعود ثانية إلى هذا».

عند اقدامهما شعر بحركة خفيفة. ضحك ويل وقال: «ها هو يمضي عنا زاحفاً. تجسيدي الصغير للشر».

أخذت ذراعه، فسارا سوياً نحو النافذة المفتوحة. هبت ريح ضعيفة فهسهست فروع النخيل لكي تعلن اقتراب الشروق الوشيك. تحتها، كانت شجيرة من نبات الخبيزة مغروسة بعيداً عن الانظار في وسط الأرض المبللة الفواحة برائحة حمضية ــ مكونة من

مزيج وحشي دون نظام من الوريقات اللامعة الصقيلة والأزهار الزنبقية اللون على هيئة البرق، مستيقظة من الظلمة المزدوجة التي ألقاها فوقها الليل والاشجار الباسقة المتهدلة الأغصان وقد كشف عنها شعاع من المصباح المضيء داخل الحجرة.

قال بلهجة من يرفض التصديق: «هذا مستحيل». كان قد عاد مرة ثانية إلى الله ــ الرابع عشر من يوليو.

قالت موافقة: «انه مستحيل. ولكنه مثل كل شيء آخر في الكون تصادف ان كان حقيقة واقعة. والآن وقد اعترفت أخيراً بوجودي، سوف اغادرك الان لكي تنظر إلى ما يحتويه قلبك».

وقف في مكانه دون حراك، محدقاً.. محدقاً عبر سلسلة متلاحقة لا زمن لها من الجواهر الكثيفة المتصاعدة والمعنى المتزايد العمق. ملأت الدموع عينيه ثم فاضت في النهاية على خديه. جذب منديله من جيبه فمسح الدموع.

قال معتذراً: «ليس في وسعي ان أمنعها».

لم يكن بوسعه ان يمنعها لانه لم يكن ثمة اسلوب اخر يستطيع به أن يعبر عن شكرانه شكره للامتياز الذي حصل عليه بأن يكون حيا وشاهدا على هذه المعجزة، وبان يكون ــ بالتأكيد ــ أكثر من شاهد، مشاركا فيها وجانبا من جوانبها.

شكرانه لتلك العطايا من النعيم المنير والفهم الخالي من المعرفة. شكرانه لكونه، في الوقت ذاته، متحدا مع الواحد المقدس، ومع هذا، فهو مخلوق محدود بين مخلوقات اخرى محدودة.

قال بينما كان يعيد المنديل إلى مكانه: «لماذا يبكي الانسان حينما يشعر بالامتنان. الله وحده هو الذي يعرف، ولكن المرء يبكي».

قفزت فقاعة من فقاعات الذاكرة تعيد إليه ذكرى شيء من قراءاته الماضية.. قال مقتبسا من شعر بليك: «الامتنان هو الفردوس نفسه»، ثم اضاف يقول: «هراء خالص! ولكنني أرى الآن أن بليك انما كان يسجل حقيقة بسيطة. انه «حقاً» الفردوس نفسه».

قالت: «هو فردوس حقيقي لانه فردوس على الأرض، وليس في السماء».

فجأة، ومن خلال صياح الديكة وصياح الببغاوات، ومن خلال صخب الحشرات ومبارزة الحكيمين المتنافسين، جاء صوت انفجارات بعيدة.

قالت متعجبة: «ما هذا بحق الله؟»

أجابها بمرح: «انما هم الأطفال يلعبون بالألعاب النارية».

هزت سوسيلا رأسها وقالت: «اننا لا نشجع هذا النوع من الألعاب النارية. بل اننا لا نملكها».

من الطريق الرئيسي الممتد وراء جدران المحطة والمستعمرة السكنية تعالى بالتدريج صوت مركبات آلية ثقيلة تتسلق التل بسرعة بطيئة.

ثم ارتفع فوق الضجيج صوت كان في نفس الوقت جهورياً وحاداً صادراً من مكبر للصوت منتفخاً بطريقة غير مفهومة.

كانت وريقات الاشجار داخل ستائرها المصنوعة من الظلال القطيفية مثل شرائح رفيعة من الزمرد واليشب، ومن قلب فوضاها المتألقة كالأحجار الكريمة المنشورة توهجت يواقيت حمراء فاتنة النحت في شكل نجوم خماسية الأطراف. الامتنان. الامتنان. امتلأت عيناه بالدموع من جديد.

استطاعت فقرات متقطعة من الصراخ المنتفخ، ان تتحدد في كلمات مفهومة.وجد نفسه يصغي على الرغم من ارادته. سمع الصوت الصارخ يقول: «يا شعب بالا». ثم انفجر الصوت مرة اخرى متحولا إلى مبهمات مبحوحة غائمة. صرير زئير، صرير ثم: «الراجا الذي ينتمي اليكم يتكلم.. حافظوا على الهدوء.. رحبوا بأصدقائكم القادمين عبر المضيق».

أشرقت المعرفة في ذهنه، فقال: «انه موروجان».

«وهو مع جنود ديبا».

كان الصوت المستثار غير المطمئن ولا الواثق من نفسه يقول: «التقدم.. الحياة الحديثة». ثم، انتقل من الأفكار المنقولة من كاتالوج محلات «سيرز باك» إلى أحاديث الراني والعفريت «كوت هومي» فقال صارخاً: الحقيقة، القيم الروحانية الأصيلة... بالبترول».

قالت سوسيلا: «.انظر، انظر، انهم يستديرون إلى المحطة».

من خلال ثغرة بين اعواد الخيزران، بدت أضواء موكب يتقدم من المصابيح الامامية القوية فلمعت للحظة على الخد الايسر لتمثال بوذا الضخم القائم إلى جوار بركة اللوتس ثم عبرته، واشار الصوت مرة أخرى إلى امكانية التحرير المبارك، وتقدمت من جديد.

صرخ الصوت المتضخم بفعل مكبر الصوت: «لقد انضم عرش آبائي إلى عرش اسلاف امي.. امتان شقيقتان يتقدمان إلى الامام، يدا في يد، صوت المستقبل.. سوف تعرف منذ الان باسم «المملكة المتحدة لريندانج وبالا». ان رئيس الوزراء الاول للمملكة المتحدة هو ذلك السياسي العظيم، والقائد الروحي، الكولونيل ديبا..»

اختفى موكب المصابيح الامامية وراء صف طويل من الأبنية، وتلاشى الصوت الصارخ في خلال التشويش الصادر عن مكبر الصوت. ثم برزت الأضواء من جديد وعاد الصوت مسموعا مرة أخرى. ومفهوما.

كان يصرخ بغضب: «الرجعيون.. خونة مبادىء الثورة الدائمة».

همست سوسيلا بنغمة مرتعبة: «انهم يتوقفون عند كوخ الدكتور روبرت».

أطلق الصوت آخر كلماته، واطفئت المصابيح وتوقفت المحركات. في قلب الصمت المظلم المشحون بالتوقعات ظلت الضفادع والحشرات سادرة في مناجاتها الخالية من العقل.. وراحت طيور المايناه تردد نصيحتها الطيبة: «انتباه، كارونا». هبط ويل بعينيه نحو شجيرته المشتعلة فرأى «جوهر» العالم ورأى وجوده هو الخاص، يتوهج خابياً مع النور الساطع الذي كان في نفس الوقت هو التعاطف الحنون ايضاً «ويا لوضوح ذلك الان!» ــ النور الساطع الذي اختار دائمًا ــ مثله في ذلك مثل كل انسان آخر، ان يتعامى عنه، والتعاطف الذي فضل عليه دائما عذاباته الخاصة، الموروثة أو المفروضة، في بدروم الصفقات الرخيصة ومزبلة السوق، وفضل عليه وحدته ذات الدرجات، مع بابز الحية أو مولى الميتة في المقدمة، أو مع جو الدهايد في المنتصف، وفي المؤخرة البعيدة، مع قوى العالم غير الشخصية الضخمة والاعداد المتزايدة من المخاوف العصبية الجماعية والنزعة الشيطانية المنظمة. وعلى الدوام، وفي كل مكان، لا بد ان تتعالى الصرخات الهادرة المفعمة بالسلطة والهيمنة، وفي المنومين المغناطيسيين أو كلماتهم أثار الحكام أصحاب الحق في الايحاء للآخرين بما يفعلونه، هناك على الدوام وفي كل مكان، قبائل الحمقى والبلهاء والمنقادين، والكذابون المحترفون، ومتعهدو تقديم التسالي الشاذة والمتع المنحطة. أما ضحاياهم.. الخاضعون لهم منذ المهد، المشتتون دون توقف، المنومون بانتظام.. اما ضحاياهم هؤلاء الذين وحدت ازياؤهم واشكالهم، فهم يسيرون دائما إلى الامام أو يقلبون اتجاه سيرهم، يمضون دائما وفي كل مكان، يقتلون غيرهم ويموتون في انقياد كامل شبيه بانقياد الكلاب المدربة. ومع هذا، وعلى الرغم من الرفض الكامل للاكتفاء بكلمة «نعم» جواباً لأي سؤال، أو للموافقة على أي شيء دون تحفظ، هذا الرفض الكامل المبرر، قلت الحقيقة وكانت ستظل على الدوام وتظل في كل مكان، حقيقة انه كانت هناك على الدوام تلك القدرة على الادراك كامنة حتى في عقل هذا العصابي المحموم.. وتلك القدرة على الحب حتى في قلب هذا العابد من عباد الشيطان، حقيقة ان أساس كل الوجود كان من الممكن ان يتبدى في كليته من خلال شجرة مزهوة أو من خلال وجه انساني، حقيقة انه كان هناك نور أو ان هذا النور كان أيضا محبة وتعاطفا واشفاقا.

غطت سوسيلا وجهها بيديها. كانت ترتعد عاجزة عن السيطرة على نفسها. وضع ذراعه حول كتفيها وضمها لصق جسمه.

ان ما تم انجازه في مائة عام، قد دمر في ليلة واحدة. ومع هذا تبقى الحقيقة ـ حقيقة نهاية الحزن التي سوف تكون بقدر حقيقة الحزن ذاته.

أزت المحركات لدى تشغيلها، وزأرت الالات واحدة وراء الأخرى وهي تتحرك ـ اضيئت المصابيح الأمامية، وبعد دقيقة من التحركات الصاخبة، بدأت السيارات في التحرك ببطء صوب الطريق الذي جاءت منه.

نهق مكبر الصوت بنغمات أولى من احدى المقطوعات الموسيقية، ثم صدرت في نفس الوقت نغمة ترنيمة بذيئة تعرف فيها ويل على النشيد القومي في ريندانج، ثم توقف نشيد الحرب هذا، المشابه لنشيد الحرب البروسي، ثم جاء ثانية صوت موروجان.

صاح الصوت المستشار يقول: «هذا هو الراجل الذي ينتمي اليكم يتكلم». وبعد هذا الافتتاح الذي يعاد بالضرورة، تكررت الخطبة الرنانة عن التقدم، والقيم، والبترول، والروحانية الحقيقية. وكما حدث من قبل، اختفى الموكب عن الأسماع والأنظار. وبعد دقيقة واحدة ظهر مرة أخرى بصوته المنتفخ المتضخم من طبقة «كاونترتينور»، متباهياً بالمدائح التي تقال لرئيس الوزراء الأول للمملكة المتحدة الجديدة.

زحف الموكب، ومن اليمين هذه المرة، أضاءت المصابيح الأمامية لأولى السيارات المسلحة وجه تمثال الاستنارة المبتسم الهادىء في سكينة.. كان ذلك لبرهة خاطفة فحسب، ثم مضى المصباح في طريقه. ثم ظهر تمثال «تاثاجاتا» على ضوء المصباح التالي، ثم ظهر مرة ثالثة.. ورابعة، وخامسة. ومضت آخر السيارات مهملة في قلب الظلام، بقيت حقيقة الاستنارة قائمة في مكانها. وتلاشى زئير الالات بالتدريج، وتضاءل صرير الخطبة الفارغة حتى تحول إلى غمغمة غير مفهومة وبينها كانت الضجة المتطفلة تختفي وتصمت، عادت الضفادع من جديد، وعادت الحشرات التي لا يقاطع صوتها شيء.. وعاد صوت طيور المايناه، بارزاً من خلال هذا كله.

«كارونا، كارونا» وكان صوت آخر أقل ارتفاعاً بدرجة واحدة يقول: انتباه

تمت

* * *

الجزيرة

ربما لم تكن هذه الرواية، التي كتبت عام ١٩٦٩، هي آخر ما أبدعه أدباء الغرب المفكرون من رؤى تحاول تجسيد حلم «المدينة الفاضلة». ولكن ليس هناك شك في أن مدينة ألدوس هكسلي ـ أو جزيرته ـ الفاضلة، تنفرد بخصائص فنية وفكرية تضعها في مصاف أجمل المدن الفاضلة في القرن العشرين، رغم أنها أكثرها تشاؤماً.

جزيرة هكسلي الفاضلة... منعزلة عن العالم في مكان بعيد من خليج البنغال شرق الهند. هذه الجزيرة لا تستطيع أن تعيش ـ في العالم الحديث ـ بعيداً عن العالم، مثلما كانت «مدن» الرؤى التي كُتبت في عصر النهضة الأوروبية أو عصر التنوير، ولا هي منسوجة من تأملات ذهن نبيل عظيم مثلما فعل أفلاطون أو الفارابي.

أما نسيج وبنيان الجزيرة الفاضلة، القائم على الامتزاج بين «كميات» محسوبة من تكنولوجيا الغرب، وتصوف الشرق، وعدالة البدائيين، ونزاهة الفلاسفة، وصلابة الرياضيين، وجدية العلماء، وتهكم أهل الفن ـ أما هذا النسيج والبنيان فهو السر الأول لجمال هذه «الجزيرة» الفريد والوعي الممتع الذي تمنحه لمن يرتحل فيها. وسرها الثاني... هو «دراما» الصراع الذي لم تعشه أية مدينة فاضلة قبل هذه الجزيرة... بينها وبين العالم المعادي، القوي، البائس، الذي يحيط بها!!.

«المترجم»



الثمن ٢٨ ليرة لبنانية أو ما يعادلها.

دار التنوير للطباعة والنشر ص. ب. ٦٤٩٩ ـ ١١٣